النبوات

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق
الشيخ ابراهيم رمضان

دار الفكر اللبناني
بيروت

النبوات

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الفكر اللبناني
للطباعة والنشر
كورنيش المزرعة - تجاه غلوب بنك
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٣
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله:

فصل
المعجزة والكرامة

في معجزات الأنبيآء التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين: وللنظار طرق في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها.

أما الأول فإن منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فإنه معجزة، وهو الخارق للعادة إذا اقترن بدعوى النبوة، وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول، فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبياً.

فقالت طائفة: لا تخرق العادة إلا لنبي، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان، وبكرامات الصالحين، وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن أبي زيد، ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطاً، وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين، وهؤلاء يقولون أن ما جرى لمريم وعند مولد الرسول فهو إرهاص، أي توطئة وإعلام بمجيء الرسول، فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي، فيقال لهم: وهكذا الأولياء، إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول، فكما أن ما تقدمه فهو من معجزاته، فكذلك ما تأخر عنه.

وهؤلاء يستثنون ما يكون أمام الساعة، لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبيآء، والمنازع لهم يقول: هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبيآء، فكيف يكذبون بما شهدوه، ويصدقون بما غاب عنهم، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره؟

[أقوال العلماء في المعجزة والكرامة]:

وقالت طائفة: بل كل هذا حق وخرق العادة جائز مطلقاً، وكل ما خرق لنبي من العادات

يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدي. وقد يقولون أنه لا يمكن أحداً أن يعارضها بخلاف تلك، وهذا قول من اتبع جهماً[1] على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم، حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادة مطلقاً يد كل أحد، واحتاجوا مع ذلك إلى الفرق بين النبي وغيره، فلم يأتوا بفرق معقول، بل قالوا هذا يقترن به التحدي، فمن ادعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له، ولا يكون دليلاً على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك، فإن هذين قولان لهم.

فقيل لهم: لم أوجبتم هذا في هذا الموضع دون غيره، وأنتم لا توجبون على الله شيئاً؟ فقالوا: لأن المعجزة علم الصدق، فيمتنع أن يكون لغير صادق. فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة، أو هذان مع السلامة عن المعارض. فقيل لهم: ولم قلتم أنه علم الصدق على قولكم؟ فقالوا: إما لأن يفضي منع ذلك إلى عجزه، وإما لأن دلالته على الصدق بالضرورة. فقيل لهم: إنما يلزم العجز لو كان التصديق على قولكم ممكناً، وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم، لكنه يناقض أصولكم، ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة دون نظيره، وهذا ممتنع فإنكم تقولون: يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة والساحر والصالح، لكن إن ادعى النبوة دلت على صدقه، وإن لم يدع النبوة لم يدل على شيء، مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة، وغير مدعي النبوة، بل كلاهما جائز فيه. فإذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاً دون الآخر؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلا على يد صادق، وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور، وخلقها على يد الكاذب مقدور؟.

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين، ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الأنبياء فرقاً، بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لنبي يجوز أن يخرق للأولياء حتى معارج محمد، وفرق البحر لموسى وناقة صالح وغير ذلك، ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقاً معقولاً، بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك، لكن بينهما فرق دعوى النبوة وبين الصالح والساحر والبر والفجور، وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل إبن سينا، وهو أفضل طائفتهم، ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب. فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس، لكن الفرق أن النبي والصالح

---

(١) أي أتباع جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سالم بن أهوز المارني في بمرو في آخر ملك بني أمية.

نفسه طاهرة يقصد الخير، والساحر نفسه خبيثة. وأما الفرق بين النبي والصالح فمتعذر على قول هؤلاء.

ومن الناس من فرق بين معجزات الأنبيآء وكرامات الأوليآء بفروق ضعيفة، مثل قولهم: الكرامة يخفيها صاحبها، أو الكرامة لا يتحدى بها، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي(1) المشي على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر، وإظهار أبي مسلم لما ألقي في النار صارت عليه براداً وسلاماً. وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فإنه قد يطفئها، إلا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً، وإطفاء النار مقدور الأنس والجن. ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم، وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه، وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله، ومثل هذا كثير.

[أقسام المراتب]:

فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبيآء، ثم كرامات الصالحين، ثم خوارق ألكفار والفجار كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين.

أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبيآء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الأنبيآء، فإنهم يقولون نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبيآء، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا، فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبيآء، كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم، كما صارت على إبراهيم، وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين، كما جرى في بعض المواطن للنبي، أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبيآء، فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبيآء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأوليآء دون الأنبيآء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم، وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله.

---

(١) هو العلاء بن الحضرمي، كان عامل النبي ﷺ، وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له، دعا الله بأنهم يسقون ويتوضؤن لما عدموا الماء ولا يبقى بعدهم فأجيب، ودعا الله لما إعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور عليه فمر هو والعسكر بخيولهم، ودعاء الله أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد، توفي سنة إحدى وعشرين للهجرة.

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم، فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمة الأنبيآء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط، فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى النبوة، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم، وهنا المعجزة ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً، ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبيآء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم، حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل، وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه كمدعي النبوة، وبين ما لا يكون دلي على صدق صاحبه، فإن الدليل لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وجد وجد المدلول، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول، وتارة مع عدمه فليس بدليل. فآيات الأنبيآء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة، ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب، والكذب يناقض النبوة، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها، وليس هنا شيء مخالف لها ولا مناقض، فإن الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة ولا يجتمع هو والنبوة.

والناس رجلان: رجل موافق لهم، ورجل مخالف لهم. فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبيآء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان. وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل: قتل الساحر، وتمريضه لغيره، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية[1] أو غير ذلك حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد، هذا فعل مقدور للحيوان، فإن الطير تفعل ذلك، والجن تفعل ذلك، وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَقَامِكَ﴾[2]، وهذا تصرف في اعراض الحي، فإن الموت والمرض والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض، ليس في هذا قلب جنس إلى جنس، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه، ولا ما يختص به الملآئكة. وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب، أو غير ذلك من الغيب، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان، وهذا تفعله الأنس والجن، لكن الجن يفيض حتى يصير كثيراً، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها، فهذا لا يقدر عليه أنسي ولا جني.

وكذلك الأخبار ببعض الأمور مع الكذب في بعض الأخبار، فهذا تفعله الجن كثيراً مع

---

(١) الخابية: وعاء الماء الذي يحفظ فيه.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٩.

الكهان، وهو معتاد لهم مقدور، بخلاف أخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك، فهذا لا تظهر عليه الشياطين، وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله. وأيضاً فخبر المسيح وغيره من الأنبيآء ليس فيه كذب قط، والكهان لا بد لهم من الكذب، والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة، لكن ذكر الفرق فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِ أَفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَّمْعَ وَأكثَرهُم كاذبُون﴾(1)، وكذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليريه الرب من آياته، فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة، بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبّر به، فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته، بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرؤيَا التي أَرَيْنَاكَ إلا فِتنةً للنّاس والشَجَرَةَ المَلْعونَةَ في القُرآن﴾(2).

قال ابن عباس رضي الله عنه: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، وهكذا كما قيل في الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرَى عِنْدَ سِدْرَة المُنْتَهى عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِدرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طغَى لَقَدْ رَأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكبرى﴾(3).

وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلىَ غَيبِهِ أحداً إلَّا مَن ارتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَينِ يَدَيْهِ وَمنْ خَلْفِهِ رَصداً﴾(4). فهذا غيب الرب الذي اختص به، مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله. والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة، كالذي يسترقه الجن من السماء، مع ما في الجن من الكذب، فلا بد لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس.

وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل اخباره «أنكُم تُقَاتِلونَ التُركَ صِغَارَ الأعينِ ذُلْفُ(5) الأنف(6) يَنْتَعِلونَ الشَعرَ كأن وجوهَم المجان المُطرقة». وقوله ﷺ(7):

(1) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.

(2) سورة الأسراء: الآية ٦٠.

(3) سورة النجم: الآية ١٣.

(4) سورة الجن: الآية ٢٦.

(5) أي صغر واستوى أو صغر ودق أو صغر وغلظ، فهو أذلف.

(6) جمع قلة للأنف وضع موضع جمع الكثرة.

(7) زيدت على المطبوع.

«لا تقوم الساعةُ حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تُضيءُ لها أعناقُ الإبلِ بِبُصْرىَ»(١) ونحو ذلك. فهذا لا يقدر عليه جني ولا أنسي، والمقصود أن ما يخبر به عن النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس، فهو من جنس المقدور لهم، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء، فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿فلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحداً إلاَّ من ارْتَضَى مِنْ رسول﴾(٢).

[الآيات الخارقة]:

والآيات الخارقة جنسان: جنس في نوع العلم، وجنس في نوع القدرة، فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن، وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الإنس لأن الجن هم من جملة من دعاه الأنبيآء إلى الإيمان، وأرسلت الرسل إليهم قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي وَيُنْذِرونَكُم لقَاءَ يومِكُم هَذا﴾(٣). ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به، فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن، فلا بد أن تكون آيات الأنبيآء خارجة عن مقدور الإنس والجن. وما يأتي به الكاهن من خبر الجن غايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون. وما أعطاه الله سليمان مجموعه يخرج عن قدرة الإنس والجن، كتسخير الرياح والطير. وأما الملائكة فالأنبيآء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم، بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبيآء تعينهم وتؤيدهم، فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبيآء وأتباعهم، لا تكون للكفار والسحرة والكهان. ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَريم ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذي العَرشِ مكينٍ، مُطاعٍ ثمَّ أمينٍ وَمَا صَاحِبُكُم بمجْنُون وَلَقَدْ رَآهُ بالأفقِ المبينِ وَمَا هُوَ على الغَيبِ بِظَنين وَمَا هُوَ بقولِ شَيْطَانٍ رَجِيم﴾(٤) وقال: ﴿نَزَلَ به الروحُ الأمِينُ عَلىَ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرين﴾(٥). وقال: ﴿قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ﴾(٦) وقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدواً لجبريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بإذنِ الله﴾(٧) وقال: ﴿هَلْ أنبئكُمْ عَلىَ مَن تَنَزَّلُ الشَياطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِ أَفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَمْعَ وأكثرهم كَاذِبُونَ﴾(٨). فينبغي

(١) أخرجه البخاري.
(٢) سورة الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.
(٤) سورة الحاقة الآية ٤٠.
(٥) سورة الشعراء الآية ١٠٥.
(٦) سورة النحل الآية ١٠٢.
(٧) سورة البقرة الآية ٩٧.
(٨) سورة الشعراء الآية ٢٢٢.

أن يتدبر هذا الموضع، وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبيآء وبين ما يشتبه بها، كما يعرف الفرقَ بين النبي وبين المتنبيء، وبين ما يجيء به النبي، وما يجيء به المتنبيء. فالفرق حاصل في نفس صفات هذا، وصفات هذا، وأفعال هذا، وأفعال هذا، وأمر هذا، وأمر هذا، وخبر هذا، وخبر هذا، وآيات هذا، وآيات هذا، إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يبينه وييسره، ولهذا أخبر أنه أرسل رُسُله بالآيات البينات، وكيف يشبه خير الناس بشر الناس، ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى: ﴿أنظُر كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَستَطيعونَ سَبيلاً﴾(١) وقد تنازع الناس في الخوارق: هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله. والتحقيق أن من كان مؤمناً بالأنبيآء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي، فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله كقوله: ﴿ألآ إن أولياءَ الله لآ خَوْفٌ عليهم ولآ هُم يَحْزَنُون الذينَ آمَنوا وكانوا يَتقون﴾(٢).

وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع، كقوله لما ذكر السحرة: ﴿ولو أنهم آمَنُوا وَاتقوا لَمَثُوبَةٌ مِن عندِ الله خيرٌ لو كانوا يَعلمون﴾(٣). وقوله عن يوسف: ﴿نُصيبُ برحمتنا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضيِّعُ أجرَ المُحسنينَ وَلأجرُ الآخرة خَيْرٌ للذِينَ آمنوا وَكَانُوا يَتقُون﴾(٤). وقوله في قصة صالح ﴿وَنَجيْنَا الذينَ آمنُوا وَكانُوا يَتقُونَ﴾(٥). وهذه طريقة الصحابة والسلف.

وأما دلالتها على ولاية المعين فالناس متنازعون: هل الولي والمؤمن من مات على ذلك بحيث إذا كان مؤمناً تقياً وقد علم أنه يموت كافراً، يكون في تلك الحال عدواً لله؟ أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة؟ وهما قولان معروفان: فمن قال بالأول، فالولي عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال، والخوارق لا تدل على ذلك، ولهذا قال هؤلاء كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما، أنها لا تدل: وأما من قال: الولاية تتبدل، فالولاية هنا كالإيمان، وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة، وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره، فهذا لا يمتنع، لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة، وفيها ثلاثة أقوال:

قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي، وهو قول أبي حنيفة، والأوزاعي، وعلي بن المديني

(١) سورة الفرقان الآية ٩.

(٢) سورة يونس الآية ٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٣.

(٤) سورة يوسف الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٥) سورة فصلت الآية ١٨.

وغيرهم. وقيل: يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبراً صحيحاً، كمن شهد له النبي بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم.

وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما، وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة، وقد جاء في الحديث الذي في المسند: «يُوشِكُ أن تَعلَموا أهلَ الجنّةِ من أهلِ النارِ» قالوا: بمَاذا يا رسول الله؟ قال: «بالثَنَاءِ الحَسَنْ والثَّنَاءِ السَيِّءِ»(1).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ مرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: «وَجَبَت وَجَبَت»، ومرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً فقال: «وَجَبَت وَجَبَت». فَقِيل: يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت؟ قَالَ: «هذه الجَنَازَةُ أثنيتُم عليها الخيرَ فقلتُ: وَجَبَت لهَا الجَنّةُ، وهذه الجنازةُ أثنيتُم عليها شراً فقُلتُ: وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ، أنتُم شُهداءُ الله في الأرضِ»، وفي حديث آخر: «إذا سَمعتَ جيرانَكَ يَقُولُونَ قَد أحسنتَ فَقد أحسنتَ، وإذا سمعتهُم يَقولونَ قَد أسَأْتَ فَقَدْ أسأتَ».

وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال: «تَلكَ عَاجِلُ بُشرى المُؤمنِ».

والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن، ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم: ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية: لما قدم المهاجرون المدينة، اقترعت الأنصار على سكناهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فَمَرّضناه، ثم توفي، فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله قال النبي ﷺ «وَمَا يُدرِيكِ أنَّ الله قَد أكْرَمَه؟» قالت: لا والله لا أدري. فقال النبي ﷺ: «أما هوَ فَقد أتاه اليقينُ مِنْ رَبِهِ وإني لأرجوُ لَهُ الخيرَ، والله ما أدري وأنا رَسُولُ الله ما يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكم» قالت: فوالله لا أزكي بَعدهُ أحداً أبداً، قالت: ثم رأيت لعثمان رضي الله عنه بعد في النوم عيناً تجري، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذَاكَ عملُهُ».

وأما من لم يكن مقراً بالأنبيآء، فهذا لا يعرف الولي من غيره، إذ الولي لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل. لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبيآء، كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين، فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 120) وزاد فيه «أنتم شهداء بعضكم على بعض».
(2) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة والترمذي والنسائي والحاكم بألفاظ متقاربة.

صحة دينهم كما صارت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً. وكما شرب خالد السم، وأمثال ذلك، فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبياء، وقد يجتمع كفار ومسلمون ومبتدعة وفجار، فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين، ولكن جنهم وشياطينهم أقرب إلى الإسلام، فيترجحون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوات، كما يجري لكثير من المبتدعة والفجار مع الكفار، مثل ما يجري للأحمدية وغيرهم، مع عباد المشركين البخشية قدام التتار، كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام.

وعند من هو أحق بالإسلام منهم لا تظهر خوارقهم، بل تظهر خوارق من هو أتم إيماناً منهم، وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة، فإنهم وإن ضلوا من هذا الوجه فهم خير من أولئك الكفار، لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول يضره هؤلاء، ومن كان جائراً نفعه هؤلاء، بل كلام أبي حامد(١) ينفع المتفلسف ويصير أحسن، فإن المتفلسف يسلم به إسلام الفلاسفة، والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة، وهذا أردأ من هذا بخلاف ذاك.

[فائدة الخوارق]:

والخوارق ثلاثة أنواع إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى، فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه، خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين:

والأول: مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الإيمان، فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الأمور المباحة، كاستخدام سليمان عليه السلام لهم في محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات، قال تعالى: ﴿يَعملونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتماثيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوابِي وَقُدُورٍ راسياتٍ إعمَلُوا آل دَاود شُكراً، وَقَليلٌ من عِبَادي الشَّكُورُ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنهم عَن أمرِنا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعيرِ﴾(٣) ونبينا أرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته كما أرسل إلى الانس، فإذا اتبعوه صاروا سعداء، فهذا أكمل له ولهم من ذاك، كما أن العبد الرسول أكمل من النبي الملك، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك، وأما محمد ﷺ فهو عبد رسول كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام، وهذا الصنف أفضل، وأتباعهم أفضل.

---

(١) أي الغزالي.

(٢) سورة سبأ الآية ١٣.

(٣) سورة سبأ الآية ١٢.

والثاني: أن تعينهم على مباحـات، كمن تعينه الجن على قضـاء حوائجـه المباحـة، فهذا متوسط، وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه، وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان عليه السلام.

والثالث: أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك والقـول الباطـل، فهذا من جنس خـوارق السحرة والكهـان والكفار والفجـار، مثل أهـل البدع من الـرفاعيـة وغيرهم فـإنهم يستعينون بها على الشرك، وقتل النفوس بغير حق والفواحش، وهذه الثلاثة هي التي حـرمها الله في قـولـه: ﴿والـذينَ لاَ يَـدعـونَ مَـع الله إلهـاً آخَـر وَلاَ يَقتُلونَ النَفْسَ التي حَـرَّمَ الله إلاَّ بـالحَقِ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً﴾(١).

ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين، وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنوناً وشاعراً وكاهناً، فإن إخبارهم بالمغيبـات عن شياطين تنـزل عليهم كالكهـان وأقوى أحـوالهم لمؤلهيهم، وهم من جنس المجانين، وقـد قـال شيخهم: إن أصحـاب الأحـوال منهم يموتون على غير الإسلام، وأمـا سماعهم ووجـدهم فهو شعـر الشعراء، ولهـذا شبههم من رآهم بعباد المشركين من الهند الذين يعبدون الأنداد.

***

(١) سورة الفرقان الآية ١٢.

فصل
خصوصية آية النبي

وحقيقة الأمر: أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصاً بها، لا يكون مشتركاً بين الأنبيآء وغيرهم، فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه، بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه، وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الأنبيآء، لكن إذا كانت معتادة لكل نبي أو لكثير من الأنبيآء لم يقدح هذا فيها، فلا يضر أن تكون معتادة للأنبيآء، وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن والحديث ولا السلف، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا وصف لا ينضبط هو عديم التأثير، فإن نفس النبوة معتادة للأنبيآء خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم.

إن كون الشخص يخبره الله خبراً معصوماً هذا مختص بهم، وليس هو موجوداً لغيرهم فضلاً عن كونه معتاداً.

فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة، بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين، وذلك لأنها حينئذ لا تكون مختصة بالنبي بل مشتركة. وبهذا احتجوا على أنه لا بد أن تكون خارقة للعادة، لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق آية، فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان، هو خارق بالنسبة إلى غيرهم، كما أن ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم.

ولهذا إذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجب الناس إذا كانوا لا يعرفون طريقه، فليس في هذا ما يختص بالنبي، وكذلك قراءة القرآن بعد أن بعث محمد ﷺ صارت مشتركة بين النبي وغيره. وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبي، وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب عن الأنبيآء لما صار مشتركاً بين النبي وغيره لم يبق آية بخلاف الابتداء به.

فالكهانة مثلاً وهو الاخبار ببعض الغائبات عن الجن أمر معروف عند الناس، وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد ﷺ وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام، ويوجدون كثيراً عند النصارى،

ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول، لأن هؤلاء أعداء الأنبيآء، والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبيآء فقال: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾(١).

فهؤلاء لا بد أن يكون في أحدهم كذب وفجور، وذلك يناقض النبوة، فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به خرقاً للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقاً لعادة جنسه من الكهان، وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته كان ذلك لجهلهم، لوجود هذا الجنس لغير الأنبيآء، كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين، وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة لعادة القوم، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبي، فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبيآء، وكان من جهله بوجود هذا لغير الأنبيآء كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة.

ولهذا يجب في آيات الأنبيآء أن لا يعارضها من ليس بنبي، فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الأنبيآء، فليس من آياتهم. ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادعى أنه ساحر، فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة، وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم، فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرة إن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيماناً جازماً، ولما قال لهم فرعون: ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمنّ أيّنا أشد عذاباً وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا﴾(٢). وقالوا: ﴿آمنّا برب العالمين رب موسى وهارون﴾(٣). فكان من تمام علمهم هذا مختص بمثل هذا، فدل على صدق دعواه، وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى: ﴿فاستخفّ قومهُ فأطاعوهُ﴾(٤). فإذا قيل لهم: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، أو قيل هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي، أو قيل مع ذلك الخارق للعادة السليم عن المعارضة، فكونه خارقاً للعادة ليس أمراً مضبوطاً، فإنه إن أريد به أنه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل، فإنّ آيات الأنبيآء بعضها نظير بعض، بل النوع الواحد منه كإحياء الموتى هو آية لا نظير لها كالقرآن والعصا والناقة لم يلزم ذلك في سائر الآيات.

ثم هب أنهُ لا نظير لها في نوعها لكن وجد خوارق العادات للأنبيآء غير هذا، فنفس خوارق العادات معتاد جميعه للأنبيآء، بل هو من لوازم نبوتهم مع كون الأنبيآء كثيرين، وقد روى

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.
(٢) سورة طه: الآية ٧١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٠.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٥٤.

أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، وما يأتي بـه كل من هؤلاء لا يكـون معدوم النـظير في العالم، بل ربما كثر نظيره، وإن عني بكون المعجزة هي الخارق للعادة فأنها خارقة لعـادة أولئك المخـاطبين بالنبـوة، بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلـك، فهذا ليس بحجـة، فإن أكثـر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر ونحو ذلك، وقد يكون المخاطبون بـالنبوة ليس فيهم هؤلاء كمـا كـان أتباع مسيلمـة والعنسي وأمثالهم لا يقـدرون على ما يقـدر عليه هؤلاء، والمبـرز في فن من الفنون يقدر عليه أحد في زمنـه، وليس هذا دليـلاً على النبوة، فكتـاب سيبويـه مثلاً ممـا لا يقدر على مثله عـامة الخلق، وليس بمعجـز إذ كان ليس مختصـاً بالأنبيـآء، بل هـو موجـود لغيـرهـم، وكذلك طب أبقراط[1] بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس، وليس هـو دليلاً على نبـوته، وأيضـاً الشيء معتاداً هـو مأخـوذ من العود، وهـذا يختلف بحسب الأمـور فالحائض المعتادة، من الفقهاء من يقـول تثبت عادتهـا بمرة، ومنهـم من يقـول بمرتين ومنهم من يقـول لا تثبت إلا بثلاث، وأهـل كل بلد لهم عـادات في طعامهم ولبـاسهم وأبنيتهم لم يعتـدهـا غيرهم، فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم لا لعادة من اعتاده من غيرهم، فلهـذا لم يكن في كلام الله ورسوله وسلف الأمة وأئمتها وصف آيات الأنبيآء بمجرد كونها خـارقة للعـادة، ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل، فإن هذا لا ضابط له، وهو مشترك بين الأنبيآء وغيـرهـم، ولكن إذا قيل من شرطها أن تكون خـارقة للعـادة بمعنى أنها لا تكـون معتادة للنـاس فهذا ظـاهر يعرفه كل أحد. ويعرفون أن الأمر المعتاد مثـل الأكل والشـرب والركـوب والسفر وطلوع الشمس وغروبها ونزول المطر في وقته، وظهور الثمرة في وقتها، ليس دليلاً، ولا يدعي أحد أن مثل هـذا دليل له، فإن فساد هذا ظاهـر لكل أحـد، ولكن ليس مجرد كـونه خـارقاً للعـادة كافيـاً لوجهين: أحدهما: أن يكون مألوفاً ومجرباً ومعروفاً، ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

الثاني: أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبيآء وغيرهم وإذا خص ذلـك بعدم المعـارضة، فقـد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانـة والسحر، وقـد يـأتي مما لا يمكن معـارضته، وليس بـآية لشيء لكـونه لم يختص بـالأنبيآء، وقـد يقـال في طب أبقراط ونحو سيبويه أنه لا نظير له، بل لا بد أن يقال أنه مختص بالأنبيآء والطب والنحو والفقـه، وإن أتى الواحد بما لا يقدر غيـره على نظيـره فليس مختصاً بـالأنبيآء، بـل معروف أن هـذا تعلم بعضه من غيره واستخـرج سائره بنظره، وإذا خص الله طبيباً أو نحويـاً أو فقيهاً بمـا يميزه بـه على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوته، وإن كان خارقاً للعادة، فإن ما يقـوله الـواحد من هؤلاء قـد علمه بسماع أو تجربة أو قياس، وهي طرق معروفة لغير الأنبيآء. والنبي قـد علمه الله من الغيب

---

(١) هو واضـع الطب، وكان أكثر حكمته في الطب.

الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله. فإن قيل: فحينئذ لا يعرف أن الآية مختصة بالنبي حتى تعرف النبوة قبل، أما بعد وجود الأنبيآء في العالم فكهذا هو، ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها نبوة من قبله، وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة، بل رجلاً من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد معروف، ليس هو أمر لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى: ﴿وَمَا أرسلنَا قبلك إلا رِجَالاً نُوحِيَ إليهم فَاسألوا أهلَ الذِكرِ إنْ كُنتم لاَ تعلمون﴾[1]. كما ذكره في سورة النحل والأنبيآء، وقال في يوسف: ﴿وَمَا أرسلنَا مِن قَبلِكَ إلا رِجَالاً نُوحي إليهم مِن أهلِ القُرىَ أفَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كَانَ عَاقبَةُ الذينَ مِن قَبلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ للذِينَ اتّقوا أفَلَا تعقِلون﴾[2]. فإن الكفار كانوا يقولون: إنما يرسل الله ملكاً، أو يرسل مع البشر ملكاً، كما قال فرعون: ﴿أم أنا خَيرٌ من هذا الذي هو مَهينٌ وَلا يَكادُ يُبين، فلولاَ أُلقيَ عَلَيهِ أَسْوَرَةٌ من ذَهبٍ أو جَاءَ مَعَهُ الملائِكَةُ مُقْتَرنين﴾[3]، وقال لقوم نوح: ﴿مَا هَـذا إلاَّ بَشَرٌ مثلكم يُريدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيكم وَلَوْ شَاءَ الله لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سمِعْنَا بهَـذا في آبائنَا الأولين﴾[4]. وقال مشركو العرب لمحمد: ﴿ما لهذا الرسول يَأكلُ الطَعَامَ وَيَمْشي في الأسواقِ لولاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فيكُونَ مَعَهُ نَذِيراً، أو يُلقي إليه كِنزٌ أو تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يأكلُ منها﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَع النّاسَ أن يُؤْمِنُوا إذ جَاءهم الهُدى إلا أنْ قَالُوا أبَعَثَ الله بَشراً رَسُولاً، قُلْ لَوكانَ في الأرضِ ملائِكَةٌ يمشُونَ مُطمئنينَ لَنَزّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَماءِ مَلِكاً رَسُولاً﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَليهِ مَلَكٌ وَلَو أنزلنَا مَلكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثُم لاَ يُنْظَرون، وَلَو جَعَلْنَاهُ مَلكاً لَجعلنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبسنَا عليهم مَا يَلبِسُون﴾[7]. بيّن أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر، ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس.

وقال تعالى: ﴿أكانَ للناسِ عَجباً ان أوحينا إلى رجلٍ منهم أنْ أنذِرِ النَّاس﴾[8]. وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل فقال الله لهم: ﴿فاسألوا أهلَ الذِّكرِ﴾ يعني أهل الكتاب﴿إن كُنتم لا تَعلَمون﴾[9]، هل أرسل إليهم رجالاً أو ملائكة، ولهذا قال له: ﴿قُل مَا كُنتُ بدعاً مِن الرُسُلِ﴾[10] وقال: ﴿وَمَا مُحمدٌ إلا رَسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبلِه الرُسُل﴾[11]. بيّن ان

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧.
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٩.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٢ و٥٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٢٣.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٧ و٨.
(٦) سورة الأسراء: الآية ٩٤ و ٩٥.
(٧) سورة الأنعام: الآية ٨ و ٩.
(٨) سورة يونس: الآية ٢.
(٩) سورة النحل: الآية ٤٣.
(١٠) سورة الأحقاف: الآية ٩.
(١١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الأنبيآء، هل هو من جنس ما جاء به محمد، أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبيآء، وحينئذ فيعرف قطعاً أن محمداً نبي، بل هو أحق بالنبوة من غيره، والثاني أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم، وهذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفاً كالأول يعرفه كل كتابي قال تعالى: ﴿قُلْ أرأيتُم إنْ كانَ من عندِ الله وكفرتُم بِهِ وَشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيل علَى مثلِهِ﴾[1].

وقوله ﴿شهد شاهد﴾ ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً، بل ولا يحتمل كونه واحداً وقول من قال: إنه عبد الله بن سلام[2] ليس بشيء، فإن هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام، ولكن المقصود جنس الشاهد كما تقول قام الدليل، وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحداً قد يقترن بخبره ما يدل على صدقه، أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول، فإن خبرك بهذا صادق وقوله ﴿على مثله﴾ فإن الشاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهو أن الله بعث بشراً وأنزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهى فيه عن عبادة ما سواه، وأخبر فيه أنه خلق هذا العالم وحده، وأمثال ذلك:

وقد ذكر في أول هذه السورة التوحيد، وبين أن المشركين ليس معهم على الشرك لا دليل عقلي ولا سمعي، فقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السموات والأرضَ وَمَا بَيْنَهُما إلا بالحَقِّ وأجلٌ مُسمًى، والذينَ كفروا عَمَا أُنْذِروُا مُعرِضُون، قُلْ أرأيتُم مَا تَدعُونَ من دُونِ الله أروني مَاذا خَلَقُوا من الأرضِ أمْ لَهُمْ شركٌ في السَمَوَاتِ ائتوني بكتَابٍ منْ قَبْلِ هذا أو إثَارَة من علم إنْ كُنتُم صَادقين، وَمَن أضَلُّ ممَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ الله مَنْ لاَ يَسْتَجِبُ لَهُ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائهم غَافلونَ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، وإذا تُتلى عَلَيهم آياتنا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذينَ كفروا للْحقِّ لَمَّا جَاءهم هَذا سِحْرٌ مُبين، أمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ إنْ افْتَريتُهُ فَلاَ تَملكونَ لي مِنَ الله شَيئاً هُو أعلَمُ بمَا تَفيضُونَ فيهِ كَفَى بِهِ شَهيداً بَيني وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الغفور الرَحيم، قُلْ مَا كُنتُ بدعاً من الرُسلِ وَمَا أدري مَا يُفعلُ بيَ وَلاَ بكم إنْ أتبَعُ إلا ما يُوحى إليّ وَمَا أنَا إلا نَذيرٌ مبين، قُلْ أرأيتُم إنْ كَانَ من عند الله وَكَفَرتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهدٌ من بَني إسرائيلَ عَلى مثله﴾[3] إلى آخره.

(1) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

(2) هو عبد الله بن سلام الإسرائيلي، من سبط يوسف بن يعقوب ﷺ وقصة إسلامه مشهورة في المحاج وشهد له النبي ﷺ بالجنة، وهو المراد عنه بعض المفسرين بقوله تعالى: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وقوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾، توفي سنة ثلاث وأربعين للهجرة (أنظر شذرات الذهب ١/٥٣).

(3) سورة الأحقاف: الآيات ٢ ـ ١٠.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الذينَ كَفروا لَستَ مُرسلاً قُلْ كَفى بالله شَهيداً بَيني وَبَيْنَكُم وَمَنْ عندَهُ علم الكتاب﴾(1). فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الأول وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل، ويشهد أيضاً بالعين، وكل من الشهادتين كافية فمتى ثبت الجنس علم قطعاً أن المعين منه وقال تعالى: ﴿فَإنْ كُنتَ في شَكٍ مِمّا أنزلنَا إليكَ فَاسأل الذينَ يَقرؤنَ الكتَابَ من قَبْلكَ لَقد جَاءَكَ الحقُّ من رَبكَ فَلا تَكُونَنَّ من المُمتَرينَ، ولا تَكونَنَّ من الّذينَ كذبوا بآياتِ الله فتكونَ منَ الخاسِرين﴾(2). وهذا سواء كان خطاباً للرسول والمراد به غيره أو خطاباً له وهو لغيره بطريق الأولى والمقدر قد يكون معدوماً أو ممتنعاً وهو يحرف إن كقوله ﴿قُلْ إنْ كَانَ للرحمَنِ وَلَدٌ فَأنَا أولُ العَابدينَ﴾(3). و﴿إنْ كُنْتُ قُلتُهُ فَقَدْ عَلمتَهُ﴾. والمقصود بيان الحكم على هذا التقدير إن كنت قلته فأنت عالم به وبما في نفسي، وإن كان له ولد، فأنا عابده، وإن كنت شاكاً فاسأل إن قدر إمكان ذلك، فسؤال الدين يقرأون الكتاب قبله إذا أخبروا فما عندهم شاهد له ودليل وحجة، ولهذا نهى بعد ذلك عن الأمتراء والتكذيب. وأما تقديرالممتنع بحرف إن فكثير. ومن ذلك قوله: ﴿فَإن استَطعْتَ أن تَبتغي نَفَقاً في الأرضِ، أو سُلّمَاً في السَّماءِ فَتَأتيهم بآيةٍ﴾(4) ﴿فإن يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكم مِنَ السماءِ والأرضِ أإلَهٌ مع الله قُلْ هاتوا بُرهَانَكم إنْ كُنْتُم صَادِقين﴾(5). ﴿فَأتُوا بِسُورَةٍ مثله وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ الله إنْ كنتمْ صَادِقين﴾(6). وقد قال تعالى: ﴿أوَلَمْ يَكُنْ لهم آيةٌ أن يَعلَمهُ عُلماءُ بَني إسرَائيل﴾(7) وقالَ تعالى: ﴿والذينَ آتيناهُم الكتَابَ يَعلمون أنّهُ مُنَزّلٌ منْ رَبِّكَ بالحَق﴾(8) وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أوتُوا العِلمَ مِن قَبلِهِ إذا يُتْلى عَلَيهم يَخِرُّونَ الأذْقَانِ سُجّداً وَيقُولون سُبحَانَ رَبّنا إن كانَ وعدُ رَبنَا لمفعولاً﴾(9).

وقال تعالى: ﴿الذينَ آتيناهم الكتابَ مِنْ قَبلِهِ هُم به يؤمنون، وإذا يتْلى عَلَيْهم قَالُوا آمنّابه إنّهُ الحَقُّ من ربّنا إنّا كُنّا مِن قَبلِهِ مُسلمين أولئكَ يُؤتَونَ أجْرَهم مَرَّتَينِ بِمَا صَبَرُوا﴾(9). وهذا كله في السور المكية، والمقصود الجنس، فإذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب. لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد، فإن هذا متعذر. ومن أنكر أو قال لا أعلم

---

(1) سورة الرعد: الآية ٤٣.
(2) سورة يونس: الآية ٩٤ و ٩٥.
(3) سورة الزخرف: الآية ٨١.
(4) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(5) سورة النمل: الآية ٣٩.
(6) سورة المرسلات: الآية ٦٤.
(7) سورة البقرة: الآية ١١١.
(8) سورة يونس: الآية ٣٨.
(9) سورة الشعراء: الآية ١٩٧.
(7) سورة الأنعام: الآية ١١٤.
(8) سورة الاسراء: الآية ١٠٧.
(9) سورة القصص: الآية ٥٢.

لم يضر إنكاره. وإن قال بل أعلم عدم ما شهدوا به علم افتراؤه في الجنس، وعلم في الشخص إذا كان لم يحط علماً بجميع نسخ الكتب المتقدمة، وما في النبوات كلها فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب أن يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة بكل كتاب من كتب الأنبيآء إذ العلم بذلك متعذر، إن هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع. وما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد، والقرآن مملوّة من تنزيه الله عن هذين، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه، فهذا في سورة الإخلاص.

وفي سورة الأنعام في مثل قوله: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بغيرِ علم سُبحانَهُ وَتَعَالى عَمّا يَصفُون﴾[1]. وفي سورة الاسراء ﴿وَقُل الحمدُ لله الذي لَم يَتّخذ وَلَداً ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلْكِ﴾[2] وفي سورة الكهف في أولها: ﴿وَيُنْذِرُ الذينَ قَالوا اتخذَ الله وَلَداً﴾[3] وفي آخرها: ﴿أَفَحَسب الّذينَ كَفروا أنْ يَتخِذُوا عبَادِي من دُوني أولياء إنا اعتدنا جهنمَ للكافرينَ نُزُلاً﴾[4] وفي مرْيم تنزيهه عن الولد في أول السورة وآخرها ظاهر، وعن الشريك في مثل قصة إبراهيم وفي تنزيل وغير ذلك، وفي الأنبيآء تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في المؤمنين: ﴿ما اتخذَ الله مِنْ وَلَدٍ وَمَا كانَ معَهُ من إلَه﴾[5] وأول الفرقان: ﴿الذي لَهُ ملكُ السّمَواتِ والأرضِ ولِمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلكِ﴾[6] وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى. فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع ورسالته إذ كان فرعون منكراً. ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره، فإن فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع، ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب. ومذهب الفلاسفة الملاحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الإيجاب الذاتي، فإن أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الأبدان، وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله: ﴿وَيَقُولُ الإنسانُ أإذاما متُّ لَسَوفَ أُخْرَجُ حَيّاً، أوَلاَ يَذْكُرُ الإنْسَانُ إنّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً﴾[7]. إلى قوله: ﴿وَقَالوا اتخذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً﴾. وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركي العرب. لأن الفلاسفة داخلون فيهم فإن اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى «شَتَمَني ابنُ آدَمَ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٠.
(٢) سورة الاسراء: الآية ١١١.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤.
(٤) سورة الكهف: الآية ١٠١.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٩١.
(٦) سورة الفرقان: الآية ٢.
(٧) سورة مريم: الآيتان ٦٦، ٦٧.

وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ، وَكَذَّبَني ابن آدم وما ينبغي لهُ ذلك، فأما شَتْمهُ إياي فَقَوْلُهُ إني اتخذتُ وَلَداً، وأنَا الأحدُ الصَّمَدُ لم ألدْ ولم أولد وَلَمْ يَكُنْ لي كُفواً أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله لن يُعيدني كما بَدأني وَلَيْسَ أول الخَلقِ بأَهْوَنَ عَلَيّ من أعادتهُ» رواه البخاري عن ابن عباس.

ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولداً كان تنزيهه عنه أكثر، وكلاهما يقتضي إثبات مثل ولد من بعض الوجوه، فإن الولد من جنس الوالد، ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه، فالذي جعل شريكاً لو فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع، وإن كان غير مكافىء فهو مقهور. والوالد يتخذه المتخذ لحاجته إلى معاونته له كما يتخذ المال، فإن الولد إذا اشتد أعان والده، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِي لَهُ مَا فِي السمواتِ وَمَا فِي الأرضِ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وقَالُوا اتخذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً لقد جِئتُمْ شَيئاً إدًّا﴾ إلى قوله ﴿إن كُل مَن في السَّموَاتِ وَالأرْضِ إلا آتِ الرَّحمٰنِ عَبداً﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَقَالوا اتخذَ الله ولداً سُبحانهُ بَل لَهُ مَا في السّمواتِ وَالأرضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونْ﴾(٣). فإن كون المخلوق مملوكاً لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه، والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد، لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته أو ليخلفه بعد موته، والرب غني عن كل ما سواه وكل ما سواه، فقير اليه، وهو الحي الذي لا يموت، والوالد في نفسه مفتقر الى ولد مخلوق لا حيلة له فيه، بخلاف من يشتري المملوك فإنه باختياره ملكه، ويمكنه ازالة ملكه فتعلقه به من جنس تعلقه بالأجانب، والولادة بغير اختيار الوالد. والرب يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره. واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له، فهو أنقص في الولادة. ولهذا من قال بالإيجاب الذاتي بغير مشيئته وقدرته، فقوله من جنس قول القائلين بالولادة الحاصلة بغير الإختيار، بل قولهم شر من قول النصارى ومشركي العرب من بعض الوجوه، كما قد بسط الكلام على هذا في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ الله أحَدٌ﴾(٤) وغيره.

والمقصود أن الله قال لمحمد ﴿قُلْ مَا كُنتَ بِدْعاً مِنَ الرُسُلِ﴾(٥). وقال: ﴿وَمَا مُحَمّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبلِهِ الرُّسُل﴾(٦). فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلاً فيهم. وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح، فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله، فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على

(١) سورة يونس: الآية ٦٨.
(٢) سورة مريم: الآية ٩٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٦.
(٤) سورة الإخلاص: الآية ١.
(٥) سورة الأحقاف: الآية ٩.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

الشخص، إذ النوع قد عرف قبل هذا. فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصاً بهذا النوع، لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع.

وقد قلنا: أن ما يأتي به أتباع الأنبيآء، من ذلك هو مختص بالنوع، فإنا نقول هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبيآء فصار مختصاً بهم. وأما ما يوجد لغير الأنبيآء وأتباعهم فهذا هو الذي لا يدل على النبوة كخوارق السحرة والكهان.

وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق. ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر، كما قال فرعون لموسى: ﴿إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَليمٌ يريد أن يُخرِجَكُمْ من أرْضِكم بسحرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ﴾[1]وقال للسحرة لما آمنوا: ﴿إنّهُ لكَبيرُكُم الذي عَلّمَكم السِحرِ﴾[2] وَ ﴿إنَّ هَذَا لمَكرٌ مَكَرتُمُوهُ في المدينةِ لِتُخْرِجوا منها أهلها﴾[3].

كل هذا من كذب فرعون وكانوا يقولون: ﴿يَا أَيُّها السَاحِرُ ادعُ لَنَا رَبّكَ﴾[4] وكذلك المسيح قال تعالى: ﴿وَإذْ قَالَ عيسَى ابنُ مَريمَ يا بَني إسرائيلَ إني رَسولُ الله إليكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَديَّ مِنَ التَوْرَاةِ وَمُبَشراً برَسُولٍ يَأتي من بَعدي اسمهُ أحمَدُ فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالبَيّنَاتِ قَالُوا هَذا سحرٌ مُبينٌ﴾[5] وقال تعالى عن كفار العرب: ﴿وَإنْ يَروا آيةً يُعرِضوا وَيَقوُلُوا سحرٌ مُسْتَمِرٌ﴾[6].

وإن نسبوه إلى عدم العلم قالوا مجنون، كما قالوا عن نوح: ﴿مَجنُونٌ وَازدَجِر﴾ وقالوا عن موسى: ﴿إنَّ رَسُولَكم الذي أُرْسِلَ إلَيْكُم لَمجْنُونٌ﴾ وقال عن مشركي العرب: ﴿وَإنْ يَكَادُ الّذينَ كفَرُوا لَيزلقُونَكَ بأبصَارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِّكرَ وَيَقولُونَ إنّهُ لمجنون﴾[7] وقد قال تعالى: ﴿مَا أتى الذينَ مِن قَبلِهِم مِنْ رَسُولٍ إلاّ قَالُوا لَهُ سَاحِرٌ أو مجنُون أتَوَاصَوا بِهِ هُمْ قَومٌ طَاغون﴾[8]. فالساحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة فيهم، كما أن العقلاء معتادون في بني آدم والمجانين معتادون فيهم.

فإذا قالوا عن الشخص إنه مجنون، فإنه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله، وكذلك يعرف هل هو من جنس الأنبيآء أو من جنس السحرة، وكذلك لما قالوا عن محمد أنه شاعر فإن الشعراء جنس معروفون في الناس. وقالوا: إنه كاهن، وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون، وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة. فذكر

(١) سورة الشعراء: الآية ٣٥.
(٢) سورة طه: الآية ٧١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٣.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٤٩.
(٥) سورة الصف: الآية ٤٩.
(٦) سورة القمر: الآية ٢.
(٧) سورة القلم: الآية ٥١.
(٨) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال: ﴿هَل أُنبئكمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَياطين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِ أَفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُون السَّمْعَ وَأكثرُهُم كَاذِبُون﴾[1] ثم قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبعهُمُ الغَاوونَ أَلَمْ تَرَ أَنهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأنهُمْ يقُولُونَ مَا لَا يَفعلونَ إلَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَالِحَاتِ وَذَكَرُوا الله كَثيراً﴾[2]. ﴿وما عَلَّمنَاهُ الشِعرَ وَمَا يَنبغي لَهُ إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مُبينٌ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بقَولِ شَاعِرٍ قَليلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَولِ كَاهِنٍ قَليلاً مَا تَذكرُون تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمينَ﴾[4]. ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس هو شاعر ومجنون وساحر، وكاهن صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس.

فالمقصود أن هذ الأجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة، وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة لها تعرف بها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبيآء، وإن كانت معتادة للأنبيآء فهي لا توجد لغيرهم فهذا هذا والله أعلم.

[المعجزات وفعل الشياطين والكهنة]:

فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته، وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين، فإن الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين. قال تعالى: ﴿واتبعوا ما تَتْلُوا الشَيَاطِينُ عَلى مُلكِ سُليمانَ وَمَا كَفَرَ سُليمانُ وَلَكِنَ الشَياطينَ كَفَرُوا يُعَلِّمونَ النَاسَ السِحرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَينِ بَبابلَ هَارُوتَ وَمَاروتَ وَمَا يُعلمانِ مِن أحدٍ حَتى يَقُولا إنّما نَحْنُ فِتنةٌ فَلَا تَكفُر﴾[5] والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين كما تقدم بيانه، والساحر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفلِحُ السَّاحِرُ حَيثُ أتى﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَلَقد عَلِموا لمَنْ اشتَرَاهُ مَا لَهُ في الآخِرةِ من خَلَاق﴾[7] فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب إلى الله، وأن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، فإن مبناه على الشرك والكذب، والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش.

وهذا مما يعلم بصريح العقل أنه من السيئات. فالنبي لا يأمر به ولا يعمله يستعين على

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٣.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢٤.
(٣) سورة يس: الآية ٦٩.
(٤) سورة الحاقة: الآية ٤١.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٠٢.
(٦) سورة طه: الآية ٦٩.
(٧) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

ذلك صاحبه بالشرك والكذب، وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الأنبيآء أنهم حرموا الشرك، فمتى كان الرجل يأمر بالشركِ وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب والفواحش والظلم علم قطعاً أنه من جنس السحرة لا من جنس الأنبيآء. وخوارق الأنبيآء لا يمكن غيرهم أن يعارضها، ولا يمكن أحداً إبطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم. فإن الأنبيآء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه.

ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحرة، فإنها إنما تدل على أن صاحبها يؤثر آثاراً غريبة مما هو فساد في العالم، ويسر بما يفعله من الشرك والكذب والظلم، ويستعين على ذلك بالشياطين، فمقصوده الظلم والفساد. والنبي مقصوده العدل والصلاح، وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة، وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك به، وهذا إنما يستعين بالشرك وعبادة غير الله، وهذا يعظم إبليس وجنوده، وهذا يذم إبليس وجنوده، والإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم. ولهذا قالت الأمم المكذبة: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون. قال قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إلاَّ بَشَر مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾[1] وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ إذ جَاءَتهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بينِ أيديهم ومِنْ خَلفِهِم أَنْ لا تَعبُدوا إلاَّ الله قَالُوا لَوْ شَاء ربُّنَا لأنزل مَلائِكَةً فَإِنَا بمَا أُرْسِلتُمْ بِهِ كَافِرون﴾[2].

وفرعون وإن كان مظهراً لجحد الصانع فإنه ما قال: ﴿لَولا أُلقِي عليهِ أَسَاوِر مِن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنين﴾[3] إلا وقد سمع بذكر الملائكة إما معترفاً بهم وإما منكراً لهم، فذكر الملائكة والجن عام في الأمم. وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم، فلا بد في آيات الأنبيآء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الأنبيآء ليس مما يقدر عليه غير الأنبيآء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك.

ومن خصائص معجزات الأنبيآء أنه لا يمكن معارضتها، فإذا عجز النوع البشري غير الأنبيآء عن معارضتها كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبيآء بخلاف ما كان موجوداً لغيرها. فهذا لا يكون آية البتة. فأصل هذا أن يعرف وجود الأنبيآء في العالم وخصائصهم

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ١٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٣.

كما يعلم وجود السحرة وخصائصهم. ولهذا من لم يكن عارفاً بانبيـآء من فلاسفـة اليونـان والهند وغيرهم لم يكن له فيهم كلام يعرف كما لم يعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلـك كالفـارابي وغيره أن يقـرروا إمكان النبـوة على أصلهم احتجوا بـأن مبدأ الطب ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الأنبيـآء لكون المعـارف المعتادة لا تنهض بـذلك. وهـذا إنما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم، وهذا لا ينكره عاقل.

وعلى هذا بنى إبن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس، وقوى النفوس متفـاوتة، وكـل هذا من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنهـا وهو أنقص ممن أراد أن يقـرر أن في الدنيـا فقهاء وأطبـاء وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء، بـل هذا المثـال أقرب، فإن النبـوة عن غير الأنبيـآء أعظم من بعـد الفقيه والـطبيب عن الشاعـر، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبيآء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا.

فإن قيل: موسى وغيره كـانوا مـوجودين قبـل أرسطو، فـإن أرسطو كـان قبل المسيـح بنحو ثلاثمائة سنة. وأيضـاً فقد قـال تعالى: ﴿وَلَقَـدْ بَعثنَا في كُـلِ أمةٍ رَسـولاً أن اعبدُوا الله وَاجْتَنِبُـوا الطَاغوت فَمنهُمْ مَن هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضَلالةُ فَسِيـرُوا في الأرضِ فَانْـظُروا كَيْفَ كَـانَ عاقبـةُ المُكَذّبين﴾[1] وقـال: ﴿إنّا أرْسَلْنَـاكَ بِالحقِ بَشيـراً وَنَذِيـراً وإن مِن أمةٍ إلاَّ خَـلاَ فيها نَذير﴾[2] فهذا يبين أن كل أمة قد جـاءها رسـول فكيف لم يعرف هؤلاء الـرسل؟ قلت عن هـذا جوابان:

أحدهما: أن كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قـال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضَـلاَلَةُ فسيرُوا في الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيف كَان عَاقِبَةُ المُكذِبين﴾[3] فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.

الثاني: أنه قال تعالى: ﴿تَالله لَقَدْ أرْسَلْنا إلى أُمم من قَبْلِك فَزَيَّن لهُم الشيْطانُ أعمَالَهُمْ فَهو وليُّهُمْ اليَوم﴾[4] فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبيـآء عندهم فلم يعـرفوهـا، وأرسطو لم يـأت إلى أرض الشام. ويقـال: إن الذين كـانوا قبله كـانوا يعـرفـون الأنبيآء، لكن المعرفة لا تنفع كمعرفة قريش كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعـاً من غير معرفة بأحـوالهم، وأيضاً فهم وأمثـالهم المشاؤون أدركـوا الإسلام وهم من أكفـر الناس بمـا جاءت به الرسل، اما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه حرفوه أو حملوه على أصـولهم.

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٢) سورة فاطر: الآية ٢٤.
(٣) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٤) سورة النحل: الآية ٦٣.

وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء، فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام فما ظن بمن كان في بلاد لا تعرف فيها شريعة نبي.

بل طريق معرفة الأنبيآء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء. ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط، وإبراهيم وموسى وغيرهم، فيذكر وجود هؤلاء وإن قوماً صدقوهم وقوماً كذبوهم. ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم فيعلم بالإضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء، ويتبين وجود آثارهم في الأرض، فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليسر في الأرض، ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة. يقول الله تعالى: ﴿وإن يُكذِبُوك فَقَدْ كذَّبَتْ قَبلهم قَومُ نُوح وعَاد وثمودُ وقَومُ إبراهيم وقَومُ لوط وأصحابُ مَدين وكُذِّب مُوسى فأمليتُ للكافرين ثُمّ أخذتُهمْ فكيفَ كانَ نَكيرٌ فكأينْ من قَرْية أهلكناها وهي ظالمة فهي خَاوِيةٌ على عُروشِهَا وَبِئرٍ معطلة وَقَصْرٍ مُشيد، أفلم يَسِيروا في الأرضِ فتكونَ لهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلونَ بهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعونَ بِهَا فإنها لاَ تَعمي الأبصَارُ وَلكِنْ تَعمى القُلوبُ التي في الصُدُورِ وَيَسْتَعْجِلونَكَ بالعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وإنَّ يَوْماً عندَ رَبِّكَ كَألف سَنَة ممّا تَعدُون وكأين مِن قريَةٍ أمليَتُ لهَا وَهيَ ظَالمةٌ ثُم أخذتُهَا وَإليَّ المَصير﴾[1]. ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد إنذار قومه: ﴿يَا قوم إني أخَافُ عليكم مثلَ يَومِ الأحزَابِ مثلَ دَأبِ قَومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثَمُودَ والذينَ مِنْ بَعدِهم وَمَا الله يُريدُ ظُلماً للعبادِ﴾[2].

ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة بن نوفل: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، فكان عندهم علم بما جاء به موسى واعتبروا به، ولولا ذلك لم يعلموا هذا، وكذلك الجن لمّا سمعت القرآن ولُّوا إلى قومهم منذرين، قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

ولما اراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد قال: ﴿إنّا أرْسَلنَا إليكم رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكم كمَا أرْسَلنَا إلى فِرْعَونَ رَسُولاً فعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولِ فَأخَذْنَاهُ أخْذاً وَبيلا﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالُوا مَا أنزلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيءٍ قُلْ مَنْ أنزلَ

(١) سورة الحج: الآيات ٤٢ ـ ٤٨.
(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٠، ٣١.
(٣) سورة المزمل: الآيتان ١٥، ١٦.

الكتَابَ الذي جَاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً للنّاس تجعلونَه قِراطيسَ تُبدونهَا وَتُخفُـونَ كَثيراً وَعُلِّمْتُمْ مَـا لَمْ تَعلموا أنتم وَلَا آبـاؤكُم قُلْ الله ثم ذَرْهُم في خَـوْضِهِمْ يَلْعبونَ وَهَـذَا كِتَابٌ أنـزلنَاهُ مُبَـارَكٌ مَصَدِّقُ الَّذي بَينَ يَديهِ وَلِتُنْذِر أُمَّ القرى وَمَنْ حَـولهَا﴾(١) فهـو سبحانـه يثبت وجود جنس الأنبيـآء ابتداء كما في السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه، ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة لأن الذي جـاء به أكمـل مما جـاء به جميـع الأنبيآء، فمن أقـر بجنس الأنبيآء كان إقـرار بنبوة محمـد في غايـة الظهـور أبين مما أقـر أن في الدنيـا نحاة وأطبـاء وفقهاء، فإذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور. ولهذا كان من نازع من أهـل الكتاب في نبـوة محمد إمـا أن يكون لجهله بمـا جاء وهـو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم. والعرب عـرفوا مـا جاء بـه محمد، فلما أقروا بجنس الأنبيآء لم يبق عندهم في محمد شك. وجميع ما يذكـره الله تعالى في القـرآن من قصص الأنبيآء يـدل على نبوة محمـد بطريق الأولى إذ كـانوا من جنس واحـد ونبوتـه أكمل فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم. ولهذا جميع مشـركي العرب آمنـوا به لم يحتـج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية فإنهم لما عرفوا نبوته، وأنه لا بد من متابعته أو متـابعة اليهـود والنصارى عرفوا أن متابعته أولى.

ومن كـان من أهل الكتـاب بعضهم آمن به وبعضهم لم يؤمن جهـلاً وعماداً، وهؤلاء كـان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به فلم يستقرئوا أخبار محمد وما جاء به خالين من الهوى، بخـلاف من لم يكن له كتاب، فإنه نظر في الأمرين نظر خال من الهوى، فعرف فضـل ما جـاء به محمـد على ما جاء به غيره. ولهذا لا تكاد تـوجد أمـة لا كتاب لهـا يعرض عليهـا دين المسلمين واليهود والنصارى إلا رجحت دين المسلمين كما يجري لأنواع الأمم التي لا كتـاب لها، فـأهل الكتـاب مقـرون بالجنس منـازعون في العين. والمتفلسفـة من اليونـان والهند منـازعون في وجـود كمـال الجنس، وإن أقروا ببعض صفات الأنبيآء فإنما أقروا منها بما لا يختص بـالأنبيآء بـل هو مشتـرك بينهم وبين غيرهم، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبيآء البتة. هذا هو الذي يجب القطع به، ولهذا يذكرون معهم ذكـر جنس الخـارج عن أتبـاعهم فيقـال: قـالت الأنبيـآء والفـلاسفـة، واتفقت الأنبيـآء والفلاسفة، وكما يقال: المسلمون واليهود والنصارى، وقال أيضاً رضي الله عنه.

***

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٩١، ٩٢.

فصل
نصر الله رسله

ومن آياته نصر الرسل على قومهم، وهذا على وجهين: تارة يكون بإهلاك الأمم وانجاء الرسل وأتباعهم، كقوم نوح وصالح وشعيب ولوط وموسى، ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الأعراف وهود والشعراء ولا يذكر معها قصة إبراهيم، وإنما ذكر قصة إبراهيم في سورة الأنبيآء ومريم والعنكبوت والصافات، فإن هذ السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم، بل في سورة الأنبيآء كان المقصود ذكر الأنبيآء، وإن لم يذكر قومهم كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب، وذكر آخر الكل أن هذه أمتكم أمة واحدة وبدأ بقصة إبراهيم إذا كان المقصود ذكر إكرامه للأنبيآء قبل محمد وإبراهيم، أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية، وهو أب أكثرهم، إذ ليس هو أب نوح ولوط، لكن لوط من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِيتِه دَاودَ وَسُليمانَ وَأيوبَ﴾[1] وأما سورة مريم فذكر الله تعالى فيها إنعامه على الأنبيآء المذكورين فيها، فذكر فيها رحمته زكريا وهبته يحيى عليهما السلام وأنه ورث نبوته وغيرها من علم آل يعقوب وأنه آتاه الحكم صبياً، وذكر بدء خلق عيسى وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب وهو التوراة والنبوة، وأن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان وغير ذلك، وذكر قصة إبراهيم وحسن خطابه لأبيه، وأن الله تعالى وهبه إسحاق ويعقوب نبيين ووهبه من رحمته وجعل له لسان صدق عليا، ثم ذكر موسى وأنه خصصه الله تعالى بالتقريب والتكليم ووهبه أخاه وغير ذلك، وذكر إسماعيل وأنه كان صادق الوعد وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيما وعد أباه من صبره عند الذبح فوفى بذلك.

وذكر إدريس وأن الله تعالى رفعه مكاناً علياً ثم قال: ﴿أولئكَ الـذينَ أنعمَ الله علَيهم﴾[2] وأما سورة العنكبوت فإنه ذكر فيها إمتحانه للمؤمنين ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد. وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر وعاقبة من كذب الرسل. فذكر قصة إبراهيم لأنها من النمط

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

(٢) سورة مريم: الآية ٥٨.

الأول ونصرة الله له على قومه. وكذلك سورة الصافات قال فيها: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبلهم أكثر الأولينَ وَلَقَدْ أرسلنَا فيهم مُنذِرينَ فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنـذرين﴾(١) وهذا يقتضي أنهـا عاقبـة رديئة، إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا، ولهذا ذكر فيها قصة الياس ولم يذكرهـا في غيرهـا ولم يذكر هلاك قومه بل قال: ﴿فكذبُوه فَإنهم لَمُحضَرون إلا عِبَادَ الله المُخلصين﴾(٢) والياس قد روى: أن الله تعالى رفعه، وهذا يقتضي عذابهم في الآخـرة، فإن اليـاس لم يقم فيهم، والياس المعـروف بعد مـوسى عليه السـلام من بني إسرائيـل، وبعد مـوسى لم يهلك المكذبين بعـذاب الاستئصـال، وبعد نـوح عليه السـلام لم يهلك جميع النـوع، وقد بعث في كـل أمة نـذيـراً والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم عليه السـلام أنهم هلكوا كمـا ذكر ذلـك عن غيرهـم، بـل ذكر أنهم ألقـوه في النـار، فجعلهـا الله عليـه بـرداً وسـلامـاً، وأرادوا بـه كيـداً فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين، وفي هذا ظهور برهانه وآيته وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضـاً بالقـدوة حيث أذلهم ونصره، وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه، وتلك من جنس المجاهـد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم، بل هاجر وتركهم، وأولئك الـرسل لم يـزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا، فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك، وهو إقامته فيهم، وإنتـظار العذاب النـازل، وهكذا محمـد مع قـومه لم يقم فيهم بـل خرج عنهم حتى أظهـره الله تعالى عليهم بعد ذلك.

ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل فإنهم إذا علموا الدعوة حصل المقصود وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك، كما تاب من قريش من تاب.

وأما حال إبراهيم عليه السلام فكانت إلى الرحمة أميل فم يسع في هلاك قومـه لا بالـدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم. وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَـا أَوْ لَتَعـودُنَّ في مِلَّتِنَـا فَـأوحى إليهم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الـظَّالمينَ ولَنُسكِنَنَّكم الأرضَ مِنْ بَعدِهِمْ﴾(٣) وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم إلا عوقبوا وقوم إبراهيم أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسـلاماً. ولم يفعلوا بعـد ذلك مـا يستحقون بـه العذاب إذ الـدنيا ليست دار الجزاء التام، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة كما في العقوبات الشرعيـة، فمن أراد أعـداؤه من أتباع الأنبيـآء أن يهلكوه، فعصمـه الله وجعل صـورة الهلاك نعمـة في حقه ولم يهلك أعداءه، بل أخزاهم ونصره، فهو أشبه بـإبراهيم وإذا عصمـه من كيدهـم وأظهـره حتى

(١) سورة الصافات: الآية ٧١.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٢٧.

(٣) سورة إبراهيم: الآيتان ١٣، ١٤.

صارت الحرب بينه وبينهم سجالاً، ثم كانت العاقبة له فهو أشبه بحال محمد ﷺ فإن محمداً سيد الجميع، وهو خليل الله كما أن إبراهيم خليله، والخليلان هما أفضل الجميع، وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريقة غيرهما ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم ديناً غير الشرك وكذلك عن قوم نوح.

وأما عاد فذكر عنهم التجبر وعمارة الدنيا، وقوم صالح عليه السلام ذكر عنهم الإشتغال بالدنيا عن الدين، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد، وإنما أهلكهم لما عقروا الناقة، وأما أهل مدين فذكر عنهم الظلم في الأموال مع الشرك: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[1] وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة ولم يذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين، وإنما ذنبهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك، وكانت عقوبتهم أشد، إذ ليس في ذلك تدين بل شر يعلمون أنه شر. وهذه الأمور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم، فإن قوم نوح أغرقهم إذ لم يكن فيهم خير يرجى.

***

(١) سورة هود: الآية ٨٧.

فصل

آيات الأنبيآء وبراهينهم

في آيات الأنبياء وبراهينهم: وهي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم، والدليل لا يكون إلا مستلزماً للمدلول عليه مختصاً به، لا يكون مشتركاً بينه وبين غيره. فإنه يلزم من تحققه تحقق المدلول، وإذا انتفى المدلول انتفي هو، فما يوجد مع وجود الشيء، ومع عدمه لا يكون عليه، بل الدليل ما لا يكون دليلاً عليه، بل الدليل ما لايكون إلا مع وجوده، فما وجد مع النبوة تارة لم يكن دليلاً على النبوة، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها. وهنا اضطرب الناس، فقيل دليلها جنس يختص بها وهو الخارق للعادة، فلا يجوز وجوده لغير نبي، لا ساحر، ولا كاهن، ولا ولي، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم كابن حزم وغيره. وقيل: بل الدليل هو الخارق للعادة بشرط الإحتجاج به على النبوة والتحدي بمثله، وهذا منتف في السحر والكرامة كما يقول ذلك من يقوله من متكلمي أهل الإثبات كالقاضيين أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما.

وقد بسط القاضي أبو بكر الكلام في ذلك في كتابه المصنف في الفرق بين المعجزات، والكرامات، والحيل، والكهانات، والسحر، والنيرنجيات[1]. وهؤلاء جعلوا مجرد كونه للعادة هو الوصف المعتبر، وفرق بين أن يقال لا بد أن يكون خارقاً للعادة، وبين أن يقال كونه خارقاً للعادة هو المؤثر، فإن الأول يجعله شرطاً لا موجباً، والثاني يجعله موجباً. وفرق بين أن يقال العلم والبيان وقراءة القرآن لا يكون إلا من حي، وبين أن يقال كونه حياً يوجب أن يكون عالماً قارئاً. ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء. وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز. وإنما فيه آيات وبراهين ذلك يوجب اختصاصها بالأنبيآء. وأيضاً فقالوا في شرطها أن لا يقدر عليها إلا الله، لا تكون مقدورة للملائكة، ولا للجن، ولا للأنس، بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه إلا الله، كإحياء الموتى، وقلب العصا

---

(١) النيرج: أخذ تشبيه السحر، وليست بحقيقته، ولا كالسحر، إنما هو تشبيه وتلبيس.

حية، وإذا كانت من أفعال العباد لكنها خارقة للعادة، مثل حمل الجبال والقفز من المشرق إلى المغرب، والكلام المخلوق الذي يقدر على مثله البشر ففيه لهم قولان:

أحدهما: أن ذلك يصح أن يكون معجزة.

١ والثاني: أن المعجزة إنما هي أقدار المخلوق على ذلك، بأن يخلق فيه قدرة خارجة عن قدرته المعتادة، وهذا اختيار القاضي أبي بكر ومن اتبعه كالقاضي أبي يعلى، وظنوا أن هذا يوجب طرد قولهم أنها لا تكون مقدورة لغير الله، بخلاف القول الأول، فإنه تقع فيه شبهة إذ كان الجنس معتاداً، وإنما الخارق هو الكثير الخارج عن العادة، وهذا الفرق الذي ذكره ضعيف، فإنه إذا كان قادراً على اليسير، فخرق العادة في قدرته حتى جعله قادراً على الكثير، فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور، وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة، كما خرقت بفعل خارج عن القدرة، وعنده أن خلق القدرة خلق لمقدورها، والقدرة عنده مع الفعل فلا فرق.
وهذا القول وهو أن المعجزة لا تكون إلا مقدورة للرب لا للعباد، قول كثير من أهل الكلام من القدرية والمثبتة للقدر وغيرهم، ثم إنهم لما طولبوا بالدليل على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله، إعتمدوا في الدلالة على أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده. فلو جاز أن يكون العبد قادراً على هذه الأمور، لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده، وهو العجز أو القدرة على ضد ذلك لفعل، كما يقولونه في فعل العبد إنه إذا لم يقدر على الفعل فلا بد أن يكون عاجزاً أو قادراً على ضده. هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل والقدرة لا تصلح للضدين، كالأشعرية فيقولون: لا يخلو من القدرة أو العجز، فهذه مقدمة.

والمقدمة الثانية: نحن لا نحس من أنفسنا عجزاً عن ابراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ونحو هذه الأمور لكنا غير قادرين عليها، ولا يجوز أن نقدر عليها. وهؤلاء يقولون: لا يكون الشيء عاجزاً إلا عما يصح أن يكون قادراً عليه، بخلاف ما لا يصح أن يكون قادراً عليه، فلا يصح أن يكون عاجزاً عنه. ولهذا قالوا لا ينبغي أن تسمى هذه معجزات لأن ذلك يقتضي أن الله أعجز العباد عنها، وإنما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه. هذا كلام القاضي أبي بكر ومن وافقه.

وكلا المقدمتين دعوى مجردة لم يقم على واحدة منها حجة، فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها مبنياً على مثل هذا الكلام الذي ينازعه فيه أكثر العقلاء؟ ولو كان صحيحاً لم يفهم إلا بكلفة، ولا يفهمه إلا قليل من الناس، فكيف إذا كان باطلاً، والذين آمنوا بالرسل

لما رأوه وسمعوه من الآيات لم يتكلموا بمثل هذا الفرق بل ولا خطر بقلوبهم. ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق كأبي المعالي والرازي والآمدي وغيرهم حذفوا هذا القيد وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها وقالوا: كل حادث فهو مقدور للرب، وأفعال العباد هي أيضاً مقدورة للرب وهو خالقها، والعبد ليس خالقاً لفعله. فالإعتبار بكونها خارقة للعادة قد استدل بها على النبوة، وتحدى بمثلها، فلم يمكن أحداً معارضته هذه القيود الثلاثة وحذفوا ذلك القيد، وزعم القاضي أبو بكر أن يستدل به على أن المعجزات يمتنع دخولها تحت العباد لا يصح على أصول القدرية، وبسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض كعادته في أمثال ذلك، ثم جعل هذا الفرق هو الفرق بين المعجزات وبين السحر والحيل. فقال وأما على قولنا: إن المعجز لا يكون إلا من مقدورات القديم، ومما يستحيل دخوله ودخول مثله تحت قدر العباد، فإذا كان كذلك استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئاً من معجزات الرسل، أو ما هو من جنسها، لأن المحتال إنما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته دون ما يستحيل كونه مقدوراً له.

قال: وأما القائلون بأنه يجوز أن يكون في معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدر العباد، وإن لم يقدروا على كثيره، وما يخرق العادة منه فإنهم يقولون قد علمنا أنه لا حيلة ولا شيء من السحر يمكن أن يتوصل به الساحر والمشعبذ إلى فعل في السماء، ولا قفز من المشرق إلى المغرب، وقفز الفراسخ[1] الكثيرة، والمشي على الماء، وحمل الجبال الراسيات، هذا أمر لا يتم بحيلة محتال ولا سحر ساحر. وتكلم على أبطال قول من قال: إن السحر لا يكون إلا تخيلاً لا حقيقة له. وذكر أقوال العلماء والآثار عن الصحابة بأن الساحر يقتل بسحره، وقول أنه يقتل حداً عند أكثرهم وقصاصاً عند بعضهم.

[الفرق بين المعجزات والسحر:]

ثم قال: وهو لم يفرق بين الجنسين، بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول يظهر على يد الساحر، لكن قال: الفرق هو تحدي الرسول بالإتيان بمثله وتقريع مخالفه بتعذر مثله عليه، فمتى وجد الذي ينفرد الله بالقدرة عليه من غير تحد منه واحتجاج لنبوته بظهوره لم يكن معجزاً، وإذا كان كذلك خرج السحر عن أن يكون معجزاً ومشبهاً لآيات الأنبيآء، وكان ما يظهر عند فعل

(١) الفرسخ: السكون، والفرسخ من المسافة المعلومة في الأرض مأخوذ منه، والفرسخ ثلاثة أميال أو ستة، سمي بذلك لأن صاحبه إذا مشى قعد واستراح من ذلك كأنه سكن.

الساحر من جنس بعض معجزات الرسل، وما يفعله الله عند تحديهم به، غير أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله بوجهين:

أحدهما: أن ينسيه عمل السحر أو لا يفعل عند سحره شيئاً في المسحور من موت أو سقم أو بغض. ولم يخلق فيه الصعود إلى جهة العلو والقدرة على الدخول في بقرة، فإذا منعه هذه الأسباب بطل السحر.

والثاني: أن الساحر تمكن معارضته، فإن أبواب السحر معلومة عند السحرة، فإذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره لم يلبث أن يجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله، ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده. والرسول إذا ظهر عليه مثل ذلك وادعاه آية له قال لهم: هذا آيتي وحجتي، ودليل ذلك أنكم لا تقدرون على مثله ولا يفعله الله في وقتي هذا، ومع تحدي ومطالبتي بمثله عند سحر ساحر وفعل كاهن، وقد كان يظهر من سحرتكم وكهانكم وهي آية لا تظهر اليوم على أحد من الخلق، وإن دق سحره وعظم في الكهانة علمه، فإذا ظهر ذلك عليه وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن، مع أنه قد كان يظهر من قبل صار هذا خرق عادة البشر وعادة السحر والكهنة خاصة.

قال: ولم يبعد أن يقال هذه الآية أعظم من غيرها وأن لها فضل مزية، ذكر هذا بعد أن قال: فإن قال القائل: فإذا أجزتم أن يكون من عمل السحر ما يفعل الله عنده سقم الصحيح وموته ويفعل عنده بغض المحب وحب المبغض، وبغض الوطن والرد إليه من السفر، وضيق الصدر والعجز عن الوطء بالربط والشد الذي يعلمه السحرة والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض الآلات في الفصل بين هذا وبين معجزات الرسل، وكيف ينفصل مع ذلك المعجزات من السحر، ويمكن الفرق بين النبي والساحر. أو ليس لو قال نبي مبعوث إني أصعد على هذا الخيط نحو السماء وأدخل جوف هذا البقرة وأخرج، وإني أفعل فعلاً أفرق به بين المرء وزوجه، وأفعل فعلاً أقتل به هذا الحي وأسقم هذا الصحيح، فهل كان يكون ذلك لو ظهر على يده آية ودليلاً على صدقه، وما الفصل إذاً بين السحر والمعجز، ثم قال في الجواب: يقال له: جواب هذا قريب، وذلك أنّا قد بينا في صدر هذا الكتاب إن من حق المعجزات لا يكون معجزاً حتى يكون واقعاً من فعل الله على وجه خرق عادة البشر مع تحدي الرسول بالإتيان إلى آخر ما كتب.

قلت: هذا عمدة القوم، ولهذا طعن الناس في طريقهم وشنع عليهم ابن حزم وغيره، وذلك أن هذا الكلام مستدرك من وجوه. أحدها: أنه إذا جوز أن يكون ما ينفرد الرب بالقدرة عليه على قول يأتي به النبي تارة والساحر تارة، ولا فرق بينهما إلا دعوى النبوة والإستدلال به

والتحدي بالمثل، فلا حاجة إلى كونه مما انفرد الباري بالقدرة عليه، لا سيما وقد ظهر ضعف الفرق بين ما يمتنع قدرة العباد عليه وما لا يمتنع. ولهذا أعرض المتأخرون عن هذا القيد.

الوجه الثاني: وبه تنكشف حقيقة طريقهم إنه على هذا لم تتميز المعجزات بوصف تختص به، وإنما امتازت باقترانها بدعوة النبوة وهذا حقيقة قولهم وقد صرحوا به. فالدليل والبرهان إن استدل به كان دليلاً، وإن لم يستدل به لم يكن دليلاً، وإن اقترنت به الدعوى كان دليلاً، وإن لم تقترن به الدعوى لم يكن دليلاً عندهم، ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية، بل دلالة وضعية، كدلالة الألفاظ بالإصطلاح، وهذا مستدرك من وجوه. منها أن كون آيات الأنبيآء مساوية في الحد والحقيقة بسحر السحرة أمر معلوم الفساد بالإضطرار من دين الرسل.

الثاني: أن هذا من أعظم القدح في الأنبيآء إذا كانت آياتهم من جنس سحر السحرة وكهانة الكهان.

الثالث: أنه على هذا التقدير لا تبقى دلالة، فإن الدليل ما يستلزم المدلول ويختص به، فإذا كان مشتركاً بينه وبين غيره لم يبق دليلاً، فهؤلاء قدحوا في آيات الأنبيآء ولم يذكروا دليلاً على صدقهم.

الرابع أنه على هذا التقدير يمكن [للساحر أن يدعي](1) النبوة، وقوله: أنه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر، أو يأتي بمن يعارضه دعوى مجردة، فإن المنازع يقول: لا نسلم انه إذا ادعى النبوة فلا بد أن يفعل الله ذلك لا سيما على أصله، وهو أن الله يجوز أن يفعل كل مقدور وهذا مقدور للرب، فيجوز أن يفعله، وادعى أن ما يخرق العادة من الأمور الطبيعية والطلسمات هي كالسحر. فقال: ولأجل ذلك لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس، وما يوجد عند كتب الطلسمات قال: وذلك أنه لو ابتدأ نبي بإظهار حجر المغناطيس لوجب أن يكون ذلك آية له، ولو أن أحداً أخذ هذا الحجر وخرج إلى بعض البلاد وادعى أنه آية له عند من لم يره، ولم يسمع به لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين:

أحدهما: أن يؤثر دواعي خلق من البشر إلى حمل جنس تلك الحجارة إلى ذلك البلد، وكذلك سبيل الزناد الذي يقدح النار وتعرفه العرب، وكذلك سبيل الطلسمات التي يقال أنها تنفي الذباب والبق والحيات.

---

(1) العبارة غير واضحة في الأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

والوجه الآخر أن لا يفعل الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل فيقال: هذه دعوى مجردة، ومما يوضح ذلك الوجه الخامس وهو أن جعل قدح الزناد وجذب حجر المغناطيس والطلسمات من جنس معجزات الأنبياء، وأنه لو بعث نبي ابتداء، وجعل ذلك آية له جاز غلط عظيم وعدم علم بقدر معجزات الأنبيآء وآياتهم، وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية كما فعلت المعتزلة، وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الأنبيآء، وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك لدلالة الشرع والأخبار المتوترة والعيان على وجود حوادث من هذا النوع، فجعلوا الفرق افتراق الدعوى والإستدلال والتحدي دون الخارق، ومعلوم أن ما ليس بدليل لا يصير دليلاً بدعوى المستدل أنه دليل وقد بسط الكلام في ذلك، وجوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب إذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل، مع أن المثل عنده موجود، وآيات الأنبيآء لها أمثال كثيرة لغير الأنبيآء لكن يقول: أن من ادعى الإتيان فإما أن لا يظهرها الله على يديه وإما أن يقبض من يعارضه بمثلها هذا عمدة القوم، وليس فرقاً حقيقياً بين النبي والساحر، وإنما هو مجرد دعوى، هذا يظهر بالوجه السادس وهو أن من الناس من ادعى النبوة وكان كاذباً وظهرت على يده بعض هذه الخوارق، فلم يمنع منها ولم يعارضه أحد، بل عرف أن هذا الذي أتى به ليس من آيات الأنبياء، وعرف كذبه بطرق متعددة كما في قصة الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب(١) والحارس الدمشقي وبابا الرومي وغير هؤلاء ممن ادعى النبوة. فقولهم: إن الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس كما ادعوه.

الوجه السابع: أنه إنما أوجب أن لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب، لأن هذا يفضي إلى عجز الرب، وهذه عمدة الأشعري في أظهر قوليه، وهي المشهورة عند قدمائهم، وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى ونحوه.

قال القاضي أبو بكر: فإن قال قائل من القدرية: فلم لا يجوز أن يظهر المعجزات على يد مدعي النبوة ليلبس بذلك على العباد ويضل به عن الدين وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار وإضلالهم في الفصل بين إضلالهم بهذا وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على يد الكاذبين؟ قال: فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية: الفصل بين الأمرين ظاهر معلوم، وقد نص القرآن والاخبار بأنه يضل ويهدي ويختم على القلوب والأسماع والأبصار، فأما مطالبتهم بالفرق بين إضلال العباد بهذه الضروب من الأفعال، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على أيدي الكذابين، فجوابه أنا لم نحل إضلالهم بهذا الضرب لأنه إضلال عن الدين، أو لقبحه من

---

(١) قتل لعنه الله في السنة الثانية عشرة للهجرة.

الله لو وقع، أو لاستحقاقه الذم عليه تعالى عن ذلك، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل، كل ذلك باطل محال من تمويههم، وإنما أحلناه لأنه يوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب. وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبيء من جهة الدليل، إذ لا دليل في قول كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم إلا ظهور أعلام المعجزة على أيديهم، ألا خبر من ظهرت المعجزة على يده عن نبوة آخر مرسل فهذا إجماع لا خلاف فيه، فلو أظهر الله على يد المتنبيء الكاذب ذلك لبطلت دلائل النبوة، وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول، ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم، ولما لم يجز عجزه وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات، لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين، بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين. قلت: هذا عمدة القوم والمتأخرون عرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كأبي المعالي والرازي وغيرهما بل سلكوا الجواب الآخر، وهو أن العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة فهو علم ضروري، وبيان ضعف هذا الجواب مع أنه يحتج به وقال [الجواب على][1] هذا من وجوه: أحدهما: أن يقال إن كان الأمر كما زعمتم فإنما يلزم العجز إذا كان خلق الدليل الدال على صدقهم جنسه لا يدل، بل جنسه يقع مع عدم النبوة ولم يبق عندكم جنس من الأدلة يخص النبوة فلم قلتم: إن تصديقهم والحال هذه ممكن ولا ينفعكم هنا الإستدلال بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية، لأن كلامكم مع منكري النبوات فيجب أن تقيموا عليهم كون المعجزات دليلاً على صدق النبي.

وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم فإنه لا يحتاج إلى كلامكم، فإذا قال لكم منكرو النبوة: لا نسلم إمكان طريق يدل على صدقهم لم يكن معكم ما يدل على ذلك، وقد أورد هذا السؤال وأجاب عنه بأنه يمكنه تصديقهم بالقول، والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول، بل التصديق بالفعل أوكد وضرب المثل بمدعي الوكالة إذا قال قم أو أقعد ففعل ذلك عند استشهاد وكيله، فإن العقلاء كلهم يعلمون أنه أقام تلك الأفعال مقام القول.

قلت: وهذا يعود إلى الإحتجاج بالطريقة الثانية، وهي العلم بالتصديق ضرورة، فلا حاجة إلى طريقة المعجزات. الثاني: أنه يمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم، وقد سلم القاضي أبو بكر ذلك: لكن قال: إذا اضطررنا إلى العلم بصدق مدعي النبوة، وأنه أرْسله إلينا كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا إلى العلم بذاته، وإلى أنه قد أرسل مدعي النبوة، وإذا علمنا ذلك اضطراراً لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجهاً، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين، وهذا كلام يؤدي إلى خروجنا عن حد المحنة والتكليف، فيقال له: إذا حصل العلم

(١) وردت في الأصل: فهذا، ولعل الصواب ما أثبتناه.

الضروري بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالإقرار بالصانع وعبادته وحده لا شريك له[1] وبتصديق رسله وطاعة أمره، وهذا هو الذي أمرت به الرسل أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده، وأن يطيعوا رسله ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله، لكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبينوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذي يعرفه، وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه فليتدبر هذا الموضع فإنه موضع عظيم.

الوجه الثالث: أن يقال: نحن نسلم المعجزات تدل على الصدق وأنه لا يجوز إظهارها على يد الكاذب، لكن هو لأن الله منزه عن ذلك وأن حكمته تمنع ذلك، ولا يجوز عليه كل فعل ممكن، وأنتم مع تجويزكم عليه كل ممكن يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب، فما علم بالعقل والإجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم.

الوجه الرابع: أن يقال لم قلتم أنه لا دليل على صدقهم إلا المعجزات، وما ذكرتم من الإجماع على ذلك لا يصح الإستدلال به لوجهين:

أحدهما: أنه لا إجماع في ذلك، بل كثير من الطوائف يقولون إن صدقهم بغير المعجزات.

الثاني: إنه لا يصح الإحتجاج بالإجماع في ذلك، فإن الإجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة، والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع، وقولكم: لا دليل سوى المعجز مقدمة ممنوعة، وذكر عن الأشعري أنه ذكر جواباً آخر فقال: وأيضاً فإن قول القائل: ما أنكرتم من جواز إظهار المعجزات على أيدي الكذابين قول متناقض والله على كل شيء قدير. ولكن ما طالب السائل بإجازته محال لا تصح القدرة عليه ولا العجز عنه، لأنه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم، فإنه أوجب أنهم صادقون، لأن المعجز دليل على الصدق ومتضمن له، وقوله مع ذلك أنهم كاذبون نقض لقوله أنهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم فوجب إحالة هذه المطالبة، وصار هذا بمثابة قول من قال: ما أنكرتم من صحة ظهور الأفعال المحكمة الدالة على علم فاعلها والمتضمنة لذلك من جهة الدليل من الجاهل بها في أنه قول باطل متناقض، فيجب إذا كان الأمر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين، واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال ما أنكرتم وزعمتم أنه من

---

(١) وردت في الأصل: به، ولعل الصواب ما أثبتناه.

فعل المحال الذي لا يصح حدوثه، وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحة خلق الكفر وضروب الضلال التي يصح حدوثها وتناول القدرة لها.

قلت: هذا كلام صحيح إذا علم أنها دليل الصدق يستحيل وجوده بدون الصدق، والممتنع غير مقدور فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين ما يدل على صدقهم، لكن المطالب يقول: كيف يستقيم على أصلكم أن يكون ذلك دليل الصدق، وهو أمر حادث مقدور، وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله ولو كان فيه من الفساد ما كان، فإنه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن، ولا يقبح منه فعل فحينئذ إذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق لم يكن ممتنعاً على أصلكم، وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم، ويلزمكم إذا لم يكن دليل إلهي ألا يكون في المقدور دليل على صدق مدعي النبوة فيلزم أن الرب سبحانه لا يصدق أحداً ادعى النبوة وإذا قلتم هذا ممكن بل واقع ونحن نعلم صدق الصادق إذا ظهرت هذه الأعلام على يده ضرورة.

قيل: فهذا يوجب أن الرب لا يجوز عليه إظهارها على يد كاذب، وهذا فعل من الأفعال هو قادر عليه، وهو سبحانه لا يفعله، بل هو منزه عنه، فأنتم بين أمرين: إن قلتم لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتنعاً فقد قلتم أنه لا يقدر على احداث حادث، قد فعل مثله، وهذا تصريح بعجزه، وأنتم قلتم فليست بدليل فلا يلزم عجزه فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على أصلكم، وإن قلتم يقدر لكنه لا يفعل فهذا حق وهو ينقض أصلكم.

وحقيقة الأمر أن نفس ما يدل على صدق الصادق بمجموعه امتنع أن يحصل للكاذب، وحصوله له ممتنع غير مقدور. وأما خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب فهو ممكن، والله سبحانه وتعالى قادر عليه، لكنه لا يفعل لحكمته، كما أنه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم، والمعجز تصديق وتصديق الكاذب هو منزه عنه، والدال على الصدق قصد الرب تصديق الصادق، وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب فيمتنع جعل من ليس برسول رسولاً، وجعل الكاذب صادقاً ويمتنع من الرب قصد المحال وهو غير مقدور، وهو إذا صدق الصادق بفعله علم بالإضطرار، والدليل أنه صدقه وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب، واستشهادكم بالعلم هو من هذا الباب، فأنتم تقولون أن الرب لا يخلق شيئاً لشيء، وحينئذ فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الاحكام، فلا يكون الاحكام دالاً على العلم على أصلكم، فإن الاحكام إنما هو جعل الشيء محصلاً للمطلوب بحيث يجعل لأجل ذلك المطلوب، وهذا عندهم لا يجوز، فإثباته علمه وتصديق رسله مشروط بأن يفعل شيئاً لشيء، وهذا عندكم لا يجوز، فلهذا يقال: إنكم متناقضون والله سبحانه وتعالى أعلم.

الوجه الثامن: أن حقيقة الأمر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة الخارق مع التحدي أن المعجز في الحقيقة ليس إلا منع الناس من المعارضة بالمثل سواء كان المعجز في نفسه خارقاً، أو غير خارق وكثير مما يأتي به الساحر والكاهن أمر معتاد لهم، وهم يجوزون أن يكون آية للنبي، وإذا كان آية منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل أو قيض له من يعارضه، وقالوا: هذا أبلغ فإنه منع المعتاد، وكذلك عندهم إحدى نوعي المعجزات منعهم من الأفعال المعتادة وهو مأخذ من يقول بالصدفة، وإذا كان كذلك جاز أن يكون كل أمر كالأكل والشرب والقيام والقعود معجزة إذا منعهم أن يفعلوا كفعله، وحينئذ فلا معنى لكونها خارقاً، ولا لاختصاص الرب بالقدرة عليها، بل الإعتبار بمجرد عدم المعارضة، وهم يقرون بخلاف ذلك والله أعلم.

الوجه التاسع: أنه إذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدي فلا حاجة إلى كونه خارقاً كما تقدم، ويجب إذا تحدى بالمثل أن يقول: فليأت بمثل القرآن من يدعي النبوة، فإن هذا هو المعجز عندهم، وإلا فالقرآن مجرداً ليس بمعجز فلا يطلب مثل القرآن إلا ممن يدعي النبوة، كما في الساحر والكاهن إذا ادعى النبوة سلبه الله ذلك أو قيض له من يعارضه، وإذا لم يدع النبوة جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي، فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن وسائر المعجزات والله أعلم.

***

فصـل
في أن الرسول لا بد أن يبين أصول الدين

وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر، فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر، ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر، ومن أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج، فإن المعرضين عن هذا إما أن يصدقوه ويقبلوا قوله، ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم، وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته، فإن لم يكونوا عالمين بصدقة فهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم، فأما المؤمن أو الموقنُ فيقول: هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه.

وأما المنافق أو المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقيلين. وإن استدل على ذلك بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعاً لا بد أن يخطىء ويضل، فإن ظن الظان أنه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به تدل على ما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل إلى مقصوده، وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين أصحاب الإستدلال والإعتبار والنظر، كما وقع في الظن الأول طوائف من العباد الغالطين أصحاب الإرادة والمحبة والزهد.

وقوله ﷺ في خطبته يوم الجمعة: «خيرُ الكَلامِ كَلامُ الله، وخَيْرُ الهدَى هَدي محمد، وَشَرُّ الأمورِ مُحدثاتَها، وَكُلُّ بِدعَةٍ ضَلالَةٍ». يتناول هذا وهذا، وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله فهو حق، فإن أرباب العبادة والمحبة والإرادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به ضلوا كما ضلت النصارى ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والإستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضاً ضلوا قال تعالى: ﴿فَإمّا يَأتِيَنَّكُم مني هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا يَضِل وَلاَ يَشقى ومَنْ أعرَضَ عَن ذِكري فَإنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً ونحشُرُهُ

يَومَ القِيامَـةِ أعمى قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَهَا وَكَذَلكَ اليَومَ تُنسَى﴾(١).

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة: دال ودليل ومبين ومستدل. فالدال هو الله، والدليل هو القرآن، والمبين هو الرسول. قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ للنَاسِ مَا نزل إليهم﴾. والمستدل هم أولو العلم، وأولو الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وقد ذكره ابن المنى عن أحمد وهو مذكور في العدة للقاضي أبي يعلى، وغيرها، أما أن أحمد قال له، أو قيل له فاستحسنه. ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والإستدلال وينهون عن التقليد، ويقول كثير منهم: أن إيمان المقلد لا يصح، أو أنه وإن صح، لكنه عاص بترك الإستدلال ثم النظر.

والإستدلال الذي يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لا خبراً ولا أمراً، وهو استدلال فاسد لا يوصل إلى العلم، فإنهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الإستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والإستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها، ثم استدلوا على حدوث الأعراض قالوا: فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث لا يخلو عنها فلا تكون مثلها، ثم كثير منهم قالوا: وما لم يخل من الحوادث، أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث، وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل، وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بأن لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة، ولو قدرت ألف ألف ألف حادث، فإن الحوادث إذا جعلت مقدرة محدودة فلا بد أن يكون لها ابتداء، فإن ما لا ابتداء له ليس به حد معين ابتدأ منه إذ قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلي دائم، ومعلوم أن هذه الحوادث ما لم يسبقها فهو حادث، فإنه يكون أما معها وإما بعدها، وكثير منهم يفطن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة، فالجنس مثل أن يقال: ما زالت الحوادث توجد شيئاً بعد شيء أو ما زال جنسها موجوداً، أو ما زال قادراً على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور، فإن هذه في الحقيقة ليست قدرة، ومثل أن يقال في المستقبل، لا بد أن الله يخلق شيئاً بعد شيء، ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول، ولا ينفذ، وقد يقال في النوعين كلمات الله لا تنفذ ولا نهاية لها لا في الماضي، ولا في المستقبل ونحو ذلك. فالكلمة في دوام الجنس وبقائه، وأنه لا ينفد ولا ينقضي ولا يزول، ولا ابتداء له غير الكلام فيما يقدر محدوداً له

---

(١) سورة طه: الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦.

ابتداء أو له ابتداء وانتهاء، فإن كثيراً من النظار من يقول جنس الحوادث إذا قدر له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء، لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد، وما لا يتناهى لا يدخله التفاضل، فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها، بخلاف ما لا ابتداء له ولا انتهاء، فإن هذا لا يكون شيء فوقه، فلا يفضي إلى التفاضل فيما لا ينتهي، وبسط هذا له موضع آخر. والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم، وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف، وأنه من لم ينظر في هذا الدليل، فإما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافراً على قول طائفة منهم، وإما أن يكون عاصياً على قول الآخرين، وإما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه، لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمناً غير عاص.

والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان، هو هذا النظر في هذا الدليل، فإن علماء المسلمين يعلمون بالإضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر، ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم، فامتنع أن يكون شرطاً في الإيمان والعلم، وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم، وأنهم عالمون بصدق الرسول ومما جاء به، وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله، ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى: ﴿وَيَرى الذين أوتُوا العِلمَ الذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ ويَهْدي إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميد﴾[1] وقال: ﴿شَهِدَ الله أنه لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَالملائكَةُ وَأولُوا العِلمِ قائماً بِالقِسْطِ﴾[2]. وقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعمىَ﴾[3].

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله: ﴿وَبِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وقوله: ﴿أولئكَ على هُدىً مِن رَبِّهِم﴾[4]. وقوله: ﴿قُلْ هَذهِ سَبيلي أدعُوا إلى الله عَلَى بَصِيرة أَنَا وَمَنْ اتبعَني﴾[5] وأمثال ذلك.

فتبين أن هذا النظر والإستدلال الذي أوجبه، هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله، ولو قدر أنه صحيح في نفسه، وأن الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه إذ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة، ولهذا طعن الرازي وأمثاله على أبي المعالي في قوله أنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق، وقالوا: هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر، وسلكوا هم طرقاً أخر، فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلاً، وقد

---

(١) سورة سبأ: الآية ٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨.
(٣) سورة الرعد: الآية ١٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ٥.
(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم يتعين مع إمكان سلوك طرق أخرى، كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والإجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى. ومع هذا فإذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره، كالآيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي ﷺ قبل أن ينزل سائر القرآن، فالدليل يجب طرده لا يجب عكسه.

ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي إبي يعلى وابن عقيل وغيرهم، والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضاً في رسالته إلى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها، واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللُمع في الرد على أهل البدع، وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحاً كثيرة، والقاضي أبو بكر شرحه، ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه: نقض نقض اللمع، وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها، مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول، وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك، بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول من مخالفة صريح المعقول، كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية ومن تبعهم من الطوائف، وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها، فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازماً له ليطردها، فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل، فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه هو لوازم أخر لطردها، فيقع أيضاً في مخالفة الشرع والعقل.

فالجهمية التزموا لأجلها نفي أسماء الله وصفاته إذ كانت الصفات أعراضاً تقوم بالموصوف، ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم، فإذا اعتقدوا حدوثه اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة والرب تعالى قديم، فالتزموا نفي صفاته، وأسماؤه مستلزمة لصفاته فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى.

والمعتزلة استعظموا نفي الأسماء لما فيه من تكذيب القرآن تكذيباً ظاهر الخروج عن العقل والتناقض، فإنه لا بد من التمييز بين الرب وغيره بالقلب واللسان، فما لا يميز من غيره لا حقيقة له ولا إثبات، وهو حقيقة قول الجهمية، فإنهم لم يثبتوا في نفس الأمر شيئاً قديماً البتة، كما أن المتفلسفة الذين سلكوا مسلك الإمكان والوجوب، وجعلوا ذلك بدل الحادث والقديم لم يثبتوا واجباً بنفسه البتة، وظهر بهذا فساد عقلهم وعظيم جهلهم مع الكفر، وذلك أنه يشهد وجود السموات وغيرها، فهذه الأفلاك إن كانت قديمة واجبة فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب، وإن كانت ممكنة أو محدثة فلا بد لها من واجب قديم، فإن وجود الممكن بدون

الواجب، والمحدث بدون القديم، ممتنع في بداية العقول. فثبت وجود موجود قديم واجب نفسه على كل تقدير، فإذا كان ما ذكروه من نفي الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقاً ونفي الواجب علم أنه باطل وقد بسط هذا في مواضع، وبين أن كل من نفى صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفي جميع الصفات فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول إلا مع القول بصدق الرسول فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسول، فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول بل من كذبه فليس معه لا عقل ولا سمع كما أخبر الله تعالى عن أهل النار.

قال تعالى: ﴿كُلما أُلقِيَ فيهَا فوجٌ سَأَلَهمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكمْ نَذيرٌ قَالوُا بَلى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِنْ شَيْء إنْ أَنْتُمْ إلاَّ في ضَلاَلٍ كَبِير، وقَالوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنّا في أَصْحَابِ السّعير، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبهم فَسُحقاً لأَصْحَابِ السّعيرْ﴾[1] وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى إستعظموا ذلك، وأقروا بالاسماء، ولما رأوا هذه الطريق توجب نفي الصفات نفوا الصفات، فصاروا متناقضين، فإن إثبات حي عليم قدير حكيم سميع بصير بلا حياة، ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولا بصر، مكابرة للعقل كإثبات مصلٍ بلا صلاة، وصائم بلا صيام، وقائم بلا قيام، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها.

ولهذا ذكروا في أصول الفقه أن صدق الإسم المشتق كالحي والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه كالحياة والعلم. وذكروا النزاع مع من ذكروه من المعتزلة كأبي علي وأبي هاشم، فجاء ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري والقلانسي فقرروا أنه لا بد من إثبات الصفات متابعة للدليل السمعي والعقلي مع إثبات الأسماء، وقالوا ليست أعراضاً، لأن العرض لا يبقى زمانين، وصفات الرب باقية وسلكوا في هذا الفرق، وهو أن العرض لا يبقى زمانين مسلكاً أنكره عليهم جمهور العقلاء، وقالوا أنهم خالفوا الحس وضرورة العقل، هم موافقون لأولئك على صحة هذه الطريقة طريقة الأعراض قالوا: وهذه تنفي عن الله أن يقوم به حادث، وكل حادث فإنما يكون بمشيئته وقدرته، قالوا: فلا يتصف بشيء من هذه الأمور لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل اختياري يحصل بمشيئته وقدرته كخلق العالم وغيره، بل منهم من قال: لا يقوم به فعل، بل الخلق هو المخلوق كالأشعري ومن وافقه، ومنهم من قال: بل فعل الرب قديم أزلي، وهو من صفاته الأزلية، وهو قول قدماء الكلابية، وهو الذي ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الأصل فكتبوا عقيدة اصطلحوا عليها، وفيها إثبات الفعل القديم الأزلي، وكان سبب

(١) سورة الملك: الآية ٨.

ذلك أنهم كانوا كلابية يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه المعين لازم لذاته أزلاً وأبداً.

وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكان قد بلغه عن الإمام أحمد أنه كان يذم الكلابية، وأنه أمر بهجر الحارث المحاسبي[1] لما بلغه أنه على قول ابن كلاب، وكان يقول حذروا عن حارث الفقير، فإنه جهمي واشتهر هذا عن أحمد، وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون أن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق، ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته، لكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاماً بائناً عنه، قائماً بغيره كسائر المخلوقات، وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب فأراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه فأطلعه على حقيقة قولهم فنفر منه، وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب واعتقدوا أنه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة طريقة الأعراض، وابن خزيمة شيخهم وهو الملقب بإمام الأئمة، وأكثر الناس معه، ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع فاحتاجوا لذلك إلى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية وبين أهل الحديث والسنة، فذكروا فيها أن كلام الله غير مخلوق، وأنه لم يزل متكلماً، وأن فعله أيضاً غير مخلوق فالمفعول مخلوق، ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق، وهذا قول الحنفية وكثير من الحنبلية والشافعية والمالكية، وهو اختيار القاضي أبي يعلى في آخر عمره، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود التنبيه على افتراق الأمة بسبب هذه الطريقة، ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب، وأنه يقول أن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، وأن كلامه شيء واحد هو معنى آية الكرسي، وآية الدين عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل، فنفروا عنه وعرفوا أن هؤلاء يقولون إنه لا يتكلم بمشيئه وقدرته، فأنكروه، وكان ممن أنكر ذلك الكرامية[2] وغير الكرامية كأصحاب أبي معاذ التومني، وزهير البابي وداود بن على وطوائف، فصار كثير من هؤلاء يقولون أنه يتكلم بمشيئته وقدرته فأنكروه، لكن يراعي تلك الطريقة لاعتقاده صحتها فيقول: إنه لم يكن في الأزل متكلماً لأنه إذا كان لم يزل متكلماً بمشيئته لزم وجود حوادث لا تتناهى.

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي، صاحب المصنفات في التصرف والأحوال، روى عن يزيد بن هارون وغيره، قال ابن الأهدل: كان أحد الخمسة الجامعين بين العلمين في واحد هو والجنيد وأبو محمد وأبو العباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكي، وله مصنفات نفيسة في السلوك والأصول، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين (أنظر شذرات الذهب ١٠٣/٢).

(٢) وهم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام، كان ممن يثبت الصفات، إلا أنه كان ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه.

وأصل الطريقة أن هذا ممتنع فصار حقيقة قول هؤلاء أنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً فخالفوا قول السلف والأئمة، أنه لم يزل متكلماً إذا شاء وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا أن كثيراً من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والإستدلال ويجعلونه أصل الدين والإيمان، هو هذه الطريقة المبتعدة في الشرع المخالفة للعقل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها، فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولاً متواتر مشهور، قد صنف فيه مصنفات، وذمهم للكلام والمتكلمين مما عنى به أهل هذ الطريقة، كذم الشافعي لحفص الفرد الذي كان على قول ضرار بن عمرو[1]، وذم أحمد ابن حنبل لأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث الذي كان على قول حسين النجار[2]، وذمهما وذم أبي يوسف ومالك وغيرهم لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة.

وقد صنف في ذم الكلام وأهله مصنفات أيضاً وهو متناول لأهل هذه الطريقة قطعاً، فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلاً قطعاً، بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والإيمان، ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها، كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي وأبو عبد الله الرازي وأمثالهما، ثم الذي يتبين له فسادها إذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقي حائراً مضطرباً، والقائلون بقدم العالم من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم تبين لهم فسادها، فصار ذلك من أعظم حججهم على قولهم الباطل، فيبطلون قول هؤلاء أنه صار فاعلاً، أو فاعلاً ومتكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن، ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث ويظنون أنهم إذا أبطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم، وهم أضل وأجهل من أولئك، فإن أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم، بل كل ما سوى الله فهو محدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة، وإن كان الفاعل لم يزل فاعلاً لما يشاء ومتكلماً بما يشاء، وصار كثير من أولئك إذا ظهر له فساد أصل أولئك المتكلمين المبتدعين وليس عنده إلا قولهم، وقول هؤلاء يميل إلى قول هؤلاء الملاحدة، ثم قد يبطن ذلك، وقد يظهر لمن يأمنه، وابتلى بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف والتوحيد

(١) اتفق حفص وعمرو على القول أن الله عز وجل عالم قادر على معنى أنه ليس بجاهل ولا عاجز، وأثبتا لله ماهية لا يعلمها إلا هو، وقالا: أفعال العباد مخلوقة لله حقيقة والعبد يكتسبها حقيقة، ويروى عن ضرار أنه كان ينكر حرف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ويقطع بأن الله تعالى لم ينزله.

(٢) وهو ممن وافق المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر، ووافق الصفاتية في خلق الأعمال، ومن أقواله: الباريء تعالى يريد لنفسه كما هو عالم لنفسه، وقال: إن الله تعالى خالق لأعمال العباد خيرها وشرها، حسنها وقبحها والعهد مكتسب لها وغير ذلك من أقوال.

والعرفان، فأخذوا من نفي الصفات أن صانع العلم لا داخل العالم ولا خارجه، ومن قول هؤلاء أن العالم قديم، ولم يروا موجوداً سوى العالم فقالوا: أنه هو الله، وقالوا: هو الوجود المطلق والوجود واحد، وتكلموا في وحدة الوجود ليس هذا موضع بسطه. ثم لما ظهر أن كلامهم يخالف الشرع والعقل صاروا يقولون: يثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ويقولون: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدني الأعلى، فليترك العقل والنقل، وصار حقيقة قولهم الكفر بالله وبكتبه ورسله وباليوم الاخر من جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع، لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقاً كثيراً لم يعرفوا باطن أمرهم، وهؤلاء صاروا ينتسبون إلى المعرفة والتوحيد واتباع شيوخ الطريق، كالفضيل وإبراهيم بن أدهم والتستري والجنيد، وسهل بن عبد الله.

وأمثال هؤلاء ممن له في الأمة لسان صدق، فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم، وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلافاً لهؤلاء المشايخ السادة، ولمن هو أفضل منهم من السابقين الأولين والأنبيآء المرسلين، وكان من أسباب ذلك أن العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف أمر معظم في القلوب، والرسل إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى أن يعرفوا الله، ويكون أحب إليهم من كل ما سواه فيعبدوه ويألهوه، ولا يكون لهم معبود مألوه غيره.

وقد أنكر جمهور أولئك المتكلمين، أن يكون الله محبوباً، أو أنه يحب شيئاً أو يحبه أحد، وهذا هو الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد، والتأله والتعبد غاية الحب بغاية الذل، ولكن غلط كثير فظنوا أن الإلهية هي القدرة على الخلق، وأن الإله بمعنى الإله وأن العباد يألههم الله، لا أنهم هم يألهون الله، كما ذكر ذلك طائفة منهم الأشعري وغيره، وطائفة ثالثة لما رأت ما دل على أن الله يحب أن يكون محبوباً من أدلة الكتاب والسنة، وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة، صاروا يقرون بأنه محبوب لكنه هو نفسه لا يحب شيئاً إلا بمعنى المشيئة، وجميع الأشياء مرادة له فهي محبوبة له، وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كأبي إسماعيل الأنصاري وأبي حامد الغزالي وأبي بكر بن العربي.

وحقيقة هذا القول: أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه، وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه، وقد ذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك، وكذلك ذكر ابن عقيل أن أول من قال إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعري وأصحابه، وهم قد يقولون لا يحبه ديناً ولا يرضاه ديناً كما يقولون لا يريده ديناً أي لا يريد أن يكون فاعله مأجوراً، وأما هو

نفسه فهو محبوب له كسائر المخلوقات، فإنها عندهم محبوبة لـه إذ كان ليس عنـدهم إلا إرادة واحدة شاملة لكل مخلوق فكل مخلوق فهو عندهم محبوب مرضي.

وجماهير المسلمين يعرفون أن هـذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل، وأن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك، ولا تكذيب الرسل، ولا يرضى ذلك، بل هو يبغض ذلك ويمقته ويكرهه، كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات، ثم قال: كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً، وبسط هذه الأمور له مواضع أخر.

والمقصود هنا أن الذين أعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل، وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه صارت فروعه فاسدة إن من قالوا أن لم يسلكها كفر أو عصى، فقد عرف بالإضطرار من دين الإسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يسلكوا طريقهم، وهم خير الأمة، وإن قالوا أن من ليس عنده علم ولا بصيرة بالإيمان، بل قاله تقليداً محضاً من غير معرفة يكون مؤمناً، فالكتاب والسنة يخالف ذلك. ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض، فإن ما جاء به الرسول جاء من عند الله، وما ابتدعوه جاؤوا به من عند غير الله، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾(١). وهؤلاء بنوا دينهم على النظر، والصوفية بنوا دينهم على الإرادة، وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل، فالحق هو النظر الشرعي والإرادة الشرعية، فالنظر الشرعي هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى، كما قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(٢). والإرادة الشرعية إرادة ما أمر الله به ورسوله، والسماع الشرعي سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن، والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي وهو الذي دل الله به عباده، وهداهم به إلى صراطٍ مستقيم، فإنه لما ظهرت البدع والتبس الحق بالباطل، صار اسم النظر والدليل والسماع والإرادة يطلق على ثلاثة أمور: منهم من يريد به البدعي دون الشرعي فيريدون بالدليل ما ابتدعوه من الأدلة الفاسدة والنظر فيها، ومن السماع والإرادة ما ابتدعوه من ابتاع ذوقهم ووجدهم وما تهواه أنفسهم، وسماع الشعر والغناء الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الإرادة النفسانية التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله.

ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والإرادة من غير تقييدها لا بشرعي

---

(١) سورة النساء: الآية ٨١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

ولا ببدعي، فهؤلاء يفسرون قوله: ﴿الذين يستمعون القول﴾. بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون إلى هذا وهذا، وأولئك يفسرون الإرادة، بمطلق المحبة للإله من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي، ويجعلون الجميع من أهل الإرادة سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول، أو كان عابداً للشيطان مشركاً عابداً بالبدع، وهؤلاء أوسطهم، وهم أحسن حالاً من الذين قيدوا ذلك بالبدعي.

وأما القسم الثالث: فهم صفوة الأمة وخيارها، المتبعون للرسول علماً وعملاً، يدعون إلى النظر والإستدلال والإعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله، وتدبر القرآن وما فيه من البيان، ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية، وهي محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله، فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذي قال فيه: ﴿أَفَلَمْ يدبَّرُوا القَوْلَ﴾[2] كما قال: ﴿واتبعُوا أحسن ما أنزل إليكُم من ربِّكُم﴾[3] وقال ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ في الأَلْواحِ من كُلِّ شيءٍ مَوعظةً وتَفْصِيلاً لكُلِّ شَيءٍ، فخذهَا بقوةٍ وأمرْ قَومَك يَأخُذوا بأحْسَنِهَا﴾[4].

والله سبحانه بين القدرة على الإبتداء كقوله: ﴿إِنْ كُنتُم في رَيْبٍ من البَعْثِ فإنّا خَلَقْنَاكُمْ من تُرابٍ ثُم من نُطْفَةٍ ثُمَّ منْ عَلَقَةٍ ثمَّ منْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَير مُخلقةٍ لنُبيِّن لَكُمْ﴾[5]. ومثل قوله: ﴿ويقُولُ الإنسانُ أإذا مَا مت لَسَوْفَ أُخرجُ حَيّاً، أولا يَذْكُرُ الإنسانُ أنا خَلَقْنَاهُ منْ قَبلُ ولَمْ يَكُ شَيئاً﴾ الآية[6]. ومثل قوله: ﴿وضَرب لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيي العِظَامَ وَهيَ رَميم قُل يُحيِيهَا الذي أنشأهَا أوّلَ مَرةٍ وَهُوَ بِكُلِ خَلقٍ عَليم﴾[7] وغير ذلك.

فالإستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والإستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حَادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفةٍ ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي، لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته وكثير من المتنازعين في المعرفة، هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه، وهو عقلي شرعي، وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن، مثل

---

(١) زيدت على الأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٣) سورة الزمر: الآية ٥٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٥) سورة الحج: الآية ٥.

(٦) سورة مريم: الآية ٦٦.

(٧) سورة يس: الآية ٧٨.

الإستدلال بالسحاب والمطر هو مذكور في القرآن في غير موضع، وهو عقلي شرعي كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَروا أنا نَسوُقُ المَاءَ إلى الأرضِ الجُرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرعاً تَأْكُلُ مِنهُ أنعامهم وأنفُسُهم أفَلاَ يُبْصِرون﴾[1]. فهذا مرئي بالعيون. وقال تعالى: ﴿سَنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيّن لهُمْ أنّهُ الحَقُّ﴾[2]. ثم قال: ﴿أوَلَمْ يَكف بِرَبِكَ أنهُ عَلى كُلِّ شيءٍ شَهيد﴾[3].

فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق، وهي شرعية دل عليها وأمر بها، والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل، وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها، ولكن كثير من الناس لا يسمى دليلاً شرعياً إلا ما دل بمجرد خبر الرسول، وهو اصطلاح قاصر، ولهذا يجعلون أصول الفقه هو لبيان الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع، والكتاب يريدون به أن يعلم مراد الرسول فقط، والمقصود من أصول الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية العملية، فيجعلون الأدلة الشرعية ما دلت على الأحكام العملية فقط، ويخرجون ما دل بإخبار الرسول عن أن يكون شرعياً فضلاً عما دل بإرشاده وتعليمه، ولكن قد يسمون هذا دليلاً سمعياً، ولا يسمونه شرعياً، وهو اصطلاح قاصر، والأحكام العملية أكثر الناس يقولون أنها تعمل بالعقل أيضاً، وأن العقل قد يعرف الحسن والقبح، فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العملية أيضاً، ويجوز أن تسمى شرعية، لأن الشرع قررها ووافقها أو دل عليها وأرشد إليها، كما قيل مثل ذلك في المطالب الخبرية، كإثبات الرب ووحدانيته وصدق رسله وقدرته على المعاد أن الشرع دل عليها وأرشد إليها. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الأشعري بنى أصول الدين في اللمع ورسالة الثغر على كون الإنسان مخلوقاً محدثاً فلا بد له من محدث، لكون هذا الدليل مذكور في القرآن، فيكون شرعياً عقلياً، لكنه في نفس الأمر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها، وهو الإستدلال على حدوث الإنسان بأنه مركب من الجواهر الفردة فلم يخل من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، فجعل العلم بكون الإنسان محدثاً وبكون غيره من الأجسام المشهودة محدثاً، إنما يعلم بهذه الطريقة وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة، وهي لا تخلو من اجتماع وافتراق، وتلك أعراض حادثة، وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث، وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء، فإنهم أنكروا

(١) سورة السجدة: الآية ٢٧.
(٢) سورة السجدة: الآية ٥٣.
(٣) سورة السجدة: الآية ٥٣.

المعلوم بالحس والمشاهدة والضرورة العقلية من حدوث المحدَثات المشهود حدوثها، وادعوا أنه إنما نشهد حدوث أعراض لا حدوث أعيان مع تنازعهم في الأعراض، ثم قالوا: والأجسام لا تخلو من الأعراض، وهذا صحيح، ثم قالوا: والأعراض حادثة، فاضطربوا هنا ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث. وهذا أصل دينهم، وهو أصل فاسد مخالف للسمع والعقل، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم، لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية فاستطالوا عليهم بذلك، وسلكوا ما هو أفسد منها، كطريقة الإمكان والوجوب كما قد بسط في موضع آخر، فلبسوا هذا الباطل بالحق الذي جاء به الرسول وهو الإستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات التي يشهد حدوثها، فصار في كلامهم حق وباطل من جنس ما أحدثه أهل الكتاب، حيث لبسوا الحق بالباطل، واحتاجوا في ذلك إلى كتمان الحق الذي جاء به الرسول الذي يخالف ما أحدثوه، فصاروا يكرهون ظهور ما جاء به الرسول، بل يمنعون عن قراءة الأحاديث وسماعها وقراءة كلام السلف وسماعه، ومنهم من يكره قراءة القرآن وحفظه، والذين لا يقدرون على المنع من ذلك صاروا يقرأون حروفه ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، بل إن اشتغلوا بعلومه اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم ممن يحرفون [كلام][1] الله عن مواضعه، والأصل العقلي الحسي الذي به فارقوا العقل، والسمع هو حدوث ما يشهد مثل حدوث الزرع والثمار، وحدوث الإنسان وغيره من الحيوان، وحدوث السحاب والمطر ونحو ذلك من الأعيان القائمة بنفسها، غير حدوث الأعراض، كالحركة والحرارة والبرودة والضوء والظلمة وغير ذلك، بل تلك الأعيان التي يسمونها أجساماً وجواهر هي حادثة، فإنه معلوم أن الإنسان مخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وأن الثمار تخلق من الأشجار، وأن الزرع تخلق من الحب، والشجر تخلق من النوى.

قال تعالى: ﴿إنَّ الله فَالِقِ الحَبِّ والنَوى يُخْرِجُ الحَي مِن المَيْتِ ومُخْرِجُ المَيت مِن الحَي ذلكم الله فَأنّى تُؤْفَكُون. فَالِقُ الإصْبَاحِ وجَعلَ الليل سَكناً والشَمسَ والقمَرَ حُسباناً ذلك تَقْدِيرُ العزيز العَليم. وهُو الذي جَعَل لكم النُجُوم لتَهتَدُوا بهَا في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ قَدْ فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يعلمون. وهُو الذي أنشَأكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ فمستَقرٌ ومُسْتَوْدعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتَ لِقَوْمٍ يَفْقَهُون. وهُو الذي أنزل مِن السَماءِ مَاءً فأَخْرجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُل شيءٍ فَأخرجنَا مِنهُ خضِراً نخرج مِنْهُ حَبّاً مُتَراكِباً ومِن النَخْلِ من طَلْعِهَا قِنوان دانية وجَنّاتٍ مِنْ أعنَابٍ والزيتون والرُمّان مُشْتَبِهاً

(١) وردت في الأصل: الكلم كلم، ولعل الصواب ما أثبتناه.

وغَيْـر مُتَشَابِـهٍ انظُروا إلى ثمـرهِ إذا أثْمَر وَينْعِـهِ إنَّ في ذلِكم لآيَـاتٍ لِقَـومٍ يُؤْمِنُـونَ﴾[1]. فهـذا الإنسان والشجر والزرع المخلوق من مادة قد خلق منها عين قائمة بنفسها.

وهم يقولون: إنما هي من الجسم القائم بنفسه، وهو الجوهر العام في اصطلاحهم الـذين يقولون أنـه مركب من الجـواهر المفـردة. وهل الـذي خلق من المادة هـو أعيان أم لم يخلق إلا أعراض قائمة بغيرها، وأما الأعيان فهي الجواهر المفردة، وتلك منهـا شيء في هذه الحـوادث، ولكن أحدث فيها جمـع وتفريق، فكان خلق الإنسان وغيره هو تركيب تلك الجـواهر، وإحـداث هـذا التركيب لا إحـداث تلك الجواهـر. وأما حـدوث تلك الجواهـر فإنمـا يعلم بـالإستـدلال، فيستدل عليه بأن الجوهر التي تركبت منه هذه الأجسام لا تخلو من اجتماع وافتـراق، والإجتماع والإفتراق حادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث فهذه طـريق هؤلاء الجهمية أهـل الكلام المحدث.

وأما جمهور العقلاء فيقولون: بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان القائمة بنفسها، لا نقـول أنـه لم يحدث إلا عـرض، فإن هـذا القول يقتضي أن تلك الجـواهر التي ركب منهـا آدم بـاقيـة لم يزل في كل آدمي منها شيء، وهذا مكابرة، فـإن بدن آدم لا يحتمـل هذا كله، لا يحتمـل أن يكون فيه جـواهر بعـدد ذريته، لا سيمـا وكل آدمي إنمـا خلق من مني أبويـه، وهم يقولـون تلك الجواهر التي في مني الأبوين باقية بأعينها في الولد، وهم يقولون أن الجواهـر لا تفنى بل تنتقـل من حال إلى حال.

وكثير منهم يقولون أنها مستغنية عن الرب بعد أن خلقها، وتحيروا فيما إذا أراد أن يفنيهـا، كيف يفنيها؟ كما قد ذكر في غير هذا المـوضـع. إذ المقصود هنـا التنبيه على أن أصـل الأصول معـرفة حـدوث الشيء من الشيء كحـدوث الإنسـان من المني، فهؤلاء ظنـوا أنـه لا يحـدث إلا الأعراض. ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في كتبـه الكبار والصغـار الطرق الـدالة على إثبات الصانـع لم يذكر طريقاً صحيحاً، وليس في كتبه وكتب أمثـاله طـريق صحيـح لإثبات الصـانـع، بل عـدلوا عن الـطرق العقلية التي يعلمهـا العقلاء بفـطرتهم، وهي التي دلتهم عليها الرسل إلى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقـل، لا سيما من سلك طـريقة الـوجوب والإمكـان متابعة لابن سينا كالـرازي، فإن هؤلاء من أفسـد الناس استـدلالاً كما قـد ذكرنـا في طرق عـامة النظار في غير هذا الموضـع، مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل وغير ذلك. والمقصود هنا أن الرازي ذكر أن ما يستدل به على إثبات الصـانـع، وإما حـدوث الأجسام وإمـا حدوث صفـاتها، وإما إمكانها وإما إمكان صفاتها. وذكر في بعض المواضـع.

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٩٥ ــ ٩٩.

وإما الاحكام والإتقان، لكن الإحكام والإتقان يدل على العلم ابتداء، والإستدلال بحدوث الأجسام وإمكانها وإمكان صفاتها طرق فاسدة، فإن دلالة حدوثها مبينة على أن ما قامت به الصفات يمتنع أن يكون واجباً بنفسه لأنه مركب ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها، فلا بد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص، وهذه كلها طرق باطلة.

قال: وأما الإستدلال بحدوث الصفات فهو الإستدلال بحدوث الأعراض، وهذه الطريق أجود ما سلكوه من الطرق مع أنها قاصرة، فإن مدارها على أنهم لم يعرفوا حدوث شيء من الأعيان، وإنما علموا حدوث بعض الصفات، وهذا يدل على أنه لا بد لها من محدث.

قال: وهذا لا ينفي كون المحدث جسماً بخلاف تلك الطرق، وهذه الطريق تدل على أن الأعراض كتركيب الإنسان لا بد بد له من مركب لا ينفي بها شيء من قدم الأجسام والجواهر، بل يجوز أن يكون جميع جواهر الإنسان وغيره قديمة أزلية، لكن حدثت فيها الأعراض. ويجوز أن يكون المحدث للأعراض بعض أجسام العالم، فهذه الطريق لا تنفي أن يكون الرب بعض أجسام العالم وتلك باطلة، مع أن مضمونها أن الرب لا يتصف بشيء من الصفات، فهي تدل على صانع، وإن دلت على صانع فليس بموجود بل معدوم أو متصف بالوجود والعدم، كما قد بسط في غير موضع.

ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿إليه يَصعدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[1]. ﴿الرحمَنُ عَلىَ العَرش استَوى﴾ واقرأ في النفي: ﴿ليس كَمثله شَيءٌ﴾[2]. ﴿ولا يحيطُونَ بهِ عِلماً﴾. قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

ولما ذكر الرازي الإستدلال بحدوث الصفات كالحيوان والنبات والمطر، ذكر أن هذه طريقة القرآن، ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الإستدلال بآيات الله كقوله: ﴿إنَّ في خَلقِ السَّموات والأرض واختلافِ اللَّيل والنهَار والفُلكِ التي تجري في البَحرِ بمَا يَنْفَعُ النّاس ومَا أنزل الله مِنْ السّماء من مَاءٍ فَأحيَا بِهِ الأرض بَعْد مَوتهَا وبَثَّ فيهَا مِنْ كُلِّ دابَةٍ وتَصْريفِ الرِيَّاحِ والسّحَابِ المُسَخَرِ بَين السَمَاءِ والأرض لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعقلون﴾[3]. وهذا مذكور بعد قوله: ﴿وإلهَكُم إلَهٌ

(١) سورة الشورى: الآية ١١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

واحِـدٌ لا إِلَه إِلاَّ هـو الرَّحمَنُ الـرَّحيم﴾[1] وقبل قـوله: ﴿ومِن النَّـاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِـهِ أَنْداداً يُحبونَهم كَحُبِّ الله﴾. لكـن القـرآن لم يذكر أن هذه صفات حادثة، وأنه ليس فيها أحداث عين قائمة بنفسها، بل القرآن يبين أن في خلق الأعيان القـائمة بنفسهـا آيات ويـذكر الآيـات في خلق الأعيـان والأعراض كقـوله: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمَـواتِ والأرضِ واختلاف اللَّيْـلِ والنَهَارِ والفُلكِ التي تجري في البَحْرِ بمَا يَنْفَعُ النّاس﴾ وهي أعيان، ثم قال ﴿ومَا أنزل الله مِن السماءِ مِنْ مَاءٍ﴾، والماء عين قائمة بنفسها، وقوله ﴿فأحيَا بهِ الأرض بَعْد مَـوتِها﴾ هـو بما يخلقـه فيها من النبـات، وهو أعيان. وكذلك قوله: ﴿وبثَّ فيها من كُلِّ دابّةٍ﴾، وقوله ﴿وتَصْريفِ الريِّاح﴾ فالريـاح أعيان وتصريفها أعراض، وقوله: ﴿والسَّحَابِ المسخرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرض﴾ والسحاب أعيان ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعقِلون﴾. وقد تقدم أن أصل الإشتباه في هذا أن خلق الشيء من مـادة هل هـو خلق عين أم إحداث إجتماع وإفتراق وإعراض فقط؟ والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال: فالقائلون بالجواهر الفردة من أهل الكلام القائلون بأن الأجسام مركبـة من الجواهـر الصغار التي قـد بلغت من الصغـر إلى حد لا يتميـز منها جـانب عن جانب، يقـولون: تلك الجـواهـر بـاقيـة تنقلت في الحوادث، ولكن تعتقب عليها الأعراض الحادثة والإستدلال والأعراض على حدوث ما يلزمه من الجـواهر، ثم الإستـدلال بذلـك على المحـدث غيـر الإستـدلال بحـدوث هـذ الأعـراض على المحدث لها، فتلك هي طريقة الجهميـة المشهورة، وهي التي سلكهـا الأشعري في كتبـه كلها متابعة للمعتزلة، ولهذا قيل: الأشعرية مخانيث المعتزلة.

وأما الإستدلال بالحوادث على المحدث، فهي الطريقة المعروفـة لكل أحـد، لكن تسمية هذه أعراضاً هو تسمية القائلين بالجوهر الفرد، مع أن الرازي توقف في آخر أمـره فيه، كمـا ذكر ذلـك في نهايـة العقول. وذكـر أيضاً عن أبي الحسين البصـري وأبي المعالي أنهمـا توقفـا فيـه. والمقصود: أن القائلين بالجوهر الفرد يقولون: إنما يقولون إنما أحدث أعراضاً كجمـع الجواهـر وتفـريقها، فـالمادة التي هي الجـواهر المنفـردة باقيـة عندهم بـأعيانهـا ولكن أحدث صـوراً هي أعراض قائمة بهذه الجواهر، وأما المتفلسفة فيقـولون: أحـدث صوراً في مـواد باقيـة كما يقـول هؤلاء، لكن يقولون: أحدث صوراً هي جواهر في مادة هي جوهر، وعندهم ثم مادة باقيـة بعينها والصور الجوهرية، كصورة الماء والهواء والتراب والمولدات تعتقب عليهـا، وهذه المـادة عندهم جوهر عقلي، وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلي، ولكن الجسم مـركب من المادة والصـورة، ولهذا قسموا الموجودات، فقالوا: إما أن يكون الموجود حـالاً بغيره أو محـلاً أومركبـاً من الحال

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

والمحل، أو لا هذا ولا هذا، فالحال في غيره هو الصورة، والمحل هو المادة، والمركب منهما هو الجسم، وما ليس كذلك إن كان متعلقاً بالجسم فهو النفس، وإلا فهو العقل، وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه ليس هذا موضعها، إذ المقصود أنهم يقولون أيضاً أنه لم يحدث جسماً قائماً بنفسه، بل إنما أحدث صورة في مادة باقية، ولا ريب أن الأجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق، وهو المقدار المجرد الذي لا يختص بجسم بعينه، ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن لا في الخارج، كالعدد المجرد والسطح المجرد، والنقطة المجردة، وكالجسم التعليمي وهو الطويل العريض العميق الذي لا يختص بمادة بعينها.

فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها هي في الذهن، وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه، فهؤلاء جعلوا الأجسام مشتركة في جوهر عقلي، وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية، وهؤلاء قالوا: إذا خلق كل شيء من شيء فإنما أحدثت صورة من أن المادة باقية بعينها لكن أفسدت صورة وكونت صورة، ولهذا يقولون عن ما تحت الفلك عالم الكون والفساد، ولهذا قال ابن رشد: أن الأجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد، بخلاف الفلك فإنه ليس مركباً من مادة وصورة عند الفلاسفة.

قال: وإنما ذكر أنه مركب من هذا وهذا ابن سينا، وهؤلاء تحيروا في خلق الشيء من مادة كخلق الإنسان من النطفة، والحب من الحب، والشجرة من النواة، وظنوا أن هذا لا يكون إلا مع بقاء أصل تلك المادة، أما الجواهر عند القوم، وإما المادة المشتركة عند قوم. وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء، فإنه عندهم لم يحدث إلا الصورة التي هي عرض عند قوم أو جوهر عقلي عند قوم، وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق ولن يخلق منها شيء.

وقد ذكروا في قوله ﴿أم خلِقُوا من غيرِ شَيءٍ﴾(١) ثلاثة أمور: قال ابن عباس(٢) والأكثرون: أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي. وقال الزَّجَّاجُ وابن كيسان: أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون، ولا ينهون كما يقول: فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة.

وقيل: أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم. ثم من هؤلاء من قال: فهم كالجماد،

(١) سورة الطور: الآية ٣٥.

(٢) ذكر القرطبي (٧٤/١٧) عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: من غير رب خلقهم وقدرهم.

ومنهم من قال: كالسموات ظناً منه أنها خلقت من غير مادة. ذكر الاربعة أبو الفرج. وذكر البغوي الوجهين الأولين.

والذين ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر، وهو أن من قال: المادة باقية بعينها وإنما حدث عرض أو صورة، وذلك لم يخلق من غيره، ولكن أحدث في المادة الباقية. فلا يكون الله خلق شيئاً من شيء، لأن المادة عندهم لم تخلق، أما المتفلسفة فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها، وأما المتكلمون فالجواهر عندهم موجودة ما زالت موجودة، لكن من قال أنها حادثة من أهل الملل وغيرهم قالوا: يستدل على حدوثها بالدليل، لا أن خلقها معلوم للناس، فهو عندهم مما يستدل عليه بالأدلة الدقيقة الخفية، مع أن ما يذكرونه منتهاه إلى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل، فلا دليل عندهم على حدوثها، وإذا كانت لم تخلق إذ خلق الإنسان بل هي باقية في الإنسان، والأعراض الحادثة لم تخلق من مادة، فإذا خلق الإنسان لم يخلق من شيء لا جواهره ولا أعراضه، وعلى قولهم ما جعل الله من الماء كل شيء حي، ولا خلق كل دابة من ماء، ولا خلق آدم من تراب، ولا ذريته من نطفة، بل نفس الجواهر الترابية باقية بعينها لم تخلق حينئذ، ولكن أحدث فيها أعراض أو صورة حادثة، وتلك الأعراض ليست من التراب، فلما خلق آدم لم يخلق شيء من تراب وكذلك النطفة جواهرها باقية، أما الجواهر المنفردة وأما المادة والحادث هو عرض أو صورة في مادة ولا هذا ولا هذا خلق من نطفة، وليس قولهم أنه لم يخلق من مادة معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء، وأنهم قصدوا بها تعظيم الخالق، بل الإنسان لا ريب أنه جوهر قائم بنفسه، وعندهم ذلك القائم بنفسه ما زال موجوداً لم يخلق إذ خلق الإنسان والجوهر الحامل لصورته ما زال موجوداً أيضاً، لم يخلق عند هؤلاء إلا الأعراض، وعند هؤلاء إلا صورة مجردة، وكلاهما ليس هو الإنسان بل صفة له أو صورة له، هذا هو المخلوق عندهم يخلق الإنسان فقط. وقد قال تعالى: ﴿أَوَلا يَذْكُر الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ من قَبلُ ولَمْ يَكُ شيئاً﴾(1). وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خلقْتُكَ مِنْ قبلُ وَلَمْ تَكُ شَيئاً﴾(2). فقد أمر الإنسان أن يتذكر أن الله خلقه ولم يك شيئاً، والإنسان إذا تذكر إنما يذكر أنه خلق من نطفة.

وعندهم ما زال جواهر الإنسان شيئاً وذلك الشيء باق، وإنما حدث أعراض لتلك الأشياء. ومعلوم أن تلك الأعراض وحدها ليست هي الإنسان، فإن الإنسان مأمور منهي حي عليم قدير متكلم سميع بصير موصوف بالحركة والسكون، وهذه صفات الجواهر، والعرض

---

(1) سورة مريم: الآية ٦٧.

(2) سورة مريم: الآية ٨.

لا يـوصف بشيء لا سيما وهم يقـولون العـرض لا يبقى زمانين. فـالمخلوق على قـولهم لا يبقى زمانين بل يفنى عقب ما يخلق، ولهذا اضطربوا في المعاد، فإن معـرفة المعـاد مبنية على معـرفة المبدأ، والبعث مبني على الخلق، فقال بعضهم: هو تفريق تلك الأجـزاء ثم جمعها وهي بـاقية بأعينها. وقال بعضهم: بل يعدمها ويعدم الأعراض القائمة بها ثم يعيدها، وإذا أعادها فإنـه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية، إلى أن حصلت في هذا الإنسان، فلهذا اضطربوا لمـا قيل لهم: فالإنسان إذا أكله حيوان آخر، فإن أعيدت تلك الجواهر من الأول نقصت من الثـاني وبالعكس. أما على قول من يقول أنها تفرق، ثم تجمـع فقيل لـه: تلك الجواهـر إن جمعت للآكـل نقصت من المأكول وإن أعيدت للمأكول نقصت من الآكل.

وأما الذي يقول: تعدم ثم تعاد بأعيانها فقيل به: أتعدم لما أكلها الآكل أم قبل أن يأكلها؟ فإن كان بعد أن أكلها فإنها تعاد في الآكل فينقص المأكول، وإن كان قبل الأكل فالآكل لم يأكـل إلا أعـراضاً، لم يـأكل جـواهر، فهـذا مكابـرة، ثم أن المشهور أن الإنسـان يبلى ويصيـر تـراباً كمـا خلق من تراب وبـذلك أخبـر الله، فإن قيـل إنه إذا صـار تراباً عدمت تلك الجـواهـر فهـو لمـا خلق من تـراب عـدمت أيضـاً تلك الجـواهـر فكـونهم يجعلون الجـواهـر بـاقيـة في جميـع الاستحالات إلا إذا صار تراباً تناقض بين، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول وغير ذلك، وكأن هـذا الضـلال أصل ضـلالهم في تصور الخلق الأول والنشـأة الأولى التي أمرهم الـرب أن يتذكـروهـا ويستـدلوا بهـا على قدرتـه على الثانيـة. قال تعـالى: ﴿أفرأيتم مَـا تُمنُون أأنْتُمْ تَخلُقُـونَهُ أمْ نَحْنُ الخَـالِقون، نَحْنُ قَـدَّرنَا بَيْنَكُمْ المَـوتَ وَمَا نَحنُ بمسبُـوقين عَلى أنْ نُبَدِّلَ أمثَـالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فيمَا لاَ تَعْلَمون، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النشأةِ الأولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُون﴾[1].

والفلاسفة أجود تصوراً في هـذا الموضـع حيث قـالوا: تفسـد الصورة الأولى وهي جـوهر ويحدث صورة أخرى، فإن هذا أجود من أن يقال يزول عرض ويحدث عرض. ولكن الفلاسفـة غلطوا في توهمهم أن هناك مادة باقية بعينها، وإنمـا تفسد صـورتها. والحق أن المـادة التي منها يخلق الثاني تفسد وتستحيل وتفنى وتتلاشى وينشيء الله الثاني ويبتديـه، ويخلق من غير أن يبقى من الأول لا مـادة ولا صـورة ولا جـوهـر ولا عـرض. فـإذا خلق الله الإنســان من المني فـالمني استحـال وصار علقـة، فالعلقـة استحالت وصـارت مضغة، والمضغـة استحالت إلى عـظام وغير عـظام. والإنسان بعـد أن خلق خلق كله جواهـره وأعراضـه وابتدأه الله ابتـداء كما قـال تعـالى: ﴿الـذي أحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلْقَـهُ وَبَدَأَ خَلقَ الإنسـان من طينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُـلاَلَةٍ منْ مَـاءٍ

(١) سورة الواقعة: الآية ٥٩.

مَهينٍ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكر الإنسانُ أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قبلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً﴾[2]. فالإنسان مخلوق، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني من مادة استحالت ليست باقية بعد خلقه كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية. ولفظ المادة مشترك.

فالجمهور يريدون به ما منه خلق وهو أصله وعنصره، وهؤلاء يريدون بالمادة جوهر باق وهو محل للصورة الجوهرية، فلم يخلق عندهم الإنسان من مادة، بل المادة باقية، وأحدث صورته فيها كما أن الصور الصناعية كصورة الخاتم والسرير والثياب والبيوت وغير ذلك، إنما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ولم تفسد، لكن حولت من صفة إلى صفة. فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة أن الله أحدث صورة عرضية في مادة باقية لم تفسد، فيجعلون خلق الإنسان بمنزلة عمل الخاتم والسرير والثوب.

والمتفلسفة تقول أيضاً إن مادته باقية لم تفسد كمادة الصور الصناعية، لكن يقولون أنه أحدث صورة جوهرية، وهم قد يخلطون ولا يفرقون بين الصور العرضية والجوهرية، فإنهم يسمون صورة الإنسان صورة في مادة، وصورة الخاتم صورة في مادة، فيكون خلق الإنسان عند هؤلاء وهؤلاء من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد، ويكون خلقه بمنزلة تركيب الحائط من اللبن. ولهذا قال من قال منهم أنه يستغني عن الخالق بعد الخلق كما يستغني الحائط بعد البنّاء.

والأشعرية عندهم أن البناء والخياط وسائر أهل الصنائع لم يحدثوا في تلك المواد شيئاً. فإن القدرة المحدثة عندهم، تتعلق إلا بما هو في محلها لا خارجاً عن محلها. ويقولون إن تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله ليس للإنسان فيها صنع، وخلق الله على أصلهم هو إحداث أعراض فيها كما تقدم فينكرون ما يصنعه الإنسان، وهو في الحقيقة مثلما يجعلونه مخلوقاً للرحمن، وهم لا يشهدون للرحمن إحداثاً ولا إفناء، بل إنما يحدث عندهم الاعراض، وهي تفنى بأنفسها لا بإفنائه، وهي تفنى عقب احداثها. وهذا لا يعقل، وهم جائرون إذا أراد أن يعدم الأجسام كيف يعدمها، والمشهور عندهم أنها تعدم بأنفسها إذا لم يخلق لها أعراضاً. فالعرض يفنى عندهم بنفسه والجوهر يفنى بنفسه إذا لم يخلق عرض بعد عرض، هذا في الإفناء. وأما في الاحداث فإنهم استدلوا على حدوثها بدليل باطل لو كان صحيحاً للزم حدوث كل شيء من غير محدث.

---

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٦٧.

فحقيقة أصل أهل الكلام المتبعين للجهمية أنه لا يحدث شيئاً ولا يفني شيئاً، بل يحدث كل شيء بنفسه ويفنى بنفسه، ويلزمهم جواز أن يكون الرب محدثاً أيضاً بلا محدث. وهذ الأصول هي أصول دينهم العقلية التي بها يعارضون الكتاب والسنة والمعقولات الصريحة، وهي في الحقيقة لا عقل ولا سمع، كما حكى الله عن من قال: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعقِلُ ما كُنّا في أَصْحَابِ السَّعيرِ﴾(١). والخلق يشهدون أحداث الله لما يحدثه وافناءه لما يفنيه، كالمني الذي استحال وفني وتلاشى وأحدث منه هذا الإنسان، وكالحبة التي فنيت واستحالت وأحدث منها الزرع، وكالهواء الذي استحال وفني وحدث منه النار أو الماء، وكالنار التي استحالت وحدث منها الدخان، فهو سبحانه دائماً يحدث ما يحدثه ويكونه ويفني ما يفنيه ويعدمه. والإنسان إذا مات وصار تراباً فني وعدم، وكذلك سائر ما على الأرض كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيها فَانٍ﴾(٢). ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلقه خلقاً جديداً. ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى فمعرفة الإنسان بالخلق الأول، وما يخلقه من بني آدم وغيرهم من الحيوان، وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار، وما يخلقه من السحاب والمطر وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخلق والبعث بالمبدأ والمعاد، وإن لم يعرف أن الله يخلقه كله من المني جواهره وأعراضه، وإلا فما عرف أن الله خلقه. ومن ظن أن جواهره، لم يخلقها إذ خلقه، بل جواهر المني وجواهر ما يأكله ويشربه باقية بعينها فيه لم يخلقها أو أن مادته التي تقوم بها صورته لم يخلقها إذ خلقه بل هي باقية أزلية أبدية لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث.

والعلماء ينكرون على من يقول: أن روح الإنسان قديمة أزلية من المنتسبين إلى الإسلام، وهؤلاء الذين يقولون أن مادة جسمه باقية بعينها وهي أزلية أبدية أبعد عن العقل والنقل منهم، وأولئك أنكروا عليهم حيث قالوا: الإنسان مركب من قديم، ومحدث من لاهوت قديم وناسوت محدث. أو هؤلاء جعلوه مركباً من مادة قديمة أزلية وصورة محدثة، وجعلوا القديم الأزلي فيه أخس ما فيه وهو المادة، فإنها عندهم أخس الموجودات، وهي قديمة أزلية، وأولئك جعلوا القديم الأزلي أشرف ما فيه، وهي النفس الناطقة. وكلا الطائفتين وإن كان ضالاً، فالشريف العالي أولى بالقدم من الخسيس السافل وهذا أولى بالحدوث.

وأما المتكلمة الجهمية فهم لا يتصورون ما يشهدونه من حدوث هذه الجواهر في جواهر أخر من مادة، ثم يدعون أن الجواهر جميعها أبدعت ابتداء لا من شيء، وهم لم يعرفوا قط جوهراً أحدث لا من شيء، كما لم يعرفوا عرضاً أحدث لا في محل. وحقيقة قولهم أن الله لا

---

(١) سورة الملك: الآية ١٠.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٦.

يحدث شيئاً من شيء لا جوهراً ولا عرضاً، فإن الجواهر كلها أحدثت من شيء والأعراض كذلك.

والمشهود المعلوم للناس إنما هو إحداثه لما يحدثه من غيره لا إحداثاً من غير مادة، ولهذا قال تعالى: ﴿وقَدْ خَلَقْتُك مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيئاً﴾[1]. ولم يقل خلقتك لا من شيء وقال تعالى: ﴿والله خَلَق كُلَّ دابةٍ من مَاءٍ﴾[2]. ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء. وقال تعالى: ﴿وجَعَلْنَا مِن المَاءِ كُلَّ شَيء حَي﴾[3]. وهذا هو القدرة التي تبهر العقول، وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويفنيه ويلاشيه، ويحدث شيئاً آخر كما قال: ﴿فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخرِجُ الحَيَّ مِن المَيْتَ ومُخْرِجُ المَيْت مِن الحَيِّ﴾[4] ويخرج الشجرة الحية والسنبلة من النواة والحبة الميتة، ويخرج النواة الميتة والحبة الميتة من الشجرة والسنبلة الحية كما يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، والنطفة الميتة من الإنسان الحي، وعندهم لا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي، فإن الحي والميت إنما هو الجوهر القائم بنفسه، فإن الحياة عرض لا يقوم إلا بجوهر، والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر، وإن كان العرض يوصف بأنه حي كما يقال: قد أحييت العلم والإيمان، وأحييت الدين، وأحييت السنة والعدل، كما يقال أمات البدعة. فهؤلاء عندهم لا يخرج جوهراً ولا عرضاً من عرض، فلا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي، بل الجواهر التي كانت في الميت هي بعينها باقية كما كانت، ولكن أحداث فيها حياة ولم تكن.

وتلك الحياة لم تخرج من ميت، فما أخرج عندهم حي من ميت ولا ميت من حي. ولهذا ينكرون أن يقلب الله جنساً إلى جنس آخر ويقولون: الجواهر كلها جنس واحد، فإذا خلق النطفة إنساناً لم يقلب عندهم جنساً إلى جنس، بل نفس الجواهر هي باقية كما كانت، وخاصية الخلق إنما هي بقلب جنس إلى جنس، وهذا لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيهَا النَّاسُ ضُرب مثلٌ فاستمعوا لَهُ إنَّ الَّذين تَدْعُون من دُون الله لَنْ يخلقُوا ذُبَاباً ولَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يسلبهُم الذُبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضعف الطَالِبُ والمَطْلُوبُ مَا قَدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ الله لَقَويٌ عَزيزٌ﴾[5].

ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة، ولا السنبلة من جنس الحبة، ولا الإنسان من جنس المني، ولا المني من جنس الإنسان، وهو يخرج هذا من هذا، فيخرج كل جنس من

---

(١) سورة مريم: الآية ٨.

(٢) سورة النور: الآية ٤٥.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٨.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٥.

(٥) سورة الحج: الآية ٧٣.

جنس آخر بعيد عن مماثلته. وهذا خلق الله فأروني ماذا الذين من دونه وهو سبحانه إذا جعل الأبيض أسود أعدم ذلك البياض، وجعل موضعه السواد، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحليها وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق الجديد، ويخلق الضد من ضده، كما جعل من الشجر الأخضر ناراً فإذا حك الأخضر بالأخضر سخن ما يسخنه بالحركة حتى ينقلب نفس الأخضر فيصير ناراً. وعلى قولهم ما جعل فيه ناراً بل تلك الجواهر باقية بعينها وأحدث فيها عرض لم يكن. وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالكَ المُلكِ تُؤْتي المُلْك مَنْ تَشَاء وتَنْزِع المُلْك مِمَّن تَشَاء وتُعِزُّ مَنْ تَشَاء وتَذل مَن تَشاء بِيَدِكَ الخَير إنَّك عَلى كُل شَيء قَدير، تُولج الليلَ في النهارِ وتُولِج النَهار في الليلِ وتُخرِجُ الحَي مِن المَيتِ وتُخْرِجُ الميت مِن الحَي وتَرزُقُ مَن تَشاءُ بغَيرِ حَسَابٍ﴾[1]. ولهذا قال للملائكة ﴿إني خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فَإذا سَويتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِن رُوحي فَقعوا لَه سَاجِدين﴾[2] وقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقُكم مِن مَاءٍ مَهينٍ فَجَعَلْنَاهُ في قَرارٍ مَكينٍ إلى قَدرٍ مَعلومٍ فَقَدرنا فَنِعم القَادِرُون﴾[3].

ولهذا امتنع اللعين كما قال تعالى: ﴿وإذْ قُلنَا للمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إلاَّ إبليس قَال أأسْجُدُ لمنْ خَلَقْت طِيناً﴾[4]، وقال: ﴿لم أكن لأسجدَ لِبَشرٍ خَلَقْتَهُ من صلْصَالٍ من حمأ مَسْنونٍ﴾[5]. وأيضاً فكون الشيء مخلوقاً من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء وأبعد عن مشابهة الربوبية، فإن الرب هو أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فليس له أصل وجد منه ولا فرع يحصل عنه، فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه كان بمنزلة الولد له، وإذا خلق له شيء آخر كان بمنزلة الوالد، وإذا كان والداً ومولوداً كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية، فإنه خرج من غيره، ويخرج منه غيره، لا سيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخلقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهينٍ﴾[6] وقال تعالى: ﴿فَلينظُرِ الإنْسانُ مِمَ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَينِ الصُلبِ والتِرائِبِ إنه عَلى رَجعهِ لَقَادِرٌ يَومَ تُبلى السَرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قوةٍ وَلاَ نَاصِر﴾[7]. وفي المسند عن بشر بن جحاش قال: بصَق رسول الله ﷺ فوضع عليها إصبعه ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنَّى تُعجزني وَقَدْ خَلَقْتُكَ من مِثلِ هَذهِ حَتى إذا سَوَّيتكَ وَعَدلتك مشيت بَينَ بُردين وَللأرضِ مِنكَ وَئِيدٌ فَجَمعتَ وَمَنَعْتَ حَتى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.
(٢) سورة ص: الآية ٧١.
(٣) سورة المرسلات: الآية ٢٠ ــ ٢٣.
(٤) سورة الاسراء: الآية ٦١.
(٥) سورة الحجر: الآية ٢٣.
(٦) سورة المرسلات: الآية ٢٠.
(٧) سورة الطارق: الآيتان ٥، ٦.

إذا بَلَغَتَ التَراقي قُلتْ أتصدق وأنى أوان الصَدَقة»، وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث كان أبلغ في قدرة القادر وأدل على عبودية الإنسان وذله لربه وحاجته إليه.

وقد يقول المُعَير للرجل: ما لك أصل ولا فصل، ولكن الإنسان أصله التراب وفصله الماء المهين. ولهذا لما خلق المسيح من غير أب وقعت به الشبهة لطائفة، وقالوا إنه ابن الله مع أنه لم يخلق إلا من مادة من أمه، ومن الروح التي نفخ فيها. كما قال تعالى: ﴿وَمَريمَ ابنَةَ عِمرانَ التي أحْصَنَتْ فَرجَهَا فَنَفَخْنَا فيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾[1] وقال تعالى أيضاً: ﴿فتَمَثّلَ لَها بَشَراً سَوياً قَالَت إني أعُوذُ بالرحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقياً قَالَ إنمّا أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأهب لَكِ غُلاَماً زَكياً﴾[2]. فما خلق من غير مادة تكون كالأب له قد يظن فيه أنه ابن الله، أن الله خلقه من ذاته.

فلهذا كانت الأنبيآء مخلوقة من مادة لها أصول ومنها فروع، لها والد ومولود، والأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وحدوث الشيء لا من مادة قد يشبه حدوثه من غير رب خالق، وقد يظن أنه حدث من ذات الرب كما قيل مثل ذلك في المسيح والملائكة أنها بنات الله لما لم يكن لها أب، مع أنها مخلوقة من مادة كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة «أن النبي ﷺ قال: خُلقَتُ المَلائكة مِن نُورٍ، وَخَلَقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمَ ممّا وَصَفَ لَكُم».

ولما ظن طائفة أنها لم تخلق من مادة ظنوا أنها قديمة أزلية، وأيضاً فالدليل الذي احتج به كثير من الناس على أن كل حادث لا يحدث إلا من شيء أو شيء أو في شيء، فإن كان عرضاً لا يحدث إلا في محل، وإن كان عيناً قائمة بنفسها لم تحدث إلا من مادة، فإن الحادث إنما يحدث إذا كان حدوثه ممكناً، وكان يقبل الوجود والعدم، فهو مسبوق بإمكان الحدوث وجوازه فلا بد له من محل يقوم به هذا الإمكان والجواز، وقد تنازعوا في هذا هل الإمكان صفة خارجية لا بد لها من محل، أو هي حكم عقلي لا يفتقر إلى غير الذهن. والتحقيق أنه نوعان: فالإمكان الذهني وهو تجويز الشيء أو عدم العلم بامتناعه محل الذهن والإمكان الخارجي المتعلق بالفاعل، أو المحل مثل أن تقول يمكن القادر أن يفعل.

والمحل مثل أن تقول هذه الأرض يمكن أن تزرع، وهذه المرأة يمكن أن تحبل، وهذا لا بد له من محل خارجي، فإذا قيل عن الرب يمكن أن يخلق فمعناه أنه يقدر على ذلك

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٢) سورة مريم: الآية ١٩.

ويتمكن منه، وهذه صفة قائمة به، وإذا قيل يمكن أن يحدث حادث، فإن قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث فهو ممتنع، وإذا كان الحدوث لا بد من سبب حادث، فذاك السبب إن كان قائماً بذات الرب فذاته قديمة أزلية. واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئته أو تمام تمكن، .ونحو ذلك لا يكون إلا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره، فلا يحدث حادث مباين إلا مسبوقاً بحادث مباين له.

فالحدوث مسبوقاً بإمكانه، ولا بد لإمكانه من محل. ولهذا لم يذكر الله قط أنه أحدث شيئاً إلا من شيء. والذي يقول أن جنس الحوادث حدثت لا من شيء هو كقولهم أنها حدثت بلا سبب حادث، مع قولهم أنها كانت ممتنعة ثم صارت ممكنة من غير تجدد سبب. بل حقيقة قولهم أن الرب صار قادراً بعد أن لم يكن من غير تجدد شيء، يوجب ذلك.

وهذه الأمور كلها من أقوال الجهمية أهل الكلام المحدث المبتدع المذموم، وهو بناء على أقوالهم أنه تمتنع حوادث لا أول لها. وهؤلاء وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع وأخبرت به الرسل، كما غلطوا في المعقولات. فكل واحد مما يسمى شرعاً وعقلاً وسمعاً قد وقع فيه اشتباه. فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، هذا هو الشرع المنزل، وهو الحق الذي ليس لأحد خلافه. ويطلق على ما يضيفه بعض الناس إلى الشرع إما بالكذب والإفتراء، وإما بالتأويل والغلط، وهذا شرع مبدل لا منزل ولا يجب، بل ولا يجوز اتباعه.

وكذلك لفظ السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله ﷺ، والسنة تذكر في الأصول والإعتقادات، وتذكر في الأعمال والعبادات، وكلاهما يدخل فيما أخبر وأمر به. فما أخبر به وجب تصديقه فيه، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه. ثم كثير من الناس يضيف إلى السنة ما أدخله بعض الناس فيها إما باكذب وإما بالتأويل مثل أحاديث كثيرة ضعيفة بل بموضوعة، واستدلالات بأقواله على ما لا يدل. ومثل أقوال أحدثها قوم انتسبوا إلى السنة في بعض الأمور، مثل إثبات الصفات والقدر، فإن المنتسبين لذلك يضافون إلى السنة، لأن نفاة الصفات والقدر مبتدعة، وكذلك حب الخلفاء الراشدين وموالاتهم يضاف أهله إلى السنة لأن الطاعنين فيهم أهل بدعة. ومثل الإستدلال بالنصوص على موارد النزاع، فإن أهل ذلك يضافون إلى السنة لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث، والمخالفون لذلك يردون الأخبار الصحيحة أو لا يحتجون بالقرآن مبتدعون.

ثم قد يقول المضافون إلى السنة أشياء ليست من السنة، مثل أحاديث كثيرة يروونها في

فضائل بعض الصحابة وهي كذب. ومثل [تقولهم في][1] الحكمة والأسبـاب في مسائـل القدر. ومثل كلامهم في الأجسام والاعراض وتناهي الحوادث، ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسـول. فهـذا ليس من السنة، وإن كـان أهلها وافقـوا في مـواضـع خـالفهم فيهـا من تنـازعهم في هـذه المسائل.

فلا يجب إذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة أن يصيبوا حيث لم يوافقوها. وكذلـك مسمى العقل، فإن مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آيـة، لكن لما أحـدث قوم من الكـلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة، بـل وهو في نفس الأمـر مخالف للمعقـول، وصاروا يسمـون ذلك عقليات وأصول دين، وكلاماً في أصول الدين صار من عرف أنهم مبتدعـة ضلال في ذلـك ينفـر عن جنس المعقول والـرأي والقياس والكـلام والجـدل، فـإذا رأى من يتكلم بهـذا الجنس اعتقده مبتدعاً مبطلاً، كماأن هؤلاء لما رأوا أن جنس المنتسبين إلى السنـة والشرع والحـديث قد أخطأوا في مواضـع وخـالفوا فيهـا صريـح المعقـول، وهم يقولـون أن السنة جـاءت بذلـك صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الأصول بالشرع والسنة ويسمونهم حشوية وعامة، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمـع ما هو محمود ومذموم.

ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محموده ومذمومـه، وخالفـوا مسمى العقل محموده ومذمومه. وأولئك قبلوا مسمى العقل عنـدهم محموده ومـذمومـه وخالفـوا مسمى الشرع محموده ومذمومه، فيجب البيـان والتفصيل والإستفسـار وبيان الفـرقان بين الحق والبـاطل، فـإن ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل والسنـة الغراء وهـو المعقول الحق، وهـو الكلام الصدق، وهو الجدل بالتي هي أحسن. ويـوجب رد ما أدخـل في الشرع والسنـة وليس منها ورد ما سمي معقولاً وهو باطل، وسمي كلاماً صدقاً وهو كـذب وسمي جدلاً بـالتي هي أحسن، وهو جدل بالباطل بغير علم.

ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه من الـدين وتحريف الكلم عن مواضعه. ومضاهاة لأهل الكتاب مما ذمهم الله عليه. والبخاري في أول كتاب خلق أفعـال العباد ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كـلام الله من الجهمية وذكـر من كلام السلف والأئمـة فيهم ما عرف به مقصودهم.

والتبديل نوعان: أحـدهما: أن ينـاقضوا خبـره. والثاني: أن ينـاقضوا أمـره. فإن الله بعثـه بالهدى ودين الحق وهـو صادق فيمـا أخبر بـه عن الله آمر بمـا أمر الله بـه كما قـال: ﴿مَنْ يُطِـع

(١) وردت في الأصل: تقى، ولعل الصواب ما أثبتناه.

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[1]. وأهل التبديل الذين يضيفون إلى دينه وشرعه ما ليس منه، وهم أهل الشرع المبدل تارة يناقضونه في خبره، فينفون ما أثبته أو يثبتون ما نفاه كالجهمية الذين ينفون ما أثبته من صفات الله وأسمائه، والقدرية الذين ينفون ما أثبته من قدر الله ومشيئته وخلقه وقدرته.

والقدرية المجبرة الذين ينفون ما أثبته من عدل الله وحكمته ورحمته، ويثبتون ما نفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه وأمثال ذلك. ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب، ثم أنهم أيضاً يوجبون ما لم يوجبه بل حرمه، ويحرمون ما لم يحرمه بل أوجبه، فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره وموالاة أهلها ومعاداة من خالفها. ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أحدثوه كما أوجبوا النظر في دليل الإعراض الذي استدلوا به على حدوث الأجسام، وقالوا: يجب على كل مكلف أن ينظرفيه ليحصل له العلم بإثبات الصانع. قالوا: لأن معرفة الله واجبة ولا طريق إليها إلا هذا النظر وهذا الدليل، ولما علم كثير من موافقيهم أن الإستدلال بهذا الدليل لم يوجبه الرسول خالفوهم في إيجابهم مع موافقتهم لهم على صحته.

والتحقيق ما عليه السلف أنه ليس بواجب أمراً ولا هو صحيح خبراً بل هو باطل منهي عنه شرعاً. فإن الله تعالى لا يأمر بقول الكذب والباطل بل ينهى عن ذلك. لكن غلطوا حيث اعتقدوا أنه حق وأن الدين لا يقوم إلا على هذا الأصل الذي أصلوه. كما أن طوائف من أهل العبادة والزهد والإرادة والمحبة والتصوف سلكوا طرقاً ظنوا أنه لا يوصل إلى الله إلا بها. ثم منهم من يوجبها ويذم من لم يسلكها، ومنهم من لم ير أن سالكيها أفضل من غيرهم ويوسع الرحمة، لأنه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس مع اعتقادهم أنها طرق صحيحة موصلة إلى رضوان الله، وهي عند التحقيق طرق مضلة إنما توصل إلى رضى الشيطان وسخط الرحمن، كالعبادات التي ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين وخالفوا بها دين المرسلين، فهؤلاء في الأحوال البدعية وأولئك في الأقوال البدعية.

والقول الحق هو القرآن، والحال الحق هو الإيمان، كما قال جندب وابن عمر: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ المُؤمِنِ الذي يَقرأ القُرآن كَمَثَلِ الأُترجةَ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وريحُهَا طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يَقْرأ القُرآن مَثَلُ التمرةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ ولا ريح لهَا، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي يَقرأ القُرآن كَمَثَلِ الريحَانةِ رِيحُها طَيبٌ وطَعْمُهَا مُرٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يَقْرأُ القُرآن مَثَلُ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌ ولاَ رِيحَ لهَا».

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

فالنّاسُ أربعة أصناف: صاحب قول قرآني وَحَال إيماني، فهم أفضل الخلق، وصاحب قول قرآني وحال ليس بإيماني، وصاحب حال إيماني وليس له قول، ومن ليس له لا قول قرآني ولا حال إيماني. وكثير من المنتسبين إلى القول والكلام والعلم والنظر والفقه والإستدلال ابتدعوا أقوالاً تخالف القرآن. وكثير من المنتسبين إلى العمل والعبادة والإرادة والمحبة وحسن الخلق والمجاهدة ابتدعوا أحوالاً وأعمالاً تخالف الإيمان، وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول لكن ملبوس بغيره، وصار كثير من الطائفتين يُنكر ما عليه الأخرى مطلقاً. كما قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء.

وفي كل من الطائفتين شبه أحد من أحد الأمتين، ففي المنتسبين إلى العلم إذا لم يوافقوا العلم النبوي ويعملوا به شبه من اليهود. وفي أهل العمل إذا لم يوافقوا العمل الشرعي ويعملوا بعلم شبه من النصارى. وصار كثير من أهل الكلام والرأي ينكرون جنس محبة الله وإرادته، كما صار كثير من أهل الزهد والتصوف ينكر جنس العلم والكلام والنظر. وأولئك الذين أنكروا محبة الله وإرادته بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجبرة والنافية، وهو أن المحبة والإرادة والرضا والمشيئة شيء واحد، ولا يتعلق ذلك إلا بمعدوم وهو إرادة الفاعل أن يفعل ما لم يكن فعله، فاعتقدوا أن المحبة والإرادة لا تتعلق إلا بمعدوم. فالموجود لا يحب ولا يراد، والقديم الأزلي لا يحب ولا يراد، والباقي لا يحب ولا يراد. فأنكروا أن يكون الله محبوباً أو مراداً، وهم لإنكار كونه يحب أبلغ وأبلغ فلا يثبتون إلا مشيئته أن يخلق فقط وهي لا تتعلق إلا بمعدوم، فأما أن يحب موجوداً من خَلْقهِ فهذا باطل عند الطائفتين، لكن المجبرة يقولون محبته هي مشيئته، وقد شاء خلق كل شيء فهو يحب كل شيء. والنفاة يقولون محبته هي إرادته إثابة المطيعين، وهي مشيئة خاصة، والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين أن الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾. ومثل قوله: ﴿والذينَ آمنُوا أشَدّ حُباً لله﴾[1] وقوله: ﴿قُل إنْ كُنْتُم تُحِبونَ الله فَاتبعوني يُحْبِبكُمُ الله﴾[2].

بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنى كونه معبوداً فحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها أو على المنيبين إلى الله والتوابين إليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره أو المحبين له ونحو ذلك. فهذا كله يتضمن محبته، وما لا يحب ممتنع كونه معبوداً ومألوهاً ومطمأناً بذكره، ومن أطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

ليس بمعبود ولا إله، بل قد يكون الشخص كافراً وظالماً يبغض ويلعن ومع هذا يعمل معه عمل بعوض فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك فلم يثبت الرب إلهاً معبوداً ولا رباً محموداً، وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة، والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته والعمل بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق، لكنه لم يقل أن العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر، بل وقد قال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أخفي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(1). وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «أعددْتُ لِعِبَادي الصَّالِحِين مَا لا عَينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمعتْ ولا خَطَر عَلى قَلبِ بَشَر»، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ فَلا تعلم نفسٌ ما أخْفَى لهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً كَانُوا يَعْمَلون﴾. وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ الله يَا أهلِ الجَنَّةِ إنَّ لَكُم عِندي مَوْعِداً أريدُ أنْ أنجزكموهُ، فيقولون: مَا هُو ألَم تَبْيَضِ وُجُوهُنا وتثقلُ مَوازينُنَا وتُدخِلنَا الجَنَّة وتُجرنَا مِن النَّارِ؟ قَال: فَيُكشِفُ الحجاب فَينظرون إليه، فما أعطاهم شَيئاً أحبُّ إليهم مِن النَظرِ إليهِ، وهي الزيادة». وفي الحديث الذي رواه النسائي: لما صلى عمار فأوجز وقال: دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ بعلمك الغَيب، وقدرتك على الخَلقِ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغَيبِ والشّهادة، وكَلِمة الحَقِّ في الغَضَبِ والرِضا، والقصدُ في الفقرِ والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفُد، وقُرة عَينٍ لا تَنْقَطِعْ، وأسألك الرِضا بَعد القَضاء، وأسألك بَرْد العَيشِ بَعْد المَوْتِ، وأسألك لذَّة النَظَرِ إلى وجْهِك، والشَوق إلى لِقَائِك مِنْ غَيرِ ضَرّاء مُضِرةً، ولا فِتنةً مُضِلّة، اللَّهم زَيِّنّا بزينةِ الإيمان واجْعَلْنَا هُداة مُهْتَدِينَ». وروى نحو هذا من وجه آخر.

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط أهل الجنة أحب إليهم من النظر إليه وسن أن يدعى بلذة النظر إلى وجهه الكريم، وأهل الجنة قد تنعموا من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم، فلما كان نظرهم إليه أحب إليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات. والجنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر إليه، واللذة تحصل بإدراك المحبوب، فلو لم يكن أحب إليهم من كل شيء ما كان النظر إليه أحب إليهم من كل شيء، وكانت لذته أعظم من كل لذة، والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة وهي إسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق وبالخالق، كما أن النار إسم لدار فيها أنواع الآلام، لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر إليه ليس

---

(1) سورة السجدة: الآية ١٧.

من نعيم أهل الجنة. وصار هؤلاء حزبين: حزباً أنكروا التنعيم بالنظر إليه وهم المنكرون للمحبة، حتى قال أبو المعالي ونحوه ممن ينكر محبته أنهم إذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر، بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع النظر.

وكذلك قال من شاركهم في التجهم من أهل الوحدة كابن عربي قال: ما التذ عارف بمشاهدة قط. وادعى أبو المعالي أن إنكار محبته من أسرار التوحيد، وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة. وحكي عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، فقال له: هب أن له وجهاً أله وجه يلتذ بالنظر إليه. وهذا بناء على هذا الأصل، فإنه وشيخه أبا يعلى ونحوهما وافقوا الجهمية في إنكار أن يكون الله محبوباً، واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلاني ونحوه ممن ينكر محبة الله. وجعل القول بإثباتها قول الحلولية.

والجواب الثاني: أن طائفة من الصوفية والعباد شاركوا هؤلاء في أن مسمى الجنة لا يدخل فيه النظر إلى الله، وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته، وعندهم نصيب من الخوف والشوق والغرام، فلما ظنوا أن الجنة لا يدخل فيها النظر إليه صاروا يستخفون بمسمى الجنة ويقول أحدهم: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك. وهم غلطوا من وجهين:

أحدهما: أن ما يطلبونه من النظر إليه والتمتع بذكره ومشاهدته كل ذلك في الجنة.

الثاني: أن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً أو القي في بعض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة. ولهذا قال سمنون:

وليس لي في سواك حظ   فكيفما شئت فامتحني

إبتلى بعسر البول فصار يطوف على المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب. وأبو سليمان لما قال: قد أعطيت من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنت راضياً. ذكر أنه لما ابتلي بمرض فقال: إن لم يعافني وإلا كفرت، أو نحو هذا، والفضيل بن عياض ابتلى بعسر البول فقال: بحبي لك الا فرجت عني. فبذل حبه في عسر البول، فلا طاقة لمخلوق بعذاب الخالق ولا غنى به عن رحمته.

وقد قال النبي ﷺ لرجل: «مَا تَدعُو في صلاتِك؟» قال: أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أما أني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال: «حولها ندندن» ودخل على أعرابي قد صار مثل الفرخ فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء؟» قال: كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي في في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال: «سبحان الله إنك لا تستطيعه ولا تطيقه، هلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

والعدوان في الإرادة والعبادة والعمل حصل من أعراضهم عن العلم الشرعي واتباع الرسول، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبون الله فاتبعُوني يُحببْكُمُ الله﴾[٢]. قال بعضهم: ليس الشأن في أن تحبه، الشأن في أن يكون هو يحبك، وهو إنما يحب من اتبع الرسول، وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه، وأولئك غلطوا بنفي محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة، وقد قال تعالى: ﴿ومِنْ الناسِ مَن يَتَخِذُ مِنْ دُونِ الله أنْداداً يُحبونَهُم كَحُبِّ الله، وَالّذينَ آمَنُوا أشدُ حُباً لله﴾[٣].

فالأقسام ثلاثة: أولئك معطلة للمحبة، وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقاً، وهؤلاء مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة، وأولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود، وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى، وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين، بل الإسلام هو الإستسلام لله وحده. ولفظ الإسلام يتضمن الإسلام ويتضمن إخلاصه لله، وقد ذكر غير واحد حتى أهل العربية كأبي بكر بن الأنباري وغيره.

ومن المفسرين من يجعلهما قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي: إن المسلم هو المستسلم لله، وقيل: هو المخلص. والتحقيق: أن المسلم يجمع هذا وهذا، فمن لم يستسلم له لم يكن مسلماً، ومن استسلم لغيره [ولم][٤] يستسلم له، لم يكن مسلماً، ومن استسلم له وحده فهو المسلم كما في القرآن: ﴿بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجرهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يحْزَنُون﴾[٥] وقال: ﴿وَمَنْ أحْسَنُ ديناً ممَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبرَاهيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ الله إبراهيمَ خَليلاً﴾[٦] والإستسلام له يتضمن الإستسلام لقضائه وأمره ونهيه، فيتناول فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور: ﴿إنَّهُ مَنْ يَتَقِ وَيصبر فَإنَّ الله لَا يُضيعُ أجْرَ المُحسنين﴾[٧]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن وران، حدثنا آدم عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾، يقول: من أخلص لله، قال ابن أبي حاتم: وروى عن الربيع نحو ذلك، وقال: ذكر عن يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبير من أسلم وجهه لله قال: من أسلم أخلص وجهه قال: دينه. وقال أبو الفرج: أسلم بمعنى أخلص. وفي الوجه قولان أحدهما: أنه الدين، والثاني: العمل، وقال البغوي من أسلم وجهه لله أخلص دينه لله.

(١) سورة السجدة: الآية ١٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٥.
(٤) وردت في الأصل: كم، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٥) سورة البقرة: الآية ١١٢.
(٦) سورة النساء: الآية ١٢٤.
(٧) سورة يوسف: الآية ٩٠.

وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل خضع وتواضع لله، وأصل الإسلام الإستسلام والخضوع، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه، وهو محسن في عمله قيل: مؤمن، وقيل مخلص.

قلت: قول من قال خضع وتواضع لربه، هو داخل في قول من قال أخص دينه أو عمله أو عبادته له، فإن هنا إنما يكون إذا خضع له وتواضع له دون غيره، فإن العبادة والدين والعمل له لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع، وهو مستلزم لذلك، ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده، فذكروا المعنيين الإستلزام، وأن يكون لله.

قول من قال خضع وتواضع لله يتضمن أنه أخلص عبادته ودينه لله، فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله، يتضمن أيضاً أنه أخلص عبادته ودينه لله فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره، وأما ذكره التوجه فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع، وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له، وذكر إقامة الوجه له في قوله﴿فَأَقِمْ وجْهَك للدينِ﴾(1) وذكر توجيه الوجه له في قوله: ﴿إني وجّهْتُ وجْهي لِلّذي فَطَر السّمَوات والأرْض﴾(2) لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب، والقلب هو الملك، فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً إليها، ولا يمكن للوجه أن يتوجه بدون القلب، فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزماً لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه، وذلك يستلزم إسلام كله لله، وتوجيه كله لله، وإقامة كلها لله، وبسط الكلام على ما يناسب ذلك. وهذا حقيقة دين الإسلام.

لكن الذين أنكروا ذلك لهم شبهتان: إحدهما أن المحبة تقتضي المناسبة، قالوا وهي منتفية فلا مناسبة بين المحدث والقديم فيقال لهم: هذا كلام مجمل تعنون بالمناسبة الولادة أو المماثلة، نحو ذلك مما يجب تنزيه الرب عنه، فإن الشيء ينسب إلى أصله بأنه ابن فلان وإلى فرعه بأنه أبو فلان، وإلى نظيره بأنه مثل فلان، ولما سأل المشركون النبي ﷺ عن نسب ربه أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُو الله أحَدْ، الله الصمَدْ، لَمْ يَلِد ولَمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ كفواً أحدٌ﴾(3) فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل، فإن عنيتم هذا لم نسلم أن المحبة لا بد فيها من هذا.

وإن أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفاً بمعنى يحبه المحب فهذا لازم للمحبة، والرب متصف بكل صفة تحب، وكل ما يحب فإنما هو منه، فهو أحق بالمحبة من كل محبوب،

---

(1) سورة الروم: الآية ٣٠.
(2) سورة الأنعام: الآية ٧٩.
(3) سورة الاخلاص: الآية ١.

وإذا كـان الإنسان يحب المـلائكة وهم من غير جنسه لمـا اتصفـوا بـه من الصفـات الحميـدة، فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الـذي كلما اتصفت بـه الملائكـة وغيرهم فهـو من جوده وإحسانه وهو العزيز الرحيم إذ كان المخلوق كثيراً مـا يتصف بالعـزة دون الرحمـة، أو تكون فيـه رحمة بلا عزة، وهو سبحانه العزيز الرحيم الغفور الودود المجيد. والودود فعول من الود(١).

وقـال شعيب ﴿إنَّ ربي رحيمٌ ودودٌ﴾(٢) وقال تعـالى: ﴿وهُـو الغَفـورُ الـودُودُ﴾(٣) فقـرنـه بالرحيم في موضـع وبالغفور في موضـع. قال أبو بكر ابن الانباري: الودود معناه المحب لعبـاده من قـولهـم: وددت الـرجـل أوده وداً ووداً، ويقـال: وددت الـرجـل وداداً وداداً ووداداً ووددادة. وقـال الخطابي: هو إسم مأخوذ من الود وفيه وجهـان: أحدهمـا أن يكون فعـولاً في محل مفعـول كما قيل: رجل هيوب بمعنى مهيب، وفرس ركوب بمعنى مركوب.

والله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من احسانه إليهم. والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يوده عباده الصالحين بمعنى أنه يـرضى عنهم ويتقبل أعمـالهم، ويكون معنـاه أن يـوددهـم إلى خلقه كقـولـه: ﴿سَيَجْعَـلُ لَهُم الـرَّحمَّنُ وِداًّ﴾(٤) قلت: قـولـه: ﴿سيجعـلُ لَهمُ الـرَّحمَنُ وداًّ﴾ فسروهـا بأنـه يحبهم ويحببهم إلى عباده، كمـا في الصحيحين عن النبـي ﷺ أنه قال: «إذا أحبَّ الله العبد نَـادى يَا جبْـريلُ اني أُحِبُ فـلاناً فـأحبهُ فَيُحبـهُ جبريـل، ثُمَّ يُنَادي في السمَاء إنَّ الله يُحِبُّ فُلاناً فَاحبوهُ فَيُحبهُ أهْلُ السَّمَاء، ثُمَّ يُوضعُ لَهُ القَبُولُ في الأرْضِ». وقال في البغض مثـل ذلك. وقـال عبد بن حميـد انبأ عبيـد الله بن مـوسى عن ابن ليلى عن الحكم، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الـرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ قال: يحبهم ويحببهم ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، وقال عبد(٥): أخبرني شبابـة عن ورقاء عن ابن أبي نجيـح عن مجاهـد: ﴿سَيجعلُ لُهمُ الرَّحْمَنُ وِدّاً﴾ قال: يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين.

أخبـرنـا عبـد الـرازق عن الثـوري عن مسلم عن مجـاهـد عن ابن عبـاس ﴿سَيَجْعَـلُ لُهم الرَّحْمَنُ وِدّاً﴾ قال: محبة، وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله: ﴿سيَجعل لهم الرحمن وداً﴾ وهو نظير قولـه: ﴿قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّـون الله فَاتبِعُـوني يُحْبِبْكُم الله﴾، فهو يحبهم إذا اتبعـوا

---

(١) قال ابن الأثير: الـودود في أسماء الله تعـالى فعول بمعنى مفعـول، من الود والمحبـة، أو هو مفعـول بمعنى فاعل أي يحب عباده الصالحين بمعنى يرضى عنهم.

(٢) سورة هود: الآية ٩٠.

(٣) سورة البروج: الآية ١٤.

(٤) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٥) أي عبد بن حميد.

الرسول. ونظير قوله في الحديث الصحيح: «ولا يَزَالُ عَبدي يَتَقَرَّبُ إلي بالنَوافِلِ حَتى أحبَّهُ فإذا أحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بـهِ وَيَدَهُ التي يَبطُشُ بها وَرِجْلَهُ التي يَمشي بهَا».

وكـذلـك قـولـه ﴿واحسنـوا إنَّ الله يُحِبُ المحسنين﴾[1] ﴿إنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابين ويحب المتـطهرين﴾[2] ﴿إنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقين﴾. ﴿إنَّ الله يُحِبُّ الـذين يُقاتِلون في سبيلِهِ صفّـاً كأنَّهُمْ بُنيانٌ مرصـوص﴾[3]. وهذه الآيـات وأشباههـا تقتضي أن الله يحب أصحاب هـذه الأعمال فهـو يحب التـوابين، وإنما يكـونون تـوابين بعد الـذنب، ففي هـذه الحـال يحبهم، وهـذا مبني على الصفات الإختيارية، فمن نفاهـا رد هذا كله، ولهم قـولان: أحدهمـا: أن المحبة قـديمة، فهـو يحبهم في الأزل إذا علم أنهم يموتون على حال مرضية، ويقولون: إنَّ الله يحب الكفار في حال كفـرهم إذا علم أنهم يمـوتـون على الإيمـان، ويبغض المؤمن إذا علم أنـه يـرتـد، هـذا قـول ابن كـلاب ومن تبعه. ثم منهم من يفسـر المحبة بـالإرادة. ومنهم من يقول هي هي زائـدة على الإرادة.

والقول الثاني: يجعلون هذا من باب الفعل، فالمحبـة عندهم إحسـانه إليهم، والإحسـان عندهم ليس فعلاً قائماً به بل بائناً عنـه، والكتاب والسنـة وأقوال السلف والأئمـة والأدلة العقليـة إنمـا تدل على القـول الأول كما قـد بسط في غير هـذا الموضـع، إذ المقصـود هنـا ذكـر إسمـه الودود، والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل هو الواد، كما قـرنه بـالغفور وهو الذي يغفر وبالرحيم وهو الذي يرحم.

قـال ابن أبي حاتم: حـدثنا أبي ثنـا عيسى بن جعفر الـري، ثنا سفيـان في قولـه «إن ربي رحيم ودود» قـال: محب، وقال: قـرىء على يونس ثنـا ابن وهب قـال: وقـال ابن زيـد قـولـه: ﴿الودود﴾ قال: الرحيم، وقد ذكر فيه قولين:

القول الأول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله ﴿الودود﴾ قال الحبيب.

والثاني: قول ابن زيد الرحيم. ومـا ذكره الـوالبي الحبيب قد يـراد به المعنيـان أنه يحب، فإن الله يحب من يحبه واولياؤه يحبهم ويحبونه، والبغوي ذكـر الأمرين فقـال: وللودود معنيان أن يحب المؤمنين، وقيل: هو بمعنى المـودود أي محبوب المؤمنين. وقـال أيضاً في قـوله: ﴿وهُـو

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٣) سورة الصف: الآية ٣.

﴿الغَفُـورُ الودُود﴾ أي المحب لهم، وقيـل: معناه المـودود كالحلوب والـركـوب بمعنى المحلوب والمركوب، وقيل: يغفر ويـود أن يغفر، وقيـل: المتودد إلى أوليـائه بـالمغفرة قلت: هـذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي ﷺ «تَزوجُوا الودُود الولُـودَ» وفعول بمعنى فـاعل كثير كالصبور والشكور، وأما بمعنى مفعول فقليـل، وأيضاً فـإن سياق القـرآن يدل على أنـه صح أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الـذي يرحمهم ويغفـر لهم فإن شعيبـاً قال: ﴿واستغفـروا ربكم ثم توبوا إليـه إن ربي رحيم ودود﴾، فذكـر رحمته ووده كمـا قال تعـالى: ﴿وجَعَل بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورحْمَةً﴾[1]. وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كـونه ودوداً كما قال أن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحـاح من غير وجـه عن النبـي ﷺ: «أن الله يَفْرحُ بتَوْبَةِ التَائبِ أشَـدَّ مِنْ فَرحٍ مَنْ فَقِـد راحِلَتَهُ بـأرض دوية[2] مُهلِكـة ثُمَّ وجَدهَا بعد اليأْسِ» فهذا الفَرحُ منه بتوبة التائب يناسب محبته لـه ومـدته لـه، وكذلـك قولـه في الآية الأخرى ﴿وهُو الغَفُورُ الودُودُ﴾فإنه مثل قوله ﴿وهُو الغفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأيضاً في كونه مـودوداً أي محبوباً يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل الإسم الإله فـإن الإله المعبـود هو مودود بذلك، ومثل اسمه الصمد مثل ذي الجلال.والإكرام، ونحـو ذلك. وكـونه مـودودٌ ليس بعجيب، وإنما العجب جوده وإحسانه، فإنه يتـودد إلى عباده كمـا جاء في الأثـر: «يَا عَبـدِي كَمْ أتودَّدُ إليك بـالنِعمِ، وأنْت تَتَمَقَتُ إليَّ بالمعـاصي، ولا يَزالُ مَلِكُ كَـرِيمٌ يَصْعَدُ إليَّ مِنـك بعَمَلٍ سَيِءٍ» وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «مَنْ تَقَرَّب إليَّ شبراً تقـربتُ إليهِ ذراعاً ومَنْ تَقَرَّبَ مني ذراعاً تَقَرَّبْتُ إليهِ بَاعاً ومَنْ أتَاني يمشي أتيتُهُ هَرْولة».

وجـاء في تفسير اسمـه: الحنان المنـان، أن الحنـان الـذي يقبـل على من أعـرض عنـه، والمنان الذي يجود بالنوال قبل السؤال، وأيضاً فمبدأ الحب والود منه لكن اسمـه والودود يجمـع المعنيين، كما قال الوالبي عن ابن عباس أنـه الحبيب، ذلك أنـه إذا كان يـود عباده فهـو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة. ولهـذا من قال أنـه يحب المؤمنين قال: إنهم يحبـونه، فـإن كثيراً من الناس يقول أنه محبوب وهـو لا يحب شيئاً مخصـوصاً، لكن محبتـه بمعنى مشيئته العـامة، ومن الناس من قال أنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين، فـالقسمة في المحبـة رباعيـة، فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين، قالوا: إنه يحب ويحب. والجهميـة والمعتزلـة تنكر الأمـرين، ومن الناس من قال: أنه يحب المؤمنين. وأما هو فلا يحب شيئـاً دون شيء، ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون أنه يرحم ولا يرحم، فـإذا قيل: إن الـودود

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢) أي الصحراء.

بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس، فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود، وإن كان ذلك متضمناً لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط، ولفظ الوداد بالكسر هو مثل الموادة والتواد، وذاك يكون من الطرفين كالتحاب، وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه، وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذ أوجدهما بعد اليأس، وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض، كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله، فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِداً﴾ قال: يحبهم ويحببهم وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه، وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه، وبسط هذا له موضع آخر.

وفي مناجاة بعض الداعين ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك، العجب من حبك لي مع غناك عني. وفي أثر آخر: يا عبدي وحقي إني لك محب فبحقي عليك كن لي محباً. وروى: يا داود حببني إلى عبادي وحبب عبادي إلي، مرهم بطاعتي فأحبهم، وذكرهم آلائي فيحبوني فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل، وهو سبحانه كما قال خلقه فإنه من نعمه على عباده ولهذا يقول: ﴿فبأيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تكَذِّبان﴾[1]. والخبر بيديه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه، ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه كما قال: ﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ سيَجعلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِداً﴾[2] وقال: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِرينَ﴾[3] فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة، فإنه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين.

ولهذا قال شعيب: ﴿واستَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُم تُوبُوا إليه إنَّ رَبي رَحيمٌ وَدودٌ﴾[4]. وقال هنا: ﴿وَهُوَ الغفُورُ الوَدُودُ﴾. فذكر الودود في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ١٣.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) سورة هود: الآية ٩٠.

والحجة الثانية لهم قالوا: إن الإرادة والمحبة لا تتعلق إلا بمعدوم يراد فعله، فإنه لو جاز أن يراد الموجود وأن يراد القديم، لجاز إن يكون العالم قديماً مع كونه مراداً مقدوراً، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة، فإن القائلين أنه موجب بذاته والعالم قديم، منهم من يصفه بالإرادة كأبي البركات وغيره قالوا: ومن المعلوم بالإضطرار للعقلاء إذ قالوا هذا الأمر حصل بالإرادة أن يكون محدثاً كائناً بعد إن لم يكن، ولهذا لا يجوز أن يقال إن قدرته ومشيئته تعلقت بوجوده ولا ببقائه، ولا بكونه حياً، ومن قال أن صفاته قديمة الأعيان لا يقول إن كلامه وإرادته حصلت بإرادته وقدرته، فيقال هذا الذي قالوه صحيح لكن هنا نوعان أحدهما: إرادة أن الشيء ويكون فهذه لا تكون إلا مع حدوثه، والثانية: محبة نفس ذاته من غير أن يفعل في الذات شيء، فهذه التي تتعلق بالموجود والباقي والقديم وإرادة الفعل تابعة لهذه، فإنه لولا أن تكون الإرادة متعلقة بنفس الشيء الموجود امتنع أن يراد إيجاده، فإن من أراد أن يبني بيتاً ليسكنه إنما مراده نفس البيت لسكناه والإنتفاع، وإنما البناء وسيلة إلى ذلك، ولولا إرادة الغاية المقصودة بالذات لم ترد الوسيلة، وإذا بناه فهو مريد له بعد البناء، ولهذا يكره خرابه وزواله، وكذلك من أراد أن يلبس ثوباً فلبسه فهو في حال اللبس مريد به، فمن أراد إحداث أمر وفعله كانت إرادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل هي العلة الغائبة والفعل المطلوب لغاية لفاعله إرادتان، إرادة الفعل وإرادة الغاية، وهذه هي الأصل وتلك تبع لهذه، والإرادة إرادة لا تتعلق بالمعدوم من جهة كونه معدوماً، بل تتعلق بوجود الفعل لكن يمتنع أن يراد فعله إلا إذا كان معدوماً.

فالعدم شرط في إرادة فعله، ولهذا جعل من جملة علل الفعل، ولهذا كان جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث، وكل ما أريد أن يفعل فإنه يكون حادثاً، وكل ما تعلقت المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث، ثم من الناس من يقول هذا مختص بكونه مفعولاً بالإختيار، وإلا إذا كان معلولاً لعلة موجبة لم يلزم حدوثه وهو غلط، بل كل ما فعل فلا يكون إلا محدثاً سواء كان ذلك ممكناً أو ممتنعاً بل نفس كونه مفعولاً مستلزم حدوثه، ونفس تصور العلم بكونه مفعولاً يوجب العلم بحدوثه وإن لم يخطر بالبال كونه مفعولاً بالقدرة والإختيار، ثم قد يقال: ما من مفعول إلا وهو مفعول بالإختيار، والقديم إذا قدر فاعلاً بلا مشيئة كان ذلك ممتنعاً، والموجب بالذات إذا قيل هو موجب بذاته المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاؤه، وهذا حق وهو مستلزم لكونه فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأما موجب بلا مشيئة أو موجب يقارنه موجبه، فهذان باطلان وبهما ضل من ضل من المتفلسفة القائلين بقدم الفلك، ونفي الصفات، ولكن من أراد إحداث شيء وأحدثه لم يجب أن تنقطع إرادته، بل قد يكون مريداً له ما دام موجوداً، ولولا أنه مريد لوجوده لما فعله، فكلما شاء الرب وجوده فهو مريد لإحداثه وبقائه ما دام باقياً، وأما الإرادة

والمحبة المتعلقة فليست إرادة فعل فيه بل هي محبة ذاته، وكل إرادة ومحبة فلا بد أن تنتهي إلى محبوب لذاته، وكل فاعل بالإرادة فإرادته تستلزم محبة عامة لأجلها فعل، فالحب أصل وجود كل موجود والرب تعالى يحب نفسه.

ومن لوازم حبه نفسه أنها محبة مريدة لما يريد أنه يريد أن يفعله، وما أراد فعله فهو يريده لغاية يحبها، فالحب هو العلة الغائية التي لأجله كان كل شيء، والمتفلسفة يصفونه بالإبتهاج والفرح كما جاءت به النصوص النبوية، لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الأمور الإلهية، فإنهم يقولون: اللذة إدراك الملائم من حيث هو ملائم وهو مدرك لذاته بأفضل إدراك فهو أفضل مدرك لأفضل مدرك بأفضل إدراك، وقد قصروا في ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن اللذة والفرح والسرور ولابهجة ليس هو مجرد الإدراك موجب له ولا بد في وجوده من محبة. فهنا ثلاثة أمور محبة وإدراك لمحبوب ولذة تحصل بالإدراك، وهذا في اللذات الدنيوية الحسية وغيرها فإن الإنسان يشتهي الحلو ويحبه، فإذا ذاقه التذ بذوقه والذوق هو الإدراك، وكذلك في لذات قلبه يحب الله، فإنه إذا ذكره وصلى له وجد حلاوة ذلك كما قال ﷺ: «جُعِلَتْ قُرة عيني فيِ الصلاةِ»، وأهل الجنة إذا تخلى لهم فنظروا إليه قال: فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظرِ إليه، والله أعلم.

***

فصل
محبة الله والإرادة

في تمام القول في محبة الله وانقسام المراد إلى ما يراد لذاته وإلى ما يراد لغيره، ثم ذلك الغير لا بد أن يكون مراداً لذاته، فالمراد الحركة لازم لجنس الإرادة، والإرادة لازمة لجنس الحركة، فإن الحركة القسرية مستلزمة للحركة الإرادية، والحركة الإرادية مستلزمة لمراد لذاته، فكان جنس الحركات الموجودة في العالم مستلزمة للمراد لذاته، وهو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته، وهو الله لا إله إلا هو، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره وهو المشرك فإنه كما قال تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أو تهوي به الريحُ في مَكانٍ سَحِيقٍ﴾[1]. فإن قوام الشيء بطبيعته الخاصة به، فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الإرادية، وقوامها بالمراد لذاته، فإذا لم يكن حركتها لإرادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام، بل بقيت ساقطة خارة كما ذكر الله تعالى، ولهذا يهوي في الهاوية، وهو ذنب لا يغفر لأنه فسد الأصل، كالمريض الذي فسد قلبه لا ينفع مع ذلك إصلاح أعضائه، ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة ودعاء المسألة، فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به، ودعاء المسألة يكون المراد منه كما في قول المصلي: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. فالعبادة إرادته، والإستعانة وسيلة إلى العبادة إرادة المقصود، وإرادة الإستعانة إرادة الوسيلة إلى المقصود، ولهذا قدم قوله: إياك نعبد، وإن كانت لا تحصل إلا بالإستعانة، فان العلة الغائية مقدمة في التصور والقصد وإن كانت مؤخرة في الوجود والحصول، وهذا إنما يكون لكونه هو المحبوب لذاته.

لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به، فيعبر عنها بلفظ الإنابة والعبادة ونحو ذلك إذا كان لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة، فلا يرضى لله بالقدر المشترك، بل إذا ذكر من يحب غير الله، قال من يحب غير

---

(١) سورة الحج: الآية ٣١.

الله، قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشـدُّ حُباً لله﴾ وإذا ذكـر محبتهم لربهم ذكـرت محبته وجهـادهم كمـا في قولـه ﴿فَسَوفَ يـأتي الله بقَوم يُحبُّهم وَيُحِبـونَهُ أذلـةٍ على المؤمنينَ أعزَّة على الكـافـرينَ يُجَـاهِدُونَ في سبيـلِ الله وَلاَ يَخافُـونَ لَوْمَـةَ لائم﴾(١). وفي مثل قـولـه: ﴿أحَبُّ إليكم مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ في سَبيلِهِ﴾(٢). ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كمـا قال تعـالى: ﴿ألاَ بِذِكْـرِ الله تَطمئِنُّ القُلوبُ﴾(٣). فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره وهو تعالى: إذا ذكـر وجلت فحصل لها اضطراب ووجل، لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نصيبها منه. فـالوجـل إذا ذكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينـة، لأنه هـو المعبود لـذاته والخير كله منه قـال تعالى: ﴿ نَبِىء عِبَـادِيَ أنيِّ أنَـا الغَفُـورُ الـرَّحِيمُ وأن عَـذَابيَ هُـوَ العَـذَابُ الأليمُ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿إعلموا أنَّ الله شَدِيدُ العِقَاب وأنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ﴾. وقال علي رضي الله عنه: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد إلا ذنبه. فـالخوف الـذي يحصل عنـد ذكره هـو بسبب من العبد، وإلا فذكر الرب نفسـه يحصل الـطمأنينـة والأمن، فما أصـابك من حسنـة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ـ كما قال ذلك المريض الذي سئل كيف تجدك؟ فقـال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: «مَـا اجتَمَعَا في قَلبِ عَبْـدٍ في مثلِ هـذا المَوطِنْ إلا أعطَاهُ الله مَا يَرجُوا ممّا يَخَافُ».

ولم يقل بذكر الله توجل القلوب [بل](٥) كما قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، بل قـال: إذا ذكـر الله وجلت قلوبهم، ثم قـال: ﴿وإذا تليت عليهم آيـاتـه زادتهم إيمـانـاً وعلى ربهم يتوكلون﴾، وإنما يتوكلون عليه لطمأنينتهم إلى كفايته، وأنه سبحانه حسب من توكل عليه يهـديه وينصره ويرزقـه بفضله ورحمته وجـوده، فالتـوكل عليـه يتضمن الطمـأنينة إليـه والاكتفاء بـه عما سواه. وكذلك قال في الآيـة الأخرى ﴿فَـإلهُكُمْ إلَهٌ وَاحِـدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّـر المُخبتينَ الّذينَ إذا ذُكِـرَ الله وَجَلَتْ قُلُوبُهم والصَّـابـرِينَ عَلى مـا أصَـابِهم والمُقيمي الصَّـلاةَ، وَممّـا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقـونَ﴾(٦)، فهم مخبتـون، والمخبت: المـطمئن الخـاضـع لله، والأرض الخبت المـطمئنـة، وروى ابن أبي حـاتم من حديث ابن مهـدي عن الثوري عن ابن أبي نجيـح ﴿وبشـر المختبين﴾ قال: المطمئنين، وعن الضحاك: المتواضعين، فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل، وكما قال في وصف القرآن [أنه](٧) ﴿تقشعر منه الجلود الذين يخشـون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكـر الله﴾، فذكـر أنه بعـد الإقشعرار تلين جلودهـم وقلوبهـم

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.
(٢) سورة التوبة: الآية ٢٥.
(٣) سورة الرعد: الآية ٣٠.
(٤) سورة الحجر: الآية ٤٩.
(٥) وردت في الأصل: كما، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٦) سورة الحج: الآية ٣٤ و ٣٥.
(٧) زيدت على الأصل لسياق العبارة.

إلى ذكر الله، فذكره بالذات يوجب الطمأنينة، وإنما الإقشعرار والوجل عارض بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه والتعدي لحده، فهو كالزبد [لا][1] ينفع الناس [فيذهب][2] جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض فالخوف مطلوب لغيره ليدعو النفس إلى فعل الواجب وترك المحرم، وأما الطمأنينة بذكره وفرح القلب به ومحبته فمطلوب لذاته، ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة فيلهمون التسبيح كما يلهمون النفس.

والمتفلسفة رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة: حسية ووهمية وعقلية، والحسية في الدنيا غايتها دفع الألم، والوهمية خيالات وأضغاث، واللذة الحقيقة هي العلم، فجعلوا جنس العلم غاية، وغلطوا من وجوه: أحدها: أن العلم بحسب المعلوم محبوباً تكمل النفس بحبه كان العلم به كذلك، وإن كان مكروهاً كان العلم به لحذره ودفع ضرره، كالعلم بما يضر الإنسان من شياطين الإنس والجن، فلم يكن المقصود نفس العلم بل المعلوم، ولهذا قد يقولون: سعادتها في العلم بالأمور الباقية، وأنها تبقى ببقاء معلومها، ثم يظنون أن الفلك والعقول والنفوس أمور باقية، وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس. وأبو حامد في مثل معراج السالكين ونحوه يشير إلى هذا، فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلفسة، ولهذا كان في كتبه كالأحياء وغيره يجعل المعلوم بالأعمال، والأعمال كلها إنما غايتها هو العلم فقط، وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة، وكان يعظم الزهد جداً ويعتني به أعظم من اعتنائه بالتوحيد الذي جاءت به الرسل، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فإن هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده، وترك محبة المخلوق مطلقاً إلا إذا أحبه الله فيكون داخلاً في محبة مع الله، فإن هذا شرك، وهؤلاء المتفلسفة إنما يعظمون تجريد النفس عن الهيولى، وهي المادة، وهي البدن، وهو الزهد في أغراض البدن وهو الزهد في الدنيا، وهذا ليس فيه إلا تجريد النفس عن الأشتغال بهذا فتبقى النفس فارغة فيلقي إليها الشيطان ما يلقيه، ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق، وغايته وجود مطلق هو في الأذهان لا في الأعيان، ولهذا جعل أبو حامد السلوك إلى الله ثلاثة منازل بمنزلة السلوك إلى مكة، فإن السالك إليها له ثلاثة أصناف من الشغل: الأول تهيئه الأسباب كشراء الزاد والرحالة وخرز الرواية، والثاني: السلوك، ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل، والثالث: الاشتغال بأركان الحج ركناً بعد ركن، ثم بعد النزوع عن لبسة الإحرام، وطواف الوداع ، استحق التعرض للملك والسلطنة

(١) زيدت على الأصل لسياق العبارة.

(٢) وردت في الأصل: مع ما، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) وردت في الأصل: الزبد يذهب، ولعل الصواب ما أثبتناه.

قال: فالعلوم ثلاثة: قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات، وطلوع تلك العقبة الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقون، قال: فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله، وكما لا يغني علم المنازل وطريق البوادي دون سلوكها. فكذا لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، لكن المباشرة دون العلم غير ممكن قال: وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه، وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وأفعاله، وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة، قال: وههنا نجاة وفوز بالسعادة، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد وهو السلامة، وأما الفوز بالسعادة فلا ينالها إلا العارفون، فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح والريحان وجنة ونعيم.

وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[1]. وقال: وكل من لم يتوجه إلى المقصد أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال بالأمر والعبودية بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين، فله نزل من حميم وتصليه جحيم قال: واعلم أنه هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم، أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن، ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الأبصار، وترقوا فيه عن حد التقليد إلى الاستبصار. قلت: وكلامه من هذا الجنس كثير، ومن لم يعرف حقيقة مقصده فهو له مثل هذا الكلام، لأن صاحبه يتكلم بخبره ومعرفة بما يقوله لا بمجرد تقليد لغيره، لكن الشأن فيما خبره هل هو حق مطابق، ومن سلك مسلك المتكلمين الجهمية والفلاسفة ولم يكن عنده خبرة بحقائق ما بعث به رسوله وأنزل به كتبه، بل ولا بحقائق الأمور عقلاً وكشفاً فإن هذا الكلام غايته.

أما من عرف حقيقة ما جاءت به الرسل أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية والمكاشفات الشهودية صدقهم فيما أخبروا به، فإنه يعلم غاية مثل هذا الكلام وأنه إنما ينتهي إلى تعطيل، ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال: كلام أبي حامد يشوقك فتسير خلفه وهو يشوقك فتسير خلفه منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء، وهذا الذي جعله هنا الغاية، وهو معرفة الله وصفاته وأفعاله وملائكته قد ذكره في المضنون به على غير أهله، وهو فلسفة محضة قول المشركين من العرب خير منه دع قول اليهود والنصارى، بل قوم نوح وهود وصالح ونحوهم كانوا يقرون بالله وبملائكته وصفاته وأفعاله خيراً من هؤلاء، لكن

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٩١.

لم يقروا بعبادته وحده لا شريك له، ولا بأنه أرسل رسولاً من البشر، وهذا حقيقة قول هؤلاء، فإنهم لا يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ولا يثبتون حقيقة الرسالة، بل النبوة عندهم فيض من جنس المنامات، وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا الجنس، فإن هذا الجنس موجود لجميع بني آدم، ومع هذا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقرون بالملائكة كما قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُم صَاعِقَةً مثلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إذ جَاءتهُم الرُّسُلُ مِن بَين أيديهِمْ وَمِنْ خَلفِهِمْ ألاَّ تَعبُدُوا إلا الله قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبنَا لأنزَلَ مَلائِكَةً﴾[1] وقال قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثلُكُم مَا سَمِعنَا بهَذا في آبَائِنا الأولين﴾ [2] بل فرعون قال لموسى: ﴿أَمْ أَنَا خَيرٌ مِنْ هَذا الّذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يبين، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مُقْتَرِنين فاستخفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعوهُ أنهم كَانُوا قَوماً فَاسِقينَ﴾[3].

والعبادات كلها عندهم مقصودها الأخلاق، والشريعة سياسة مدنية، والعلم الذي يدعون الوصول إليه لا حقيقة لمعلومه في الخارج، والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر، فالأعمال عبادة الله، والعلوم تصديق الرسول، وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص، وتارة﴿قُولُوا آمَنّا بالله وَمَا أُنزِلَ إلينَا﴾[4] الآية... فإنها تتضمن الإيمان والإسلام، وبالآية من آل عمران ﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[5]. والذين سلكوا خلف أبي حامد أو ضاهوه في السلوك كابن عربي صرحوا بحقيقة ما وصلوا إليه، وهو أن الوجود واحد، وعلموا أن أبا حامد لا يوافقهم على هذا فاستضعفوه ونسبوه إلى أنه مقيد بالشرع والعقل، وأبو حامد بين علماء الفلاسفة، علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما خالف دين الإسلام، والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام، وعلى كونه لم ينسلخ عنه بالكلية إلى قول الفلاسفة، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه:

يوماً يَمانٍ مَا جِئتَ ذا يمنٍ … وإنْ لَقَيتَ مَعدياً فعدْنانِ

وأبو نصر القشيري وغيره ذَموه علىَ الفلسفة وأنشدوا فيه أبياتاً معروفة يَقولون فيها:

بَرِئْنَا إلى الله مِن مَعشرٍ … بهم مَرَضٌ مِنْ كتابِ الشِفا[6]
وَكم قُلتُ يَا قَوم أنتُم عَلى … شَفَا حُفْرةٍ مَا لَها مِن شَفَا
فَلَما استَهَانُوا بِتَعْرِيفِنَا … رجعنا إلى الله حَتى كَفَا
فَمَاتوا عَلى دينِ برسطَالس … وَعِشْنَا عَلى سُنّةِ المُصْطفى

(١) سورة السجدة: الآية ١٣.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٢ ـ ٥٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
(٦) أي كتاب الشفا لابن سينا.

ولهذا كانوا يقولون: أبو حامد قد أمرضه الشفاء، وكذلك الطرطوسي والمازري وابن عقيل، وأبو البيان وابن حمدين، ورفيق أبي حامد أبو نصر المرغيناني، وأمثال هؤلاء لهم كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة، ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير، ولهذا لما سلك خلفه ابن عربي وابن سبعين، كان ابن سبعين في كتاب اليد وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب في كلام أبي حامد، ويجعل المراتب خمسة: أدناها الفقيه، ثم المتكلم، ثم الفيلسوف، ثم الصوفي الفيلسوف وهو السالك، ثم المحقق.

وابن عربي له أربع عقائد: الأولى: عقيدة أبي المعالي واتباعه مجردة عن حجة. والثانية: تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية. والثالثة: عقيدة الفلاسفة [كإبن][(1)] سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن. والرابعة: التحقيق الذي وصل إليه وهو أن الوجود واحد، وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في ميزان العمل، وهو أن الفاضل له ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلاً، وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام. والثالثة لا يطلع عليه أحد إلا الخواص.

ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك إبن سينا، ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع منها الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة وغير ذلك، فإنه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة، وكنت لما دخلت إلى مصر بسببهم، ثم صرت في الإسكندرية جاءني من يعرف حقيقة أمرهم وقال: إن كنت تشرح لنا كلام هؤلاء وتبين مقصودهم ثم تبطله، وإلا فنحن لا نقبل منك كما لا نقبل من غيرك، فإن هؤلاء لا يفهمون كلامهم، فقلت: نعم أنا أشرح لك ما شئت من كلامهم مثل كتاب اليد والإحاطة لابن سبعين وغير ذلك، فقال لي: لا، ولكن لوح الأصالة فإن هذا يعرفون وهو في رؤوسهم؛ فقلت له: هاته، فلما أحضره شرحته بيناً حتى تبين له حقيقة الأمر، وإن هؤلاء ينتهي أمرهم إلى الوجود فقال: هذا حق.

وذكر لي أنه تناظر إثنان: متفلسف سبعيني، ومتكلم على مذهب ابن التومرت فقال ذاك: نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق، فقال الآخر: ونحن كذلك أمامنا. قلت له: والمطلق في الأذهان لا في الأعيان فتبين له ذلك وأخذ يصنف في الرد عليهم، ولم أكن أظن ابن التومرت

(١) وردت في الأصل إبن، ولعل الصواب ما أثبتناه.

يقول بالوجود المطلق حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط فوجدته كذلك. وأنه كان يقول الحق حقان: الحق المقيد والحق المطلق وهو الرب، وتبينت أنه لا يثبت من الصفات ولا ما يتميز موجود عن موجود، فإن ذلك يقيد شيئاً من الإطلاق، وسألني هذا عما يحتجون به من الحديث مثل الحديث المذكور في العقل وأن أول ما خلق الله تعالى العقل، ومثل الحديث: كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف، وغير ذلك. فكتبت له جواباً مبسوطاً وذكرت أن هذه الأحاديث موضوعة، وأبو حامد وهؤلاء لا يعتمدون على هذا، وقد نقلوه إما من رسائل أخوان الصفا، أو من كلام أبي حيان التوحيدي، أو من نحو ذلك، وهؤلاء في الحقيقة هم من جنس الباطنية الإسماعيلية، ولكن أولئك يتظاهرون بالتشيع والرفض، وهؤلاء غالبهم يميلون إلى التشيع ويفضلون علياً رضي الله عنه، ومنهم من يفضله بالعلم الباطن ويفضل أبا بكر رضي الله عنه في العلم الظاهر، كأبي الحسن الحرلي وفيه نوع من مذهب الباطنية الإسماعلية لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء ولا أظنه يفضل غير الأنبيآء عليهم فهو أنبل من هؤلاء من وجه، لكنه ضعيف المعرفة بالحديث والسير وكلام الصحابة والتابعين، فيبني له أصولاً على أحاديث موضوعة، ويخرج كلامه من تصوف وعقليات وحقائق، وهو خير من هؤلاء، وفي كلامه أشياء حسنة صحيحة وأشياء كثيرة باطلة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والثاني: أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود وهي عبادته لا في مجرد علم ليس فيه ذلك، وهم جعلوا غاية النفس التشبه بالله على حسب الطاقة، وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به، وهذا ضلال عظيم، فإن جنس التشبه يكون بين إثنين مقصودهما واحد كالإمام والمؤتم به.

وليس الأمر هنا كذلك بل الرب هو معبود لذاته، وهو يعرف نفسه، ويحب نفسه ويثني على نفسه والعبد نجاته وسعادته في أن يعرف ربه ويحبه ويثني عليه والتشبه به أن يكون هو محبوباً لنفسه مثنياً بنفسه على نفسه، وهذا فساد في حقه وضار به، والقوم أضل من اليهود والنصارى بل ومن مشركي العرب، فإنه ليس الرب عندهم لا رب العالمين وخالقهم ولا إلههم ومعبودهم.

ومشركو العرب كانوا يقرون بأنه خالق كل شيء، وما سواه مخلوق له محدث، وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والوجه الثالث: أنهم يظنون أن ما عندهم هو علم بالله، وليس كذلك بل هو جهل. والرازي لما شاركهم في بعض أمورهم صار حائراً معترفاً بذلك لما ذكر أقسام اللذات، وأن اللذة العقلية هي الحق وهي لذة العلم، وأن شرف العلم بشرف المعلوم وهو الرب ، وأن العلم به ثلاث مقامات: العلم بالذات والصفات والأفعال.

قال: وعلى كل مقام عقدة، فالعلم بالذات فيه أن وجود الذات هل هو زائد عليها أم لا؟ وفي الصفات هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وفي الأفعال هل الفعل مقارن أم لا؟ ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو من الذي ذاق من هذا الشراب.

نِهَايَةُ إقْدَامِ العُقُول عِقَالُ وَأكثَرُ سَعي العَالَمِينَ ضَلالُ
وَأرواحنَا في وَحْشَةٍ منْ جُسُومنَا وغايةُ دنيانَا أذىً ووبالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ منْ بحثِنَا طُولَ عمرنا سوىَ أنْ جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾، واقرأ في النفي ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولا يحيطون به علماً﴾، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم، كما قال الشيخ العارف للغزالي لما قال له: أخلصت أربعين صباحاً فلم يتفجر لي شيء! فقال: يا بني أنت للحكمة لم يكن الله هو مرادك، والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، كما في حديث مكحول عن النبي ﷺ «مَنْ أَخْلَصَ لله أربعينَ صَبَاحاً تَفَجَّرَتْ يَنَابيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» ولهذا تقول العامة: قيمة كل امرىء ما يحسن، والعارفون يقولون: قيمة كل امرىء ما يطلب، وفي الإسرائيليات يقول الله تعالى: «إني لا أنظر إلى الكلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته». فالنفس لها قوة الإرادة وأعرضوا عن إرادتها، وهي تقوم بمرادها لا بمجرد ما تشعر به فإنها تشعر بالخير والشر، والنافع والضار، ولكن لا يجوز أن يكون مرادها ومحبوبها إلا ما يصلحها وينفعها وهو الإله المعبود الذي لا يستحق العبادة غيره، وهو الله لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم مع هذا يكون العلم حقاً، وهو ما أخبرت به الرسل، فالعلم الحق هو ما أخبروا به والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، فهذا هو السعادة وهو الذي اتفقت عليه الأنبيآء كلهم، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم، فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين الإسلام والإيمان عبادة الله وحده وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قال تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذينَ أُرْسِلَ إليْهِمْ ولنسألَنَّ المُرْسَلينَ﴾[1] قال أبو العالية: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد يقال لمن كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين وقد بسط هذا في غير هذا الموضع والله أعلم.

وأتبع لها أسعد الناس في الدنيا والآخرة وخير القرون القرن الذين شاهدوه مؤمنين به وبما يقول، إذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذي جاء به وبين ما يخالفه، وأعظم محبة لما جاء به وبغضاً لما خالفه، وأعظم جهاداً عليه فكانوا أفضل ممن بعدهم في العلم والدين والجهاد أكمل علماً بالحق والباطل وأعظم محبة للحق وبغضاً للباطل وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذي فيه وموالاة أهله ومعاداة أعدائه واتصل بهم ذلك إلى القرن الثاني والثالث فظهر ما بعث به من الهدى ودين الحق على كل دين في مشارق الأرض ومغاربها كما قال ﷺ: «زُوِيَتْ لي الأرضُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبِهَا وسَيَبْلُغُ مُلْكُ أمتي ما زُوي لي منها».

وكان لا بد أن يظهر في أمته ما سبق به القدر واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والإختلاف كما كان فيما غبر، لكن كانت أمته خير الأمم، فكان الخير فيهم أكثر منه في غيرهم، والشر فيهم أقل منه في غيرهم، كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال بني إسرائيل قبلهم، وبنو إسرائيل هم الذين قال الله فيهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إسْرَائيلَ الكِتَابَ والحُكْمَ وَالنُّبوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهمُ عَلى العالمينَ وآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إلاَّ مِنْ بَعدِ مَا جَاءَهُمْ العِلْمُ بغْياً بَينهم إنَّ رَبّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فيما كَانُوا فيهِ يخْتَلِفُون ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلى شَريعَةٍ مِنَ الأمْرِ فَاتبعهَا وَلاَ تَتّبع أهواءَ الّذين لاَ يَعْلَمُونَ إنّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ الله شَيئاً وَإنَّ الظَالِمينَ بَعْضَهُمْ أوْلِياءُ بَعضٍ وَالله وَليُّ المُتّقِينَ﴾[2] وقال لهم موسى: ﴿يَا قَومِ أذكُروا نِعمةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِيكُم أنبياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالمِينَ﴾[3]. فإذا كان بنو إسرائيل الذين فضلهم على العالمين في تلك الأزمان، وكانت هذه الأمة خيراً منهم كانوا خيراً من غيرهم بطريق الأولى، فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام لا من السماء ولا بأيدي الخلق، فلا يهلكهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم كما كان يسلط على بني إسرائيل عدواً يجتاحهم حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور، ومن لا يقبل منهم مقهوراً تحت حكم غيرهم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥.
(٢) سورة الجاثية: الآيات ١٥ ـ ١٩.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢٢.

بـل لا تزال في هـذه الأمة طـائفة ظـاهرة على الحق إلى يـوم القيامـة ولا يجتمعـون على ضلالة، فلا تزال فيهم أمة فيهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمـرون بالمعـروف وينهون عن المنكـر وأولئك هم المفلحون.

وقد ثبت في الحديث الصحيـح عن النبي ﷺ أنه قال: «سَألتُ رَبي ثلاثاً فأعـطاني إثنَتَين وَمَنَعني عن وَاحدة سَألتُ رَبي أنْ لا يُسَلِّطَ عَليهم عَدواً من غَيرِهم فيجتَاحَهم فَأعـطَانيهَا، وسـألتُه أن لا يهلكهم بِسنَةٍ عَامَةٍ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسَهم بينَهم فَمَنَعِنيهَا».

وهذا البأس نوعان:

أحـدهما: الفتن التي تجـري عليهم والفتنة تـرد على القلوب فلا تعـرف الحق ولا تقصده فيؤذي بعضهم بعضاً بالأقوال والأعمال.

والثاني: أن يعتدي أهل الباطـل منهم على أهل الحق منهم فيكـون ذلك محنـة في حقهم يكفر الله بها سيئاتهم ويرفـع بالصبر عليها درجاتهم، وبصبرهـم وتقواهم لا يضرهـم كيد الـظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقـوى، ويكونـون من أولياء الله المتقين وحـزب الله المفلحين وجند الله الغالبين إذا كانوا من أهل الصبر واليقين، فإنه من يتق ويصبر فـإن الله لا يضيـع أجر المحسنين، والمعتدي منهم إما أن يتوب الله عليه كمـا تاب على أخـوة يوسف بعـد عدوانهم عليـه وآثاره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لما قالوا ﴿أإنَّكَ لأنْتَ يُـوسُفُ قَالَ أنَـا يُوسفـ وَهَـذا أخي قَدْ مَنَّ الله عَلَيْنا أنه من يَتّقِ وَيصْبِر فَإنَّ الله لاَ يُضيـعُ أجْـرَ المُحسنينَ قَالُـوا تَالله لَقَـد آثَرَكَ الله عَلَيْنَـا وَإنْ كُنّا لخَاطِئينَ قَالَ لاَ تَثْرِيب عَلَيْكُم اليومَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾[1].

وكما فعل سبحانه بقـادة الأحزاب الـذين كانـوا عدواً لله وللمؤمنين وقـال فيهم ﴿لاَ تَتّخِذُوا عَدوي وَعدُوكُم أوليـاء﴾[2] ثم قال: ﴿عَسَى الله أنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذِينَ عَـادَيتُم مِنْهُمْ مودة وَالله قَديرٌ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3] وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكـون عدواً لله، ثم يصيـر ولياً لله موالياً لله ورسوله والمؤمنين، فهو سبحانه يتوب على من تاب،.ومن لم يتب فإلى الله إيابـه وعليه حسابه، وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله بـه ورسولـه من قصد نصيحتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما أمر الله ورسوله، لا اتبـاعاً للظن ومـا تهوى الأنفس حتى يكـون من خير أمـة أخرجت للنـاس يأمـرون بـالمعـروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونـه ويرحمـون الخلق، وهم أهل

(١) سورة يوسف: الآيات ٩٠ ــ ٩٢.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١.

(٣) سورة الممتحنة: الآية ٧.

صدق وعدل، أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لأمر الله كما قال تعالى: ﴿ليبْلوكم أيّكم أحْسَنُ عَملاً﴾(١). قال ابن عياض وغيره: أخلصه وأصوبه، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، وهو كما قالوا فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال: ﴿وَمَنْ أحسَن دَيناً مِمن أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتّبَعَ مِلّةِ إبراهيمَ حنيفاً وَاتّخَذَ الله إبْراهيمَ خَليلاً﴾(٢). فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله ويبتغي بعلمه وجه الله، والمحسن هو الذي يحسن عمله فيعمل الحسنات، والحسنات هي العمل الصالح، والعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله من واجب ومستحب، فما ليس من هذا ولا هذا ليس من الحسنات والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسناً.

وكذلك قال لمن قال: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أو نَصَارىً قالَ تِلكَ أمَانِيهم قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلى مَنْ أسلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجرُه عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوفٌ عَليهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾(٣) وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الأسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخرةَ مِنَ الخَاسِرِين﴾(٤).

والإسلام هو دين جميع الأنبيآء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم، كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه، فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين، وكذلك عن اتباع موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهم. والإسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره، فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ويتوكل عليه وحده ويرجوه ويخافه، وحده ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقاً كحبه لله، بل يحب لله ويبغض لله ويوالي لله ويعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلماً، وإنما تكون عبادته بطاعته، وهو طاعة رسله، من يطع الرسول فقد أطاع الله، فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام، وأما ما بدل منها فليس من دين الإسلام، وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً، ثم الأمر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الإسلام، فبعد النسخ لم يبق من دين الإسلام إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام.

فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الإسلام لأنه يريد أن يعبد الله

(١) سورة هود: الآية ٧.
(٢) سورة النساء: الآية ١٢٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٢.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

بمـا لم يأمـره، وهكذا كـل بدعـة تخالف أمـر الرسـول، إما أن تكـون من الدين المبـدل الـذي ما شرعه الله قط، أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه كالتوجه إلى بيت المقـدس، فلهذا كانت السنة في الإسلام في الدين هو الوسط كما قد شرح هذا في غير موضـع.

والمقصـود هنا أنـه إذا رد ما تنـازع فيه النـاس إلى الله والرسـول سواء كـان في الفروع أو الأصول كان ذلك خيراً وأحمد عاقبـة كما قـال تعالى: ﴿يَـا أيهَا الَّـذينَ آمَنُوا أطِيعُـوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ وَأولي الأمرِ مِنْكُمْ، فَإنْ تَنَازعْتُم فيِ شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالـرَّسول إنْ كُنتُم تُؤْمِنُـون بالله وَاليَوْمِ الآخرِ ذَلكَ خَيرٌ وأحسَنُ تأويلاً﴾[1].
وقال تعالى: ﴿كَـانَ النَاسُ أمـةً وَاحدةً فَبَعَثَ الله النَبيينَ مُبَشِـرينَ وَمُنْذِرِينَ وَأنْـزَلَ مَعَهُم الكِتَابَ بالحقِ لَيَحْكُمَ بَيْنَ النَاسِ فيمـا اخْتَلَفُوا فيـهِ وَمَا اخْتَلَفَ فيـهِ إلَّا الذينَ أوُتُـوهُ مِنْ بَعْدِ مَـا جَاءتهُم البَيِّنَاتُ بَغياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الذينَ آمَنُوا لمَّا اخْتَلَفُوا فيهِ مِنَ الحَقِ بـإذنِهِ وَالله يهـدي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم﴾[2]. وفي صحيـح مسلم عن عائشة: فإن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رَبَ جِبريلَ وَميكائيلَ وإسرافيلَ فَاطِرَ السَمواتِ والأرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَهَادَةِ أنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فيمَا كَانُوا فيهِ يَخْتَلِفُون، اهدني لما اختُلِفَ فيـهِ مِنَ الحَقِّ بإذنِـكَ إنَّكَ تهـدي مَنْ تَشَاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم».

وهذه حال أهل العلم والحق، والسنة يعرفون الحق الذي جاء به الرسول، وهو الذي اتفق عليه صريـح المعقول وصحيح المنقول، ويدعـون إليه ويـأمرون بـه نصحاً للعبـاد وبيانـاً للهدى والسداد، ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى، ولم يحكموا عليه بالجهل، بل حكمه إلى الله والرسول، فمنهم من يكفـره الرسـول، ومنهم من يجعله من أهل الفسق أو العصيـان، ومنهم من يعذره ويجعله من أهل الخـطأ المغفور، والمجتهـد من هؤلاء المأمـور بالإجتهـاد يجعل لـه أجراً على ما أمر به من الاجتهاد وخطؤه مغفور له، كما دل الكتـاب، وأما أهـل البدع فهم أهـل أهواء وشبهات يتبعون أهـواءهم فيما يحبـونه ويبغضـونه، ويحكمـون بالـظن والشبه فهم يتبعـون الظن وما تهوى الأنفس، ولقـد جاءهم من ربهم الهـدى، فكل فـريق منهم قد أصَّـلَ لنفسه أصـل دين وضعـه إما بـرأيه وقيـاسه الـذي يسميه عقليـات، وإما بـذوقه وهـواه الذي يسميـه ذوقيات، وإمـا بما يتأوله من القرآن ويحرف فيه الكلم عن مواضعه ويقول أنه إنما يتبـع القرآن كالخوارج، وإمـا بما يدعيه من الحديث والسنة ويكون كذباً وضعيفاً كما يدعيه الروافض من النص والآيات، وكثير ممن يكون قد وضـع دينه برأيه أو ذوقه يحتـج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله، ويجعل ذلك

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

حجة لاعمدة، وعمدته في الباطن على رأيه، كالجهمية والمعتزلة في الصفات والأفعال بخلاف مسائل الوعد والوعيد، فإنهم قد يقصدون متابعة النص.

فالبدع نوعان: نوع كان قصد أهلها متابعة النص والرسول لكن غلطوا في فهم المنصوص وكذبوا بما يخالف ظنهم من الحديث ومعاني الآيات كالخوارج وكذلك الشيعة المسلمين، بخلاف من كان منافقاً زنديقاً يظهر التشيع وهو في الباطن لا يعتقد الإسلام، وكذلك المرجئة قصدوا اتباع الأمر والنهي وتصديق الوعيد مع الوعد.

ولهذا قال عبد الله بن المبارك، ويوسف بن اسباط وغيرهما: إن الثنتين وسبعين فرقة أصولها أربعة: الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية. وأما الجهمية النافية للصفات فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول، فإنه ليس في الكتاب والسنة نص واحد يدل على قولهم، بل نصوص الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم، وإنما يدعون التمسك بالرأي المعقول، وقد بسط القول على بيان فساد حججهم العقلية وما يدعيه بعضهم من السمعيات، وبين أن المعقول الصريح موافق للمنقول الصحيح في بطلان قولهم لا مخالف له.

والمقصود هنا الكلام في أفعال الرب فإن الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم صاروا يسلكون فيه بأصل أصل بالمعقول ، ويجعلونه العمدة، وخاضوا في لوازم القدر برأيهم المحض فتفرقوا فيه تفرقاً عظيماً، وظهر بذلك حكمة نهي النبي ﷺ لأمته عن التنازع في القدر مع أن المتنازعين كان كل منهما يدلي بآية، لكن كان ذلك يفضي إلى إيمان كل طائفة ببعض الكتاب دون البعض، فكيف إذا كان المتنازعون عمدتهم رأيهم، والحديث رواه أهل المسند والسنن مفصلاً، ورواه مسلم مجملاً عن عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع صوت رجلين اختلفا في آية فخرج علينا ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال: «إنما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبلكُم باخْتِلافِهِمْ في الكتاب». وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا أبو معاوية ثنا داود بن هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال: فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال: فقال: «مَا لَكُمْ تَضرِبونَ كِتَابَ الله بَعْضَهُ ببعْضٍ ، بهَذا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس إني لم أشهده. وهذا حديث محفوظ من رواية عمرو بن شعيب وقد رواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية.

وكتب أحمد في رسالته إلى المتوكل هذا الحديث، وجعل يقول في مناظرته لهم يوم الدا في المحنة إنا قد نهينا عن أن نضرب كتاب الله بعضه ببعض، وروى هذا المعنى الترمذي مر

حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب قال: وفي الباب الذي فررت منه فإنه كما قيل إن له حياة وعلماً وقدرة وإرادة وغضباً ورضى ونحو ذلك.

قلت: هذا يستلزم أن يكون موافقاً للمخلوق في مسمى هذه الأسماء، وهذا تشبيه، فقيل لك: هذا يلزم مثله في الذات فإن قيل بتعطيل الذات، فذلك يستلزم ما فررت منه من ثبوت جسم قديم حامل للأعراض والحركات، وإذا كان هذا لازماً لك على تقدير نفي الذات كما ثبت أنه لازم على تقدير إثباتها كان لازماً على تقدير النقيضين النفي والإثبات، وما كان كذلك لم يكن نفيه، وأما نحن فقد بينا أن اللازم على تقدير إثباتها لا محذور فيه وإنما المحذور لازم على تقدير نفيها، وهذا قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أنه يقال لهؤلاء الذين ينفون الحكمة ثم الإرادة ثم الفعل في الأفعال نظير ما قيل لأولئك في الصفات، وبجعل مبدأ الكلام من الإرادة في الموضعين فيقال لمن أثبتها ونفى الحكمة من المنتسبين إلى إثبات القدر والمنتسبين إلى السنة والجماعة: لم نفيتم الحكمة؟ فإذا قالوا: لأنا لا نعرف من يفعل الحكمة إلا من يفعل لغرض يعود إليه، وهذا لا يكون إلا فيمن يجوز عليه اللذة والألم والإنتفاع والضرر والله منزه عن ذلك، فيقال لهم ما قاله نفاة الإرادة، وأنتم لا تعقلون إرادة إلا فيمن يجوز عليه اللذة والألم والإنتفاع والضرر، وقد قلتم أن الله تعالى مريد فإما أن تطردوا أصلكم النافي فتنفوا الإرادة، أو المثبت فتثبتوا اللذة، وإلا ما الفرق؟ فإذا قال نفاة الإرادة: فلهذا نفينا الإرادة كما رجحه الرازي في المطالب العالية، واحتج به للفلاسفة قيل لهم: فانفوا أن يكون فاعلاً فإنكم لا تعلمون فاعلاً غير مقهور إلا بإرادة، ولا يعقلون ما يفعل ابتداء إلا بإرادة أو فاعلاً حياء إلا بإرادة، أو فاعلاً مطلقاً إلا بإرادة، فإن قال اتباع أرسطو: فلهذا قلنا إنه لا يفعل شيئاً، وليس بموجب بذاته شيئاً لكن قلنا إن الفلك يتشبه به أو قال من هو أعظم تعطيلاً منهم، فلهذا نفينا الأول بالكلية ولم نثبت علة تفعل ولا علة يتشبه بها؟ قيل لهم: فهذه الحوادث مشهودة وحركة الكواكب والشمس والقمر مشهودة، فهذه الحركات الحادثة وغيرها من الحوادث مثل السحاب والمطر والنبات والحيوان والمعدن وغير ذلك مما يشهد حدوثه أحدَثَ بنفسه من غير أن يحدثه محدث قديم أو لا بد للحوادث من محدث قديم؟ فإن قالوا: بل حدث كل حادث بنفسه من غير أن يحدثه أحد؟ كان هذا ظاهر الفساد يعلم بضرورة العقل إنه في غاية المكابرة ونهاية السفسطة مع لزوم ما فروا منه، فإنهم فروا من أن يكون ثم فاعل محدث، وقد أثبتوا فاعلاً محدثاً، لكن جعلوا كل حادث هو يحدث نفسه ويفعلها فجعلوا ما ليس بشيء يجعل الشيء، وجعلوا المعدوم يحدث الموجود، فلزمهم ما فروا منه من إثبات فاعل مع ما لزمهم من الكفر العظيم، وغاية الجهل وغاية فساد العقل، وإن قالوا: بل كل محدث يحدثه محدث

وللمحدث محدث؟ قيل لهم: هذا أيضاً ممتنع في صريح العقل، فإن التسلسل في الفاعل ممتنع بصريح العقل واتفاق العقلاء، فإنه كلما كثر ما يقدر أنه حادث كان أحوج إلى القديم، فليس في تقدير حوادث لا تتناهى ما يوجب استغناءها عن القديم بل إذا كان المحدث الواحد لا بد له من محدث غيره فجموع أولى بالإفتقار إلى محدث لها خارج عنها كلها، فإن المحدث لمجموعها يمتنع أن يكون واحداً منها فإنه يلزم أن يحدث نفسه، ويمتنع أن يكون المجموع أحدث المجموع فإن الشيء لا يحدث نفسه.

والمجموع هي الآحاد الحادثة وهيئتها الإجتماعية، وتلك الهيئة محتاجة إلى المجموع الذي هو كل واحد واحد، والمجموع ليس إلا الآحاد واجتماعها، وكل ذلك مفتقر إلى محدث مباين لها، فلا بد للحوادث من قديم ليس بحادث، ثم يقال لهم: إذا قدر تسلسل الفاعلين وإن ما كان محدثاً له محدث وهلم جرا، فهذا فيه إثبات ما فررتم منه، وهو أن هذا المحدث فعل هذا وهذا فعل هذا، لكن أثبتم ما لا يتناهى من ذلك في آن واحد فركبتم ما فررتم منه مع لزوك هذه الجهالات التي تقتضي غاية فساد العقل والكفر بالسمع، وإذا كان المحذور يلزمهم على تقدير أن يكون الحادث أحدث نفسه أو أحدث كل حادث حادثاً آخر مع فساد هذين تبين أنه لا ينفعه أنكار القديم، وإن قال: بل أقر بالمحدث القديم قيل: فقد أقررت بفعل القديم للمحدث، وإذا ثبت أن القديم فعل المحدث، وأنت لا تعلم فاعلاً إلا لجلب منفعة أو دفع مضرة قيل له: فما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن كونه يفعل بإرادته. وقيل لمثبت الإرادة ما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن حكمته فقد بين أن من نفى الحكمة فلا بد أن ينقض قوله ويلزمه مع التناقض نفي الصانع، وهو مع نفي الصانع تناقضه أشد.

والمحذور الذي فر منه ألزم فلم يغن عنه فراره من إثبات الحكمة إلا زيادة الجهل والشر، وهكذا يقال لمن نفى حبه ورضاه وبغضه وسخطه، وهذا مقام شريف من تدبره وتصوره تبين له أنه لا بد من الإقرار بما جاء به الرسول، وأنه هو الذي يوافق صريح المعقول، وأن من خالفه فهو ممن لا يسمع ولا يعقل وهو أسوأ حالاً ممن فر من الملك العادل الذي يلزمه بطعام إمرأته وأولاده، والزكاة الشرعية إلى بلاد ملكها ظالم ألزمه بإخراج أضعاف ذلك لخنازيره وكلابه مع قلة الكسب في بلاده.

وبمنزلة من فر من معاشرة أقوام أهل صلاح وعدل ألزموه ما يلزم واحداً منهم من الأمور المشتركة إذ كانوا مقيمين أو مسافرين أن يخرج مثلما يخرجه الواحد منهم، فكره هذا وفر إلى بلد فألزمه أهلها بأن ينفق عليهم ويخدمهم وإلا قتلوه وما أمكنه الهرب منهم، فمن فر من حكم الله ورسوله أمراً وخبراً أو أرتد عن الإسلام أو بعض شرائعه خوفاً من محذور في عقله أو عمله

أو دينه أو دنياه، كان ما يصيبه من الشر أضعاف ما ظنه شراً في اتباع الرسول قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزعمُونَ أَنَّهُمْ آمنُوا بمَا أُنزِلَ إليْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلكَ يُريدُونَ أَنْ يتحاكموا إلى الطَّاغُوتِ وَقَد أُمِروا أَنْ يَكفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعيداً، وإذا قِيلَ لَهم تَعَالَوا إلى ما أنزَلَ الله وإلى الرَّسُولِ رَأيتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدوداً، فَكَيفَ إذا أَصَابَتْهُم مُصيبةٌ بما قَدَّمتْ أيديهِمْ ثُمَّ جَاءوكَ يَحلفُونَ بِالله إنْ أردْنا إلا إحسَاناً وَتَوْفيقاً، أولئك الذِينَ يَعلمُ الله مَا في قُلوبِهمْ فَأعرِضْ عَنهُم وَعِظْهُمْ وَقُل لهُمْ في أنفُسِهِمْ قَولاً بَليغاً، وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ رَسُولٍ إلا لِيُطَاعَ بإذنِ الله وَلَوْ أنهُم إذ ظَلمُوا أنفُسَهُمْ جاءوُك فَاسْتَغْفَرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لهم الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَواباً رَحيماً، فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكِمُوكَ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا في أَنفُسِهِمْ حَرجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسليماً﴾[1].

***

(١) سورة النساء: الآيات ٦٠ ــ ٦٥.

فصل

الإرادة والمحبة والفعل

ويقال لهم: لم فررتم من إثبات المحبة وللإرادة والفعل؟ فإن قالوا: لأن لا يعقل إلا في حق من يلتذ ويتألم وينتفع ويتضرر، والله منزه غن ذلك، قيل للفلاسفة: فأنتم تثبتون أنه مستلذ مبتهج فهذا غير محذور عندكم، وإن قلتم: لأن ذلك يستلزم لذة حادثة، قيل لكم: في حلول الحوادث قولان، وليس معكم في النفي إلا ما يدل على نفي الصفات مطلقاً كدليل التركيب، وقد عرف فساده من وجوه.

وقيل للجهمية والمعتزلة: إن أردتم أن ذلك يقتضي حاجته إلى العباد وأنهم يضرونه أو ينفعونه، فهذا ليس بلازم، ولهذا كان الله منزهاً عن ذلك، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الإلهي «يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبلُغوا ضُري فتضروني، وَلَنْ تَبلُغوا نفعي فَتَنْفَعُوني».

فالله أجل من أن يحتاج إلى عباده لينفعوه، أو يخاف منهم أن يضروه، وإذا كان المخلوق العزيز لا يتمكن غيره من قهره، فمن له العزة جميعاً، وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك، وكذلك الحكيم المخلوق إذا كان لا يفعل بنفسه ما يضرها فالخالق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكناً فكيف إذا كان ممتنعاً قال تعالى: ﴿وَلاَ يُحْزِنْكَ الَّذِينَ يسارِعونَ في الكُفْرِ إنَّهُمْ لَنْ يَضُروُّا الله شَيْئاً يُريدُ الله ألاَّ يَجْعَلَ لهم حَظاً في الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الغَمَامَ وَأنْزَلنا عَلَيْهِمْ المَنَّ وَالسَّلوىَ كُلُوا مِنْ طيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكم وَمَا ظَلمُونا وَلكِنْ كَانُوا أنفسهم يَظْلِمُونَ﴾[2]. فقد بيّن أن العصاة لا يضرونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين، فإن مماليك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك، وقد يكون ذلك ظلماً له، والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وإن كان الكافر على ربه ظهيراً، فمظاهرته على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربته عادت عليه بضرره وظلمه لنفسه وعقوبته في

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢.

الدنيا والآخرة، وأما النفع فهو سبحانه غني عن الخلق لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به إذا لم يفعلوه لم يضروه بذلك كما قال تعالى: ﴿وَلله عَلى النَّاسِ حَجُّ البَيْتِ مَنْ استَطَاعَ إليهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ الله غنيٌّ عَنْ العَالمين﴾[1] وقال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فإنما يَشكُر لنفسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبي غَنيٌّ كَريمٌ﴾[2] وَقَال: ﴿إنْ تَكْفُروا فَإِنَّ الله غَنيٌّ عَنكم ولا يرضى لعباده الكفر وَإنْ تَشْكُرُوا يَرضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وازرة وزر أخرى﴾[3].

وإن أردتم أنه سبحانه لا يريد ولا يفعل ما يفرح به ويسر به ويجعل عباده المؤمنين يفعلون ما يفرح به فمن أين لكم هذا، وإن سمى هذا لذة فالألفاظ المجملة التي قد يفهم منها معنى فاسد إذا لم يرد في كلام الشارع لم نكن محتاجين إلى إطلاقها كلفظ العشق، وإن أريد به المحبة التامة وقد أطلق بعضهم على الله أنه يعشق ويعشق، وأراد به أنه يحب ويحب محبة تامة فالمعنى صحيح والمعنى فيه نزاع، واللذة يفهم منها لذة الأكل والشرب والجماع كما يفهم من العشق المحبة الفاسدة، والتصور الفاسد، ونحو ذلك مما يجب تنزيه الله عنه، فإن الذين قالوا، لا يجوز وصفه بأنه يعشق منهم من قال: لأن العشق هو الإفراط في المحبة والله تعالى لا إفراط في حبه، ومنهم من قال: لأن العشق لا يكون إلا مع فساد التصور للمعشوق، وإلا فمع صحة التصور لا يحصل إفراط في الحب، وهذا المعنى لا يمدح فاعله، فإن من تصور في الله ما هو منزه عنه فهو مذموم على تصوره ولوازم تصوره.

ومنهم من قال: لأن الشرع لم يرد بهذا اللفظ، وفيه إبهام وإيهام فلا يطلق، وهذا أقرب، وآخرون ينكرون محبة الله وأن يحب ويحب كالمعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم، فهؤلاء يكون الكلام معهم في كونه يحب ويحب كما نطق به الكتاب والسنة في مثل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأتي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم ويَحِبُونَهُ﴾[4] لا في لفظ العشق، كذلك لفظ اللذة فيه إبهام وإيهام، والشرع لم يرد بإطلاقه، ولكن استفاض عن النبي ﷺ أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح من وجد راحلته بعد أن فقدها، وأيس منها في مفازة مهلكة، ويئس من الحياة والنجاة من تلك الأرض، ومن وجود مركبه ومطعمه ومشربه، ثم وجد ذلك بعد اليأس. قال النبي ﷺ: «فَكَيْفَ تَجدُونَ فَرَحَه بدَابَتِهِ. قَالوا: عظيماً يا رَسُولُ الله، قَالَ: «لله أشدُّ فَرحاً بِتوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلتِهِ» وقد نطق الكتاب والسنة بأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين، والذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وأنه يرضى عن المؤمنين، فإذا كنتم نفيتم حقيقة الحب والرضى لأن ذلك يستلزم اللذة بحصول المحبوب قيل لكم: إن

---

(1) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(2) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٥) سورة الزمر: الآية ٧.

(١) سورة المائدة: الآية ٥٧.

كـان هذا لازمـاً فلازم الحق حق، وإن لم يكن لازمـاً بطل نفيكم، والفـرح في الإنسان هـو لذة تحصل في قلبه بحصول محبوبه.

وقد جاء أيضاً وصفه تعالى بأنه يسر في الأثر والكتب المتقدمة وهو مثـل لفظ الفرح، وأمـا الضحك فكثير في الأحاديث، ولفظ البشبشة[1] جاء أيضاً أنه يتبشبش للداخل إلى المسجـد كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم، وجاء في الكتاب والسنة ما يلائم ذلك ويناسبه شيء كثيـر فيقال لمن نفى ذلك لم نفيته ولم نفيت هذا المعنى وهـو وصف كمال لا نقص فيـه؟ ومن يتصف به أكمل ممن لا يتصف به؟ وإنما النقص فيه أن يحتاج فيـه إلى غيره، والله تعـالى لا يحتاج إلى أحد في شيء، بل هو فعال لما يريد، لكن القدرية قد يشكل هذا على قولهم فإن العباد عندهم مستقلون باحداث فعلهم، ولكن هذا مثل إجابة دعائهم وإثابتهم على أفعالهم ونحو ذلك مما فيه أن أفعالهم تقتضي أموراً يفعلها هو وهم لا يفرون من كونه يجب عليه أشيـاء وأنه يفعـل ما يجب عليه فيكون العبد قد جعله مريداً لما لم يكن مريداً له، وحينئـذ فإذا كـان العباد يجعلونـه مريـداً عندهم فالقول في لوازم الإرادة كالقول فيها، وهذا إمـا أن يدل على فسـاد قولهم في القـدر وهو الصواب، وإما أن يقولوا إن مثل ذلك جائز على الله وجـائز أن يجعله العبـد مريـداً بدون مشيئتـه لذلك وبدون أن يكون هـو الذي شـاء ذلك من العبـد فيلزمهم في لوازمهـا ما يلزمهم فيهـا، وأما على قول المثبتة فكلما يحدث فهـو بمشيئته وقـدرته فمـا جعله أحد مـريداً فـاعلاً بـل هو الـذي يحدث كل شيء ويجعل بعض الأشياء سبباً لبعض.

فإن قال نافي المحبة والفرح والحكمة ونحـو ذلك هـذا يستلزم حاجتـه إلى المخلوق ظهر فساد قوله.

وإن قيل: إن ذلك إنْ كانَ وصف كمال فقد كان فـاقداً لـه، وإن كان نقصـاً فهو منـزه عن النقص، قيل له: هو كمال حين اقتضت الحكمة حدوثه، وحدوثـه قبل ذلـك قد يكـون نقصاً في الحكمة أو يكون ممتنعاً غير ممكن كما يقال في نظائر ذلك، وتمام البسط في هذا الأصل مذكور في غير هذا الموضـع.

والمقصود هنا التنبيه على لوازم ذلك، فإن نفـاة ذلك نفـوا أن يكون في الممكن فعـل ينزه

---

(١) البش: اللطف في المسألة والإقبال على الرجل، وقيل: هـو أن يضحك لـه ويلقاه لقـاءً جميلاً، والبشـاشة: طلاقة الوجه، وفي حديث علي رضى الله عليه: إذا إجتمـع المسلمـان فتذاكـرا غفر الله لأبشهمـا بصاحبـه، ورجل هش بش وبشاش: طلق الوجه طيب، وقد بششت به (بالكسر) أبش بشاً وبشاشـة والبشبش: الوجـه، يقال: فلان مضيء البشبش، والبشبش كالبشاشة (لسان العرب ٥/٢٦٧).

عنه فليس عندهم فعل يحسن منه وفعل ينزه عنه بل عنده تقسيم الأفعال، أفعال الرب والعبد إلى حسن وقبيح لا يكون عندهم إلا بالشرع، وذلك لا يرجع إلى صفة في الفعل، بل الشارع عندهم يرجح مثلاً على مثل، والحسن والقبيح إنما يعقل إذا كان الحسن ملائماً للفاعل، وهو الذي يلتذ به والقبيح ينافيه، وهو الذي يتألم به والحسن والقبح في أفعال العباد بهذا الأعتبار متفق على جوازه، وإنما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب، وهذا في الحقيقة يرجع إلى الألم واللذة، فلهذا سلم الرازي في آخر عمره ما ذكره في كتاب.

إن الحسن والقبح العقليين ثابتان في أفعال العباد دون الرب إذا كان معناهما يؤول إلى اللذة والألم، والمعتزلة أثبتوا حسناً وقبحاً عقليين في فعل القادر مطلقاً، سواء كان قديماً أو محدثاً، وقال الحسن: ما للقادر فعله والقبيح ما ليس له فعله، وقالوا: إن ذلك ثابت بدون كونه مستلزماً للذة والألم، كما ادعوا ثبوت حكمته للفاعل القادر ولا تعود إليه ولا يستلزم اللذة فادعوا ما هو خلاف الموجود والمعقول، ولهذا تسلط عليهم النفاة فكان حجتهم عليهم أن يثبتوا أن هذا أمر لا يعقل إلا مع اللذة والألم، ثم يقولون: وذلك في حق الله محال، فحجتهم مبنية على مقدمتين ان الحُسْنَ والقُبْحَ والحكمة مستلزم للذة والألم وذلك في حق الله محال، والمعتزلة منعوا المقدمة الأولى فغلبوا معهم، والمقدمة الثانية جعلوها محل وفاق وهي مناسبة لأصول المعتزلة لكونهم ينفون الصفات، فنفي الفعل القائم به أولى على أصلهم ونفي مقتضى ذلك على أصلهم، وهذه المقدمة التي اشتركوا فيها تقتضي نفي كونه مريداً ونفي كونه فاعلاً، ونفي حدوث شيء من الحوادث، كما أن نفي الصفات يقتضي نفي قائم بنفسه موصوف بالصفات.

فنفي اتصافه بالصفات يستلزم أن لا يكون في الوجود شيء يتصف بصفةٍ، ونفي فعله واحداثه يقتضي أن لا يكون في الوجود شيء حادث، فكان ما نفوه مستلزماً نهاية السفسطة وجحدا لحقائق، ولهذا كان من وافق هؤلاء على نفي محبة الله لما أمر به من الصوفيه يلزمهم تعطيل الأمر والنهي، وأن لا ينفي إلا القدر العلم، وقد التزم ذلك طائفة من محققيهم وكان نفي الصفات يستلزم نفي الصفة، وأن لا يكونا موجودان، أحدهما واجب قديم خالق، والآخر ممكن أو محدث أو مخلوق، وهكذا التزمه طائفة من محققيهم وهم القائلون بوحدة الوجود، وهم يقولون بكون العبد أولاً يشهد الفرق بين الطاعة والمعصية، ثم يشهد طاعة بلا معصية ثم لا طاعة ولا معصية، بل الوجود واحد، فالذين أثبتوا الحسن والقبح في الأفعال، وأن لها صفات تقتضي ذلك قالوا بما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم.

قال أبو الخطاب: هذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين، لكن تناقضوا فلم يثبتوا لازم ذلك،

فتسلط عليهم النفاة لما نفوا الحسن والقبح في نفس الأمر، قالوا: لا فرق في ما يخلقه الله وما يأمره، به بين فعل وفعل، وليس في نفس الأمر حسن ولا قبيح ولا صفات توجب ذلك، واستثنوا ما يوجب اللذة والألم، لكن اعتقدوا ما اعتقدته المعتزلة أن هذا لا يجوز إثباته في حق الرب، وأما في حق العبد فظنوا أن الأفعال لا تقتضي إلا لذة وألماً في الدنيا، وأما كونها مشتملة على صفات تقتضي لذة وألماً في الآخرة، فذلك عندهم باطل ولم يمكنهم أن يقولوا أن الشارع يأمر بما فيه لذة مطلقاً وينهي عما فيه ألم مطلقاً، وكون الفعل يقتضي ما يوجب اللذة هو عندهم من باب التولد، وهم لايقولون به، بل قدرة العبد عندهم لا تتعلق إلا بفعل في محلها، مع أنها عند شيخهم غير مؤثرة في المقدور، ولا يقولون أن العبد فاعل في الحقيقة بل كاسب.

ولم يذكروا بين الكسب والفعل فرقاً معقولاً، بل حقيقة قولهم قول جهم: إن العبد لا قدرة له ولا فعل ولا كسب، والله عندهم فاعل فعل العبد، وفعله هو نفس مفعوله، فصار الرب عندهم فاعلاً لكل ما يوجد من أفعال العباد، ويلزمهم أن يكون هو الفاعل للقبائح وأن يتصف بها على قولهم أنه يوصف بالصفات الفعلية القائمة بغيره.

وقد تناقضوا في هذا الموضع فجعلوه متكلماً بكلام يقوم بغيره، وجعلوه عادلاً ومحسناً بعدل وإحسان يقوم بغيره، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وحينئذ فما بقي يمكنهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن من جميع الأجناس، أي يقولوا: هذا يحسن من الرب فعله، وهذا ينزه عنه، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن مقدور، والظلم عندهم هو فعل ما نهى المرء عنه أو التصرف في ملك الغير، وكلاهما ممتنع في حق الله، فإما أن يكون هناك أمر ممكن مقدور وهو منزه عنه فهذا عندهم لا يجوز.

فلهذا جوزوا عليه كل ما يمكن ولا ينزهونه عن فعل لكونه قبيحاً أو نقصاً أو مذموماً، ونحو ذلك، بل يعلم ما يقع وما لايقع بالخبر أي بخبر الرسول كما علم بخبره المأمور والمحظور، والوعد والوعيد والثواب والعقاب، أو بالعادة مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم، لكن قالوا: قد يعلم بالضرورة عدم ما يجوز وقوعه من غير فرق لا في وجود وقوعه من غير فرق لا في وجود ولا في العلم بين ما علموا انتفاء وما لم يعلموه، إذ كان أصل قولهم هو جواز التفريق بين المتماثلين بلا سبب، فالإرادة القديمة عندهم ترجح مثلاً على مثل بلا سبب في خلق الرب وفي أمره، وكذلك عندهم قد يحدث في قلب العبد علماً ضرورياً بالفرق بين المتماثلين بلا سبب، فلهذا قالوا: إن الشرع لا يأمر وينهى لحكمة، ولم يعتمدوا على المناسبة وقالوا: علل الشرع

امارات، كما قالوا: إن أفعال العباد أمارة على السعادة والشقاء فقط من غير أن يكون في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب.

ومن أثبت المناسبة من متأخريهم كأبي حامد ومن تبعه قالوا: عرفنا الأستقراء أن المأمور به تقترن به مصلحة العباد وهو حصول ما ينفعهم، والمنهي عنه تقترن به المفسدة، فإذا وجد الأمر والنهي علم وجود قرينه الذي علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة ولا نهى عنه لتلك المفسدة، وجمهورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة، لكن الآمدي قال: إن ذلك جائز غير واجب، فلم يجعله واجباً ولا ممتنعاً.

***

فصل
نعيم الآخرة وعذابها

وهذا الأصل دخل في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه في خلق الرب لما يخلقه ورزقه واعطاءه ومنعه وسائر ما يفعله، تبارك وتعالى، ودخل في أمره ونهيه وجميع ما يأمر به وينهى عنه، ودخل في المعاد، فعندهم يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين والأنبيآء والمرسلين بالعذاب الأبدي، وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعيم الأبدي، لكن بمجرد الخبر عرفنا أنه لا يفعل هذا، ويجوز عندهم أن يعذب من لا له ذنب أصلاً بالعذاب الأبدي.

بل هذا واقع عند من يقول بأن أطفال الكفار يعذبون في النار مع آبائهم، فإنهم كلهم يجوزون تعذيبهم إذا كان عندهم يجوز تعذيب كل حي العذاب المؤبد بلا ذنب ولا غرض ولا حكمة، لكن هل يقع هذا في أطفال المشركين؟ منهم من جزم بوقوعه كالقاضي أبي يعلى ومن وافقه، ومنهم من توقف لعدم الدليل السمعي عنده لا لمانع عقلي كالقاضي أبي بكر ونحوه، وليس عندهم من أفعال الرب ما ينزهونه عنه أو ما تقتضي الحكمة وجوده، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن ويجوز أن لا يفعل شيئاً من الخير.

لكن إذا أخبر أنه يفعل شيئاً أو أنه لا يفعله علم أنه واقع أو غير واقع بالخبر، ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له، ومن هو أبر الناس، وأعدلهم وأفضلهم عذاباً مؤبداً لا يعذبه أحداً من العالمين، ويجوز أن ينعم شر الخلق من شياطين الأنس والجن نعيماً في أعلى درجات الجنة لا ينعم مثله المخلوق، لكن لما أخبر بأن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يدخلون النار علم ما يقع مع أنه لو وقع ضده لم يكن بينهما فرق عندهم، ثم مع مجيء الخبر فكثير منهم وافقه، أما في جنس الفساق مطلقاً فيجوزون أن يدخل جميعهم الجنة، ويجوزون أن يدخل جميعهم النار، ويجوزون أن يدخل بعضهم كما يقوله من يقوله ممن وافق الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر، لأن القرآن عنده لم يدل على شيء، والأخبار أخبار آحاد بزعمه، فلا يحتج بها في ذلك.

وأما جمهور المنتسبين إلى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم

فيقطعون بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنـار، ويعفو عن بعضهم كمـا قال تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١). فهذا فيـه الأخبار بـأنه يغفـر مـا دون الشرك، وأنه يغفره لمن يشاء لا لكل أحد، لكن هل الجزاء والثواب والعقاب مبني على الموازنة بـالحكمة والعـدل كما أخبـر الله بوزن الأعمـال، أو يغفر ويعـذب بلا سبب ولا حكمـة ولا اعتبار الموازنة فيه؟ لهؤلاء قولان: فمن جوز ذلك فإنه يجوز عندهم أن يعذب الله من هو من أبر الناس وأكثرهم طاعـات وحسنات على سيئـة صغيرة عـذاباً أعـظم من عذاب أفسق الفـاسقين، ويجوز عندهم أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين وأعظمهم كبائر كل ذنب ويدخله الجنة ابتداء مـع تعذيب ذلك في النار على صغيرة.

ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء أنهم لا ينزهون الـرب عن السفه والـظلم، بل يصفـونه بالأفعال التي يوصف بها المجانين والسفهاء، فـإن المجنون والسفيـه قد يعـطى مالاً عـظيماً لمن ليس له بأهل، وقد يعاقب عقوبـة عظيمـة من هو أهـل للإكـرام والإحسان، والـرب تعالى أحكم الحـاكمين، وأعدل العـادلين، وخير الـراحمين، والحكمـة وضـع الأشيـاء [في](٢) مـواضعهـا، والظلم وضـع الشيء في غير موضعه.

ومن تـدبر حكمتـه في مخلوقاتـه ومشروعـاته رأى مـا يبهر العقـول، فإنـه مثـلاً خلق العين واللسان ونحوهمـا من الأعضاء لمنفعـة، وخلق الرجـل والظفـر ونحو ذلـك لمنفعة، فـلا تقتضي الحكمة أن يستعمل العين واللسان حيث يستعمل اليد والرجـل والظفـر، ولا أن يستعمل الـرجل واليد حيث يستعمل العين واللسان، وهذا من حكمته موجود في أعضاء الإنسـان وسائـر الحيوان والنبـات وسائـر المخلوقات، فكيف يجـوز في حكمته وعـدله ورحمتـه في من هـو دائمـاً يفعـل ما يرضيه من الطاعات والعبادات والحسنات، وقد نظر نظرة منهياً عنها أن يعاقبه على هذه النظرة بما يعاقب به فجار الفساق، وأن يكون أفجر الفساق في أعلى عليين، وهو سبحانه يفعل مـا يشاء ويحكم بما يريده. لكن لا يشاء إلا مـا يناسب حكمتـه ورحمته وعـدله، كمـا لا يشاء ويـريد إلا ما علم أنه سيكون، فلو قيل: هل يجوز أن يشاء ما علم أنـه لا يكون إلا مـا ينجر ذلـك باتفـاقهم لمناقضة علمه والعلم يطابق المعلوم، فكيف يشاء ما يناقض حكمته وعدله؟ وبسط هذه الأمور له مواضـع متعددة.

والمقصود أن هؤلاء لما أحتـاجوا إلى إثبـات النبوات اضـطربوا في صفـة النبـي وما يجـوز عليه وفي الآيات التي بها يعلم صدقه، فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء، لا يشترطون في

---

(١) سورة النساء: الآيات ٤٨، ١١٦.

(٢) زيدت على النص لوضوح العبارة.

النبي إلا أن يعلم ما أرسل به، لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع، ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقاً يلزمه جواز أن يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي، وجوزوا من جهة العقل ما ذكره القاضي أبو بكر أن يكون الرسول فاعلاً للكبائر، إلا أنه لا بد أن يكون عالماً بمرسله، لكن ما علم بالخبر أن الرسول لا يتصف به علم من جهة الخبر فقط، لا لأن الله منزه عن إرسال ظالم أو مرتكب للفواحش أو مكاس[1] أو مخنث أو غير ذلك، فإنه لا يعلم نفي شيء من ذلك بالعقل لكن بالخبر وهم في السمعيات عمدتهم الإجماع.

وأما الإحتجاج بالكتاب والسنة فأكثر ما يذكرونه تبعاً للعقل أو الإجماع، والعقل والإجماع مقدمان عندهم على الكتاب والسنة، فلم يعتمد القاضي أبو بكر وأمثاله في تنزيه الأنبيآء لا على دليل عقلي ولا سمعي من الكتاب والسنة. فإن العقل عنده لا يمنع أن يرسله الله من شاء إذا كان يجوز عنده على الله فعل كل ما يقدر عليه، وإنما اعتمد على الإجماع، فما أجمع المسلمون عليه أنه لا يكون في النبي نزه عنه، ثم ذكر ما ظنه إجماعاً كعاداته وعادات أمثاله في نقل إجماعات لا يمكن نقلها عن واحد من الصحابة، ولا ثلاثة من التابعين، ولا أربعة من الفقهاء المشهورين، كدعواه الإجماع على أن الصلاة في الدار المغصوبة مجزئة. مع قوله أن العقل يحيل أن يكون مأموراً به فيدعي الإجماع على براءة المأمور من فعل ما أمر به لكونه فعل ما نهى عنه، ولأهل الكلام والرأي من دعوى الإجماعات التي ليست صحيحة، بل قد يكون فيها نزاع معروف، وقد يكون إجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الإجماع ما يطول ذكره هنا.

وقد ذكرنا قطعة من الإجماعات الفروعية التي حكاها طائفة من أعيان العلماء العالمين بالإختلاف مع أنها منتقضة وفيها نزاع ثابت لم يعرفوه، وقد يكون غيرهم حكى الإجماع على نقيض قولهم، وربما كان من السلف كقول الشافعي، ما أعلم أحداً قبل شهادة العبد، وقبله من الصحابة أنس بن مالك يقول: ماأعلم أحداً رد شهادة العبد، وكدعوى ابن حزم الإجماع على إبطال القياس، وأكثر الأصوليين يذكرون الإجماع على إثبات القياس، وبسط هذا له موضع آخر.

***

---

(1) المكس: الجباية، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية، قال ابن الأعرابي: المكس درهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه، وفي الحديث: «لا يدخل صاحب مكس الجنة» والمكس الضريبة التي يؤخذها، وأصلها الجباية، (أنظر لسان العرب ٦/ ٢٢٠).

فصل
المعجزة والصدق

ولما أرادوا إثبات معجزات الأنبيآء عليهم السلام، وأن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب، مع تجويزهم عليه فعل كل شيء فمنعوا منعاً فقالوا: لو جاز ذلك، لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة، وما لزم منه نفي القدرة كان ممتنعاً، فهذا هو المشهور عن الأشعري، وعليه اعتمد القاضي أبو بكر، وابن فورك والقاضي أبو يعلى وغيرهم، وهو مبني على مقدمات.

أحدها: أن النبوة لا تثبت إلا بما ذكروه من المعجزات، وأن الرب لا يقدر على اعلام الخلق بأن هذا نبي بهذا الطريق، وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة أن اعلام الخلق بأن هذا نبي بهذا الطريق ممكن.

فلو قيل لهم: لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شيء وإرادة كل شيء لم يكن فرق بين أن يظهرها عى يد صادق أو كاذب، ولم يكن إرسال رسوله يصدقه بالمعجزات ممكناً على أصلكم، ولم يكن لكم حجة على جواز إرسال الرسول وتصديقه بالمعجزات إذا كان لا طريق عندهم إلا خلق المعجز، وهذا إنما يكون دليلاً إذا علم أنه إنما خلقه لتصديق الرسول وأنتم عندكم لا يفعل شيئاً لشيء، ويجوز عليه فعل كل شيء.

وسلك طائفة منهم طريقاً آخر وهي طريقة أبي المعالي وأتباعه، وهو أن العلم بتصديقه لمن أظهر على يديه المعجز علم ضروري، وضربوا له مثلاً بالملك، وهذا صحيح إذا منعت أصولهم، فإن هذه تعلم إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئاً لحكمة، فأما من لا يفعل شيئاً لشيء، فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزة لتدل على صدقه لا لشيء آخر، ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشيء على أصلهم، وقالوا أيضاً ما ذكره الأشعري: المعجز علم الصدق ودليله، فيستحيل وجوده بدون الصدق فيمتنع وجوده على يد الكاذب، وهذا كلام صحيح، لكن كونه علم الصدق مناقض لأصولهم؛ فإنه إنما يكون علم الصادق إذا كان الرب منزهاً عن أن يفعله على يد الكاذب، أو علم بالإضطرار أنه إنما فعله لتصديق الصادق، أو أنه لا يفعله على يد كاذب، وإذا علم بالإضطرار تنزهه عن بعض الأفعال بطل أصلهم.

***

فصـل
فعل المعجزة للصالحين والكهنة والسحرة

والمعتزلة قبلهم ظنوا أن مجرد كون الفعل خلاقاً للعادة هو الآية على صدق الرسول، فلا يجوز ظهور خارق إلا لنبي، والتزموا طرداً لهذا إنكار أن يكون للسحر تأثير خارج عن العادة، مثل أن يموت ويمرض بلا مباشرة شيء، وأنكروا الكهانة، وأن تكون الجن تخبر ببعض المغيبات، وأنكروا كرامات الأولياء، فأتى هؤلاء فأثبتوا ما أثبته الفقهاء وأهل الحديث من السحر والكهانة والكرامات.

لكن قيل لهم: فميزوا بين هذا وبين المعجزات؟ فقالوا: لا فرق في نفس الجنس، وليس في جنس مقدورات الرب ما يختص بالأنبيآء، لكن جنس خرق العادة واحد، فهذا إذا اقترن بدعوى النبوة وسلم عن المعارضة عند تحدي الرسول بالمثل فهو دليل، فهي عندهم لم تدل لكونها في نفسها وجنسها دليلاً، بل إذا استدل بها المدعي للنبوة كانت دليلاً وإلا لم تكن دليلاً، ومن شرط الدليل سلامته عن المعارضة، وهي عندهم غاية الفرق، فإذا قال المدعي للنبوة: ائتوا بمثل هذه الآية فعجزوا كان هذا هو المعجز المختص بالنبي، وإلا فيجوز عندهم أن تكون معجزات الرسول من جنس ما للسحرة والكهان من الخوارق إذا استدل بها الرسول.

فالحجة عنده مجموع الدعوى، والخارق لا الخارق وحده، والإعتبار بالسلامة عن المعارض، بل قد لا يشترطون أن يكون خارقاً للعادة، لكن يشترطون أن لا يعارض وعجز الناس عن المعارضة مع أنه معتاد لا خارق للعادة، فالإعتبار عندهم بشيئين: باقترانه بالدعوى وتحديه لمن دعاهم أن يأتوا بمثله فلا يقدرون.

قالوا: وخوارق الأنبيآء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح، ولا يدل على النبوة لأنه لم يدعها، قالوا: ولو ادعى النبوة أحد من أهل هذه الخوارق مع كذبه لم يكن بد من أن الله يعجزه عنها فلا يخلقها على يده أو يقيض له من يعارضه فتبطل حجته، وإذا قيل لهم: لم قلتم أن الله لا بد أن يفعل هذا وهذا، وعندكم يجوز عليه كل شيء؟ ولا يجب عليه فعل شيء؟ ولا يجب منه فعل شيء؟ قالوا: لأنه لو لم يمنعه من ذلك أو يعارضه بآخر لكان قد أتى بمثل ما يأتي به النبي الصادق فتبطل دلالة آيات الأنبيآء.

فإذا قيل لهم: وعلى أصلكم يجوز أنه يبطل دلالتها، وعندكم يجوز عليه فعل كل شيء؟ أجابوا بالوجهين المتقدمين: أما لزوم أنه ليس بقادر، أو أن الدلالة معلومة بالإضطرار، وقد عرف ضعفهما، ثم هنا يلزمهم شيء آخر، وهو أنه لمَ قلتم أن المعجز الذي يدل به على صدق الأنبيآء ما ذكرتموه من مجرد كونه خارقاً مع الدعوى، وعدم المعارضة، فإن هذا يقال أنه باطل من وجوه.

أحدهما: أنه إذا ما كان يأتي به النبي يأتي به الساحر والكاهن، لكان أولئك يعارضون وهذا لا يعارض، فالإعتبار إذن بعدم المعارضة، فقولوا: كل من ادعى النبوة وقال معجزتي أن لا يدعيها غيري فهو صادق، أو لا يقدر غيري على دعواها فهو صادق، أو أفعل أمراً معتاداً من الأكل والشرب واللباس، ومعجزتي أن لا يفعله غيري أو لا يقدر غيري على فعله، فهو صادق، فالتزموا هذا، وقالوا: المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد، وعلى هذا فلو قال الرسول: معجزتي أني أركب الحمار، أو الفرس، أو آكل هذا الطعام أو ألبس هذا الثوب أو أعدو إلى ذلك المكان وأمثال ذلك، وغيره لا يقدر على ذلك، كان هذا آية دعواه وهذا لا ضابط له، فإن ما يعجز عنه قوم دون قوم لا ينضبط، ولكن هذا يفسد قول من فسرها بخرق العادة، فإن العادات تختلف، وقد ذكروا هذا وقالوا: المعجزة عند كل قوم ما كان خرقاً لعادتهم، وقالوا: يشترط أن تكون خارقة لعادة من دعاهم، وإن كان معتاداً لغيرهم، وقالوا: إذا كان المدعي كذاباً فإن الله يقيض له من يعارضه من أهل تلك الصناعة، أو يمنعه من القدرة عليها وهذا وجه ثان على فساد ما أصلوه هم والمعتزلة.

الوجه الثالث: أن المعارضة بالمثل أن يأتي بحجة مثل حجة النبي وحجته عندهم مجموع دعوى النبوة والإثبات بالخارق، فيلزم على هذا أن تكون المعارضة بأن يدعي غيره النبوة، ويأتي بالخارق، وعلى هذا فليست معارضة الرسول بأن يأتوا بالقرآن، أو عشر سور أو سورة، مثل أن يدعي أحدهم النبوة، ويفعل ذلك، وهذا خلاف العقل والنقل، ولو قال الرسول لقريش: لا يقدر أحد منكم أن يدعي النبوة ويأتي بمثل القرآن، وهذا هو الآية، وإلا فمجرد تلاوة القرآن ليس آية، بل قد يقرأه المتعلم له، فلا تكون آية، لأنه لم يدع النبوة، ولو ادعاها لكان الله ينسيه إياه، أو يقيض له من يعارضه كما ذكرتم، لكانت قريش وسائر العلماء يعلمون أن هذا باطل.

الرابع: أنه إذا كان اعتمادكم على عدم المعارضة فقولوا ما قاله غيركم، وهو أن آية سلامة ما يقوله من التناقض وأن كل من ادعى النبوة، وكان كاذباً فلا بد أن يتناقض أو يقيض الله له من يقول مثل ما قال، وأما السلامة من التناقض من غير دعوى النبوة فليست دليلاً فهذا خير من

قولكم فإنه قد علم أن كل ما جاء من عند غير الله، فإنه لا بد أن يختلف ويتناقض، وما جاء من عند الله لا يتناقض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيرِ الله لَوَجدوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً﴾[1].

وأما دعوى الضرورة فمن ادعى الضرورة في شيء دون شيء مع تماثلهما، وعدم الفرق بينهما في نفس الأمر كانت دعواه مردودة بل كذباً، فإن وجود العلم الضروري بشيء دون شيء لا بد أن يكون لفرق أما في المعلوم وأما في العالم، وإلا فإذا قدر تساوي المعلومات وتساوي حال العالم بها لم يعلم بالضرورة أحد المتماثلين دون الآخر.

الخامس: أنه لا بد أن تكون الآية التي للنبي أمراً مختصاً بالأنبيآء، فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه، فآية النبي هي دليل صدقه، وعلامة صدقه وبرهان صدقه، فلا توجد قط إلا مستلزمة لصدقه، وقد ادعوا أن آيات صدقهم تكون منفكة عن صدقهم تكون لساحر وكاهن ورجل صالح، ولمدعي الإلهية لكن لا تكون لمن يكذب في دعوى النبوة، فجوزوا وجود الدليل مع عدم المدلول عليه إلا إذا ادعى المدلول عليه كاذب، واستدلوا على ذلك بأن الساعة تخرق عندها خوارق، ولا تدل على صدق أحد، ولو ادعى مدعي النبوة مع تلك الخوارق لدلت، قالوا: فعلم إن جنس ما هو معجز يوجد بدون صدق النبي، لكن مع دعوى النبوة لا يوجد إلا مع الصدق، والآية عندهم الدعوى والخارق والصدق هو المدلول عليه فلا يكون ذلك كذلك إلا مع هذا، وأما وجود الخارق مجرداً عن الدعوى فليس بدليل، ولا فرق عندهم بين خارق وخارق، وخارق معتاد عند قوم دون قوم وليس لهم ضابط في العادات.

ولسائل أن يقول: جميع ما يفعله الله من الآيات في العالم فهو دليل على صدق الأنبيآء ومستلزم له، وإن كانت الآيات معتادة لجنس الأنبيآء أو لجنس الصالحين الذين يتبعون الأنبيآء فهي مستلزمة لصدق مدعي النبوة، فإنها إذا لم تكن إلا لنبي أو من يتبعه أن يكون من أحد القسمين، والكاذب في دعوى النبوة ليس واحداً منهما، فالتابع للأنبيآء الصالح لا يكذب في دعوى النبوة قط ولا يدعيها إلا وهو صادق، كالأنبيآء المتبعين لشرع موسى، فإذا كانت آية نبي احياء الله الموتى لم يمتنع أن يحيي الله الموتى لنبي آخر أو لمن يتبع الأنبيآء، كما قد أحيى الميت لغير واحد من الأنبيآء ومن اتبعهم، وكان ذلك آية على نبوة محمد ﷺ ونبوة من قبله إذا كان إحياء الموتى مختصاً بالأنبيآء وأتباعهم.

وكذلك ما يفعله الله من الآيات والعقوبات بمكذبي الرسل كتغريق فرعون وإهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية، وإهلاك قوم صالح بالصيحة وأمثال ذلك، فإن هذا جنس لم يعذب به

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

إلا من كذب الرسل، فهو دليل على صدق الرسل، وقد يميت الله بعض الناس بأنواع متعددة من البأس كالطواعين ونحوها، لكن هذا معتاد لغير مكذبي الرسل، أما ما عذب الله به مكذبي الرسل فمختص بهم، ولهذا كان من آيات الله كما قال: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾(١). وكذلك ما يحدثه من أشراط الساعة كظهور الدجال ويأجوج ومأجوج، وظهور الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، بل والنفخ في الصور وغير ذلك هو من آيات الأنبيآء فإنهم أخبروا به قبل أن يكون فكذبهم المكذبون، فإذا ظهر بعد مئين أو ألوف السنين كما أخبروا به كان هذا من آيات صدقهم، ولم يكن هذا إلا لنبي أو لمن يخبر عن نبي والخبر عن النبي هو خبر النبي، ولهذا كان وجود ما أخبر به الرسول من المستقبلات من آيات نبوته إذا ظهر المخبر به كما كان أخبر فيما مضى عرف صدقه فيما أخبر به إذا كان هذا، وهذا لا يمكن أن يخبر به إلا نبي أو من أخذ عن نبي، وهو لم يأخذ عن أحد من الأنبيآء شيئاً، فدل على نبوته، ولهذا يحتج الله في القرآن بذلك، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وأخبار الكهان فيها كذب كثير، والكاهن قد عرف أنه يكذب كثيراً مع فجوره قال تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾(٢). والكهانة جنس معروف، ومعروف أن الكاهن يتلقى عن الشيطان، ولا بد من كذبهم وفجورهم، والنبي لا يكذب قط، ولا يكون إلا براً تقياً، فالفرق بينهما ثابت في نفس صفاتهما وأفعالهما وآياتهما، لا يقول عاقل إن مجرد ما يفعله الكاهن هو دليل إن اقترن بصادق، وليس بدليل إذا لم يقترن بصادق، وأنه متى ادعاه كاذب لم يظهر على يده، وهذا أيضاً باطل.

ويظهر بالوجه السادس وهو أنه قد ادعى جماعة من الكذابين النبوة وأتوا بخوارق من جنس خوارق الكهان والسحرة، ولم يعارضهم أحد في ذلك المكان والزمان وكانوا كذابين، فبطل قولهم أن الكذاب إذا أتى بمثل خوارق السحرة والكهان فلا بد أن يمنعه الله ذلك الخارق، أو يقيض له من يعارضه، وهذا كالأسود العنسي الذي ادعى النبوة باليمن في حياة النبي ﷺ واستولى على اليمن وكان معه شيطان سحيق ومحيق، وكان يخبر بأشياء غائبة من جنس أخبار الكهان، وما عارضه أحد وعرف كذبه بوجوه متعددة، وظهر من كذبه وفجوره ما ذكره الله بقوله: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أثيم﴾(٣).

(١) سورة الاسراء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٢٢.

وكذلك مسيلمة الكذاب، وكذلك الحارث الدمشقي ومكحول الحلبي وبابا الرومي لعنة الله عليهم، وغير هؤلاء كانت معهم شياطين كما هي مع السحرة والكهان.

السابع: أن آيات الأنبيآء ليس من شرطها استدلال النبي بها ولا تحديه بالإتيان بمثلها بل هي دليل على نبوته، وإن خلت عن هذين القيدين وهذا كأخبار من تقدم بنبوة محمد، فإنه دليل على صدقه، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به، ولا يستدل به، وأيضاً فما كان يظهره الله على يديه من الآيات مثل تكثير الطعام والشراب مرات كنبع الماء من بين أصابعه غير مرة، وتكثير الطعام القليل حتى كفى أضعاف أضعاف من كان محتاجاً إليه، وغير ذلك من دلائل النبوة، ولم يكن يظهرها للإستدلال بها ولا يتحدى بمثلها بل لحاجة المسلمين إليها، وكذلك إلقاء الخليل في النار، إنما كان بعد نبوته ودعائه لهم إلى التوحيد.

الثامن: إن الدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلاً إلى علم فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد فالآيات وبراهين تدل سواء استدل به النبي أو لم يستدل به لا يدل إذا استدل به، ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلاً إذا استدل به مدع لدلالته.

التاسع: أن يقال آيات الأنبيآء لا تكون إلا خارقة للعادة، ولا تكون مما يقدر أحد على معارضتها فاختصاصها بالنبي وسلامتها عن المعارضة شرط فيها بل وفي كل دليل فإنه لا يكون دليلاً حتى يكون مختصاً بالمدلول عليه ولا يكون مختصاً إلا إذا سلم عن المعارضة، فلم يوجد مع عدم المدلول عليه مثله، وإلا إذا وجد هو أو مثله بدون المدلول لم يكن مختصاً فلا يكون دليلاً، لكن كما أنه لا يكفي مجرد كونه خارقاً لعادة أولئك القوم دون غيرهم فلا يكفي أيضاً فلا يكفي أيضاً عدم معارضة أولئك القوم، بل لا بد أن يكون مما لم يعتده غير الأنبيآء فيكون خارقاً لعادة غير الأنبيآء فمتى عرف أنه يوجد لغير الأنبيآء بطلت دلالته، ومتى عارض غير النبي النبيَّ بمثل ما أتى به بطل الإختصاص.

وما ذكره المعتزلة وغيرهم كابن حزم أن آيات الأنبيآء مختصة بهم كلام صحيح، لكن كرامات الأولياء هي من دلائل النبوة، فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبي الصادق فصار وجودها كوجود ما أخبر به النبي من الغيب، وأما ما يأتي به السحرة والكهان من العجائب فتلك جنس معتاد لغير الأنبيآء وأتباعهم، بل الجنس معروف بالكذب والفجور فهو خارق بالنسبة إلى غير أهله، وكل صناعة فهي خارقة عند غير أهلها، ولا تكون آية وآيات الأنبيآء وإن كانت معتادة للأنبيآء.

العاشر: إن آيات الأنبياء خارجة عن مقدور من أرسل الأنبيآء إليه وهم الجن والإنس، فلا تقدر الإنس والجن أن يأتوا معجز الأنبيآء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنِ على أن يأتوا بمثلِ هَذا القُرآنِ لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١). وأما الملائكة فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك، فإن الملائكة إنما تنزل على الأنبيآء لا تنزل على السحرة والكهان، كما أن الشياطين لا تنزل على الأنبيآء، والملائكة لا تكذب على الله، فإذا كانت الآيات من أفعال الملائكة مثل أخبارهم للنبي عن الله بالغيب، ومثل نصرهم له على عدوه وإهلاكهم له نصراً وهلاكاً خارجين عن العادة كما فعلته الملائكة يوم بدر وغيره، وكما فعلت بقوم لوط، وكما فعلت بمريم والمسيح ونحو ذلك، وكإتيانهم لسليمان بعرش بلقيس، فقد روى أن الملائكة جاءته به وهي أقدر من الجن لم يكن هذا خارجاً عما اعتاده الأنبيآء، بل هذا ليس لغير الأنبيآء فلا يقول أن غير الأنبيآء اعتادوه فنقضت عادتهم، بل هذا لم يعتده إلا الأنبيآء وهو مناقض لجنس الآدميين بمعنى أنه لا يوجد فيما اعتاده بنو آدم في جميع الأصناف غير الأنبيآء كما اعتادوا العجائب من السحر والكهانة والصناعات العجيبة، وما يستعينون عليه بالجن والإنس والقوى الطبيعية، مثل الطلاسم وغيرها، فكل هذا معتاد معروف لغير الأنبيآء، وهؤلاء جعلوا الطلاسم من جنس المعجزات وقالوا: لو أتى بها نبي لكانت آية له، وإذا أتى بها من لم يدع النبوة جاز، وإن ادعاها كاذب سلبه الله علمها أو قيض له من يعارضه، وهذا قول قبيح، فإنه لو جعل شيء من معجزات الأنبيآء وآياتهم من جنس ما يأتي به ساحر أو كاهن أو مطلسم أو مخدوم من الجن لاستوى الجنسان، ولم يكن فرق بين الأنبيآء وبين هؤلاء، ولم يتميز بذلك النبي من غيره، وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه فلم يعرفوا خصائص النبي وخصائص آياته.

كما أن المتفلسفة أبعد منهم عن الإيمان فجعلوا للنبوة ثلاث خصائص: حصول العلم بلا تعلم، وقوة نفسه المؤثرة في هيولي العالم، وتخيل السمع البصر. وهذه الثلاثة توجد لكثير من عوام الناس، ولم يفرقوا بين النبي والساحر إلا بأن هذا بر، وهذا فاجر، والقاضي أبو بكر وأمثاله يجعلون هذا الفرق سمعياً، والفرق الذي لا بد منه عندهم الإستدلال بها والتحدي بالمثل، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا مع الأنبيآء من ليس بنبي ولم يعرفوا خصائص الأنبياء، ولا خصائص آياتهم، فلزمهم جعل من ليس بنبي نبياً أو جعل النبي ليس بنبي إذ كان ما ذكروه في النبوة مشتركاً بين الأنبياء وغيرهم، فمن ظن أنه يكون لغير الأنبيآء قدح في الأنبيآء أن يكون هذا هو دليلهم بوجود مثل ما جاءوا لغير النبي، ومن ظن أنه لا يكون إلا لنبي إذا رأى من فعله من متنبي كاذب وساحر وكاهن ظن أنه نبي، والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن

(١) سورة الاسراء: الآية ٨٨.

لم يحقق هذا الباب إضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب.

ولما كان الذين اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من المتأخرين مثل أبي حامد والرازي والآمدي وأمثالهم، هذا ونحوه مبلغ علمهم بالنبوة لم يكن لها في قلوبهم من العظمة ما يجب لها، فلا يستدلون بها على الأمور العلمية الخبرية، وهي خاصة النبي، وهو الإخبار عن الغيب والإنباء به، فلا يستدلون بكلام الله ورسوله على الإنباء بالغيب التي يقطع بها، بل عمدتهم ما يدعونه من العقليات المتناقضة، ولهذا يقرون بالحيرة في آخر عمرهم كما قال الرازي:

نِهَايَةُ إقدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأكثَرُ سَعي العَالمينَ ضَلاَلُ
وَأَرواحنَا في وَحشَةٍ مِن جُسُومنا ... وَحَاصِلُ دُنيَانَا أذى وَوَبَالُ
وَلَمْ نستفِدْ من بحثنَا طول عمرِنَا ... سِوَى أنْ جمعنا فيه قيلٌ وقالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، إقرأ في الإثبات ﴿إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(1) ﴿الرَّحمَنُ عَلىَ العَرشِ اسْتَوى﴾(2) واقرأ في النفي ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾(3) ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ علماً﴾(4) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

الوجه الحادي عشر: إن آيات الأنبيآء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم، فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبيآء، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء، ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم، وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح، ومن ركب معه في السفينة، فهذا لم يكن قط في العالم نظيره، وكذلك إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد مع كثرتهم وقوتهم وعظم عماراتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ونجا هود ومن اتبعه، فهذا لم يوجد نظيره في العالم، وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين أهلكوا كلهم بصيحة واحدة، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قوم لوط أصحاب مدائن متعددة رفعت إلى السماء، ثم قلبت بهم واتبعوا بحجارة

---

(1) سورة فاطر: الآية ١٠.
(2) سورة طه الآية ٥.
(3) سورة الشورى: الآية ١١.
(4) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

من السماء تتبع شاذهم ونجا لوط وأهله، إلا امرأته أصابها ما أصابهم، فهذا لم يوجد نظيره في العالم، وكذلك قوم فرعون وموسى جمعان عظيمان ينفرق لهم البحر كل فرق كالطود العظيم، فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء، فهذا لم يوجد نظيره في العالم، فهذه آيات تعرف العقلاء عموماً أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم، وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جدب ونحو ذلك، وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر بل كل حادث من آيات الله تعالى.

ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد، وكذلك الكعبة فإنها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها يأتيها خاضعاً ذليلاً متواضعاً في غاية التواضع: وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة وشوقاً من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها، والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقى مدة، ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها.

وكذلك ما بُني للعبادات قد تتغير حاله على طول الزمان، وقد يستولي العدو عليه كما استولى على بيت المقدس، والكعبة لها خاصة ليست لغيرها، وهذا مما حَيّر الفلاسفة ونحوهم، فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي فقد بُني بطالع سعيد فحاروا في طالع الكعبة إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والفرح والعظمة والدوام والقهر والغلبة، وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها قال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصحابِ الفيل، أَلَم يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ في تَضْليلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيراً أَبَابيلَ، تَرميهمْ بحِجَارَةٍ مِنْ سِجيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ﴾[1].

قصدها جيش عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منهم فبرك الفيل وامتنع من المسير إلى جهتها، وإذا وجهوه إلى غير جهتها توجه، ثم جاءهم من البحر طير أبابيل أي جماعات في تفرقة فوجاً بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم، فآيات الأنبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم، والدليل يجب أن يكون مختصاً بالمدلول عليه لا يوجد مع عدمه لا يتحقق الدليل إلا مع تحقق المدلول، كما أن الحادث لا بد له من محدث فيمتنع وجود حادث بلا محدث ولا يكون المحدث إلا قادراً، فيمتنع وجود الأحداث من غير قادر،

(١) سورة الفيل: الآيتان ١ ـ ٥.

والفعل لا يكون إلا من عالم ونحو ذلك، فكذلك ما دل على صدق النبي يمتنع وجوده إلا مع كون النبي صادقاً، ولم يجعلوا آيات الأنبياء تدل على دلالة عقلية مستلزمة للمدلول، ولا تدل بجنسها ونفسها بل قال بعضهم: قد تدل، وقد لا تدل، وقال آخرون: تدل مع الدعوى ولا تدل مع عدم الدعوى، وهذا يبطل كونها دليلاً.

وآخرون أرادوا تحقيق ذلك فقالوا: تدل دلالة وضعية من جنس دلالة اللفظ على مراد المتكلم، وتدل [على][1] قصد الدلالة ، ولا تدل بدون ذلك، فهي تدل مع الوضع دون غيره، فيقال لهم: وما يدل على قصد المتكلم هو أيضاً دليل مطرد يمتنع وجوده بدون المدلول، ودلالته تعلم بالعقل فجميع الأدلة تعلم بالعقل، دلالتها على المدلول، فإن ذلك اللفظ إنما يدل إذا علم أن المتكلم أراد به هذا المعنى، وهذا قد يعلم ضرورة، وقد يعلم نظراً فقد يعلم قصد المتكلم بالضرورة كما يعلم أحوال الإنسان بالضرورة، فيفرق بين حمرة الخجل، وصفرة الوجل وبين حمرة المحموم وصفرة المريض بالضرورة، وقد يعلم نظراً واستدلالاً كما يعلم أن عادته إذا قال كذا أن يريد كذا، وإنه لا ينقض عادته إلا إذا بين ما يدل على انتقاضها، فيعلم هذا كما يعلم سائر العاديات مثل طلوع الشمس كل يوم، والهلال كل شهر، وارتفاع الشمس في الصيف وانخفاضها في الشتاء، ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبيآء وأتباعهم وبين مكذبهم، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأولين فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبديلاً، وَلَنْ تجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحويلاً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يِسيرُوا فِي الأرضِ فَتَكُونَ لهم قُلُوبٌ يَعقِلونَ بهَا أو آذَانٌ يَسْمَعونَ بهَا فإنها لاتَعْمَى الأَبْصَارُ وَلكِن تعمىَ القُلوبُ التي في الصُدُور﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَبُوا في البلَادِ هلْ مِنْ مَحِيصٍ إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلبٌ أَوْ ألقى السمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[5].

فإن هذه العجائب والآيات التي للأنبيآء تارة تعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئاً من آثارها، وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث كما قال تعالى: ﴿وعاداً وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[8] وقال:

---

(١) وردت في الأصل: أن، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.
(٣) سورة فاطر: الآية ٤٣.
(٤) سورة الحج: الآية ٤٦.
(٥) سورة ق: الآيتان ٣٦، ٣٧.
(٦) سورة العنكبوت: الآية ٣٨.
(٧) سورة النمل: الآية ٥٢.

﴿وَإنكُم لَتَمُرُّونَ عَلَيهِم مُصْبِحِينَ وَبِالليلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ للمُتَوَسِمينَ، وَإنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مقيمٍ إن في ذلك لآيةً للمؤمنين وإنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإنهمَا لَبِإمَامٍ مُبِينٍ﴾[2] أي لبطريقٍ موضح متبين لمن مر به آثارهم، وهذه الأخبار كانت منتشرة متواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبيآء، وعقوبة لمكذبيهم، وهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للإعتبار، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَومِ إني أَخَافُ عليكم مثلَ يَوْمِ الأحزَابِ مِثْلَ دَأْبِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ومَا الله يُرِيد ظُلماً لِلْعِبَادِ﴾[3].

وقال شعيب: ﴿وَيَا قَومِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصيبَكم مثلُ مَا أصَابَ قَومَ نُوحٍ أَوْ قَومَ هُودٍ أو قَوْمَ صَالِحٍ وَمَاقَومِ لُوطٍ مِنْكُم بِبَعيدٍ﴾[4]. والقرآن [آياته][5] باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدي به. ويَتلي قوله ﴿فَلْيأتُوا بحَدِيثٍ مثله إنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[6]. و ﴿فَأْتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثله﴾[7]. و ﴿بسورةٍ مثلِهِ وادعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله﴾[8]. ويُتْلى قوله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجتمعتْ الإنْسُ وَالجنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا هَذَا القُرآن لَا يَأْتُونَ بمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[9] فنفس أخبار الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق، دليل على أنه كان خارقاً يعجز عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبيآء، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف والعرب والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال مثله، وهذا يعرفه كل أحد، وما من كلام تكلم به الناس، وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى إلا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه سواء كان شعراً أو خطابه أو كلاماً في العلوم والحكمة والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك، وما وجد من ذلك شيء إلا ووجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظه آية، ونظمه آية، وأخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٣٧.
(٢) سورة الحجر: الآيات ٧٥ ـ ٧٨.
(٣) سورة غافر: الآية ١٨٨.
(٤) سورة هود: الآية ٨٩.
(٥) وردت في الأصل: آيته: ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٦) سورة الطور: الآية ٣٤.
(٧) سورة هود: الآية ١٣.
(٨) سورة يونس: الآية ٣٨.
(٩) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

وإذا قيل: أن التوراة والانجيل والزبور لم يوجد لها نظير أيضاً لم يضرنا ذلك، فإنا قلنا: إن آيات الأنبيآء لا تكون لغيرهم وإن كانت لجنس الأنبيآء كالأخبار بغيب الله فهذه آية يشتركون فيها، وكذلك إحياء الموتى قد كان آية لغير واحد من الأنبيآء غير المسيح كما كان ذلك لموسى وغيره.

وليس المقصود هنا ذكر تفضيل بعض الأنبيآء على بعض، بل المقصود أن جنس الأنبيآء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم التي يعلم العقلاء إنها لم توجد لغيرهم، فيعلمون أنها ليست لغيرهم لا عادة ولا خرق عادة، بل إذا عبر عنها بأنها خرق عادة، وبأنها من العجائب فالأمر العجيب هو الخارج عن نظائره، وخارق العادة ما خرج عن الأمرالمعتاد. فالمراد بذلك أنها خارجة عن الأمر المعتادة لغير الأنبيآء، وأنها من العجائب الخارجة عن نظائر فلا يوجد نظيرها لغير الأنبيآء، وإذا وجد نظيرها سواء كان أعظم منها أو دونها لنبي، فذلك توكيد لها أنها من خصائص الأنبيآء، فإن الأنبيآء يصدق بعضهم بعضاً، فآية كل نبي آية لجميع الأنبيآء، كما أن آيات أتباعهم آيات لهم أيضاً، وهذا أيضاً من آيات الأنبيآء وهو تصديق بعضهم لبعض، فلا يوجد من أصحاب الخوارق العجيبة التي تكون لغير الأنبيآء كالسحرة والكهنة وأهل الطبائع والصناعات، إلا من يخالف بعضهم بعضاً فيما يدعو إليه ويأمر به، ويعادي بعضهم بعضاً، وكذلك اتباعهم إذا كانوا من أهل الأستقامة، فما أتى به الأول من الآيات فهو دليل على نبوته ونبوة من يبشر به، وما أتى به الثاني فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم، فما أتى به موسى والمسيح وغيرهما من الآيات فهي آيات لنبوة محمد لأخبارهم بنبوته، فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه.

وما أتى به محمد من الآيات فهو دليل على إثبات جنس الأنبيآء مطلقاً، وعلى نبوة كل من سمى في القرآن، خصوصاً إذا كان هذا مما أخبر به محمد ﷺ عن الله، ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله، وحينئذ فإذا قدر أن التوراة أو الأنجيل أو الزبور معجز لما فيه من العلوم والأخبار عن الغيوب، والأمر والنهي ونحو ذلك، لم ينازع في ذلك بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم، وعلى نبوة من أخبروا بنبوته، ومن قال إنها ليست بمعجزة، فإن أراد معجزة من جهة اللفظ والنظم كالقرآن فهذا ممكن، وهذا يرجع إلى أهل اللغة العبرانية.

وأما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الأخبار عن الغيوب أو الأمر والنهي، ومما يدل على أن كتب الأنبيآء معجزة أن فيها الأخبار بنبوة محمد ﷺ قبل أن يبعث بمدة طويلة، وهذا لا يمكن علمه بدون اعلام الله لهم، وهذا بخلاف من أخبر بنبوته من الكهان والهواتف، فإن هذا إنما كان عند قرب مبعثه لما ظهرت دلائل ذلك واسترقته الجن من الملائكة

فتحدثت به، وسمعته الجن من أتباع الأنبيآء فالنبي الثاني إذا كان بما هو موجود في كتاب النبي الأول، وقد وصل اليه من جهته لم يكن آية له، فإن العلماء يشاركونه في هذا.

وأما إذا أخبر بقدر زائد لم يوجد في خبر الأول أو كان ممن لم يصل اليه خبر نبي غيره كان ذلك آية له كما يوجد في نبوة أشعيا وداود وغيرهما من صفات النبي ما لا يوجد مثله في توراة موسى، فهذه الكتب معجزة لما فيها من أخبار الغيب الذي لا يعلمه إلا نبي، وكذلك فيها من الأمر والنهي والوعد والوعيد ما لا يأتي به إلا نبي أو تابع نبي، وما أتى أتباع الأنبيآء من جهة كونهم أتباعاً لهم مثل أمرهم بما أمروا به ونهيهم عما نهوا عنه، ووعدهم بما وعدوا به ووعيدهم بما يوعدون به فإنه من خصائص الأنبيآء، والكذاب المدعي للنبوة لا يأمر بجميع ما أمرت به الأنبيآء، وينهى عن كل ما نهوا عنه، فإن ذلك يفسد مقصوده وهو كاذب فاجر شيطان من أعظم شياطين الإنس، والذي يعينه على ذلك من أعظم شياطين الجن.

وهؤلاء لا يتصور أن يأمروا بما أمرت به الأنبيآء، وينهوا عنا نهوا عنه لأن ذلك يناقض مقصودهم، بل وإن أمروا بالبغض في ابتداء الأمر من يخدعونه ويربطونه، فلا بد أن يناقضوا فيأمروا بما نهت عنه الأنبيآء. ولا يوجبوا ما أمرت به الأنبيآء، كما جرى مثل ذلك لمن ادعى النبوة من الكذابين ولمن أظهر موافقة الأنبياء، وهو في باطن من المنافقين كالملاحدة الباطنية الذين يظهرون الإسلام والتشيع ابتداء، ثم انهم يستحلون الشرك والفواحش والظلم ويسقطون الصلاة والصيام وغير ذلك مما جاءت به الشريعة، فمن أظهر خلاف ما أبطن، وكان مطاعاً في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره.

فكيف بمن ادعى النبوة وأظهر أنه صادق على الله وهو في الباطن كاذب على الله، بل من أظهر خلاف ما أبطن من آحاد الناس يظهر حاله لمن خبره في مدة، فإن الجسد مطيع للقلب، والقلب هو الملك المدبر له، كما قال ﷺ «ألا إنّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائِرُ الجَسَدِ، وإذا فسدَتْ فَسَدَ لها سائِرُ الجسدِ ألا وهي القلبُ».

فإذا كان القلب كاذباً على الله فاجراً كان ذلك أعظم الفساد، فلا بد أن يظهر الفساد على الجوارح، وذلك الفساد يناقض حال الصادق على الله، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

آيات الأنبيآء الدالة على صدقهم:

ذكر أن آيات الأنبيآء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، وأن النبي الصادق خير الناس، والكاذب على الله شر الناس، وبينهما من الفروق ما لا يحصيه إلا الله. فكيف يشتبه هذا بهذا، بل لهذا من دلائل صدقه، ولهذا من دلائل كذبه ما لا يمكن إحصاؤه، وكل من خص دليل

الصدق بشيء معين فقط غلط. بل آيات الأنبيآء هي من آيات الله الدالة على أمره ونهيه ووعده ووعيده. وآيات الله كثيرة متنوعة كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته سبحانه وتعالى. والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها وضرب الأمثال في ذلك، وهو يسميها آيات وبراهين. وقد ذكرنا الفرق بين الآيات والمقاييس الكلية التي لا تدل إلا على أمر كلي في غير هذا الموضع.

الوجه الثاني عشر: إن ما يأتي به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصناعات والحيل، وكل من ليس من اتباع الأنبيآء لا يكون إلا من مقدور الإنس والجن، فما يقدر عليه الإنس من ذلك هو وأنواعه والحيل فيه كثير. وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الإنس وإنما يختلفون في الطريق، فإن الساحر قد يقدر على أن يقتل إنساناً بالسحر أو يمرضه أو يفسد عقله أو حسه وحركته وكلامه بحيث لا يجامع أو لا يمشي أو لا يتكلم ونحو ذلك، وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله لكن بطرق أخرى، والجن يطيرون في الهواء وعلى الماء، ويحملون الأجسام الثقيلة كما قال العفريت لسليمان: ﴿أنا آتيكَ به قَبلَ أن تقومَ مِن مَقامِكَ﴾[1] وهذا الجنس يكون لمن هو دون الأنس والجن من الحيوان كالطيور والحيتان، والأنس يقدر على جنسه، ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبي لوجوده لغير الأنبيآء، فكثير من الناس تحمله الجن بل شياطين الجن وتطير به في الهواء وتذهب به إلى مكان بعيد، كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس من اليمن إلى مكان بعيد.

ونحن نعرف من هؤلاء عدداً كثيراً وليسوا صالحين، بل فيهم كفار ومنافقون وفساق وجهال لا يعرفون الشريعة، والشياطين تحملهم وتطير بهم من مكان إلى مكان، وتحملهم إلى عرفات فيشهدون عرفات من غير احرام ولا تلبية ولا طواف بالبيت، وهذا الفعل حرام. والجهال يحسبون أنه من كرمات الصالحين، فتفعله الجن بمن يحب ذلك مكراً به وخديعة، أو خدمة لمن يستخدمهم من هؤلاء الجهال بالشريعة وإن كان له زهد وعبادة.

وكذلك الجن كثيراً ما يأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس من طعام وشراب ونفقة وماء وغير ذلك، وهو من جنس ما يسرقه الأنسي ويأتي به إلى الأنسي، لكن الجن تأتي بالطعام والشراب في مكان العدم، ولهذا لم يكن مثل هذا آية لنبي، وإنما كان النبي ﷺ يضع يده في الماء فينبع الماء من بين أصابعه وهذا لا يقدر عليه لا إنس ولا جن، وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً، وهذا لا يقدر عليه لا الجن ولا الإنس، ولم يأت النبي ﷺ قط بطعام من الغيب

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٩.

ولا شراب، وإنما كان هذا قد يحصل لبعض أصحابه كما أتى حبيب بن عدي وهو أسير بمكة بقطف من عنب، وهذا الجنس ليس من خصائص الأنبيآء، ومريم عليها السلام لم تكن نبية وكانت تؤتى بطعام، فإن هذا قد يكون من حلال فيكون كرامة يأتي به إما ملك، وإما جني مسلم وقد يكون حراماً، فليس كل ما كان من آيات الأنبيآء يكون كرامة للصالحين، وهؤلاء يسوون بين هذا وهذا، ويقولون: الفرق هو دعوى النبوة والتحدي بالمثل، وهذا غلط فإن آيات الأنبيآء عليهم السلام التي دلت على نبوتهم هي أعلى مما يشتركون فيه هم وأتباعهم، مثل الإتيان بالقرآن، ومثل الإخبار بأحوال الأنبيآء المتقدمين وإممهم والأخبار بما يكون يوم القيامة واشراط الساعة، ومثل إخراج الناقة من الأرض ومثل قلب العصا حية وشق البحر، ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتسخير الجن لسليمان لم يكن مثلة لغيره.

لكن من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنين، ومن الجن الفساق والكفار من يعاون الفساق كما يعاون الإنس بعضهم بعضاً، فإما طاعة مثل طاعة سليمان، فهذا لم يكن لغير سليمان عليه السلام، ومحمد ﷺ أعطي أفضل مما أعطي سليمان عليه السلام أرسل إلى الجن وأمروا أن يؤمنوا به ويطيعوه، فهو يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته، لا يأمرهم بخدمته وقضاء حوائجه كما كان سليمان يأمرهم، ولا يقهرهم باليد كما كان سليمان يقهرهم، بل يفعل فيهم كما يفعل في الإنس، فيجاهدهم الجن والمؤمنون ويقيمون الحدود على منافقيهم فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول لا تصرف النبي الملك. كما كان سليمان يتصرف فيهم والصالحون من أمته المتبعون له يتبعونه فيما كان يأمر به الإنس والجن.

وآخرون دون هؤلاء قد يستخدمون بعض الجن في مباحات، كما قد يستخدمون بعض الإنس، وقد يكون ذلك مما ينقص دينهم لا سيما إن كان بسبب غير مباح وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة من الظلم والفواحش، فيقتلون نفوساً بغير حق، ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة، كما يحضرون امرأة أو صبياً أو يجذبونهم اليه، وآخرون يستخدمونهم في الكفر، فهذه الأمور من كرامات الصالحين، فإن كرامات الصالحين هو ما كان سببه الإيمان والتقوى، لا ما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان، وأيضاً فالصالحون سابقوهم لا يستخدمونهم إلا في طاعة الله ورسوله، ومن هو دون هؤلاء لا يستخدمهم إلا في مباح، وأما استخدامهم في المحرمات فهو حرام، وإن كانوا إنما خدموه لطاعته لله كما خدم الإنس رجلاً صالحاً لطاعته لله، ثم استخدمهم فيما لا يجوز فهذا بمنزلة من أنعم عليه بطاعته نعمة فصرفها

إلى معصية الله فهو آثم لذلك. وكثير من هؤلاء يسلب تلك النعمة، ثم قد يسلب الطاعة فاسقاً، ومنهم من يرتد عن دين الإسلام.

فطاعة الجن للإنسان ليست أعظم من طاعة الإنس، بل الإنس أجلُّ وأعظم، وأفضل، وطاعتهم أنفع، وإذا كان المطاع من الإنس قد يطاع في طاعة الله فيكون محموداً مثاباً، وقد يطاع في معصية الله فيكون مذموماً آثماً. فكذلك المطاع من الجن الذي يطيعه الناس، والمطاع من الإنس قد يكون مطاعاً لصلاحه ودينه. وقد يكون مطاعاً لملكه وقوته، وقد يكون مطاعاً لنفعه لمن يخدمه بالمعاوضة، فكذلك المطاع من الجن قد يطاع لصلاحه ودينه، وقد يطاع لقوة وملك محمود أو مذموم، ثم الملك إذا سار بالعدل حمد، وإن سار بالظلم فعاقبته مذمومة، وقد يهلكه أعوانه فكذلك المطاع من الجن إذا ظلمهم أو ظلم الإنس بهم أو بغيرهم، كانت عاقبته مذمومة وقد تقتله الجن أو تسلط عليه من الإنس من يقتله، وكل هذا واقع نعرف من ذلك من الوقائع ما يطول وصفه كما نعرف من ذلك من وقائع الإنس ما يطول وصفه، وليس آيات في شيء من هذا الجنس.

ونبينا ﷺ لما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إنما أسرى به ليرى من آيات ربه الكبرى، وهذا هو الذي كان من خصائصه في مسراه كان هذا، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُمارُونَهُ على ما يَرى ولقَدْ رآهُ نَزْلَةً أخرى عِندَ سِدْرةِ المُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ المأوى﴾(1). وقال تعالى: ﴿وَما جَعلْنا الرُّؤيا التي أَرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلنّاسِ﴾(2) قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، فهذا الذي كان من خصائصه ومن أعلام نبوته.

وأما مجرد قطع تلك المسافة، فهذا يكون لمن تحمله الجن، وقد قال العفريت لسليمان: ﴿أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقومَ مِنْ مَقامِكَ﴾(3) وحمل العرش من القصر من اليمن إلى الشام أبلغ من ذلك.

﴿وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾(4)، فهذا أبلغ من قطع المسافة التي بينَ المسجدين في ليلةٍ، ومحمد ﷺ أفضل من الذي عنده علم مِن كتاب ومِن سليمان، فكان الذي خصه الله به أفضل من ذلك، وهو أنّه أسرى به في ليلة ليريه من آياته، فالخاصة أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى، كما ﴿رآه نزلة أخرى عند سدرة

---

(1) سورة النجم: الآيات ١٢ ـ ١٥.

(2) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(3) سورة النمل: الآية ٣٩.

(4) سورة النحل الآية ٤٠.

المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغَ البصر وما طغى﴾[1].

فهذا [لم يحصل][2] مثله لا لسليمان ولا لغيره، والجن وإن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلا يقدرون على إصعاده إلى السماء واراءته آيات ربه الكبرى، فكان ما آتاه الله محمداً خارجاً عن قدرة الجن والإنس، وإنما كان الذي صحبه في معراجه جبريل الذي اصطفاه الله لرسالته، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وكان المقصود من الإسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى ثم يخبر به الناس. فلما أخبر به كذب به من كذب من المشركين، وصدق به الصديق وأمثاله من المؤمنين، فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس كما قال: ﴿وما جَعَلْنا الرؤيةَ التي أرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلنّاس﴾[3]. أي محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار، وهذا مما يخوفهم به، قال تعالى: ﴿ونُخَوِّفُهُم فما يزيدهُم إلاَّ طُغْياناً كبيرا﴾[4]. والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في قصة الاسراء، وأنكروا أن يكون أسري به إلى المسجد الأقصى، فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك، وصدقه من رآه منهم كان ذلك دليلاً على صدقه في المسرى، فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه، وأخبر الله تعالى بالمسرى إلى المسجد الأقصى لأنهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من الملائكة من علاماته فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك، وذكر أنه رأى من آيات ربه الكبرى، ولم يعين ما رآه وهو جبريل الذي رآه في صورته التي خلق عليها مرتين، لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته، ومما يبين أن الذي أتاه بالقرآن ملك لا شيطان، كما قال في سورة إذا الشمس كُوِرَتْ: ﴿إنّه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ذي قُوّةٍ عنْدَ ذي العَرْشِ مَكِينٍ مُطاع ثمَّ أمِين﴾ ثم قال: ﴿وَما صاحِبُكُمْ بمَجْنُون، ولقَد رآهُ بالأُفُقِ المُبينِ وما هُوَ عَلى الغَيْبِ بِضَنين وما هو بِقَوْلِ شَيطانٍ رَجيمٍ فأينَ تذْهَبونَ إنْ هوَ إلاَّ ذِكرٌ للعالمينَ﴾[5].

***

(١) سورة النجم الآيات ١٣ ـ ١٧.

(٢) وردت في الأصل: ما حصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٥) سورة التكوير: الآيات ١٩ ـ ٢٧.

فصل
دلالة المعجزة على النبوة

ومما يبين ضعف طريقة هؤلاء أنهم قالوا المعجزات لا تدل بجنسها على النبوة، بل يوجد مثل المعجز من كل وجه، ولا يدل عى النبوة كأشراط الساعة، وكما يوجد للسحرة والكهان والصالحين من الخوارق التي تماثل آيات الأنبيآء فيما زعمه هؤلاء، قالوا: لكن الفرق أن هذا يدعي النبوة ويحتج بها ويتحداهم بالمثل فلايقدر أحد على معارضته، وأولئك لو ادعوا النبوة لمنعهم الله منها وإن كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها، أو لقيض لهم من يعارضهم، ولو عارضوا بها نبياً لمنعهم الله إياها ليسلم دليل النبوة.

قالوا: والمعجز إنما تدل دلالة وضعية بالجعل والقصد، كدلالة الألفاظ والعقد والخط والعلامات التي يجعلها الناس بينهم فيقال لهم: هذه الأمور كلها إنما تدل إذا تقدم علم المدلول بها أن الدال جعلها علامة كما يوكل الرجل وكيلاً ويجعل بينه وبينه علامة إما وضع يه على ترقوته وإما وضع خنصره، وإما وضع يده على رأسه، فمن جاء بهذه العلامة علم أن موكله أرسله.

فأما إذا لم يتقدم ذلك لم تكن دلالة جملية وضعية اصطلاحية. وآيات الأنبيآء لم تتقدم قبلها من الرب مواضعة بينه وبين العباد، قالوا: هي تشبه ما إذا قال الرجل لموكله والرسول لمرسله إنك أرسلتني إلى هؤلاء القوم، فإن كنت أرسلتني فقم واقعد ليعلموا أنك أرسلتني، فإذا قام وقعد وعقب طلب الرسول علم الحاضرون أنه قام وقعد ليعلمهم أنه رسوله، وإن كان بدون طلبه قد يقوم ويقعد لأمور أخرى، فيقال لهم هنا لما علم الحاضرون انتفاء داع يدعوه إلا قصد التصديق علموا أنه قصد تصديقه، ولهذا لو جوزوا قيامه لحاجة عرضت، أو لحية أو عقرب وقعت في ثيابه، أو لغير ذلك لم يجعلوا ذلك دليلاً، والسير والتقسيم مما يعلم به الدليل وأن لم يقصده الدليل.

حتى أن الرجل المشهور إذا خرج في غير وقت خروجه المعتاد فقد يعرف كثير من الناس لأي شيء خرج، لعلمهم بانتفاء غيره وأن خروجه له مناسب، وإن لم يكن هنا أحد طلب

الإستدلال، فخروج الإنسان عن عادته قد يكون لأسباب، فإذا اقترن بسبب صالح وعلم انتفاء غيره علم أنه لذاك السبب، وهذا إنما يكون ممن يفعل لداع يدعوه، والرب تعالى عندهم لا يفعل لداع يدعوه، فلزمهم إما إبطال أصلهم، وإما إبطال هذه الدلالة، وأيضاً فيقال لهم: بل الدليل دل لجنسه وهو هذا الفعل الذي لم يفعل إلا لهذا المطلب، ومتى وجد هذا كان جنسه دليلاً، وليست الدعوى جزءاً من الدليل، بل طلب الإعلام بهذا الفعل مع الفعل هو الدليل، ولهذا لو قال، فافعل ما يدل على صدقي وقام وقعد لم يدل على صدقه، بخلاف ما إذا قال فقم واقعد.

ولو قال: فأظهر ما يدل على صدقي فلا بد أن يظهر ما يدل على جنسه أنه دليل كقول أو خط أو غير ذلك أو خلعة تختص بمثل ذلك، ففرق بين أن يطلب فعلاً معيناً، أو دليلاً مطلقاً، وهو إذا طلب فعلاً معيناً كقيام أو وضع يد على الرأس أو صلاة ركعتين أو غير ذلك من الأفعال دل على صدقه، وإن كان ذلك معتاداً له أن يفعله فليس من شرط دلالته أن يخرج عن عادته، لكن شرط دلالته أن يعلم أنه فعله لأجل الاعلام، بحيث لا يكون هناك سبب داع غير الإعلام وحينئذ فهو دال لجنسه، وكذلك يقال: الرب إذا خرق العادة لمدعي الرسالة عقب مطالبته بآية، علم أن الله لم يخلق تلك الأدلة على صدقه، فهذا يدل وهذا إنما يتم مع كون الرب يفعل شيئاً لأجل شيء آخر، وحينئذ فقد يكون من شرط الدليل مطالبة الطالب بدليل، لا أن نفس الدعوى هي جزء الدليل، وفرق بين طلبه من الرب آية، أو طلبهم منه آية، وبين الدعوى، فإظهار ما يظهره الرب عقب طلبهم أو طلبه قد يقال فيه إن الطالب جزء الدليل، وأنه لو أظهره بدون الطلب لم يدل، وأما نفس دعوى النبوة فليست جزءاً، وعلى هذا فإذا قدر إنه يفعل ذلك عند طلبه أو طلب غيره آية دل على صدقه، لكن هذا يكون إذا علم أنه لم يفعله إلا لإعلام أولئك بصدقه، وهذا لا يكون إلا بأن يتميز جنس ما دل به عن غيره ولا يجوز أن يدل مع وجود مثله من غير دلالة، بل متى قدر وجود مثله من غير دلالة بطل كونه دليلاً، ولو كانت الدعوى جزءاً من الدليل لكانت المعارضة لا تكون إلا مع دعوى النبوة، فلو أتوا بمثل القرآن من غير دعوى النبوة لم يكونوا عارضوه.

وهذا خلاف ما في القرآن وخلاف ما أجمع المسلمون بل العقلاء والله أعلم، وهم يسمون ما يكون بقصد الدال كالكلام دليلاً وضعياً، فالأقوال والأفعال التي يقصد بها الدلالة كالعقد وما يجعله الرجل علامة ونحو ذلك، يسمونه دليلاً وضعياً، ويسمون ما يدل مطلقاً دليلاً عقلياً، والأجود أن يقال: جميع الأدلة عقلية بمعنى أن العقل إذا تصورها علم أنها تدل.

فإن الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضياً إلى العلم بالمدلول عليه، وإنما يكون

النظر الصحيح لمن يعقل دلالة الدليل، فمن لم يعقل كون الدليل مستلزماً للمدلول لم يستدل به، ومن عقل ذلك استدل به، فهو يدل بصفة هو في نفسه عليها لا بصفة هي في المستدل، لكن كونه عقلياً يرجع إلى أن المستدل علمه بعقله وهذا صفة في المستدل لا فيه.

أو الأجود أن يقال: الدليل قد يدل بمجرده، وقد يدل بقصد الدال على دلالته، فالأول لا يحتاج إلى قصد الدلالة كما تقول النحاة: إن الأصوات تدل بالطبع، وتدل بالوضع، فالذي يدل بالطبع كالنحنحة والسعال والبكاء ونحو ذلك من الأصوات، وهذا ليس كلاماً، وحينئذ فما يدل بقصد الدال أحق بالدلالة ودلالته أكمل، ولهذا كانت دلالة الكلام على مقصود المتكلم وهي دلالة سمعية أكمل من جميع أنواع الأدلة على مراده، وهو البيان الذي علمه الله الإنسان وامتن بذلك على عباده، فمنها ما يدل بمجرده ومنها ما يدل بقصد الدال، فإذا انضم إليه ما يعرف أنه قصد الدلالة دلَّ، فالدليل هنا في الحقيقة قصد الدال للدلالة، وهي دلالة تنتقض إذا لم يجوز عليه الكذب، وإنما الذي دل به على قصده هو دل بجعله دليلاً لم يدل بمجرده، فهو دليل بالإختيار لا بمجرده، فالأقوال والأفعال التي يقصد بها الدلالة تدل باختيار الدال بها لا بمجردها، ودلالتها تعلم بالعقل، وقد يفتقر من العقل إلى أكثر مما يفتقر إليه العقلي المجرد، لأنها تحتاج إلى أن يعلم قصد الدال، ولكن ما يحصل بها من الدلالة أوضح وأكثر كالكلام، وعلى هذا: فإذا أريد تقسيمها إلى عقلي ووضعي، أي إلى عقلي مجرد، وإلى وضعي يحتاج مع العقل إلى قصد من الدال، فهو تقسيم صحيح، فدال يعلم بمجرد العقل، وهذا لا يحتاج مع العقل إلى السمع أو غيره، وحينئذ فإذا قيل في السمعيات أنها ليست عقلية أي لا يكفي فيها مجرد العقل، بل لا بد من انضمام السمع إليه، وكذلك ذكر الرازي وغيره أن السمع المحض لا يدل بل لا بد من العقل، وهذا صحيح، فإن العقل شرط في جميع العلوم التي تختص بالعقلاء والله أعلم.

ومما يلزم أولئك أن ما كان يظهر على يد النبي ﷺ في كل وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوته، لأنه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى الناس بالإتيان بمثله، بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصة، ولا نقل التحدي عن غيره من الأنبيآء مثل موسى والمسيح وصالح، ولكن السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم، وهذا الذي قالوه يوجب أن لا تكون كرامات الأولياء من جملة المعجزات، وقد ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم، وهي من آيات نبوته، وهذا هو الصواب كقصة أبي مسلم الخولاني[1]

---

(١) هو أبو مسلم الخولاني الزاهد سيد التابعين بالشام، وفد على أبي بكر مسلماً، وله مناقب غزيرة وكرامات، يقال أن الأسود العنسي أمر بنار عظيمة وألقى أبا مسلم فيها فلم تضره، فنفاه لئلا يضطرب عليه أتباعه، توفي سنة إثنتين وستين للهجرة (أنظر العبر ١/٤٩).

وغيره ما جرى لهذه الأمة من الآيات، ومثل ما كان يظهر على أيدي الحوازيين، وعلى يد موسى وأتباعه، لأنه جعل التحدي بالمثل جزءاً من دليله وآيته، فلا يكون دليلاً حتى يتحداهم بالمثل، بل قد علم أن النفس استدلال المستدل بالدليل يوجب اختصاصه بالمدلول عليه، وكل من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة، فقد علم أنه يقول أنها مستلزمة للمدلول عليه، لا يوجد مع عدمه فلا يمكن أحداً أن يعارضها فيأتي بمثلها مع عدم المدلول عليه، وهؤلاء جعلوا من جملة الدليل دعوى النبوة والإحتجاج به، والتحدي بالمثل ثلاثة أشياء، وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل ودعوى النبوة هو الذي تقام عليه البينة، والذي تقام عليه الحجة ليس هو جزءاً من الحجة والدعوى تسمى مدلولاً عليها، ونفس المدعي يسمى مدلولاً عليه، وثبوت المدعى يسمى مدلولاً عليه. والعلم بثبوته يسمى مدلولاً عليه، فهنا دعوى النبوة، وهنا النبوة المدعاة قبل أن يعلم ثبوتها، وهنا ثبوتها في نفس الأمر، وهنا علم الناس بثبوتها، وكذلك سائر الدعاوى.

فمن ادعى تحريم النبيذ المتنازع فيه فهنا دعواه التحريم، ونفس التحريم هل هو ثابت أم منتف، وثبوت التحريم في نفس الأمر والعلم بالتحريم، وكذلك من ادعى حقاً عند الحاكم فهنا دعواه الحق، وهنا نفس المدعي وهو استحقاقه ذلك الحق، وهنا ثبوت هذا الإستحقاق في نفس الأمر، وهنا العلم باستحقاقه، فالبينة والحجة يجب أن يقارن المدلول عليه الذي هو المدعى، وثبوته في نفس الأمر سواء ادعاه مدع أو لم يدعه، وسواء علمه عالم أو لم يعلمه، فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه مستلزم لحرمة النبيذ واستحقاق الحق وثبوت الحرمة في نفس الأمر مستلزم للحرمة، وأما مجرد الحرمة المتصورة فليست مستلزمة لوجودها في نفس الأمر، بل قد يتصور في الأذهان ما لا يوجد في الأعيان. والله أعلم.

***

فصل

حجة نفاة كرامات الأولياء

وقد ذكر القاضي أبو بكر أن من المثبتة المجيزين للكرامات من أجاب عن حجة النفاة بأن قال: الأدلة على ضربين: عقلية ووضعية، فالعقلي يدل لنفسه وجنسه، والوضعي يدل مع المواطأة، ولا يدل مثله مع عدمها، كعقد العشرة، وضعف أبو بكر هذا بأن قال لهم أن يقولوا: إذا كانت المعجزات تجري مجرى القول فحيث قصدت دلت، وعنده أن الأمر ليس كذلك.

قلت: بل هذا القائل أحسن، لأنها تدل إذا قصدت بها الدلالة مثل قيام الأمر وقعوده إذا طلب ذلك منه، ومثل العلامة التي تكون للشخص إذا جعلها علامة، فحيث قصد الدلالة به دل، لكن لازم هذا أن لا يكون إلا إذا طلب الاستدلال بها لأنفس الدعوى، ثم إذا ذكر أن الخارق للعادة لا بد أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسل إليهم، ثم جَوَّزَ أن يكون مما اعتاده كثير منهم بشرط أن يمنعهم عن المعارضة فيكون ذلك خرق عادة، ثم قال في الكرامات: لا يجوز أن تكثر حتى تصير عادة، لأن من حق المعجز على قولنا وقولهم أن يكون خارقاً للعادة، فلا تجوز إدامة ظهوره فيصير عادة، بل يقع نادراً، وقد جوزوا في السحر والكهانة أن يكون عادة، لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة، فكانت الكرامات أولى بذلك هي عادة للصالحين، وإذا ادعى النبوة صادق منع من المعارضة، فهذا اضطراب آخر.

وادعى إجماع الأمة على أنها لا تظهر على فاسق، ولولا الاجماع لجوز ذلك، لأنه لاينقض دليل النبوة فصارت تدل على الولاية بالاجماع، على أنها لا تظهر إلا على يد نبي أو ولي، فبهذا الاجماع يعلم أن من ظهرت على يده ولي لله إذا لم يدع النبوة.

وهذا تناقض من وجهين: أحدهما أنهم قد قالوا أنها لا تدل على الولاية لأن من مات على الإيمان وهذا غير معلوم.

الثاني أنه يقال إذا جوزت أن يظهر على يد الساحر والكاهن ونحوهما من الكفار ما هو من جنس المعجزات والكرامات وقلت: يجب أن لا يستثنى من السحر شيء لا يفعل إلا ما ورد الاجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر، ولا يفعل عنده كفلق البحر ونحوه،

فيكون الفرق بين السحر وغيره، إنما يعلم بهذا الاجماع إن ثبت وإلا فعندك يجوز أن يظهر على يد الساحر كل ما يظهر على يد النبي إذا لم يدع النبوة، ولا يحتج بذلك إذا ادعى النبوة وعارضه معارض بالمثل، فكيف تقول مع هذا إن الخوارق تدل على الولاية بالإجماع، وأنت تجوز ظهورها على أيدي الكفار من السحرة والكهان!

فإن قال: السحر والكهانة كانا قبل الرسول، فلما جاء بطلا، قيل أنت قد أثبت أن نفسه سحر بعد النبوة، وأن السحر كان على عهد الصحابة وقتلوا الساحر، وذكرت إجماع الفقهاء على إن السحر يكون من المسلمين وأهل الكتاب، والساحر ليس بولي الله، والسحر عندك هو من جنس الكرامات، والجميع خارق للعادة، لم يستدل به على النبوة، فكيف تقول مع هذا إن الخوارق لا تكون إلا لنبي أو ولي، وأنت أثبتها للكفار؟ وهذا كله من جهة أنه أخذ الجنس الخوارق مشتركاً، فجوز أن يكون للنبي وغير النبي مع قوله أن الخارق لا بد أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسل اليهم. ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة، وحينئذ فاشترط كونه خارقاً ومختصاً بمقدور الرب باطل، وهو قد حكى أن الإجماع على أن المعجز لا بد أن يكون خارقاً للعادة فقال: اعلموا رحمكم الله أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجز أن يكون خارقاً للعادة، ثم قال في فصول الكرامات.

***

فصل
المعجزة وما يشترط فيها

وقال لهم: أن من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة أن تكون خارقة للعادة، وهذا كما ذكر إجماع الناس على أنه لا يدل على صدق النبي إلا المعجزات، فقال في الإستدلال على أنها لو لم تدل لزم عجز القديم، إذ لا دليل بقول كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم إلا ظهور المعجزة، فهذا إجماع لا خلاف فيه، فلو ظهرت على يد المتنبي لبطلت دلالة النبوة ولوجب عجز القديم عن دليل يدل على نبوتهم، وهو نفسه قد ذكر في ذلك عدة أقوال في غير هذا الكتاب.

وأيضاً فالإستدلال بالإجماع إنما يكون بعد ثبوت النبوة، فلا يحتج على مقدمات دليل النبوة بمجرد الإجماع، وهؤلاء إنما أوقعهم في هذه المناقضات أن القدرية يجعلون لربهم شريعة بالقياس على خلقه، ويقولون: لا يجوز أن يفعل كذا ولا أن يفعل كذا، كقولهم: لا يجوز أن يضل هذا، فإنا لو جوزنا عليه الاضلال لجاز أن يظهر المعجزات على أيدي الكذابين، فإن غاية ذلك أنه اضلال، وإذا جاز ذلك لم يبق دليل على صدق الأنبيآء، ولم يفرق بين الصادق والكاذب، فعارضهم هؤلاء بأن قالوا: يجوز أن يفعل كل ممكن مقدور ليس يجب أن ينزه عن فعل من الأفعال، وليس في الممكنات ما هو قبيح أو ظلم أو سيء، بل كل ذلك حسن وعدل، فله أن يفعله، فقيل لهم: فجوزوا إظهار المعجزات على أيدي الكذابين ففتقوا لهم فتقاً، فقالوا هذا يلزم منه عجز الرب عن أن ينصب دليلاً يدل على صدق النبي، وإن كان يمكنه أن يعرف صدقهم بالضرورة، فذاك يوجب أن يعرفوا نفسه بالضرورة، وهو يرفع التكليف والتحقيق ان إظهار المعجزات الدالة على صدق الأنبيآء على يد الكاذب لا يجوز، لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه كما قاله الأشعري، وقيل: لأن ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله، وهذا أصح، فإنه قادر على ذلك، لكن لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق.

وهذا كما أنه قادر على سلب العقول، ولو فعل ذلك لبطلت العلوم، وهو سبحانه لو فعل ذلك قادر على تعريف الصدق بالضرورة، وقادر على أن لا يعرف بذلك، ولا يميز للناس بين الصادق والكاذب، لكنه لا يفعل هذا المقدور، ونحن نعلم بالإضطرار أنه لا يفعل ذلك وأنه

لا يبعث أنبيآء صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم ويتوعد من كذبهم فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك، وهو يسوي بين هؤلاء وهؤلاء في جميع ما يفرق به بين الصادق والكاذب، بل قد علمنا من سنته أنه لا يسوي في دلائل الصدق والكذب، بين المحدث الصادق والكاذب، والشاهد الصادق والكاذب، وبين الذي يعامل الناس بالصدق والكذب وبين الذي يظهر الإسلام صادقاً والذي يظهره نفاقاً وكذباً، بل يميز هذا من هذا بالدلائل الكثيرة، كما يميز بين العادل وبين الظالم، وبين الأمين وبين الخائن، فإن هذا مقتضى سنته التي لا تتبدل، وحكمته التي هو منزه عن نقيضها، وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات وتفريقه بين المختلفات، فكيف يسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقاً وبين أكذب الناس وشرهم كذباً فيما يعود إلى فساد العالم في العقول والأديان والإبضاع والأموال والدنيا والآخرة. وقول القادر إذا جاز عليه إضلال من أضله جاز عليه إضلال بعض الناس، يقال له أولاً: ليس إظهار المعجزة على أيدي الكذابين من باب الإضلال، بل لو ظهرت على يده لكانت لا تدل على الصدق، فلم يكن دليلاً يفرق به بين الصدق والكذب، وعدم الدليل يوجب عدم العلم بذلك الدليل لا يوجب اعتقاد نقيضه، ولو كان لا يظهرها إلا على يد كاذب لكانت إنما تدل على الكذب، فالإشتراك بين الصنفين يرفع دلالتها، واختصاص أحدهما بها يوجب دلالتها على المختص.

ويقال ثانياً: تجويز إضلال طائفة معينة بمعنى أنه حصل لهم الضلال لعدم نظرهم واستدلالهم وقصدهم الحق وجعل قلوبهم معرضة عن طلب الحق وقصده وأنها تكذب الصادق ليس هو مثل إضلال العالم كله، ورفع ما يعرف به الحق من الباطل، بل مثال هذا مثل من قال: إذا جاز أن يعمى طائفة من الناس جاز أن يعمى جميع الناس فلا يرى أحد شيئاً، وإذا جاز أن يصم بعض الناس جاز أن يصم جميعهم فلا يسمع أحد شيئاً، وإذا جاز أن يزمن بعض الناس أو يشل يديه جاز إزمان جميع الناس وإشلال أيديهم حتى لا يقدر أحد في العالم على شيء ولا بطش بيده، وإذا جاز أن يجنن بعض الناس جاز أن يجنن جميعهم حتى لا يبقى في الأرض إلا مجنون لا عاقل، وإذا جاز أن يميت بعض الناس جاز أن يميتهم كلهم في ساعة واحدة مع بقاء العالم على ما هو عليه، وأن يقال: إذا جاز أن يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق جاز أن يضله عن قبول كل حق حتى لا يصدق أحداً في شيء ولا يقبل شيئاً مما يقال له، فلا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينام، وأن كل من أضل جاز أن يفعل به هذا كله، وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما، ومن سوى بين هذا وهذا كان مصاباً في عقله.

وآيات الأنبيآء هي من هذا الباب فلو لم يميز بين الصادق والكاذب لكان قد بعث أنبيآء يبلغون رسالته ويأمرون بما أمر به من أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن كذبهم شقي في

الدنيا والآخرة، وآخرين كذابين يبلغون عنه ما لم يقله ويأمرون بما نهى عنه، وينهون عما أمر به، ومن اتبعهم شقي في الدنيا والآخرة، ولم يجعل لأحد سبيلاً إلى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء، وهذا أعظم من أن يقال أنه خلق أطعمة نافعة وسموماً قاتلة، ولم يميز بينهما، بل كل ما أكله الناس جاز أن يكون من هذا وهذا، ومعلوم أن من جوز مثل هذا على الله فهو مصاب في عقله.

ثم إن الله جعل الأشياء متلازمة، وكل ملزوم هو دليل على لازمه، فالصدق له لوازم كثيرة، فإن من كان يصدق ويتحرى الصدق كان من لوازمه أنه لا يتعمد الكذب، ولا يخبر بخبرين متناقضين عمداً ولا يبطن خلاف ما يظهر، ولا يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، ولا يخون أمانته ولا يجحد حقاً هو عليه إلى أمثال هذه الأمور التي يمتنع أن تكون لازمة إلا لصادق، فإذا انتفت انتفى الصدق، وإذا وجدت كانت مستلزمة لصدقه، والكاذب بالعكس لوازمه بخلاف ذلك، وهذا لأن الإنسان حي ناطق والنطق من لوازمه الظاهرة لبني جنسه، ومن لوازم النطق الخبر، فإنه الزم له من الأمر والطلب، حتى قد قيل: إن جميع أنواع الكلام يعود إلى الخبر، فلزم أن يكون من لوازم الإنسان إخباره وظهوراً إخباره وكثرته، وأنه هذا لا بد من وجوده حيث كان وحينئذ، فإذا كان كذاباً عرف الناس كذبه لكثرة ما يظهر منه من الخبر عن الشيء، بخلاف ما هو عليه من أحوال نفسه وغيره، ومما رآه وسمعه، وقيل له في الشهادة والغيب، ولهذا كل من كان كذباً ظهر عليه كذبه بعد مدة، سواء كان مدعياً للنبوة، أوكان كاذباً في العلم ونقله، أو في الشهادة، أو في غير ذلك، وإن كان مطاعاً كان ظهور كذبه أكثر لما فيه من الفساد.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلمهُمُ الله ولا ينْظُر اليهِمْ يوم القِيامَة ولا يُزكِيهِمْ ولهُمْ عَذابٌ أليمْ: مَلِكٌ كذّابٌ، وشَيْخٌ زانٍ، وعائِلٌ مُستَكْبَرٌ - ويروى - وفقيرٌ مخْتالٌ». ولهذا كثير من أهل الدول كانوا يتواصلون بالكذب وكتمان أمورهم، ثم يظهر كالقرامطة، ولهذا امتنع اتفاق الناس على الكذب والكتمان من غير تواطؤ لما جعل الله في النفوس من الداعي إلى الصدق والبيان، وجعل الله فيه القلوب هداية ومعرفة بين هذا وهذا، ولم يعرف قط في بني آدم أنه اشتبه صادق بكاذب إلا مدة قليلة، ثم يظهر الأمر، وليس هذا كالضلال في أمور خفية ومشتبهة على أكثر الناس، فإن التمييز بين الصادق والكاذب يظهر لجمهور الناس وعامتهم بعد مدة ولا يطول اشتباه ذلك عليهم، وإنما يشتبه الأمر عليهم فيما لم يتعمد فيه الكذب، بل أخطأ أصحابه فأخذ عنهم تقليداً لهم، وأما مع كون أصحابه يتعمدون الكذب فهذا لا يخفى على عامة الناس.

***

فصل
الفرق بين آيات الأنبياء وغيرهم

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين آيات الأنبيآء وغيرهم وبينها وبين غيرها من الفروق ما لا يكاد يحصى

الأول: أن النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب لا يكذب قط ومن خالفهم من السحرة والكهان لا بد أن يكذب كما قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّل الشَياطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِ أفّاكٍ أثيمٍ﴾[1].

الثاني: من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله، فإن الأنبيآء لا يأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده، وأعمالهم البر والتقوى، ومخالفوهم يأمرون بالشرك والظلم، ويعظمون الدنيا، وفي أعمالهم الإثم والعدوان.

الثالث: أن السحر والكهانة ونحوهما أمور معروفة لأصحابها ليست خارقة لعادتهم، وآيات الأنبيآء لا تكون إلا لهم ولمن اتبعهم.

الرابع: أن الكهانة والسحر يناله الإنسان بتعلمه وسعيه واكتسابه، وهذا مجرب عند الناس بخلاف النبوة، فإنه لا ينالها أحد باكتسابه.

الخامس: أن النبوة لو قدر أنها تنال بالكسب، فإنما تنال بالأعمال الصالحة والصدق والعدل، والتوحيد لا يحصل مع الكذب على من دون الله، فضلاً عن أن تحصل مع الكذب على الله فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به.

السادس: أن ما يأتي به الكهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس، وهم مأمورون بطاعة الرسل، وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جن ولا إنس، بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النبي إليه: ﴿قُلْ لَئِنْ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ عَلى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَـذا القُرْآن لا يَأْتُون بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾[2].

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) سورة الأسراء: الآية ٨٨.

السابع: أن هذه يمكن أن تعارض بمثلها، وآيات الأنبيآء لا يمكن أحداً أن يعارضها بمثلها.

الثامن: أن تلك ليست خارقة لعادات بني آدم، بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبيآء، وأما آيات الأنبيآء فليست معتادة لغير الصادقين على الله ولمن صدقهم.

التاسع: أن هذه قد لا يقدر عليها مخلوق لا الملائكة ولا غيرهم كإنزال القرآن، وتكليم موسى، وتلك تقدر عليها الجن والشياطين.

العاشر: أنه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة، فإن الملائكة لا تكذب على الله، ولا تقول لبشر أن الله أرسلك ولم يرسل، وإنما يفعل ذلك الشياطين والكرامات معتادة في الصالحين منا ومن قبلنا ليست خارقة لعادة الصالحين، وآيات الأنبيآء خارقة لعادة الصالحين، وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم، ومعجزات الأنبيآء لا تنال بذلك ولو طلبها الناس حتى يأذن الله فيها، ل إنما الآيات عند الله، قل إن الله قادر على أن ينزل آية.

الحادي عشر: أن النبي قد تقدمه أنبيآء، فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله، فله نظراء يعتبر بهم، وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم.

الثاني عشر: أن النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق، وينهي عن الشرك والكذب والظلم، فالعقول والفطر توافقه كما توافقه الأنبيآء قبله فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به. والله أعلم.

***

فصـل

الإبتداع وفضيلة إتباع سنته ﷺ

ومن تدبر هذا وغيره تبين له أن جميع مـا ابتدعـه المتكلمون وغيـرهم مما يخـالف الكتاب والسنة، فإنه باطل، ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ما خالف الكتاب والسنـة فهو باطل، لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المسائـل المفصلة، [و] لا يعرف مـا الذي يـوافق الكتاب والسنة، وما الذي يخالفه، كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنفة في الكـلام في أصول الدين وفي الرأي والتصوف وغير ذلك، فكثير منهم قد اتبع طائفـة يظن أن مـا يقولـونه هو الحق، وكلهم على خطأ وضلال.

ولقد أحسن الإمام أحمد في قوله في خطبته وإن كانت مأثورة عمن تقدم: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقـايا من أهـل العلم يدعـون من ضل إلى الهـدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله المـوتى، ويبصرون بنـور الله أهل العمى، فكم من قتيـل لإبليس قد أحيوه، وكم كم ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر النـاس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجـاهلين، الذين عقـدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنـة، فهم مختلفون في الكتـاب مخالفـون للكتاب مجمعـون على مفـارقة الكتـاب، يقولـون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغيـر علم، يتكلمون بـالمتشـابـه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهـون عليهم، فنعوذ بـالله من فتن المضلين، فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم، كما قال مختلفـون في الكتاب مخـالفون للكتـاب، متفقون على مفارقة الكتاب، وتصديق ما ذكره إنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم، بل بكل طائفة أصول دين لهم، فهي أصول دينهم الذي هم ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، وما هم عليه من الدين ليس كله موافقاً للرسول ولا كله مخالفاً له، بل بعضه موافق، وبعضه بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعـالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيل اذْكُـروُا نِعْمَتي عَلَيْكُم وَأَوْفُوا بِعَهْـدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإيـاي فَارْهُبـون. وآمنـوا بِمَـا أنزلتُ مُصدِّقاً لِما مَعَكُمْ ولا تكُونُوا أوْل كَافرٍ بِـهِ ولا تَشْتَروا بـآيَاتيِ ثمَناً قليلاً وإيـاي فَاتَقُـونْ.

ولا تَلبِسُوا الحَقَ بالباطِل وتَكْتُمُوا الحَقَّ وانْتُم تَعْلَمُون﴾[1]. وقـال تعالى: ﴿يَـا أَهْل الكِتَـابِ لِم تَلْبِسُون الحَقَّ بِالبَاطِلِ وتَكْتُمُون الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمُون﴾[2].

لكن بعض الطوائف أكثر مخالفة للرسول من بعض، وبعضها أظهر مخالفة، ولكن الظهور أمر نسبي، فمن عرف السنة ظهرت لـه مخالفـة من خالفهـا، فقد تـظهر مخـالفة بعضهم للسنـة لبعض الناس دون من لا يعلم منها ما يعلمه هو، وقد تكـون السنة في ذلـك معلومة عنـد جمهور الأمـة، فتظهـر مخالفـة من مخالفهـا كما تـظهر للجمهـور الرافضـة للسنة، وعنـد الجمهـور هم المخالفون للسنة فيقولون: أنت سني أو رافضي، وكذلـك الخوارج لمـا كانـوا أهل سيف وقتـال مخالفتهم للجماعة حين كانوا يقاتلون الناس، وأما اليوم فلا يعرفهم أكثر النـاس. وبدع القـدرية والمرجئة ونحوهم لا تظهر مخالفتها بظهور هذين، وهاتان البدعتان ظهـرتا لمـا قتل عثمـان رضي الله عنه في الفتنة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنـه، وظهرت الخـوارق بمفارقة أهل الجماعة واستحلال دمائهم وأموالهم حتى قـاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب رضي الله عنه متبعاً في ذلك لأمر النبـي ﷺ .

قال الإمام أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخـوارج من عشرة أوجـه، وهذه قـد رواها صاحبه مسلم بن الحجاج في صحيحه، وروى البخاري قطعة منها، واتفقت الصحابة على قتـال الخوارج، حتى أن ابن عمر مع امتناعه عن الدخول في فرقـة كسعد وغيـره من السابقين، ولهـذا لم يبايعوا لأحد إلا في جماعة.

قـال عند المـوت[3]: ما آسي على شيء إلا على أني لم أقـاتل الـطائفة البـاغية مـع علي رضي الله عنه، يريد بذلك قتال الخوارج، وإلا فهو لم يبايع لا لعلي ولا غيره، ولم يبايع معاويـة إلا بعد أن اجتمع الناس عليه فكيف يقـاتل إحـدى الطائفتين، وإنمـا أراد المارقـة التي قال فيهـا النبي ﷺ: «تَمـرقُ مَارقـةٌ عَلى حين فِرقَـةٍ من النَّاسِ يَقْتُلُهم أَدْنَى الـطَّائِفَتَينْ إلى الحَقِ»، وهذا حدث به أبو سعيد، فلما بلغ ابن عمر قول النبـي ﷺ في الخوراج وأمره بقتالهم تحسر على ترك قتالهم، فكان قتالهم ثابتاً بالسنـة الصحيحة الصـريحة وبـاتفاق الصحـابة، بخـلاف فتنة الجمـل وصفين، فإن أكثر السابقين الأولين كرهوا القتال في هذا وهذا، وكثير من الصحابة قاتلوا إمـا من هذا الجانب، وإما من هذا الجـانب، فكانت الصحـابة في ذلـك على ثلاثـة أقوال، لكن الـذي

(١) سورة البقرة: الآية ٤٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧١.
(٣) أي ابن عمر.

دلت عليه السنة الصحيحة أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أولى بالحق وإن ترك القتال بالكلية كان خيراً وأولى، ففي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال «تَمرقُ مَارقة على حين فرقة من الإسلام يقتلهم أولى الطائفتين بالحق»، وقد ثبت عنه أنه جعل القاعدة فيها خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي، وأنه أثنى على من صالح، ولم يثن على من قاتل، ففي البخاري وغيره عن إبي بكر أن النبي ﷺ قال عن الحسن: «أن إبني هذا سَيِّدٌ وسَيَصلِحُ الله بهِ بَينَ فِئتَين مِنَ المُسلِمين» فأثنى على الحسن في إصلاح الله به بين الفئتين، وفي صحيح مسلم وبعض نسخ البخاري أن النبي ﷺ قال لعمار: «تَقتُلُكَ الفِئة البَاغيَة».

وفي الصحيحين أيضاً أنه قال: «لاَ تَزَالُ طَائفةٌ مِن أمّتي ظاهِرين عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُهُم مَنْ خَذَلَهُمْ حَتى تَقُومَ السَاعَةُ». قال معاذ: وهم بالشام. وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: «لاَ يَزَالُ أهلُ المَغْرِبِ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرُهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ».

قال أحمد بن حنبل وغيره: أهل المغرب أهل الشام أي أنها أول الغربْ، فإن التغريب والتشريق أمر نسبي، فلكل بلد غرب وشرق وهو ﷺ تكلم بمدينته، فما تغرب عنها فهو غرب، وما تشرق عنها فهو شرق، وهي مسامته أول الشام من ناحية الفرات، كما أن مكة مسامته لحران وسميساط ونحوهما، وتصويب قتالهم إن كان بعد الإصلاح، فلم يقع الإصلاح وإن كان عند بغيهم في الإقتتال، وإن لم يكن إصلاح فهؤلاء البغاة لم تكن في أصحاب على من يقاتلهم، بل تركوا قتالهم إما عجزاً وإما تفريطاً، فترك الإصلاح المأمور به.

وعلى هذا قوتلوا ابتداء قتالاً غير مأمور به، ولما صار قتالهم مأموراً به لم يقاتلوا القتال المأمور به، بل نكل أصحاب على رضي الله عنه عن القتال، إما عجزاً وإما تفريطاً، والبغاة المأمور بقتالهم هم الذين بغوا بعد الإقتتال، وامتنعوا من الإصلاح المأمور به، فصاروا بغاة مقاتلين، والبغاة إذا ابتدأوا القتال جاز قتالهم بالإتفاق، كما يجوز قتال الغواة قطاع الطريق إذا قاتلوا باتفاق الناس، فأما الباغي من غير قتال، فليس في النص أن الله أمر بقتاله، بل الكفار إنما يقاتلون بشرط الجراب، كما ذهب إليه جمهور العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة كما هو مبسوط في موضعه.

والصدِّيق قاتل المرتدين الذين أرتدوا عما كانوا فيه على عهد الرسول من دينه وهم أنواع: منهم من آمن بمتنبيء كذاب، ومنهم من لم يقر ببعض فرائض الإسلام التي أقر بها مع الرسول، ومنهم من ترك الإسلام بالكلية، ولهذا تسمى هذه وأمثالها من الحروب بين المسلمين فتناً، كما سماها النبي ﷺ. والملاحم ما كان بين المسلمين والكفار وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الخوارج ظهروا في الفتنة، وكفروا عثمان وعلياً رضي الله عنهما ومن والاهما، وباينوا المسلمين في الدار، وسموا دارهم دار الهجرة، وكانوا كما وصفهم النبي ﷺ يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، وكانوا أعظم الناس صلاة وصياماً وقراءة كما قال النبي ﷺ: «يَحقِرُ أحدُكُمْ صلاتَهُ مَعْ صلاتِهِمْ وصِيَامَهُ مَعْ صِيَامِهِمْ وقِراءتَهُ مَعْ قِراءتِهِمْ يَقرأون القُرآن لا يُجاوِزُ حَنَاجِرهم يَمرقُون مِن الإسْلامِ كمَا يَمْرقُ السَهْمُ مِن الرَّمية»

ومروقهم منه خروجهم باستحلالهم دماء المسلمين وأموالهم. فإنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِم المُسْلِمُون مِن لِسَانِهِ ويَدِهِ، والمهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نهَى الله عَنْهُ»، وهم بسطوا في المسلمين أيديهم وألسنتهم فخرجوا منه، ولم يحكم علي رضي الله عنه وأئمة الصحابة فيهم بحكمهم في المرتدين بل جعلوهم مسلمين.

وسعد بن أبي وقاص وهو أفضل من كان قد بقي بعد علي رضي الله عنه، وهو من أهل الشورى واعتزل في الفتنة فلم يقاتل لا مع علي ولا مع معاوية، ولكنه ممن تكلم في الخوارج وتأول فيهم قوله: ﴿ومَا يَضِلُّ به إلا الفاسِقِين. الذين يَنْقُضُون عَهْد الله مِنْ بَعد ميثَاقه ويَقْطعون مَا أمَرَ الله به أن يُوصَلَ وَيُفْسدونَ في الأرْضِ أولئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾[1]. وحدث أيضاً طوائف الشيعة الإلهية الغلاة فرفع إلى على رضي الله عنه منهم طائفة ادعوا فيه الإلهية فأمرهم بالرجوع فأصروا فأمهلهم ثلاثاً ثم أمر بأخاديد من نار فخدت وألقاهم فيها، فرأى قتلهم بالنار.

وأما ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار لنهي رسول الله ﷺ أن يعذب بعذاب الله، ولضربت أعناقهم لقوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقتُلُوهُ» رواه البخاري، وأكثر الفقهاء على قول ابن عباس.

وروى أنه بلغه أن ابن السوداء يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فطلب قتله فهرب منه، فإما قتله للسب، أو لأنه كان متهماً بالزندقة.

وقيل: إنه هو الذي ابتدع الرافضة، وأنه كان قصده إفساد دين الإسلام، وهذا يستحق القتل باتفاق المسلمين. والذين يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فيهم تزندق كالإسماعيلية والنصيرية، فهؤلاء يستحقون القتل بالإتفاق، وفيهم من يعتقد بنبوة النبي ﷺ كالإمامية فهؤلاء في قتلهم وتفصيل مذكور في غير هذا الموضع، وتواتر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «خير هذه بعد نبيها أبو بكر ثم عمر»، وهذا متفق بين قدماء الشيعة، وكلهم كانوا يفضلون

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧.

أبـا بكر وعمـر رضي الله عنهما. وإنمـا كان النـزاع في علي وعثمان رضي الله عنهمـا حين صار لهـذا شيعة ولهـذا شيعة، وأمـا أبو بكـر وعمر رضي الله عنهمـا فلم يكن أحد يتشيـع لهمـا، بـل جميـع الأمة كانت متفقة عليهما حتى الخوارج فإنهم يتولونهمـا، وإنما يتبـرءون من علي وعثمان رضي الله عنهما.

وروي أن معـاوية قال لابن عباس: أنت على ملة علي أم عثمان؟ قال: لا على ملة علي، ولا عثمان! أنا على ملة رسول الله ﷺ، وكان كل من الشيعتين يذم الآخر بما برأه الله منه، فكان بعض شيعة عثمان يتكلمون في علي بالباطل، وبعض شيعة علي يتكلمون في عثمـان بالبـاطل، والشيعتان مع سائر الأمة متفقة على تقديم أبي بكر وعمر.

قيل لشريك بن عبد القاضي: أنت من شيعة علي، وأنت تفضل أبا بكر وعمر. فقال: كل شيعة علي على هذا، هـو يقول على أعـواد هذا المنبـر: خير هـذه الأمة بعـد نبيها أبـو بكر، ثم عمر، أفكنا نكذبه والله ما كان كذاباً.

وقد روى البخاري في صحيحيه من حديث محمد بن الحنيفة أنه قال له: يا أبت من خيـر الناس بعد رسول الله؟ فقال: يا بني أوما تعرف؟ قال لا! قال: أبو بكـر. قال: ثم من؟ قـال: ثم عمر، وهو مروي من حديث الهمدانيين شيعة علي عن أبيه. وروى عن علي أنه قال:

وَلَـو كُـنـتُ بَـوابـاً عـلى بَـابِ جَـنَّـةٍ لَـقُـلْـتُ لِـهَـمَـدَانَ ادخُـلي بِـسَـلامِ

وقد روى عنه أنه قال: «لا أوتي بأحد يفضلن على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتـري». وقد ثبت عن علي رضي الله عنـه بالأحـاديث الثابتـة بل المتـواترة أنـه قتل الغـالية كـالذين يعتقـدون إلهيته، بعد أن استتابهم ثلاثاً كسائر المرتدين، وأنه كان يبالغ من يسب أبا بكر وعمر، وأنـه كان يقول إنهما خير هذه الأمة بعد نبيها، وهذا مبسوط في مواضـع

والمقصـود هنا أن هـاتين البدعتين حـدثتا في ذلـك الوقت، ثم في آخـر عصر الصحـابـة حـدثت القدريـة، وتكلم فيها من بقي من الصحـابة كـابن عمر، وابن عبـاس وواثلة بن الأسقـع وغيرهم. وحدثت أيضاً بدعة المرجئة في الإيمان، والآثار عن الصحابة ثابتـة بمخالفتهم، وأنهم قالوا: الإيمان يزيد وينقص كما ثبت ذلك عن الصحابة كما هو مذكور في موضـعه.

وأما الجهمية نفاة الأسماء والصفات فإنما حدثوا في أواخر الدولة الأموية وكثير من السلف لم يدخلهم في الثنتين وسبعين فرقة، منهم يوسف بن أسبـاط وعبد الله بن مبـارك، قالـوا: أصول البدع أربعة: الخوارج والشيعة، والقدرية، والمرجئة. فقيل لهم: الجهمية؟ فقـالوا: ليس هؤلاء من أمة محمد.

ولهذا تنازع من بعدهم من أصحاب أحمد وغيرهم هل هم من الثنتين وسبعين على قولين ذكرهما عن أصحاب أحمد أبو عبد الله بن حامد في كتابه في الأصول، والتحقيق أن التجهم المحض نفي الأسماء والصفات كما يحكى عن جهم والغالية من الملاحدة ونحوهم من نفى اسماء الله الحسنى كفر بين مخالف لما علم بالإضطرار من دين الرسول، وأما نفي مع إثبات الأسماء كقول المعتزلة فهو دون هذا، لكنه عظيم أيضاً، وأما أثبت من الصفات المعلومة بالعقل والسمع وإنما نازع في قيام الأمور الإختيارية به كابن كلاب ومن اتبعه، فهؤلاء ليسوا جهمية بل وافقوا جهماً في بعض قوله، وإن كانوا خالفوه في بعضه، وهؤلاء من أقرب الطوائف إلى السلف وأهل السنة والحديث، وكذلك السالمية والكرامية ونحو هؤلاء يوافقون في جملة أقوالهم المشهورة فيثبتون الأسماء والصفات والقضاء والقدر، في الجملة ليسوا من الجهمية والمعتزلة النفاة للصفات، وهم أيضاً يخالفون الخوارج والشيعة فيقولون بإثبات خلافة الأربعة، وتقديم أبي بكر وعمر، ولا يقولون بخلود أحد من أهل القبلة في النار، لكن الكرامية والكلابية وأكثر الأشعرية مرجئة، وأقربهم الكلابية يقولون الإيمان هو التصديق بالقلب، والقول باللسان، والأعمال ليست منه كما يحكى هذا عن كثير من فقهاء الكوفة مثل أبي حنيفة وأصحابه.

وأما الأشعري فالمعروف عنه وعن أصحابه أنهم يوافقون جهماً في قوله في الإيمان وأنه مجرد تصديق القلب أو معرفة القلب، لكن قد يظهرون مع ذلك قول الحديث ويتأولونه ويقولون بالاستثناء على الموافاة فليسوا موافقين لجهم من كل وجه، وإن كانوا أقرب الطوائف إليه في الإيمان وفي القدر أيضاً. فإنه رأس الجبرية ليس للعبد فعل البتة. والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثرة في الفعل، ولكن يقول هو كاسب، وجهم لا يثبت له شيئاً، لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس أنه لا يعقل، فرق بين الفعل الذي نفاه، والكسب الذي أثبته، وقالوا: عجائب الكلام ثلاثة: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، وأنشدوا:

مِمَّا يُقَالُ ولاَ حَقِيقَةَ عِنْدَهُ ... مَعْقُولَةً تَدْنُو إلى الأفْهامِ
الكَسْبُ عِنْدَ الأشعري وَالحَا ... لُ عِنْدَ البهشَمي وطَفرةُ النظامِ

وأما الكرامية فلهم في الإيمان قول ما سبقهم إليه أحد، قالوا: هو الأقرار باللسان وإن لم يعتقد بقلبه، وقالوا: المنافق هو المؤمن، لكنه مخلد في النار، وبعض الناس يحكي عنهم أن المنافق في الجنة، وهذا غلط عليهم بل هم يجعلونه مؤمناً مع كونه مخلداً، فينازعون في الأسم لا في الحكم.

وقد بسط القول على منشأ الغلط حيث ظنوا أن الإيمان لا يكون إلا شيئاً متماثلاً عند

جميع الناس إذا ذهب بعضه ذهب سائره، ثم قالت الخوارج والمعتزلة وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات، فاسم المؤمن مثل إسم البر والتقي، وهو المستحق للثواب، فإذا ترك بعضه زال عنه إسم الأيمان والإسلام.

ثم قالت الخوارج: ومن لم يستحق هذا ولا هذا فهو كافر، وقالت المعتزلة: بل ينزل منزلة بين المنزلتين، فنسميه فاسقاً لا مسلماً ولا كافراً، ونقول إنه مخلد في النار، وهذا هو الذي امتازت به المعتزلة، وإلا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم، فهم وافقوا الخوارج في حكمه، ونازعوهم ونازعوا غيرهم في الإسم، وقالت الجهمية والمرجئة: بل الأعمال ليست من الإيمان لكنه شيئان أو ثلاثة يتفق فيها جميع الناس: التصديق بالقلب، والقول باللسان أو المحبة، والخضوع مع ذلك.

وقالت الجهمية والأشعرية والكرامية[1]: بل ليس إلا شيئاً واحداً يتماثل فيه الناس، وهؤلاء الطوائف أصل غلطهم ظنهم أن الأيمان يتماثل فيه الناس، وأنه إذا ذهب بعضه كله وكلا الأمرين غلط، فإن الناس لا يتماثلون لا فيما وجب منه ولا فيما يقع منهم، بل الإيمان الذي وجب على بعض الناس قد لا يكون مثل الذي يجب على غيره كما كان الإيمان بمكة لم يكن الواجب منه كالواجب بالمدينة، ولا كان في آخر الأمر كما كان في أوله، ولا يجب على أهل الضعف والعجز من الإيمان ما يجب أهل القوة والقدرة في العقول الأبدان، بل أهل العلم بالقرآن والسنة ومعاني ذلك يجب عليهم من تفصيل الإيمان ما لا يجب على من لم يعرف ما عرفوا، وأهل الجهاد يجب عليهم من الإيمان في تفصيل الجهاد ما لا يجب على غيرهم،وكذلك ولاة الأمر وأهل الأموال يجب على كل من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه وأخبر به ما لا يجب على غيره، والإقرار بذلك من الإيمان، ومعلوم أنه وإن كان الناس كلهم يشتركون في الإقرار بالخالق وتصديق الرسول جملة، فالتفصيل لا يحصل بالجملة، ومن عرف ذلك مفصلاً لم يكن ما أمر به ووجب عليه مثل من لم يعرف ذلك.

وأيضاً فليس الناس متماثلين في فعل ما أمروا به من اليقين والمعرفة والتوحيد وحب الله وخسية الله والتوكل على الله والصبر لحكم الله وغير ذلك مما هو من إيمان القلوب، ولا في لوازم ذلك الشيء تظهر على الأبدان، وإذا قدر أن بعض ذلك زال سائره، بل يزيد الإيمان تارة وينقص تارة، كما ثبت ذلك عن أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمر بن حبيب الخطمي وغيره أنهم

---

(١) هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام، كان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والمشبهة.

قالوا: الإيمان يزيد وينقص كما قد بسط في غير هذا الموضـع، إذ المقصودهنا أن الطوائف أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ليس فيهم من يوافق الرسـول في أصولـه دينه لا فيمـا اشتركـوا فيه ولا فيمـا انفـرد بـه بعضهم، فـإنهم وإن اشتـركـوا في مقـالات فليس إجمـاعهم حجـة، ولاهم معصومون من الإجتماع على خطأ، وقد زعم طائفة أن إجماع المتكلمين في المسـائل الكـلامية كإجماع الفقهاء، وهذا الغلط، بـل السلف قد استفـاض عنهم ذم المتكلمين، وذم أهل الكـلام مطلقاً، ونفس ما اشتركوا فيه من إثبات الصانع بطريقة الأعراض، وأنها لازمة للجسم أو متعـاقبة عليه فلا يخلو منها، وما لم يخـل من الحوادث فهـو حادث لامتنـاع حوادث لا أول لهـا، وأن الله يمتنع أن يقال أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته، أو يمتنع أن يقال أنه لم يزل فعـالاً، وأنه صـار فـاعلاً ومتكلمـاً بمشيئته بعـد أن لم يكن بلا حـدوث حادث، ومـا يتبع هـذا هو أصـل مبتدع في الإسـلام أول ما عـرف أنه قـاله الجهم بن صفـوان مقدم الجهميـة، وأبو الهـذيل العـلاف مقـدم المعتزلة، ولهذا طرداه فقالا: بامتناع الحوادث في المستقبل، وقال الجهم: بفناء الجنة والنار.

وقال أبو هذيل بانقطاع حركاتهما كما قـد بسط فروع هـذا الأصل الـذي اشتركـوا فيه، ثم افترقوا بعد ذلك في فروعه، فأئمتهم كانوا يقولون: كلام الله القرآن وغيره مخلوق، وكذلك سائر ما يوصف به الرب ليس له صفة قامت به، لأن ذلـك عرض عنـدهم لا يقوم إلا بجسم، والجسم حادث، فقالوا: القرآن وغيـره من كلام الله مخلوق، وكـذلك سـائر مـا يوصف بـه الرب، فجـاء بعدهم مثل ابن كلاب وابن كرام والأشعري، وغيرهم من شـاركهم في أصل قـولهم، لكن قالـوا بثبـوت الصفات لله وأنهـا قـديمـة، لكن منهم من قـال: لا تسمى أعـراضـاً لأن العـرض لا يبقى زمانين، وصفات الرب باقية كما يقوله الأشعري وغيره.

ومنهم من قال تسمى أعراضـاً وهي قديمـة وليس كل عـرض حادثـاً كابن كـرام وغيره، ثم افترقوا في القرآن وغيره من كلام الله، فقال ابن كلاب ومن اتبعه: فهو صفة من الصفـات قديمـة كسائر الصفـات، ثم قال: ولا يجـوز أن يكون صـوتاً لأنـه لا يبقى، ولا معاني متعـددة فإنهـا إن كان لها عدد مقدر فليس قدر بأولى من قدر، وإن كانت غير متناهية لزم ثبوت معان في آن واحـد لا نهـاية لهـا، وهذا ممتنـع، فقـال: أنه معنى واحـد هو معنى آيـة الكرسي وآيـة الدين والتـوراة والإنجيل.

وقال جمهور العقلاء: أن تصور هذا القول تصوراً تاماً يوجب العلم بفساده. وقال طـائفة: بل كلامه قديم العين وهو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية مع أنها مترتبـة في نفسها، وأن تلك الحـروف والأصـوات بـاقيـة أزلاً وأبـداً. وجمهـور العقـلاء يقـولـون أن فسـاد هـذا معلوم بالضرورة، وهاتان الطائفتان تقولان أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته.

وقال آخرون كالهشامية(١) والكرامية: بل هو متكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه قائم بذاته، ولا يمتنع قيام الحوادث، لكن يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً، فإن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها وهو ممتنع، فهذه الأربعة في القرآن وكلام الله هي أقوال المشركين في امتناع دوام كون الرب فعالاً بمشيئته أو متكلماً بمشيئته.

وأما أئمة السنة والحديث كعبد الله بن مبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما فقالوا: لم يزل الرب متكلماً إذا شاء وكيف شاء، فذكروا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه لم يزل كذلك، وهذا يناقض الأصل الذي اشترك فيه المتكلمون من الجهمية والمعتزلة ومن تلقى عنهم، فلا هم موافقون للكتاب والسنة وكلام السلف، لا فيما اتفقوا عليه، ولا فيما تنازعوا فيه، ولهذا يوجد في عامة أصول الدين لكل منهم قول، وليس في أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة، كأقوالهم في كلام الله وأقوالهم في إرادته ومشيئته وفي علمه وفي قدرته، وفي غير ذلك من صفاته، وإن كان بعضهم أقرب إلى السنة والسلف من بعض، ولكن قد شاع ذلك بين أهل العلم والدين منهم، فكثير من أهل العلم والدين المنتسبين إلى السنة والجماعة من قد يوافقهم على بعض أقوالهم في مسألة القرآن أو غيرها إذا كان لا يعرف إلا ذلك القول أو ما هو أبعد عن السنة منه إذ كانوا في كتبهم لا يحكون غير ذلك إذ كانوا لا يعرفون السنة وأقوال الصحابة، وما دل عليه الكتاب والسنة لا يعرفون إلا قولهم وقول من يخالفهم من أهل الكلام، ويظنون أنه ليس للأمة إلا هذان القولان أو الثلاثة، وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الإجماع، وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة، بل يعتمدون على القياس العقلي الذي هو أصل كلامهم، وعلى الإجماع، وأصل كلامهم العقلي باطل، والإجماع الذي يظنونه إنما هو إجماعهم وإجماع نظرائهم من أهل الكلام، ليس هو اجماع أمة محمد ولا علمائها، والله تعالى إنما جعل العصمة للمؤمنين من أمة محمد فهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ولا خطأ، كما ذكر على ذلك الدلائل الكثيرة، وكل ما اجتمعوا عليه فهو مأثور عن الرسول، فإن الرسول بين الدين كله، وهم معصومون أن يخطئوا كلهم ويضلوا عما جاء به محمد ﷺ، بل هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فلا يبقى معروف إلا أمروا به، ولا منكر إلا نهوا عنه.

وهم أمة وسط عدل خيار، شهداء الأرض، فلا يشهدون إلا بحق، فإجمعاهم هو على

---

(١) هم أصحاب هشام بن عمرو الغوطي، كان يمنع من إطلاق إضافات أفعال إلى الباريء عز وجل وإن ورد فيها التنزيل، ويقول: إن الله لا يؤلف بين قلوب المؤمنين بل هم المؤتلفون بإختيارهم، ويقول: إن الله تعالى لا يحبب الإيمان إلى المؤمنين ولا يزينه في قلوبهم وغير ذلك كثير، ومن بدعة قوله أن الأمامة لا تنعقد أيام الفتنة وإختلاف الناس وإنما يجوز عقدها في حال الإتفاق والسلامة.

علم موروث عن الرسول جاء من عند الله، وذلك لا يكون إلا حقاً، وأما من كان إجماعهم على ما ابتدعه رأس من رؤوسهم فيجوز أن يكون إجماعهم خطأ، إذ ليسوا هم المؤمنين، ولا أمة محمد، وإنما هم فرقة منهم، وإذا قيل المعتبر: من أمة محمد بعلمائها، قيل: إذا اتفقت علماؤها على شيء فالباقون يسلمون لهم ما اتفقوا عليه لا ينازعونهم فيه، فصار هذا إجماعاً من المؤمنين ومن نازعهم بعلم، فهذا لا يثبت الإجماع دونه كائناً من كان، وأما من ليس من أهل العلم فيما تكلموا فيه فذاك وجوده كعدمه.

وقول من قال: الإعتبار بالمجتهدين دون غيرهم، وأنه لا يعتبر، بخلاف أهل الحديث أو أهل الأصول ونحوهم كلام لا حقيقة له، فإن المجتهدين إن أريد بهم من له قدرة على معرفة جميع الأحكام بأدلتها، فليس في الأمة من هو كذلك، بل أفضل الأمة كان يتعلم ممن هو دونه شيئاً من السنة ليس عنده، وإن عنى به من يقدر على معرفة الإستدلال على الأحكام في الجملة، فهذا موجود في كثير من أهل الحديث والأصول والكلام، وإن كان بعض الفقهاء أمهر منهم بكثير من الفروع أو بأدلتها الخاصة أو بنقل الأقوال فيها، فقد يكون أمهر منه في معرفة أعيان الأدلة كالأحاديث، والفرق بين صحيحها وضعيفها ودلالات الألفاظ عليها، والتمييز بين ما هو دليل شرعي، وما ليس بدليل، وبالجملة العصمة إنما هي للمؤمنين لأمة محمد لا لبعضهم، لكن إذا اتفق علماؤهم على شيء فسائرهم موافقون للعلماء، وإذا تنازعوا ولو كان المنازع واحداً وجب رد ما تنازعوا فيه والرسول.

وما أحد شذ بقول فاسد عن الجمهور إلا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله، وإن كان القائل كثيراً، سعيد في أن المطلقة ثلاثاً تباح بالعقد. فحديث عائشة في الصحيحين يدل على خلافه مع دلالة القرآن أيضاً وكذلك غيره.

وأما القول الذي يدل عليه الكتاب والسنة فلا يكون شاذاً، وأن القائل به أقل من القائل بذاك القول، فلا عبرة بكثرة القائل باتفاق الناس. ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان يردون على من أخطأ بالكتاب والسنة، لا يحتجون بالإجماع إلا علامة، وقد يبعث معه نشابه أو سيفه أو شيئاً من السلاح المختص به أو يركبه دابته المختصة به ونحو ذلك مما يعلم الناس أنه قصد به تخصيصه، وإن كانت تلك الأفعال يفعل مع أمثاله، وقد يفعل لغير الرسول ممن يقصد إكرامه وتشريفه، لكن هي خارقة لعادته، بمعنى أنه لم يعتد أن يفعل ذلك مع عموم الناس، ولا يفعله إلا مع من ميزه بولاية أو رسالة أو وكالة، والولاية والوكالة تتضمن الرسالة، فكل من هؤلاء هو في معنى رسوله إلى من ولاه: إني قد وليته، وإلى من أرسله بأني أرسلته، فهذه عادة معروفة في العلامات والدلائل التي يبين بها المرسل أن هذا رسولي، وجنس خرق

العادة لا يستلزم الإكرام، بل تخرق عادته بالإهانة تارة وبالإكرام أخرى، فقد يخرج ويركب في وقت لم تجر عادته به بل لعقوبة قوم، وآيات الرب تعالى قد تكون تخويفاً لعباده كما قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾(١).

وقد يهلك بها كما أهلك أمماً مكذبين، وإذا قص قصصهم قال: إن في ذلك لآيات، وكان إهلاكهم خرقاً للعادة دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم وتكذيبهم للرسل، وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهى عنه ويعاقب فاعله بمثل تلك العقوبة، فهذه خرق عادات لإهانة قوم وعقوبتهم لما فعلوه من الذنوب تجري مجرى قوله: عاقبتهم لأنهم كذبوا رسولي وعصوه، ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله وعقوبته إياهم يقول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرْ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرْ﴾(٢) كما يقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وإن كُنَّا لَمُبْتَلِين﴾(٣) و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآية، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مؤمِنِين﴾(٤) ﴿وتَرَكْنَا فيها آيَةً للذين يَخَافُون العَذَابَ الأَلِيمَ﴾(٥).

وإذا كانت تلك العلامات مما جرت عادته أنه يفعلها مع من أرسله ويهلك بها من كذب رسله، كانت أبلغ في الدلالة، وكانت معتادة في هذا النوع، وهؤلاء تكلموا بلفظ لم يحققوا معناه وهو لفظة خرق العادة، قالوا: العادات تنقسم إلى عامة وخاصة، فمنها ما يشترك فيه جميع الناس في جميع الأعصار كالأكل والشرب واتقاء الحر والبرد، والخاص منها ما يكون كعادة للملائكة فقط، أو للجن فقط، أو للأنس دون غيرهم، قالوا: ولهذا صح أن يكون لكل قبيل منهم ضرب من التحدي، وخرق لما هو عادة لهم دون غيرهم وحجة عليهم دون ما سواهم.

ومنها ما يكون عادة لبعض البشر، نحو اعتياد بعضهم صناعة أو تجارة، أو رياضة في ركوب الخيل، والعمل بالسلاح، لكن هذه كلها مقدورات للبشر قالوا: وآية الرسل لا تكون مقدورة لمخلوق، بل لا تكون إلا ما ينفرد الله بالقدرة عليه، فإذا قالوا هذا ظن الظان أنهم أشترطوا أمراً عظيماً، ولم يشترطوا شيئاً، فإنهم قالوا في جنس الأفعال التي لا تقدر الناس إلا على اليسير منها، كحمل الجبال ونقلها أن المعجزة هنا إقدارهم على الفعل لا نفس الفعل، ورجحوا هذا على قول من يقول نفس الفعل آية لأن جنس الفعل مقدور، وليس هذا بفرق

---

(١)سورة الاسراء: الآية ٥٩.

(٢) سورة القمر: الآيتان ١٦، ١٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٣٠.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٨.

(٥) سورة الذاريات: الآية ٣٧.

طائل، فإنه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل أو بالقدرة عليه، فإذا كان اقدارهم على الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة، كان نفس الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة.

وهؤلاء عندهم أن قدرة العباد لا تؤثر في وجود شيء ولا يكون مقدورها إلا في محلها فهم، في الحقيقة لم يثبتوا قدرة، فكل ما في الوجود هو مقدور لله عندهم، ولهذا عدل أبو المعالي ومن اتبعه كالرازي عن هذا الفرق، فلم يشترطوا أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه إذ كانت جميع الحوادث عندهم كذلك، وقالوا: إن ما يحصل على يد الساحر والكاهن وعامل الطلسمات، وعند الطبيعة الغريبة هو مما ينفرد هو مما ينفرد الرب بالقدرة عليه ويكون آية للنبي، وهذا معتاد لغير الأنبيآء فلم يبق لقولهم خرق للعادة معنى معقول، بل قالوا واللفظ للقاضي أبي بكر: الواجب على هذا الأصل أن يكون خرق العادة الذي يفعله الله مما يخرق جميع القبيل الذين تحداهم الرسول بمثله ويحتج به على نبوته، فإن أرسل ملكاً إلى الملائكة أظهر على يده ما هو خرق لعادتهم، وإن أرسل بشراً أرسله بما يخرق عادة البشر، وإن أرسل جنياً أظهر على يديه ما هو خارق لعادة الجن، فيقال: السحر والكهانة معتاد للبشر، وأنتم تقولون يجوز أن يكون ما يأتي به الساحر والكاهن آية بشرط أن لا يمكن معارضته، فلم يبق لكونه خارقاً للعادة معنى يعقل عندكم؟ لهذا قال محققوهم: أنه لا يشترط في الآيات أن تكون خارقة للعادة، كما قد حكينا لفظهم في غير هذا الموضع كما تقدم. وإنما الشرط أنها لا تعارض وأن تقترن بدعوى النبوة. هذان الشرطان هما المعتبران، وقد بينا في غير موضع أن كلًّا من الشرطين باطل.

والأول: يقتضي أن يكون المدلول عليه جزءاً من الدليل، وآيات النبوة أنواع متعددة، منها ما يكون قبل وجوده، ومنها ما يكون بعد موته، ومنها ما يكون في غيبته. والمقصود هنا كان هو الكلام على المثال الذي ذكروه، وأن ما ضرب من الأمثلة على الوجه الصحيح فإنه ولله الحمد يدل على صدق الرسول، وعلى فساد أصولهم، ولكن هم ضربوا مثالاً إذا اعتبر على الوجه الصحيح كان حجة، ولله الحمد على صدق النبي وعلى فساد ما ذكروه في المعجزات حيث قالوا: هي الفعل الخارق للعادة المقترن بدعوى النبوة والإستدلال به وتحدي النبي من دعاهم أن يأتوا بمثله، وشرط بعضهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه، وهذه الأربعة هي التي شرط القاضي أبو بكر ومن سلك مسلكه كابن اللبّان وابن شاذان والقاضي أبي يعلى وغيرهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه على أحد القولين، أو منه ومن الجنس الآخر، إذا وقع على وجه يخرق العادة، وطريق متعذر على غيرهم مثله على القول الآخر قالوا: وهذا لفظ القاضي أبي بكر.

والثاني: أن يكون ذلك الشيء الذي يظهر على أيديهم مما يخرق العادة وينقضها، ومتى لم يكن كذلك لم يكن معجزاً؟

والثالث: أن يكون غير النبي ممنوعاً من إظهار ذلك على يده على الوجه الذي ظهر عليه ودعا إلى معارضته مع كونه خارقاً للعادة.

والرابع: أن يكون واقعاً مفعولاً عند تحدي الرسول بمثله وادعائه آيته لنبوته وتقريعه بالعجز عنه من خالفه وكذبوا قالوا: فهذه هي الشرائط والأوصاف التي تختص بها المعجزات.

فيقال لهم: الشرط الأول قد عرف أنه لا حقيقة له، ولهذا أعرض عنه أكثرهم.

والثاني أيضاً لا حقيقة له، فإنهم لم يميزوا ما يخرق العادة مما لا يخرقها، ولهذا ذهب من ذهب من محققيهم إلى إلغاء هذا الشرط، فهم لا يعتبرون خرق عادة جميع البشر، بل ما اعتاده السحرة والكهان وأهل الطلاسم عندهم، يجوز أن يكون آية إذا لم يعارض، وما اعتاده أهل صناعة أو علم أو شجاعة ليس هو عندهم آية وإن لم يعارض، فالأمور العجيبة التي خص الله بالأقدار عليها بعض الناس لم يجعلوها خرق عادة [أو من][1] الأمور المحرمة أو هي كفر كالسحر والكهانة والطلسمات جعلوها خرق عادة، وجعلوها آية بشرط أن لا يعارض وهو الشرط الثالث، وهو في الحقيقة خاصة المعجزة عندهم، لكن كون غير الرسول ممنوعاً منه إن اعتبروا أنه ممنوع مطلقاً فهذا لا يعلم وإن اعتبروا أنه ممنوع من المرسل إليهم فهذا لا يكفي، بل يمكن كل ساحر وكاهن أن يدعي النبوة ويقول أنني كذا.

قالوا: لو فعل هذا لكان الله يمنعه فعل ذلك أو يقيض له من يعارضه، قلنا: من أين لكم ذلك، ومن أين يعلم الناس ذلك، ويعلمون كل كاذب، فلا بد أن يمنع من فعل الأمر الذي اعتاده هو وغيره قبل ذلك أو أن يعارض، والواقع خلاف ذلك، فما أكثر من ادعى النبوة أو الإستغناء عن الأنبيآء وأن طريقه فوق طريق الأنبيآء، وأن الرب يخاطبه بلا رسالة، وأتى بخوارق من جنس ما تأتي السحرة والكهان، ولم يكن فيمن دعاه من يعارضه؟

وأما الرابع وهو أن يكون عند تحدي الرسول فيه يحترزون عن الكرامات، وهو شرط باطل، بل آيات الأنبيآء آيات، وإن لم ينطقوا بالتحدي بالمثل، وهي دلائل على النبوة وصدق المخبر بها، والدليل مغاير للمدلول عليه، [و]ليس المدلول عليه جزءاً من الدليل، لكن إذا قالوا: الدليل هو دعاء الرسول لزمه أن يريهم آية، وخلق تلك الآية عقب سؤاله، وأن كان ذلك قد يخلقه بغير سؤاله لحكمة أخرى، فهذا متوجه، فالدليل هو مجموع طلب العلامة مع فعل

(١) زيدت على النص لوضوح العبارة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

ما جعله علامة، كما أن العباد إذا دعوا الله فأجابهم كان ما فعله إجابة لدعائهم، ودليلاً على أن الله سمع دعاءهم وأجابهم، كما أنهم إذا استسقوه فسقاهم واستنصروه فنصرهم، وإن كان قد يفعل ذلك بلا دعاء، فلا يكون هناك دليل على إجابة دعاء، فهو دليل على إجابة الدعاء إذا وقع عقب الدعاء، ولا يكون دليلاً إذا وقع على غير هذا الوجه، وكذلك الرسول إذا قال لمرسله، أعطني علامة، فأعطاه ما شرفه به، كان دليلاً على رسالته.

وإن كان قد يفعل ذلك لحكمة أخرى، لكن فعل ذلك عقب سؤاله آية لنبوته هو الذي يختص به، وكذلك إذا علم أنه فعله إكراماً له مع دعواه النبوة علم أنه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه فعلم أنه صادق، لأن ما فعله به مختص بالصادقين الأبرار دون الكاذبين عليه الفجار، وعلى هذا فكرامات الأولياء هي من آيات الأنبيآء، فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة، وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم، فهو دليل على صدق هذه الشهادة، سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم، بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم، فقد تبين أنه ليس من شرط دلائل النبوة لاقترانه بدعوى النبوة، ولا الاحتجاج به ولا التحدي بالمثل ولا تقريع من يخالفه، بل كل هذه الأمور قد تقع في بعض الآيات، لكن لا يجب أن ما لا يقع معه لا يكون آية، بل هذا إبطال لأكثر آيات الأنبيآء لخلوها عن هذا الشرط، ثم هو شرط بلا حجة، فإن الدليل على المدلول عليه هو ما استلزم وجوده، وهذا لا يكون إلا عند عدم المعارض المساوي أو الراجح، وما كان كذلك فهو دليل، سواء قال المستدل به: ائتوا بمثله وأنتم لا تقدرون على الإتيان بمثله، وقرعهم وعجزهم أو لم يقل ذلك.

فهو إذا كان في نفسه مما لا يقدرون على الإتيان بمثله، سواء ذكر المستدل هذا أو لم يذكره، لا بذكره يصير دليلاً، ولا بعدم ذكره تنتفى دلالته، وهؤلاء قالوا: لا يكون دليلاً إلا إذا ذكره المستدل، وهذا باطل، وكذلك الدليل هو دليل سواء استدل به مستدل، أو لم يستدل، وهؤلاء قالوا: لا يكون دليل النبوة دليلاً إلا إذا استدل به النبي حين ادعى النبوة، فجعل نفس دعواه واستدلاله والمطالبة بالمعارضة وتقريعهم بالعجز عنها كلها جزءاً من الدليل، وهذا غلط عظيم، بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة، والنطق بها لا يقوي الدليل، والله تعالى لم يقل: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ إلا حين قالوا: افتراه، لم يجعل هذا القول شرطاً في الدليل، بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل، وهم إنما شرطوا ذلك لأن كرامات الأولياء عندهم متى اقترن بها دعوى النبوة، كانت آية للنبوة، وجنس السحر والكهانة متى اقترن به دعوى النبوة كان دليلاً على النبوة عندهم، لكن قالوا: الساحر والكاهن لو ادعى النبوة لكان يمتنع من

ذلك، أو يعارضه بمثله، وأما الصالح فلا يدعي، فكان أصلهم أن ما يأتي به النبي والساحر والكاهن والولي من جنس واحد لا يتميز بعضه عن بعض بوصف، لكن خاصة النبي اقتران الدعوى والإستدلال والتحدي بالمثل بما يأتي به، فلم يجعلوا لآيات الأنبيآء خاصة تتميز بها عن السحر والكهانة وعما يكون لآحاد المؤمنين، ولم يجعلوا للنبي مزية على عموم المؤمنين، ولا على السحرة والكهان من جهة الآيات التي يدل الله بها العباد على صدقه.

وهذا افتراء عظيم على الأنبيآء وعلى آياتهم، وتسوية بين أفضل الخلق وشرار الخلق، بل تسوية بين ما يدل على النبوة، وما يدل على نقيضها، فإن ما يأتي به السحرة والكهان لا يكون إلا لكذاب فاجر عدو لله، فهو مناقض للنبوة، فلم يفرقوا بين ما يدل على النبوة وعلى نقيضها، وبين ما لا يدل عليها ولا على نقيضها، فإن آيات الأنبيآء تدل على النبوة، وعجائب السحرة والكهان تدل على نقيض النبوة، وإن صاحبها ليس ببر ولا عدل ولا ولي لله، فضلاً عن أن يكون نبياً، بل يمتنع أن يكون الساحر والكاهن نبياً، بل هو من أعداء الله، والأنبيآء أفضل خلق الله، وإيمان المؤمنين وصلاحهم لا يناقض النبوة ولا يستلزمها، فهؤلاء سووا بين الأجناس الثلاثة، فكانوا بمنزلة من سوى عبادة الرحمن وعبادة الشيطان والأوثان.

فإن الكهان والسحرة يأمرون بالشرك وعبادة الأوثان وما فيه طاعة للشيطان. والأنبيآء لا يأمرون إلا بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة ما سوى الله وطاعة الشياطين، فسوى هؤلاء بين هذا وهذا، ولم يبق الفرق إلا مجرد تلفظ المدعي بأنه نبي، فإن تلفظ به كان نبياً، وإن لم يتلفظ به لم يكن نبياً، فالكذاب المتنبي إذا أتى بما يأتي الساحر والكاهن، وقال أنا نبي كان نبياً، وقولهم أنه إذا فعل ذلك منع منه وعورض، دعوى مجردة، فهي لا تقبل لو لم يعلم بطلانها، فكيف؟ وقد علم بطلانها وأن كثيراً ادعوا ذلك ولم يعارضها ممن دعوه أحد ولا منعوا من ذلك، فلزم على قول هؤلاء التسوية بين النبي الصادق والمتنبي الكاذب، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ أظلم ممن كَذَّبَ عَلى الله وكذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافِرينَ. والَّذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أولَئِكَ هُمُ المُتّقونْ﴾[1].

ولم يفرق هؤلاء بين هؤلاء وهؤلاء، ولا بين آيات هؤلاء وآيات هؤلاء، وقال تعالى: ﴿وَما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالوا مآ أنزَلَ الله عَلى بَشَرٍ مِنْ شيْءٍ قُلْ مَن أنزَلَ الكِتابَ الّذي جآءَ بِهِ موسى نُوراً وهُدًى لِلنّاسِ تَجْعَلونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُون كثيراً وعلمتُم ما لَم تَعلَموا أنتم ولآ آباؤكُم قُل الله ثمّ ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبونَ. وهذا كِتابٌ أنزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بينَ يدَيه ولِتُنْذِرَ أمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها والّذِينَ يؤمِنونَ بالآخِرَةِ يُؤمِنونَ بِهِ وهُم عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ.

(١) سورة الزمر: الآيتان ٣٢ و٣٣.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افتَرَى عَلى الله كَذِباً أو قالَ أوحِيَ إليَّ ولَمْ يُوحَ إليهِ شيءٌ وَمَنْ قالَ سأنزِلُ مِثْلَ ما أنْزَلَ الله وَلَوْ تَرَى إذ الظالمونَ في غَمَراتِ المَوْتِ والملائِكَةُ باسِطوا أيْديهم أخْرِجُوا أنفُسَكُم اليومَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهَونَ بما كُنْتُم تَقولونَ عَلى الله غَيْرَ الحَقِّ وكُنْتُم عَنْ آياتهِ تَسْتَكْبِرونَ. ولَقَدْ جِئْتُمونا فُرَادَى كما خَلَقْناكُم أوّلَ مَرّةٍ وتركْتُم ما خَوَّلْناكُم وراءَ ظُهورِكُمْ وَما نَرَى مَعَكُم شُفَعآءَكُمْ الّذِينَ زَعَمْتُم أنهمْ فِيكُمْ شُرَكَآءَ لَقَد تَقَطّعَ بينكُمْ وضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتم تَزْعَمون﴾[1].

فنسأل الله العظيم أن يهدينا إلى صراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين عبدوه وحده لا شريك له وآمنوا بما أرسل به رسله، وبما جاءوا به من الآيات، وفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، وطريق أولياء الله المتقين، وأعداء الله الضالين، والمغضوب عليهم، فكان ممن صدق الرسل فيما أخبروا به، وأطاعهم فيما أمروا به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء يجوزون أن يأمر الله بكل شيء، وأن ينهى عن كل شيء، فلا يبقى عندهم فرق بين النبي الصادق والمتنبي الكاذب، لا من جهة نفسه، فإنهم لا يشترطون فيه إلا مجرد كونه في الباطن مقراً بالصانع، وهذا موجود في عامة الخلق، ولا من جهة آياته، ولا من جهة ما يأمر به، والفلاسفة من هذا الوجه أجود قولاً في الأنبيآء، فإنهم يشترطون في النبي إختصاصه بالعلم من غير تعلم، وبالقدرة على التأثير الغريب والتخييل، ويفرق بين الساحر والنبي بأن النبي يقصد العدل ويأمر به، بخلاف الساحر.

ولهذا عدل الغزالي في النبوة عن طريق أولئك المتكلمين إلى طريق الفلاسفة، فاستدل بما يفعله ويأمر به على نبوته وهي طريقة صحيحة، لكن إنما أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة، وأولئك خير من الفلاسفة من جهة أنهم لما أقروا بنبوة محمد صدقوه فيما أخبر به من أمور الأنبيآء وغيرهم، وكان عندهم معصوماً من الكذب فيما يبلغه عن الله، فانتفعوا بالشرع والسمعيات، وبها صار فيهم من الإسلام ما تميزوا به على أولئك، فإن أولئك لا ينتفعون بأخبار الأنبيآء إذ كانوا عندهم يخاطبون الجمهور بالتخييل، فهم يكذبون عندهم للمصلحة.

ولكن آخرون سلكوا مسلك التأويل وقالوا: أنهم لا يكذبون، ولكن أسرفوا فيه. ففي الجمل ظهور الفلاسفة والملاحدة والباطنية على هؤلاء تارة ومقاومتهم لهم تارة، لا بد له من أسباب في حكمة الرب وعدله، ومن أعظم أسبابه تفريط أولئك وجهلهم بما جاء به الأنبيآء، فالنبوة التي ينتسبون إلى نصرها لم يعرفوها، ولم يعرفوا دليلها، ولا قدروها قدرها، وهذا يظهر من جهات متعددة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

(١) سورة الأنعام: الآيات ٩١ ـ ٩٤.

فصل
الشرع والعدل

قد ذكرنا في غير موضع أن أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ قد بينها الله في القرآن أحسن بيان، وبين دلائل الربوبية والوحدانية، ودلائل أسماء الرب وصفاته وبين دلائل نبوة أنبيآئه، وبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع، وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية، فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحية معلومة، فتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق. وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول، وإمكان المعاد أو وقوعه، وفيما ابتدعوه ما خالفوه به الشرع، فقد خالفوا فيه العقل أيضاً، فإن الذي بعث الله به محمداً وغيره من الأنبيآء هو حق وصدق، وتدل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل. والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبنا وَقُلنا مَا نَزَّلَ الله مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُم إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ، وَقَالُوا لو كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، فَاعتَرفُوا بِذَنْبِهِم فَسُحقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

وقال تعالى لمكذبي الرسل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقِلُونَ بِهَا أَو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ﴾[2]. ذكر ذلك بعد قوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ، وَقَوْمُ إِبرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلكَافِرِينَ، ثُمَّ أَخَذتُهُمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِير، فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِي خَاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِهَا وَبِئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَقَصْرٌ مُشِيدٌ﴾[3]. ثم قال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾الآية. ثم قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ، ثُمَّ أَخَذتُهَا وَإِلَيَّ

---

(١) سورة الملك: الآيات ٨ ــ ١١.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٦.

(٣) سورة الحج: الآيات ٤٢ ــ ٤٥.

الْمَصِيرِ﴾[1]. فذكر إهلاك من أهلك وإملاه لمن لئلا يغتر المغتر فيقول نحن لم يهلكنا، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل، وهو حق نفسه كالحكم في نفسه الذي يحكم به، فإنه يحكم بالعدل وهو الشرع، فالعدل هو الشرع، والشرع هو العدل، ولهذا يأمر نبيه أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله، والذي أنزل الله هو القسط، والقسط هو الذي أنزل الله، وكذلك الحق والصدق هو ما أخبرت به الرسل، وما أخبرت به فهو الحق والصدق، والسلف والأئمة ذموا أهل الكلام المبتدعين الذين خالفوا الكتاب والسنة، ومن خالف الكتاب والسنة لم يكن كلامه إلا باطلاً، فالكلام الذي ذمه السلف يذم لأنه باطل، ولأنه يخالف الشرع، ولكن لفظ الكلام لما كان مجملاً لم يعرف كثير من الناس الفرق الكلام الذي ذموه وغيره، فمن الناس من يظن أنهم إنما أنكروا كلام القدرية فقط كما ذكره البيهقي وابن عساكر في تفسير كلام الشافعي ونحوه ليخرجوا أصحابهم عن الذم، وليس كذلك، بل الشافعي أنكر كلام الجهمية، كلام حفص الفرد وأمثاله.

وهؤلاء كانت منازعتهم في الصفات والقرآن والرؤية لا في القدر، وكذلك أحمد بن حنبل خصومه من أهل الكلام هم الجهمية الذين ناظروه في القرآن مثل أبي عيسى برغوث صاحب حسين النجار وأمثاله، ولم يكونوا قدرية ولا كان النزاع في مسائل القدر، ولهذا يصرح أحمد وأمثاله من السلف بذم الجهمية، بل يكفرونهم أعظم من سائر الطوائف.

وقال عبد الله بن مبارك ويوسف بن إسباط وغيرهما: أصول أهل الأهواء أربع: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والقدرية، فقيل لهم: الجهمية، فقالوا: الجهمية ليسوا من أمة محمد، ولهذا ذكر أبو عبد الله ابن حامد عن أصحاب أحمد في الجهمية، هل هم من الثنتين وسبعين فرقة؟ وجهين:

أحدهما: أنهم ليسوا منهم لخروجهم عن الإسلام، وطائفة تظن أن الكلام الذي ذمه السلف هو مطلق النظر والإحتجاج والمناظرة، ويزعم من هؤلاء أن قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]. و﴿جَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]. منسوخ بآية السيف، وهؤلاء أيضاً غالطون، فإن الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح وإبراهيم بمجادلتهم للكفار حتى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[4].

---

(1) سورة الحج: الآية ٤٨.
(2) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.
(3) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(4) سورة هود: الآية ٣٢.

وقال عن قوم إبراهيم: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[1]. ذكر محاجة إبراهيم للكافر. والقرآن فيه من مناظرة الكفار والإحتجاج عليهم ما فيه من شفاء وكفاية وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بالتي هي أَحْسَنُ إِلَّا الذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [2] وقوله: ﴿وَجَادِلهم بالتي هي أَحْسَنُ﴾[3].

ليس في القرآن ما ينسخها، ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف، والجهاد والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان، ومن لا يجوز قتاله بالسيف، وقد تكون في ابتداء الدعوة كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن، وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاستهداء والبيان، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن المبتدعين الذين ابتدعوا كلاماً وأصولاً تخالف الكتاب، وهي أيضاً مخالفة للميزان وهو العدل، فهي مخالفة للسمع والعقل كما ابتدعوا في إثبات الصانع إثباته بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الاجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا تنفك عنها قالوا: وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث لامتناع لا أول لها، فهؤلاء إذا حقق عليهم ما قالوه لم يوجدوا قد أثبتوا العلم بالصانع ولا أثبتوا النبوة ولا أثبتوا المعاد، وهذه هي أصول الدين والإيمان، بل كلامهم في الخلق والبعث المبدأ والمعاد وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلاً ولا نقلاً، وهم معترفون بذلك كما قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن في النفي: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾[4]، و ﴿وَلَا يُحِيطونَ بِهِ عِلماً﴾[5] واقرأ في الإثبات ﴿الرّحمَن عَلى العَرشِ اسْتَوَى﴾[6]، ﴿إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[7]، ﴿أأمنتم منْ في السَّمَاءِ﴾[8].

ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا، وهو كما قالوا فإن الرازي قد جمع ما جمعه من طرق المتكلمين والفلاسفة، ومع هذا فليس في كتبه إثبات الصانع كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين جميع ما ذكره في إثبات الصانع، وأنه ليس فيه ذلك، وليس فيه أيضاً إثبات النبوة، فإن النبوة مبناها على أن الله قادر، وأنه يحدث الآيات لتصدق بها الرسل، وليس في كتبه أن الله قادر

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٣.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.
(٣) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(٤) سورة الشورى: الآية ١١.
(٥) سورة طه: الآية ١١٠.
(٦) سورة طه: الآية ٥.
(٧) سورة فاطر: الآية ١٠.
(٨) سورة الملك: الآية ١٦.

ولا مريد، بل كلامه فيه تقرير حجج من نفى قدرته وإرادته دون الجانب الآخر، كما قد بينا ذلك في الكلام على ما ذكره في المسألة القدرة والإرادة مع أنه ولله الحمد الأدلة على إثبات الصانع قدرته ومشيئته تفوق الاحصاء، لكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وسبب ذلك إعراضهم عن الفطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعه المبتدعون، مما أفسدوا به الفطرة والشرعة، فصاروا يسفسطون في العقليات، ويقرمطون في السمعيات، كما قد بين هذا في مواضع، وأيضاً فإذا عرف أن الله قادر قد عرفه غيره، فليس عنده في النبوة إلا طريق أصحابه الأشعرية الذين سلكوا مسلك الجهمية في أفعال الله تعالى، أو طريق الفلاسفة، ولهذا يقول من يقول من علماء الزيدية، وهم يميلون إلى الإعتزال مع تشيع الزيدية يقولون: نحن لا نتكلم في الشافعي فإنه إمام، لكن هؤلاء صاروا جهمية يعني القدر فلاسفة، والشافعي لم يكن جهمياً ولا فيلسوفاً.

وهؤلاء لم يعرفوا آيات الأنبيآء والفرق بينها وبين غيرها، لكن ادعوا أن ما يأتي به الكهان والسحرة وغيرهم قد يكون من آيات الأنبيآء، لكن بشرط أن لا يقدر أحد من المرسل إليهم على معارضته، وهذه خاصة المعجز عندهم، وهذا فاسد من وجوه كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع، وأما كلامه في المعاد فأبعد من هذا، وهذا كما قد بين أيضاً، وكذلك كلام من تقدمه من الجهمية وأتباعهم من الأشعرية وغيرهم، ومن المعتزلة، فإنك لا تجد الذي ابتدعوه لا إثبات الربوبية ولا النبوة ولا المعاد، والأشعري نفسه وأتباعه ليس في كتبهم إثبات الربوبية ولا المعاد، وكذلك من سلك سبيلهم في أدلتهم من أتباع الفقهاء كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني وغيرهم، والمعتزلة كذلك أيضاً، وكذلك الكرامية، وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف كأبي الحسن البصري ونحوه من المعتزلة، كابن الهيضم من الكرامية، وكأبي الحسن نفسه والقاضي أبي بكر وأبي المعالي الجويني وأبي إسحاق الاسفرايني وأبي بكر بن فورك وأبي القاسم القشيري وأبي الحسن التميمي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني غفر الله لهم ورحمهم أجمعين.

وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات مثل كتاب الملل والنحل للشهر ستاني، وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعري، وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن، وقد ذكر فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث وأنه يختارها، وهي أقرب ما ذكره من المقالات إلى السنة والحديث، لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث، ونفس مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها ولا هو خبير بها، فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دل عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في

المقالات التي يذكر فيها الأدلة، فإن جميع هؤلاء في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه.

ولكن بعضهم أقرب إلى السنة من بعض، وقد يكون هذا أقرب في بعض وهـذا أقرب في مواضـع، وهذا لكون أصل اعتمادهم لم يكن على القرآن، والحديث بخلاف الفقهاء، فإنهم في كثير مما يقولونه إنما يعتمدون على القرآن والحديث، فلهذا كانوا أكثر متابعة. لكن ما تكلم فيـه أولئك أجل، ولهـذا يعظمـون من وجه ويـذمون من وجـه، فـإن لهم حسنـات وفضـائـل وسعيـاً مشكوراً، وخطأهم بعد الإجتهاد مغفور، والأشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستـاني، ولهذا ذكر عشر طوائف وذكر مقالات لم يـذكرهـا الشهرستـاني وهو أعلم بمقـالات أهل السنـة، وأقرب أليها وأوسع علماً من الشهرستاني، والشهرستاني أعلم باختلاف المختلفين ومقالاتهم من الغزالي، ولهذا ذكر لهم في القرآن أربع مقالات، وعدد طوائف من أهل القبلة، والغزالي حصـر أهل العلم الإلهي في أربعة أصناف: في الفلاسفـة والباطنيـة والمتكلمين والصوفيـة، فلم يعرف مقـالات الفقهاء ولا مقـالات أئمة الصـوفية، ولكن ذكـر عنهم العمل وذكـر عن بعضهم اعتقـاداً يخالفهم فيه أئمتهم أبو طالب أعلم منهمـا بأقـوال الصوفيـة، ومـع هذا فلم يعـرف مقالـة الأكابـر كالفضيل بن عياض ونحوه وأبـو الوليـد بن رشد الحفيـد حصر أهـل العلم الإلهي في ثلاثـة: في الحشوية، والباطنية، والأشعرية. والباطنية عنده يدخل فيهم باطنية الصوفيـة، وباطنيـة الفلاسفـة ومن هنا دخل ابن سبعين وابن عـربي فأخـذوا مذاهب الفـلاسفة، وأدخلوهـا في التصوف، وأبـو حامد يدخل في بعض هـذا، فإن إبن سبعين تكلم في مقـالات العارفين بتصـوف فاسـد، ثم أن هؤلاء مع هذا لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كـلامهم بل ولا نقـل ذلك عن النبي ﷺ صـار منهم من يقول: كـانوا مشغـولين بالجهـاد عن هذا البـاب، وأنهم هم حققوا مـا لم يحققـه الصحـابة، ويقـولون أيضـاً أن الرسـول لم يعلمهم هذا لئـلا يشتغلوا به عن الجهـاد، فإنـه كـان محتاجاً إليهم في الجهاد، وهكذا يقول من يقول من مبتدعة أهـل الزهـد والتصوف إذا دخلوا في عبـادات منهي عنها ومـذمومـة في الشرع، قـالوا: كـان الصحابـة مشغولين عنهـا بالجهـاد وكـان النبي ﷺ يخـاف أن يشتغلوا بها عن الجهـاد، وأهل السيف قـد يـظن من يـظن منهم أن لهم من الجهاد وقتال الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة، وأن الصحابة كانوا مشغـولين بالعلم والعبـادة عن مثل جهادهم.

ومن أهل الكلام من يقول: بل الصحابة كانوا على عقـائدهم وأصـولهم، لكن لم يتكلموا بذلك لعدم حاجتهم إليه، فهؤلاء جمعوا بين أمرين: بين أن ابتدعـوا أقوالاً بـاطلة ظنوا أنهـا هي أصـول الـدين، لا يكـون عـالمـاً بـالـدين إلا مَنْ وافقهم عليهـا، وأنهم علمـوا وبينـوا من الحق ما لم يبينه الرسول والصحابة، وإذا تدبر الخبير حقيقة ما هم عليه تبين له أنه ليس عند القوم فيما

ابتدعوه لا علم ولا دين ولا شرع ولا عقل. وآخرون لما رأوه ابتداع هؤلاء وأن الصحابة والتابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم ظنوا أنهم كانوا كالعامة الذين لا يعرفون الأدلة والحجج، وأنهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن مما تشابه على من تشابه عليه، وتوهموا أنه إذا كان الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾(١). كان المراد أنه لا يفهم معناه إلا الله لا لرسول ولا الصحابة، فصاروا ينسبون الصحابة، بل والرسول إلى عدم العلم بالسمع والعقل، وجعلوهم مثل أنفسهم لا يسمعون ولا يعقلون، وظنوا أن هذه طريقة السلف، وهي الجهل البسيط التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع، وهذا وصف أهل النار لا وصف أفضل الخلق بعد الأنبياء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقال أيضاً: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العبادبعد قلب محمد، فوجد أصحابه خير قلوب العباد بعد قلبه فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح.

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيرُ القُرونِ القَرن الذي بُعِثْتُ فيهم ثمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُم». وقد قال تعالى: ﴿والسابقونَ الأوَلُونَ مِن المهاجِرينَ وَالأنْصَار والَّذينَ اتَّبعُوهُمْ بإحْسَانٍ﴾(٢). فرضي عن السابقين مطلقاً، ورضي عمن اتبعهم بإحسان، وذلك متناول لكل من اتبعهم إلى يوم القيامة، كما ذكر ذلك أهل العلم.

قال ابن ابي حاتم: قريء على يونس ين عبد الأعلى أن ابن وهب [قال](٣) حدثني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعوهُم بإحْسَانٍ﴾ قال: من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الهدى والبيان والأدله والبراهين في القرآن، فإن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأرسله بالآيات البينات. وهي الأدلة البينة الدالة على الحق، وكذلك سائر

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٣) زيدت على النص لوضوح العبارة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

الرسل. ومن الممتنع أن يرسل الله رسولاً يأمر الناس بتصديقه، ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه، وكذلك من قال إني رسول الله، فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلاً له، وحجة على الناس، هذا لا يظن بأجهل الخلق فكيف بأفضل الناس، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا من نَبي مِنَ الأنبياءِ إلاَّ وَقَدْ أُوتي مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلى مِثْلِهِ البَشر، وإنّمَا كَانَ الّذي أُوتِيتُهُ وَحْياً أوحَاهُ الله إليَّ فَارجُوا أنْ أكُونَ أكثرَهم تَابِعَاً يَومَ القِيَامَةِ» قال تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أنْزلنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والهدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنّاه للناسِ في الكتابِ أولَئِكَ يَلْعنُهُم الله وَيَلْعنهُم اللاَّعِنُون﴾(١). فالبينات جمع بينة وهي الأدلة والبراهين التي هي بينة في نفسها وبها يتبين غيرها، يقال: بين الأمر أي في نفسه، ويقال بين غيره، فالبين إسم لما ظهر غيره وكذلك المبين كقوله: فاحشة مبينة، أي متبينة، فهذا شأن الأدلة، فإن مقدماتها تكون معلومة بنفسها، كالمقدمات الحسية والبديهية، وبها يتبين غيرها فيستدل على الخفي بالجلي، والهدى مصدر هداه هدى، والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه وهو ضد الضلالة، فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده، وهو سبحانه بين في كتبه ما يهدي الناس فعرفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق، عرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده، وأنه لا يجوز عبادة غيره، وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففي الهدى بيان المعبود وما يعبد به، والبينات فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك. فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولاً مجرداً عن دليله ليؤخذ تقليداً واتباعاً للظن، بل هو مبين بالآيات البينات وهي الأدلة اليقينية والبراهين القطعية، وكان عند أهل الكتاب من البينات الدالة على نبوة محمد وصحة ما جاء به أمور متعددة لبشارات كتبهم، وغير ذلك. فكانوا يكتمونه قال تعالى: ﴿ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادَةً عندهُ مِنَ الله فإنّهُ كانَ عندهم شهادةً مِنَ الله تَشْهَدُ بما جاءَ بِهِ محمّدٌ وبمثْلِهِ فكتَموها﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رمضانَ الّذي أنزِلَ فيهِ القرآنُ هُدًى للناسِ وبَيناتٍ مِنَ الهُدى والفُرقان﴾(٣) فأنزله هادياً للناس، وبينات من الهدى والفرقان، فهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم، يهديهم إلى صراط العزيز الحميد، الذي له ما في السموات وما في الأرض، بما فيه الخبر والأمر، وهو بينات دلالات وبراهين من الهدى من الأدلة الهادية المبينة للحق، ومن الفرقان المفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب، والمأمور والمحظور، والحلال والحرام، وذلك أن الدليل لا يتم إلا بالجواب عن المعارض، فالأدلة تشبه كثيراً

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

بما يعارضها، فلا بد من الفرق بين الدليل الدال على الحق، كمن لا بد من ذلك من الفرقان، وهو الفرق بين الدليل وبين ما عارضه ليتبين أن الذي عارضه باطل، فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق، وبين ما عارضه ليتبين أن الذي عارضه باطل، فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق، لكن لا بد مع ذلك من الفرقان، وهو الفرق بين ذلك الدليل وبين ما عارضه، والفرق بين خبر الرب والخبر الذي يخالفه، فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات، ومن لم يحصل له الفرقان كان في اشتباه وحيرة، والهدى التام لا يكون إلا مع الفرقان، فلهذا قال أولاً: هُدى للناس، ثم قال: وبينات من الهدى والفرقان، فالبينات الأدلة على ما تقدم من الهدى، وهي بينات من الهدى الذي هو دليل على أن الأول هدى، ومن الفرقان الذي يفرق بين البينات والشبهات، والحجج الصحيحة والفاسدة، فالهدى مثل أن يؤمر بسلوك الطريق إلى الله، كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله، والبينات ما يدل ويبين أن ذلك هو الطريق، وأن سالكه سالك للطريق لا ضال، والفرقان أن يفرق بين ذاك الطريق وغيره، وبين الدليل الذي يسلكه ويدل الناس عليه، وبين غيرهم ممن يدعي الدلالة وهو جاهل مضل، وهذا وأمثاله مما يبين أن في القرآن [من][1] الأدلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الأخبار والأوامر كثير، وقد أبسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا الكلام على النبوة، فإن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق بالباطل، كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات، كالإلهيات وكالمعاد، وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة، ولم يثبتوا ما يدل عليها، فليس عندهم لا هدى ولا بينات. والله سبحانه أنزل في كتبه البينات والهدى، فمن تصور الشيء على وجهه فقد اهتدى إليه، ومن عرف دليل ثبوته فقد عرف البينات. فالتصور الصحيح اهتداء، والدليل الذي يبين التصديق بذلك التصور بينات، والله تعالى أنزل الكتاب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل، وهي طريقة الرسل، جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل، وأعداؤهم جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فلو لم يكن الحق فيما بينه الرسول للناس وأظهر لهم بل كان الحق في نقيضه، للزم أن يكون عدم الرسول خيراً من وجوده إذا كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء علماً ولا هدى، بل ذكر أقوالاً تدل على الباطل، وطلب منهم أن يتعلموا الهدى بعقولهم ونظرهم ثم ينظروا فيما جاء به، فإما أن يتأولوه ويحرفوا الكلم عن مواضعه، وإما أن يعوضوه، فذكرنا هذا ونحوه مما يبين أن الهدى مأخوذ عن الرسول،

(١) زيدت على الأصل لسياق العبارة.

وأنه قد بين للأمة ما يجب اعتقاده من أصول الدين في الصفات وغيرها، فكان الجواب خطاباً مع من يقر بنبوته ويشهد له بأنه رسول الله فلم يذكر فيه دلائل النبوة.

وذكر أن الشبهات العقلية التي تعارض خبر الرسول باطلة، وذكر في ذلك ما هو موجود في هذا الجواب، ثم بعد ذلك حدثت أمور أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب ويتكلم على حجج النفاة، ويبين بطلانها ويتكلم على ما أثبتوه من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول على ما علم بخبر الرسول، وبسط في ذلك من الكلام والقواعد ما ليس هذه موضعه، وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة الذين يقولون أن الرسل خاطبوا خطاباً قصدوا به التخييل إلى العامة ما ينفعهم، لا أنهم قصدوا الأخبار بالحقائق، وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم، إذ كان هؤلاء في الحقيقة مكذبين للرسل، يقولون أنهم كذبوا لما رأوه مصلحة، بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول إلا الحق باطناً وظاهراً، ثم بعد هذا طلب الكلام على تقرير أصول الدين بأدلتها العقلية، وإن كانت مستفادة من تعليم الرسول.

وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة في مصنف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر شمس الدين الأصبهاني، فطلب مني شرحها فشرحتها، وذكرت فيها من دلائل العقلية ما يعلم به أصول الدين، وبعدها جاء كتاب من النصارى يتضمن الإحتجاج لدينهم بالعقل والسمع، واحتجوا بما ذكروه من القرآن، فأوجب ذلك أن يرد عليهم ويبين فساد ما احتاجوا به من الأدلة السمعية من القرآن ومن كلام الأنبيآء المتقدمين، وما إحتجوا به من العقل وأنهم مخالفون للأنبيآء وللعقل، خالفوا المسيح ومن قبله وحرفوا كلامهم كما خالفوا العقل، وبين ما يحتجون به من نصوص الأنبيآء، وأنها هي وغيرها من نصوص الأنبيآء التي عندهم حجة عليهم لا لهم، وبين الجواب الصحيح لمن حرف دين المسيح، وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا، لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه ويبسط الكلام في ذلك بسطاً أكثر من غيره، وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل، وهم وإن أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففي قلوبهم مرض ونفاق إذ كان ما جعلوه أصولاً لدينهم معارض لما جاءت به الأنبيآء وهم لم يتعلموا ما جاءت به الأنبيآء، ولم يأخذوا عنهم الدلائل والأصول والبينات والبراهين، وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبيآء ما أخبروا به عن أصول الدين ومن تصديق خبرهم مع وجود ما يعارضه، فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين أولى وأحرى، فإنه بهذا يتبين ذاك وإلا فتصديق الخبر متوقف على دليل صحته، أو على صدق المخبر به وتصديقه بدون أن يعلم أنه في نفسه حق، أو أن المخبر به صادق قول بلا علم.

والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أرسل بالبينات والهدى، بين الأحكام الخبرية

والطلبية وأدلتها الدالة عليها، بين المسائل والوسائل، بين الدين ما يقال وما يعمل، وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق، وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع. وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف، والهدى هو هدى الخلق إلى الحق، وتعريفهم ذلك وإرشادهم إليه، وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة والآيات الدالة على أن هذا هدى، وإلا فمجرد خبر لم يعلم أنه حق، ولم يقم دليل على أنه حق ليس بهدى، وهو سبحانه إذا ذكر الأنبيآء نبينا وغيره، ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الأدلة والبراهين البينة علماً يقيناً، إذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات، وقد تسمى ضروريات، وقد تسمى أوليات، وقد يقال هي معلومة بأنفسها، فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات.

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ما مِن نبي مِنَ الأنبيآء إلّا وقَد أوتي مِن الآياتِ ما آمَنَ على مِثْلِهِ البشرَ، وإنما كانَ الذي أوتيتُه وَحْياً أوحاهُ الله إليَّ فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابِعاً يومَ القيامةِ».

وهو سبحانه إذا خاطب جنس الأنس ذكر جنس الأنبيآء، وأثبت جنس ما جاءوا به، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى خاطبهم بإثبات نبي بعده كما قال في سورة البقرة في خطابه لبني إسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى وذكرهم بأنعامه عليهم، وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا موسى الكتابَ وقَفَّيْنا مِن بعدِهِ بالرُّسُلِ وآتَيْنا عيسى ابنَ مريمَ البيّناتِ وأيّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ أفكُلَما جاءكُم رسولٌ بما لا تهْوَى أنفُسكُمْ اسْتَكبرْتُم فَفريقاً كذَّبْتم وفرِيقاً تَقتُلون﴾[1]. ثم ذكر محمداً فقال: ﴿ولمّا جاءَهُم كتابٌ مِن عندِ الله مُصَدِّقٌ لِما معَهُم وكانوا مِن قبل يَسْتَفتِحونَ على الّذينَ كفَروا، فلمّا جاءَهُم ما عرِفوا كفروا بِهِ فَلَعنَةُ الله على الكافرِينَ، بِئْسَما اشتروا بِهِ أنفُسَهُم أن يكفُروا بمَا أنزَلَ الله بَغياً أن ينزِلَ الله من فضلِهِ على مَن يشاءُ مِن عبادِهِ فباءو بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذابٌ مُهين﴾[2].

فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح إليهم بالبينات بعدما أرسل قبله الرسل، وأنهم تارة يكذبون الرسل، وتارة يقتلونهم، وذكر أنه أرسل عيسى بالبينات لأنه جاء بنسخ بعض شرع التوراة بخلاف من قبله.

ولهذا لم يذكر ذلك عنهم. وقال في موسى أنه آتاه الكتاب لأنهم كانوا مقرين بنبوته،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٨٩، ٩٠.

ولكن حرفوا كتابه في المعنى باتفاق الناس، وحرفوا باللفظ أحياناً، وفي بعض المواضع، وهو تعالى قد ذكر في غير موضع أنه أرسل موسى بالآيات البينات فقال لما ناجاه: ﴿وألقِ عصاكَ فلمّا رآها تهتزُّ كأنّها جانٌ ولّى مُدْبِراً ولم يعقب يا موسى لا تخَفْ إني لا يخافُ لَدى المُرْسَلونَ، إلّا من ظَلَمَ ثمَّ بدَّلَ حسناً بعدَ سوءٍ فإني غفورٌ رحيمٌ، وأدخلْ يَدَكَ في جيبِكَ تخرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ سوءٍ في تسعِ آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ إنّهمْ كانوا قَوْماً فاسِقين﴾[1]. وقال في سورة القصص: ﴿يا موسى أقْبِلْ ولا تَخَفْ إنّكَ مِنَ الآمنينَ، اسْلُكْ يدَكَ في جيبِكَ تخرُج بيضاءَ مِن غيرِ سوءٍ واضْمُمْ إليكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فذَنِكَ بُرهانانِ مِن ربكَ إلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ إنهم كانوا قوماً فاسقينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فأرْسَلنا عليهم الطُوفانَ والجرادَ والقُمّلَ والضفادعَ والدم آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فاستَكْبَروا وكانوا قوماً مجرمين﴾[3]. وقد قال تعالى لما قص قصص الرسل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ونصره لهم وإهلاك أعدائهم، ثم ذكر الأنبيآء عموماً فقال: ﴿وما أرسَلنَا في قريةٍ مِن نبيٍ إلاّ أخذْنا أهلَها بالبأساءِ والضَرَّاءِ لعلَهُمْ يَضْرَعونَ﴾[4] إلى قوله ﴿أوَ لم يهدِ للذينَ يرثونَ الأرضَ من بعدِ أهلِها أن لو نشاءُ أصبْناهم بذُنوبهم ونَطْبَعُ على قلوبهم فهمْ لا يسمَعون، تلكَ القرى نقصُّ عليكَ ولقدْ جاءتهُم رسلُهُم بالبيِّناتِ فما كانوا ليؤمِنوا بمَا كذَّبُوا مِن قبلُ كذلكَ يطبَعُ الله على قُلوبِ الكافرينَ، وما وجَدْنا لأكثرِهم مِن عهدٍ وإن وجَدْنا أكثرَهُم لَفاسِقينَ﴾[5].

فقد أخبر أن أهل القرى كلهم الذين أهلكهم جاءتهم رسلهم بالبينات، ولكن شابه متأخروهم متقدميهم فما كان هؤلاء ليؤمنوا بما كذب به أشباههم، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وهذا كقوله تعالى: ﴿كذلكَ ما أتى الّذينَ مِن قبلِهِمْ مِنْ رسولٍ إلاّ قالوا ساحِرٌ أوْ مجْنون﴾[6]. قال تعالى: ﴿ثمَّ بعَثْنا مِن بعدِهِم موسى بآياتِنا إلى فِرعونَ وملئِهِ فظَلَموا بها فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُفْسِدينَ﴾[7].

فبين سبحانه أنه بعث موسى بآياته، وقال في أثناء القصة ﴿إنِيْ رَسُولٌ مَنْ رَبِّ العَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيّ أن لا أقُولَ على الله إلا الحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأرْسِلْ مَعِي بَنِيْ إسْرَائِيل﴾[8] فأخبر أنه جاء ببينة من الله أي بآية بينة من الله بدليل من الله وبرهان، فهي آية منه وعلامة منه على صدقي، وإني رسول منه فإن قوله: ﴿من ربكم﴾، متعلق بالرسول وبالآية،

---

(١) سورة النمل: الآيات ١٠ ـ ١٢.
(٢) سورة القصص: الآيتان ٣١، ٣٢.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٢.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٩٣.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٩٩.
(٦) سورة الذاريات: الآية ٥٢.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٠٢.
(٨) سورة الأعراف: الآية ١٠٤ و١٠٥.

يقال: فلان قد جاء بعلامة من فلان، فالعلامة منه والرسول منه، والآية منه، كما قال: ﴿فذانِكَ بُرهانانِ مِن ربِّكَ﴾(1) فدل على أن كل واحد من الرسول ومن آيات الرسول هو من الله تعالى، قال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين﴾(2). وذكر القصة ومعارضة السحرة له إلى أن قال: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاكَ فإذا هي تلقفُ ما يأفكون، فوقعَ الحق وبطلَ ما كانوا يعملونَ، فغلبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وألقي السحرةُ ساجدين، قالوا آمنا بربِ العالمينَ ربِّ موسى وهارونَ، قالَ فرعونُ آمنتم به قبلَ أن آذنَ لكمْ إنَّ هذا لمكرٌ مَكَرْتُمُوه في المدِينةَ لتخرجوا منها أهْلَهَا فسوفَ تعلمونَ، لأقطعنَّ أيْدِيَكُمْ وأرجلَكم من خِلافٍ ثم لأصلبنكم أجمعين، قالوا إنا إلى رَبنا مُنقلبون، وما تنقَمُ منا إلا أن آمنا بآياتِ رَبِنا لما جاءتنا ربنا أفرِغْ علينا صَبراً وتوفَّنا مُسلمين﴾(3).

فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم، وهم من أعلم الناس بالسحر لما علموا أن هذه الآيات آيات من الله، كما قال موسى ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ إلى قوله ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ إلى قوله ﴿فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾، وليس المراد بالآيات هنا كتاباً منزلاً، فإن موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت.

وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون وخلص بني إسرائيل فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها، قال تعالى: ﴿ولقَدْ آتيْنا موسى الكتابَ مِن بعدِ ما أهلَكْنا القُرونَ الأولى بصائِرَ للنَّاسِ وهُدًى﴾(4). ولكن تكذيبهم بآياته إنكارهم أن تكون آية من الله، وقولهم إنها سحر كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وقالوا مَهْما تأتِنا بهِ مِن آيةٍ لِتَسحرنَا بها فَما نحنُ لكَ بمؤمِنينَ وكانوا عَنْها غافِلِينَ﴾(5). لم يذكروها ويتأملوا ما دلت عليه من صدق موسى وأنه مرسل من الله، فالتكذيب ضد التصديق والغفلة عنها ضد النظر فيها، ولهذا قيل: النظر تجريد العقل عن الغفلات، وقيل: هو تحديق العقل نحو المرئي، والأول: هو النظر الطلبي، وهو طلب ما يدله على الحق، والثاني: هو النظر الإستدلالي، وهو النظر في الدليل الذي يوصله إلى الحق، وهذا الثاني هو الذي يوجب العلم.

فذمهم على الغفلة عن آياته يتضمن النوعين، النظر فيها والتأمل لها، والتذكر لها ضد الغفلة عنها، وهي آيات معينة، فإذا جرد العقل عن الغفلة عنها، وحدقه للنظر فيها حصل له

(1) سورة القصص: الآية ٣٢.
(2) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.
(3) سورة الأعراف: الآيات ١١٧ ـ ١٢٦.
(4) سورة القصص: الآيات ٤٣.
(5) سورة الأعراف: الآية ١٣١.

العلم بها، وقد يحصل العلم بها، ولكن يمتنع عن اتباعها لهواه، كما قال الله عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدوا بها واستَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم ظُلماً وعُلوا﴾[1]. فإن الحق إذا ظهر صار معلوماً بالضرورة والآيات الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة، لكن اتباع الهوى يصد عن التصديق بها واتباع ما أوجبه العلم بها، وهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبي محمد وموسى عليهما السلام وغيرهما، فإنهم علموا صدقهما علماً يقينياً، لما ظهر من آيات الصدق، ودلائله الكثيرة، لكن اتباع الهوى صد، قال تعالى: ﴿فإنّهُم لا يُكذِّبونَك ولكنّ الظالمينَ بآياتِ الله يَجْحَدونَ﴾[2]. وقال تعالى عن قوم فرعونَ ﴿وجحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهم ظُلْماً وعُلواً﴾[3].

وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾، ولهذا قال: ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ فعلموا أنها حق وغفلوا عنها كما يغفل الإنسان عما يعمله ومنه، الغفلة عن ذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿ولا تُطعْ مَن أغْفَلْنا قَلْبُهُ عَن ذِكْرِنا واتّبَعْ هَواهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿واذْكُر ربّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخيفةً ودونَ الجَهْرِ مِنَ القوْلِ بالغُدُوِ والآصالِ ولا تكُنْ مِنَ الغافِلِينَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ لا يَرجُونَ لِقاءنَا وَرَضُوا بالحياةِ الدنْيا واطْمَأنّوا بها والّذين هُمْ عَن آياتِنا غافِلون، أولئِكَ مأواهُمُ النّارُ بما كانوا يكسِبُون﴾[6].

فذكر الذين هم عن آياته غافلون هنا كما ذكرهم، وهناك وصفهم بالتكذيب بها مع الغفلة عنها، وضد الغفلة التذكر، والتذكر لآياته سبحانه وتعالى يوجب العلم بها وحضورها في القلب وهو موجب لاتباعها، إلا أن يمنعه هوى، قال تعالى: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوابِ عند الله الصُمُّ البُكْمُ الّذين لا يعقِلون، ولَو عَلِمَ الله فيهِمْ خَيراً لأسْمَعَهُم ولَو أسْمَعَهُم لَتولّوا وهُم مُعرِضون﴾[7]. فهو سبحانه لو علم فيهم خيراً، وهو قصد الحق لأفهمهم لتولوا وهم معرضون.

وقال تعالى: ﴿ولَقَدْ أرْسَلنا موسى بآياتنا إلى فِرْعَون ومَلَئِهِ فقال إني رسولُ ربِّ العالمين، فلمّا جآءهم بآياتِنا إذا هُم منها يضحكون، وما نُريهم من آيةٍ إلاّ هي أكبر مِن أختِها

---

(1) سورة النمل: الآية ١٤.
(2) سورة الأنعام: الآية ٣٣.
(3) سورة النمل: الآية ١٤.
(4) سورة الكهف: الآية ٢٨.
(5) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.
(6) سورة يونس: الآية ٧.
(7) سورة الأنفال: الآية ٢٢.

وأخذْناهُم بالعذابِ لعلّهُم يَرجِعون﴾[1]. وقد ذكر أن الآيات التي هي دلائل النبوة منه في غير موضع غير ما تقدم كقوله تعالى: ﴿فأتِياهُ فَقولا إنّا رسولا ربّك فأرسِل مَعَنا بني إسرائيل ولا تُعذبهم قد جِئْناك بآيةٍ مِن ربّكَ والسّلامُ على مَن اتبعَ الهُدى، إنّا قدْ أوحى إلينا أن العذابَ على مَن كذّبَ وتَولّى، قالَ فمَن ربكِما يا موسى قالَ ربنا الذي أعْطى كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هَدى، قال فما بالُ القرونِ الأولى قالَ عِلمُها عند ربّي في كتابٍ لا يضِلُّ ربي ولا ينسى الذي جَعَلَ لكُمُ الأرضَ مَهْداً وسَلَكَ لكن فيها سُبُلاً وأنزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فأخرَجْنا بِهِ أزواجاً مِن نباتٍ شَتّى كُلوا وارعوا أنعامَكُم إنِ في ذلكَ لآياتٍ لأولي النُهى، مِنها خلَقْناكُم وفيها نُعيدُكُم ومِنها نُخرُجُكم تارَةً أخرى، ولقدْ أريناهُ آياتِنا كلها فكذّبَ وأبي قالَ أجئتَنا لتخرجنَا مِن أرضِنا بسحرِكَ يا موسى فلنَأتينّكَ بسحرٍ مِثْلِهِ﴾ إلى قوله عن السحرة﴿لَنْ نُؤثركَ على ما جاءَنا مِن البيِّناتِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ورَسولاً إلى بني إسرائيل إني قد جئتكم بآيةٍ مِن ربِّكُم﴾[3] وقال تعالى: ﴿وقالوا لَوْلا يأتِينا بآيةٍ مِن ربِّه أو لم تأتِهِم بينةُ ما في الصُحُفِ الأولى﴾[4]. فالآيات التي هي دلائل النبوة وبراهينها هي آيات من الله وعلامات منه أنه أرسل الرسول، وكما أن الآيات التي هي كلامه تتضمن إخباره لعباده وأمره لهم، ففيها الإعلام والإلزام، فكذلك دلائل النبوة هي آيات منه تتضمن اخباره لعباده بأن هذا رسوله وأمره لهم بطاعته، ففيها الإعلام والإلزام، وكما أن آياته القولية زعم المكذبون أنها ليست كلامه ولا منه، بل هي من قول البشر، وزعموا أن الرسول افتراها أو من معه أو تعلمها من غيره.

فكذلك الآيات الفعلية، زعم المكذبون أنها ليست آية منه وعلامة ودلالة منه على أن الرسول رسوله، بل مما يفعله الرسول فيكذب، وهذه من فعل المخلوقين لكنها عجيبة فهي سحر سحر بها الناس فلم يكن من المكذبين من قال أنها من الله، ولكن لم يخلقها لنصدقك بها بل خلقها لا لشيء أو خلقها [لشيء][5]، وإن كنت كاذباً فإنه قد يخلق مثل هذه على أيدي الكذابين ليضل بها الناس، فإن هذا وإن كان يقال إنه قبيح فإنه لا يقبح منه شيء، كما أنه لم يكن في المكذبين من قال إن الكلام كلام الله، لكنه كذب إذ الكذب وإن كان قبيحاً من المخلوق، فالخالق لا يقبح منه شيء، وهذا لأنه من المعلوم بالفطرة الضرورية لجميع بني آدم

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٤٣ ـ ٤٨.

(٢) سورة طه: الآيات ٤٧ ـ ٧٢.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) سورة طه: الآية ١٣٣.

(٥) زيدت على النص لإنقطاع العبارة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

أن الله لا يكذب ولا يفعل القبائح فلا يؤيد الكذاب بآيته ليضل بها الناس، لكن قالوا: ليست آية من الله بل هي سحر من عندك، وهم إن كانوا قد يعلمون أن الله خالق كل شيء، ففرق بين ما يفعله البشر ويتوصلون إليه بالإكتساب، وبين ما لا قدرة لهم على التوصل اليه بسبب من الأسباب، وفرق بين ما قد علموا أنه يخلقه لغير تصديق الرسل كالسحر، فإنه لم يزل معروفاً في بني آدم، فقد علموا أنه لا يخلقه آية وعلامة لنبي إذ كان موجوداً لغير الأنبيآء معتاداً منهم، وإن كان عجيباً خارجاً عن العادة عند من لم يعرفه بل كان المكذبون يطالبون الرسل بالآيات كقول فرعون: ﴿إن كنت جئت بها فأت بها أن كنت من الصادقين﴾(١)، وقول قوم صالح له: ﴿إنما أنت من المسحرين، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾(٢).

وكانت الأنبيآء تأتي بالآيات وهي آيات بينات فيكذبون بها كما يكذب المعاند بالحق الظاهر المعلوم كما قال فرعون: إنه ساحر، ولما غُلِب السحرة وآمنوا واعترفوا بأن هذه آية من الله، قال لهم فرعون: إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، وإن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها، وهذا كذب ظاهر، فإن موسى جاء من الشام ولم يجتمع بالسحرة إنما فرعون جمعهم، ولم يكن دين موسى دين السحرة ولا مقصوده مقصودهم، بل هم وهو في غاية التعادي والتباين، وكذلك سائر السحرة والكهنة مع الأنبياء من أعظم الناس ذماً لهم، وأمر بقتلهم مع تصديق الأنبيآء بعضهم ببعض، وإيجاب بعضهم الإيمان ببعض، وهم يأمرون بقتل من يكذب نبياً، ويأمرون بقتل السحرة ومن آمن بهم، والسحرة يذم بعضهم بعضاً، والأنبيآء يصدق بعضهم بعضاً، وهؤلاء يأمرون بعبادة الله وحده والصدق والعدل ويتبرأون من الشرك وأهله وهؤلاء يحبون أهل الشرك ويوالونهم ويبغضون أهل التوحيد والعدل، فهذان جنسان متعاديان كتعادي الملائكة والشياطين، كما قال تعالى: ﴿وكذلِكَ جَعَلْنَا لكُلِّ نَبيٍّ عَدُواً شَياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهُم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً، ولَو شاءَ ربكَ ما فَعلوهُ فَذَرْهُم وما يَفْتَرُون ولتصغي اليه أفئِدةُ الذينَ لا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ ولِيَرْضَوْهُ ولْيَقْتَرِفوا ما هُمْ مُقتَرِفون﴾(٣).

فمن جعل النبي ساحراً أو مجنوناً هو بمنزلة من جعل الساحر أو المجنون نبياً، وهذا من أعظم الفرية والتسوية بين الأضداد المختلفة، وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنوناً، والمجنون عاقلاً، أو يجعل الجاهل عالماً، والعالم جاهلاً.

فإن الفرق بين النبي وبين الساحر والمجنون أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون،

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٢.
(٢) سورة الشعراء: الآية ١٨٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.

والعالم والجاهل، وموسى صلوات الله عليه أمر بتصديق من يأتي بعده من الأنبيآء الصادقين، كما أمر بتكذيب الكذابين.

وأما السحرة فإنه أمر بقتلهم، وفي التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبياً مثلك. اجعل كلامي على فمه، كلكم يسمعون، وهذا يقتضي طاعة من يقوم بعده من الأنبيآء، ثم من الناس من يعين هذا، فاليهود يقولون هو يوشع، والنصارى يقولون هو المسيح، وبعض المسلمين يقولون هو محمد ﷺ يحتجون على ذلك بحجج كثيرة، قد ذكرت في غير هذا الموضع، ومنهم من يقول بل هذا إسم جنس وهو عام في كل نبي يأتي بعده لئلا يكذبوه، كما فعلت اليهود وأنكروا النسخ، وهذا القول أقرب فيدخل في هذا المسيح ومحمد عليهما السلام ومن قبلهما من أنبيآء بني إسرائيل، فإن المقصود إمرهم بتصديق الأنبيآء وطاعتهم، وأن الله سبحانه ينزل على الأنبيآء كلامه، فالذي يقولونه هو كلام الله ما سمعوا منه، وبسط هذا له موضع آخر.

وقد بسط القول في أن الناس يعلمون بالضرورة أن الآيات التي يأتي بها الأنبيآء آيات من الله، وعلامة أعلم بها عباده، أنه أرسلهم وأمرهم بطاعتهم، والذين كذبوا بها كانوا يقولون ليست من الله بل هي سحر أو كهانة أو نحو ذلك، لا يقرون بأنها آية من الله، ويقولون مع ذلك قد يخلقها الله لغير التصديق، أو يخلقها ليضل بها الخلق، أو نحو ذلك، فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها كما قد ذكر سبحانه هذا في مواضع كقوله: ﴿إِنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلْنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولئِكَ يَلعنهُم الله﴾(١). وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فيه القُرآنُ هُدىً للناسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرقَانِ﴾(٢). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لقدْ مَنَّ اللهُ عَلى المُؤمنينَ إذ بعثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِن أنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزكيهم وَيُعلِّمهُم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلَالٍ مُبين﴾(٣).

وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة دعوة إبراهيم وفي قوله تعالى: ﴿كمَا أرسلنَا فيكم رَسولاً مِنكُم يتلوا عَلَيكُم آيَاتِنَا وَيُزَكِيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٥١.

وفي قـوله: ﴿واذكـرُوا نِعْمةَ الله عَلَيْكُمْ ومـا أنزل عليكم مِنَ الكِتَـابِ وَالحِكْمَةِ يَعِـظُكُمْ بِهِ﴾(1). وهنا لم يذكر ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم﴾ لحكمـة تختص بذلـك، وذكر هـذا في آل عمران في قـوله: ﴿لَقَـدْ مَنَّ الله عَلَى المُؤْمنينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِن أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَـاتِهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الكِتَابَ والحكمة﴾.

وقد قال: ﴿وَاذْكُرنَ مَا يُتْلى في بُيُوتِكُنَّ من آيات الله والحكمـة﴾(3). وهذا شبـه الموضـع الثـالث في البقرة. فـأخبر في غيـر موضـع عن الـرسول أنـه يتلو عليهم آياتـه ويـزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فالتلاوة والتزكية عامة لجميـع المؤمنين، فتلاوة الآيات يحصل بها العلم، فإن الآيـات هي العـلامـات والـدلالات فـإذا سمعـوهـا دلتهم على المـطلوب من تصـديق الـرسـول فيما أخبر، والإقرار بوجوب طاعته، وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم بـه من عبادة الله وحده وطاعته، فالتزكية تكون بطاعة أمره، كمـا أن تلاوة آيـاته يحصـل بها العلم، وسميت آيـات القرآن آيات، وقيل إنها آيات الله كقوله: ﴿تلكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحقِّ﴾(4). لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد، فهي تدل على مـا أخبر بـه، وعلى ما أمر به ونهى عنـه، وتدل أيضاً على أن الرسول صادق إذ كانت مما لا يستطيـع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضـع، وأيضاً فهي نفسها فيها من بينات الأدلـة والبراهين ما يبين الحقّ، فهي آيات من وجوه متعددة.

ثم قـال: ﴿وَيعلمهُم الكِتَـابَ وَالحِكمـة﴾(5). وهـذا لمن يعلم ذلـك منهم، وقـد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة، فالكتاب هو الكلام المنـزل الذي يكتب، والحكمـة هي السنـة وهي معرفـة الدين والعمـل به، وقـد قـال تعـالى: ﴿وَمَـا تُغني الآيَـاتُ وَالنُّـذُرُ عَن قَـومٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(6). وقال تعالى: ﴿وَاتخَذُوا آياتِي وَمَآ أُنـذرُوا هُزواً﴾(7). ففـرقَ بين الآيات الـدالة على العلم التي يعلم بـالعقل أنهـا دلائل للرب، وبين النـذر وهو الإخبـار عن المخوف كـإخبـار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب، فهذا يعلم بالخبر والنذر.

ولهذا قال: ﴿ما كنا معذبين حتى نبعثَ رسولاً﴾(8)، وأمـا الآيات فتعلم دلالتهـا بالعقـل، والأنبياء جاؤا بالآيات والنذر، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلنا مِنْ قَبلِكَ إلاَّ رجالاً نُوحي إليهِمْ فَاسْـأَلُوا أهل الذِكرِ إن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. بِـالبَيِّناتِ وَالـزُبُرِ﴾(9). وقـال تعالى: ﴿فـإن كذَّبُـوكَ فَقَدْ كُـذِّبَ

(1) سورة البقرة: الآية ٢٣١.
(2) سورة آل عمران: الآية ١٦٣.
(3) سورة الأحزاب: الآية ٢٤.
(4) سورة البقرة: الآية ٢٥٢.
(5) سورة البقرة: الآية ١٢٩.
(6) سورة يونس: الآية ١٠١.
(7) سورة الكهف: الآية ٥٧.
(8) سورة الأسراء: الآية ١٥.
(9) سورة النحل: الآيتان٤٣- ٤٤.

رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَآؤا بالبيِّناتِ والزُبُرِ وَالكِتَابِ المُنيرِ﴾[1]. ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الأنبيآء جآءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل، ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جآء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع، تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده، وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع، أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل؟ أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة.

فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به، وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي، وهذا هو الذي حكاه أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم، وكذلك من شابههم مثل ابن درباس، وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي، وهو المشهور عن أهل الحديث والفقه الذين يذمون الكلام، وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة بن الحسين الحنبلي المتكلم، وبين طائفة من أصحاب أحمد، وكذلك بين أبي الفرج إبن الجوزي، وطائفة منهم، أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع، وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع، وقد ذكر الآمدي ثلاثة أقوال في طرق العلم قيل بالعقل فقط، والسمع لا يحصل به كقول الرازي، وقيل بالسمع فقط، وهو الكتاب والسنة، وقيل بكل منهما، ورجح هذا وهو الصحيح.

والقول الثاني أنها لا تجب إلا بالشرع لكن يحصل بالعقل وهو قول الأشعري وأصحابه، ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل وغيرهم.

والقول الثالث: أنها تحصل بالعقل، وتجب به وهو قول من يوجب بالعقل كالمعتزلة والكرامية وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الآمدي وأبي الخطاب وغيرهم وهو قول طائفة من المالكية والشافعية، وعليه أكثر الحنفية ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه. وقد صرح هؤلاء قبل المعتزلة وقبل أبي بكر الرازي وأبي الخطاب وغيرهم أن من لم يأته رسول يستحق العقوبة في الآخرة لمخالفته موجب العقل.

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن أعدل الأقوال أن الأفعال مشتملة على أوصاف تقتضي حسنها ووجوبها وتقتضي قبحها وتحريمها، وأن ذلك قد يعلم بالعقل لكن الله لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2]. ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع، وذكرنا أن هذه الآية يحتج بها الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأتباعه، وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب حتى قالوا: يعذب أطفال الآخرة، فاحتجوا بها على المعتزلة، والآية حجة على الطائفتين كما قد بسط في غير هذا الموضع.

***

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٥.

فصل

قدرة الله تعالى

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الحجة على من أنكر قدرته، وعلى من أنكر حكمته، فأول ما أنزل الله تعالى: ﴿اقرأ باسمِ رَبّكَ الذّي خَلَقْ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إقْرَأْ وَرَبكَ الأكْرَمُ الّذي عَلّمَ بالقَلَمِ عَلّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾[1]. فذكر أنه الأكرم، وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الإحسان، ومن كرمه أنه علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه، وأن يكتب ذلك بالقلم، فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق وعبارة المعاني والعلوم، فإذا كان قد علمه هذه العلوم فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به، وبيان ذلك أنه قال في أول السورة: ﴿إقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من دم فقيل له هذه العلقة يصير منها إنسان يعلم كذا وكذا، لكان تعجب من هذا غاية التعجب، وينكره أعظم الإنكار، ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقة إلى أن يصير إنساناً عالماً قادراً كاتباً، أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به، وما أخبر به، فمن قدر على أن ينقله من الصغر إلى أن يجعله عالماً قارئاً كاتباً كان أن يقدر على جعله عالماً بما أمر به وبما أخبر به أولى وأحرى، وهذا كما استدل على قدرته على إعادة الخلق بقدرته على الإبتداء، وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ومن النبوة ومن المعاد، فقال تعالى: ﴿صَ وَالقُرآنِ ذي الذِكْرِ بَلِ الّذينَ كَفَروا في عِزَّةٍ وَشقَاقٍ كَمْ أهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصَ وَعَجِبُوا أنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الألهةَ إلهاً وَاحِداً إنَّ هَذا لَشَيءٌ عُجَابٌ﴾[2]. فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة وقال تعالى: ﴿أَكَانَ للنّاسِ عَجَبَاً أن أوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ منهُم أنْ أنْذِرِ النّاسَ وَبَشِّرِ الّذينَ آمَنُوا أنَّ لَهُم قَدَمَ صِدقٍ عندَ رَبِّهِمْ﴾[3]. وهذا أيضاً تعجب من أن أرسل إليهم رجل منهم وقوله: ﴿أكَانَ لِلْنَاسِ عَجَباً أن أوحينا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذِر النّاسَ﴾ دل على أنه منذر لجنس الناس، وأنه

(١) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٤.

(٢) سورة ص: الآيات ١ ـ ٥.

(٣) سورة يونس: الآية ٢.

من جنس الناس لا يختص به العرب دون غيرهم، وإلاّ كان أول ما أرسل إليهم وبلسانهم.

وقال تعالى: ﴿ق والقرآنِ المجيدِ بَلْ عَجِبُوا أنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرونَ هَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ أإذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجعٌ بَعِيدٌ﴾(1). وقال تعالى: ﴿وَإنْ تَعْجَب فَعجبٌ قولهم أإذا كُنّا تراباً أئِنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ أولَئِكَ الّذينَ كَفَروا بربهم وَأولَئكَ الأغْلاَلُ في أعناقِهِم وَأولَئِكَ أصْحَابُ النّارِ هُمْ فيهَا خَالِدُونَ﴾(2) وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإذا ذُكّروا لاَ يَذْكُرونَ وإذا رأوا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾(3) فالرسول كان يعجب من تكذيبهم لما جاءهم به من آيات الأنبياء، وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجاً عما اعتادوه من النظائر، فإنهم لم يعرفوا قبل مجيئه لا توحيداً ولا نبوة ولا معاداً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلمّ شُهَدَآءكم الّذِينَ يَشْهَدُونَ أنَّ الله حَرَّمَ هَذَا فَإنْ شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتّبِعْ أهْواءَ الّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا والّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة، وَهُمْ بربهم يَعْدِلُونَ﴾(4).

وأما حكمته في إرسال بشر، فقد ذكر أنه من جنسهم وأنه بلسانهم، فهو أتم في الحكمة والرحمة، وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك، وأنه لو نزل ملكاً لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه، ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة الآدميين، كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي، وكما أتى مرة في صورة أعرابي، ولما جاءوا إبراهيم وامرأته حاضرة كانوا في صورة بشر، وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النّاسَ أنْ يُؤْمِنُوا إذ جَآءَهُمُ الهُدَى إلاَّ أنْ قَالُوا أبعثَ الله بَشَراً رَسُولاً قُلْ لَوْ كَان فِي الأرضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾(5). وأما قدرته على تعريف الخلق بأنه نبيه، فكما تقدم فإنه إذا كان قادراً على أن يهدي الإنسان الذي كان علقة ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق أنعاماً عليه، وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحتمه لما فيه. فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه. وهذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه، والتعريف بهذا دون تعريف الإنسان ما عرفه به من أنواع العلوم، فإنه إذا كان هداهم إلى أن يعلم بعضهم صدق رسول من أرسله إليه بشر مثله بعلامات يأتي بها الرسول، وإن كان لم تتقدم مواطأة وموافقة بين المرسل والمرسل إليهم.

فمن هدى عباده إلى أن يرسلوا رسولاً بعلامة ويعلم المرسل إليه أنها علامة تدل على

---

(1) سورة ق: الآيات ١ ـ ٣.

(2) سورة الرعد: الآية ٥.

(3) سورة الصافات: الآيات ١٢ ـ ١٤.

(4) سورة الأنعام: الآية ١٥٠.

(5) سورة الاسراء: الآيتان ٩٤، ٩٥.

صدقه قطعاً، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولاً ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله، وهذا كمن جعل غيره قديراً عليماً حكيماً، فهو أولى أن يكون قديراً عليماً حكيماً، فمن جعل الناس يعلمون صدق رسول يرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله، ثمن هدى العباد إلى هذا فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم مواطأة.

وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول طريق الحكمة، وطريق القدرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سنته وعادته التي بها يعرف أيضاً ما يفعل، وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل وطريق الرحمة وكلها طرق صحيحة، وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجود، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج، كان به أجود فإنه سبحانه الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هذا رسوله، وأن ما جاء به من الآيات آية من الله وهي شهادة من الله له بصدقه، وكيف تقتضي حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب فيؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يؤيد به الصادق حتى لا يعرف هذا من هذا، وأن يرسل رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقاً إلى معرفة صدقه، وهذا كتكليفكم بما لا يقدرون عليه، وما لا يقدرون عليه على أن يعلموه، وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزه عنه سبحانه، فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد علم من سنته وعادته أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما أيد به الصادق قط، بل لا بد أن يفضحه ولا ينصره، بل لا بد أن يهلكه، وإذا نصر ملكاً ظالماً مسلطاً فهو لم يدع النبوة ولا كذب عليه بل هو ظالم سلطه على ظالم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُولِي بَعض الظَّالمِينَ بَعْضاً﴾(١). بخلاف من قال أنه أرسله، فهذا لا يؤده تأييداً مستمراً إلا مع الصدق، لكن قد يمهله مدة، ثم يهلكه كما فعل بمن كذب الرسل ﴿أنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الأصل إنما قيل مضافاً إلى الله فيقال رسول الله، ثم عرف باللام فكانت اللام تعقب الإضافة كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إلى فِرعونَ رَسُولاً فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسولَ﴾(٢). وقوله: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرسولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعضِكم بَعضاً، قَدْ يعلم الله الَّذينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْهُمْ لِواذاً﴾(٣). وكذلك إسم النبي يقال: نبي الله كما قال: ﴿فلِم تَقْتُلُونَ أنبياءَ الله مِنْ قَبْلُ إنْ كُنتُم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.
(٢) سورة المزمل: الآية ١٦.
(٣) سورة النور: الآية ٦٢.

مُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقيل لهم: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُم كَدُعَآءِ بَعضِكُم بَعْضاً﴾[2].

فتقولون: يا محمد، بل قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، ورسول فعول بمعنى فعول أي مرسل، فرسول الله الذي أرسله الله، فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول أي منبأ الله الذي نبأه الله، وهذا أجود من أن يقال أنه بمعنى فاعل أي منبىء، فإنه إذا نبأه الله فهو نبي الله سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه، فالذي صار به النبي نبياً أن ينبئه الله، وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره فإنه إذا كان الذي ينبئه الله كما أن الرسول هو الذي يرسله الله، فما نبأ الله حق وصدق ليس فيه كذب، لا خطأ، ولا عمداً، وما يوحيه الشيطان هو من ايحائه ليس من أنباء الله، فالذي اصطفاه الله لإنبائه وجعله نبياً له كالذي اصطفاه لرسالته وجعله رسولاً له.

فكما أن رسول الله لا يكون رسولاً لغيره فلا يقبل أمر غير الله، فكذلك نبي الله لا يكون نبياً لغير الله، فلا يقبل أنباء أحد إلا أنباء الله وإذا أخبر بما أنبأ الله، وجب الإيمان به فإنه صادق مصدوق، ليس في شيء مما انبأه الله به شيء من وحي الشيطان، وهذا بخلاف غير النبي فإنه، وإن كان قد يلهم ويحدث ويوحى إليه أشياء من الله، ويكون حقاً، فقد يلقي إليه الشيطان أشياء، ويشتبه هذا بهذا، فإنه ليس نبياً لله، كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله، بخلاف الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله قال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذنِ اللهِ﴾[4]. فنبي الله هو الذي ينبئه الله لا غيره، ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون فقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إلينَا وَمَا أُنزِلَ إلى إبرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاط وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ من رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم وَنَحْنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَبِهِ والمُؤْمِنُونَ كل آمن باللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ من رسله﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَلَكن البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالملائِكَةِ وَالكِتَّابِ وَالنَّبِيينَ﴾[7]. وليس كل من أوحي إليه الوحي العام يكون نبياً فإنه قد يوحى إلى غير الناس قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[8]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَى في كُلِ سَماءٍ أمرَهَا﴾[9].

(١) سورة البقرة: الآية ٩١.
(٢) سورة النور: الآية ٦٣.
(٣) سورة النساء: الآية ٧٩.
(٤) سورة النساء: الآية ٦٣.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.
(٧) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٨) سورة النحل: الآية ٦٨.
(٩) سورة السجدة: الآية ١٢.

وقال تعالى عن يوسف وهو صغير: ﴿فَلَمّا ذَهبُوا بِهِ وَأجْمَعُوا أن يَجْعَلُوهُ في غَيَابَةِ الجبِّ وَأوْحَيْنَا إليه لَتُنبئنّهم بأمْرِهِم هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وأوْحَيْنَا إلى أم مُوسَى أنْ أرْضِعيهِ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَإذْ أوحيتُ إلى الحَواريينَ أنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولي﴾(٣). وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِمهُ الله إلاَّ وَحياً﴾(٤). يتناول وحي الأنبيآء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قَدْ كَانَ فِي الأمَمِ قبلكُم مُحَدثونَ فإن يَكُنْ في أمتي أحَدٌ فَعُمر منهُم».

وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه، فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبيآء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب بل من أيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبيآء فهم الذين يفرقون بين وحي الرحمن ووحي الشيطان، فإن الشياطين أعداؤهم، وهم يوحون بخلاف وحي الأنبيآء قال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبي عَدُواً شَيَاطِينَ الإنْسِ وَالجِنِّ يُوحي بَعضهم إلى بَعضٍ زُخْرُفِ القَولِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿وَإنَّ الشَيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أوليآئِهِم لِيُجَادِلُوكُمْ وَإنْ أطَعْتُمُوهُم إنكم لَمُشْرِكُون﴾(٦).

وقد غلط في النبوة طوائف غير الذين كذبوا بها، إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً كالمنافق المحض، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله، وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق، وإن لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه، بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور، وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي، وإبن سينا عظمها أكثر من ذلك. فجعل للنبي ثلاث خصائص:

أحدها: أن ينال العلم بلا تعلم، ويسميها القوة القدسية، وهي القوة الحدسية عنده.

والثاني: أن يتخيل في نفسه ما يعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٥.
(٢) سورة القصص: الآية ٧.
(٣) سورة المائدة: الآية ١١٤.
(٤) سورة الشورى: الآية ٥١.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٢.
(٦) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه، ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور عندهم.

والثالث: أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولى العالم باحداث أمور غريبة، وهي عندهم آيات الأنبيآء وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قوة نفسانية، أو ملكية أو طبعية كالنفس الفلكية والإنسانية والأشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الأربعة، والمولدات لا يقرون بأن فوق الفلك نفسه يفعل، ولا يحدث شيئاً فلا يتكلم ولا يتحرك بوجه من الوجوه لا ملك ولا غير ملك فضلاً عن رب العالم، والعقول التي يثبتونها عندهم ليس فيها تحول من حال إلى حال البتة، لا بإرادة ولا قول ولا عمل، ولا غير ذلك.

وكذلك المبدأ الأول، وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبيآء إنما هو من فيض العقل الفعال، ثم أنهم لما سمعوا كلام الأنبيآء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبيآء فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبيآء، ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبيآء فيظن من لم يعرف مراد الأنبيآء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبيآء، وضل بذلك طوائف، وهذا موجود في كلام إبن سينا، ومن أخذ عنه، وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم تعريفاً بمذهبهم وربما حذر عنه، ووقع في كلامه طائفة من هذا في الكتب المضنون بها على غير أهلها، وفي غير ذلك حتى في كتابه الإحياء يقول الملك والملكوت والجبروت، ومقصوده الجسم والنفس والعقل الذي أثبتته الفلاسفة، ويذكر اللوح المحفوظ ومراده به النفس الفلكية، إلى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع، وهو في التهافت وغيره يكفرهم.

وفي المضمون به يذكر ما هو حقيقة مذهبهم حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه، وكذلك في الإلهيات، وهذه الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الأنبيآء توجد لعموم الناس، بل توجد لكثير من الكفار من المشركين وأهل الكتاب، فإنه قد يكون لأحدهم من العلم والعبادة ما يتميز به على غيره من الكفار ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون أفضل من غيره، وأما التخييل في نفسه فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون، لكن هو يقول أن خاصة النبي أن يحصل به في اليقظة ما حصل لغيره في المنام، وهذا موجود لكثير من الناس قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام، ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور، وللساحر.

ولكن قالوا: الساحر قصده فاسد، والمرور ناقص العقل، فجعلوا ما يحصل للأنبيآء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة، وهذا قول الكفار في الأنبيآء كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1]. وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة، والخطاب هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون، لكن الفرق بينه وبين الساحر أنه يأمر بالخير وذاك يأمر بالشر والمجنون ما له عقل، وهذا القدر الذي فرقوا به موجود في عامة الناس فلم يكن عندهم للأنبيآء مزية على السحرة والمجانين إلا ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين، وكذلك ما أثبتوه من القوة الفعالة المتصرفة هي عندهم تحصل للساحر وغيره، وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم فأحالوا ذلك على قوة نفس الإنسان، فما يأتي به الأنبياء من الآيات والسحرة والكهان وما يخبر به المصروع والممرور، هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان، فالخبر بالغيب هو لاتصالها بالنفس الفلكية، ويسمونها اللوح المحفوظ، والتصرف هو بالقوة النفسانية، وهذا حذق إبن سينا وتصرفه لما أخبر بأمور في العالم غريبة لم يمكنه التكذيب بها فأراد إخراجها على أصولهم وصرح بذلك في إشارته، وقال: هذه الأمور لم نثبتها ابتداء بل لما تحققنا أن في العالم أموراً من هذا الجنس أردنا أن نبين أسبابها.

وأما أرسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة، ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الأنبيآء، ولكن كان السحر موجوداً فيهم، وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية والإلهية، فإن حدوث هذه الغرائب من الجن واقترانهم بالسحرة والكهان مما قد عرفه عامة الأمم وذكروه في كتبهم غير العرب، مثل الهند والترك وغيرهم من المشركين وعباد الأصنام وأصحاب الطلاسم والعزائم، وعرفوا أن كثيراً من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين، وهؤلاء الجهال لم يعرفوا ذلك، ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة، وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبياً، وكذلك ابن سبعين وغيره. والنبوة الحق هي أنباء الله لعبده، ونبي الله من كان الله هو الذي ينبئه، ووحيه من الله، وهؤلاء وحيهم من الشياطين، فهم من جنس المتنبئين الكذابين كمسيلمة الكذاب وأمثاله، بل أولئك أحذق منهم فإنهم كانت تأتيهم أرواح فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة، وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم، وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا، ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا، وكذلك صرعهم للإنس وتكلمهم على ألسنتهم، والفرق بين النبي والساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

والنبي يأتيه ملك كريم من عند الله ينبئه الله، والساحر والكاهن إنما معه شيطان ويخبره قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكم عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَيَاطِينُ تنزلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾(١). فلا الخبر كالخبر، ولا الأمر كالأمر، ولا مخبر هذا كمخبر هذا، ولا آمر كآمر هذا، كما أنه ليس هذا مثل هذا، ولهذا قال تعالى لما ذكر الذي جاء بالقرآن إلى محمد وأنه ملك منفصل ليس خيالاً في نفسه كما يقوله هؤلاء قال تعالى: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذي العَرْشِ مَكِين مُطَاع ثَمَّ أمين وَمَا صاحِبُكُم بمَجْنُونٍ ولَقَدْ رآهُ بالأفقِ المُبين وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأينَ تَذْهَبُونَ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ للعَالمين لمن شَآءَ مِنكُم أن يَسْتَقِيم وَمَا تَشَآءُونَ إلاَّ أنْ يَشَآءَ الله رَبُّ العَالمينَ﴾(٢). فالقرآن قول رسول أرسله الله لم يرسله الشيطان، وهو ملك كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين، فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى، والشياطين لا يطاعون في السموات بل ولا يصعدون إليها، وإبليس من حين أهبط منها لم يصعد إليها.

ولهذا كان أصح القولين أن جنة آدم جنة التكليف لم تكن في السماء، فإن إبليس دخل إلى جنة التكليف جنة آدم بعد إهباطه من السماء، وقول الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإنَّكَ رَجِيمٌ وأنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إلى يَوْمِ الدِينِ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُوماً مَدْحوراً﴾(٤) لكن كانت في مكان عال في الأرض من ناحية المشرق، ثم لما أكل من الشجرة أهبط منها إلى الأرض كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع، ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن يُراد به بستان في الأرض كقوله: ﴿إنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾(٥). وقوله: ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنَ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتين منْ أعنَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتتْ أُكُلَها وَلَمْ تظلم مِنه شَيئاً﴾ إلى قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿ومثلُ الذينَ يُنفقونَ أموالهمُ ابتغاءَ مَرضَات الله وَتَثْبِيتاً من أنفسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بربْوَةٍ﴾. الآية إلى قوله: ﴿أيَوَدُّ أحدُكُم أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَأعنَابٍ﴾(٧). الآية، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبأ في مَسَاكِنِهِمْ آية جَنَّتَانِ عَنْ يمينٍ وَشِمالٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَبدَّلْنَاهم

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٣.
(٢) سورة التكوير: الآيات ١٩ ـ ٢٩.
(٣) سورة ص: الآية ٧٨.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧.
(٥) سورة القلم: الآية ١٧.
(٦) سورة الكهف: الآيتان ٣٢، ٣٣.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٦٦.

بجنتيهم جَنَّتَينِ ذَواتي أُكُـلٍ خُمطٍ وَأَثْلٍ وشَيءٍ مِنْ سِـدْرٍ قَليلٍ﴾[1]. وقـوله: ﴿وكَمْ تَـرَكـوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[2] الآية. وقوله ﴿أتتركون فيما هَـٰهُنا آمنينَ في جَنَّاتٍ وَعُيونٍ﴾[3]. وجنة الجزاء والثواب التي في السماء لم يدخلها الشيطان بعد أن أهبط من السماء، وهو أهبط من السمـاء لما امتنع من السجود لآدم، قبل أن يدخل آدم إلى جنة التكليف التي وسوس له وأخرجه منها.

وجنة الجزاء مخلوقـة أيضاً، وقـد أنكر بعض أهـل البدع أن تكـون مخلوقة وقـال: إن آدم لم يدخلها لكونها لـم تخلق بعد، فأنكر ذلك عليه من أنكره من علماء السنة، وقد ذكر أبو العالية وغيره من السلف أن الشجرة التي نهى عنهـا آدم كان لهـا غائط، فلمـا أكل أحتـاج إلى الغائط، وجنة الجزاء ليس فيها هذا، لكن الله أعلم بصحة هذا النقـل، وإنما المقصـود أن بعض السلف كان يقول أنها في السماء، وبعضهم يقول أنها في مكان عال من الأرض، ولفظ الجنة في القرآن قد ذكر فيما شاء الله من المواضع وأريـد به جنـة في الأرض، وجنة الجـزاء مخصوصـة بمماتهم كقـولـه: ﴿قِيـلَ ادخُـلِ الجَنَّـةَ قَـالَ يَـا لَيْتَ قَـومي يَعْلَمُـونَ بمَـا غَفَـرَ لي ربي وَجَعَلَني مِنَ المُكْـرَمِينَ﴾[4]. فإن أرواح المؤمنين تـدخل الجنـة من حين الموت كمـا في هذه الآيـة: ﴿قيلَ أدْخُـلِ الجَنَّةَ قَـالَ يَا لَيْتَ قَـومي يَعْلَمـونَ بمَـا غَفَـرَ لي رَبيِّ وَجَعَلَني مِنَ المُكـرَمين﴾[5]. قـال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَـاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إنْ كَـانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإذا هُمْ خَامِدُونَ﴾[6]. وقـال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الـذينَ قُتِلُوا في سبيلِ الله أَمْـوَاتاً بَـلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[7]. وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت: ﴿فأمّآ إنْ كَانَ مِنَ المُقرَّبينَ فروحٌ وَرَيْحَـانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمّـآ إنْ كَانَ مِنْ أصْحَـابِ اليَمينَ فَسَلامٌ لَـك مِنْ أصْحَابِ اليَمينِ وأمّا إنْ كَان مِن المكَـذبين الضَّالين فَنُـزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[8]. وهـذا غير مـا ذكره في أول السورة من انقسامهم يوم القيامة الكبرى إلى سابقين وأصحاب يمين ومكذبين، فإنه سبحـانه ذكـر في أول السورة انقسـامهم في القيامـة الكبرى، وذكـر في آخـرهـا انقسـامهم عنـد الموت، وهو القيامة الصغرى، كما قال المغيرة بن شعبـة، من مات فقـد قامت قيـامته، وكـذلك قال علقمة وسعيد بن جبير عن ميت، أما هذا فقد قامت قيامته، أي صار إلى الجنة أو النار، وإن كان بعد هذا تعاد الروح إلى البدن ويقعد بقبره.

ومقصودهم أن الشخص لا يستبطىء الثواب والعقاب، فهو إذا مات يكون في الجنة أو في

(١) سورة سبأ: الآيات ٨ ـ ١٦.
(٢) سورة الدخان: الآية ٢٥.
(٣) سورة الشعراء: الآية ١٤٦.
(٤) سورة يّس : الآية ٢٦.
(٥) سورة يّس: الآية ٢٦.
(٦) سورة يّس : الآيتان ٢٨، ٢٩.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.
(٨) سورة الواقعة: الآية ٩١.

النار، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿مما خَطَايَاهُم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً﴾[1]. وقال عن آل فرعون: ﴿النَّار يُعْرَضُون عَلَيْهَا غدواً وَعَشِياً ويوم تَقُومُ السَّاعَةَ أَدْخِلُوا آل فِرْعَون أَشَدَّ العَذَابِ﴾[2]. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا الكلام على النبوة، فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم، وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم، فإنهم اعتقدوا مذهبهم وتصوفوا عليه، ولهذا يقول ابن عربي: إن الأولياء أفضل من الأنبيآء، وإن الأنبيآء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبيآء علم التوحيد، وأنه هو يأخذ من المعدن يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، فإن الملك عنده هو الخيال الذي في النفس، وهو جبريل عندهم، وذلك الخيال تابع للعقل، فالنبي عندهم يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت نفسه.

ولهذا يقولون: إن موسى كلم من سماء عقله، والصوت الذي سمعه كان في نفسه لا في الخارج، ويدعي أحدهم أنه أفضل من موسى، وكما ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد، فإنه يأخذ عن العقل الذي يأخذ منه الخيال، والخيال عنده هو الملك الذي يأخذ منه النبي فلهذا قال: فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى النبي، قال: فإن عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع، وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أخر.

والمقصود هنا: الكلام على النبوة فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبىء بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍ إلاَّ إذا تَمَنَّى ألقى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَتِهِ﴾[3]. وقوله: ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍ﴾. فذكر ارسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح، وقد أثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبيآء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، فأولئك الأنبيآء يأتيهم

(١) سورة نوح: الآية ٢٥.

(٢) سورة المؤمن: الآية ٤٦.

(٣) سورة الحج: الآية ٥٢.

وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم كونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول، وكذلك أنبيآء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قصة معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن، كما فهم الله سليمان الحكيم القضية التي حكم فيها هو وداود، فالأنبيآء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى الكفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسل قوم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[1]. وقال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[2]. فإن الرسل ترسل إلى مخالفين، فيكذبهم بعضهم وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[3].

وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[4]. فقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾. دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم، ولهذا قال النبي ﷺ: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَآءِ»، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الرَّسُولِ أَنْ يأتي بِشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ، فَإِنَّ يُوسُفَ كَانَ رَسُولاً وكَانَ على مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَدَاودَ وسليمان كَانَا رسولين وكانا على شريعة التوراة، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾[5]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى إِبراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[6].

والإرسال إسم عام يتناول إرسال الملائكة، وإرسال الرياح، وإرسال الشياطين، وإرسال النار، قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَآئِكَةِ

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٢.
(٢) سورة السجدة: الآية ٤٣.
(٣) سورة يوسف: الآيتان ١٠٩، ١١٠.
(٤) سورة المؤمن: الآية ٥١.
(٥) سورة المؤمن: الآية ٣٤.
(٦) سورة النساء: الآية ١٦٢.
(٧) سورة الرحمن: الآية ٣٥.

﴿رُسُلاً أولي أَجْنِحَة﴾[1]. فهنا جعل الملائكة كلهم رسلاً، والملك في اللغة هو حامل الالوكة وهي الرسالة وقد قال في موضع آخر: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[2].
فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أو مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيوحِيَ بِإذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِيَاحَ بشراً بَيْنَ يَدي رَحْمَتِهِ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزهُم أزاً﴾[5]. لكن الرسول المضاف إلى الله إذا قيل رسول الله، فهُم من يأتي برسالة من الله من الملائكة والبشر، كما قال: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّا﴾[6]. وقالت الملائكة: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوآ إليكَ﴾[7].

وأما عموم الملائكة والرياح والجن، فإن إرسالها لتفعل فعلاً لا لتبلغ رسالة قال تعالى: ﴿اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَروهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[8]. فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هي رسل الله عند الإطلاق، وأما من أرسله الله ليفعل فعلاً بمشيئة الله وقدرته، فهذا عام يتناول كل الخلق، كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته وإذنه المتضمن لمشيئته لكن أهل الإيمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه ويعبدونه وحده ويطيعون رسله والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لأمره متبعون لما يسخطه، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته وهذا كلفظ البعث يتناول البعث الخاص البعث الشرعي كما قال: ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾. ويتناول البعث العام الكوني كقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أولي بَأسٍ شَديدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾[9]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾[7]. فالعام بحكم مشيئته وقدرته، والخاص هو أيضاً بحكم مشيئته وقدرته، وهو مع ذلك بحكم أمره ورضاه ومحبته، وصاحب الخاص من أولياء الله يكرمه ويثبته، وأما من خالف أمره فإنه يستحق العقوبة، ولو كان فاعلاً بحكم المشيئة فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً، ولا يحتج بالمشيئة على المعاصي إلا من تكون حجته داحضة، ويكون متناقضاً متبعاً لهواه، ليس عنده علم بما هو عليه كالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَآؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيءٍ﴾[10] كما قد بسط في غير هذا الموضع. والله أعلم.

***

(١) سورة فاطر: الآية ١.
(٢) سورة الحج: الآية ٧٥.
(٣) سورة الشورى: الآية ٥١.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٦.
(٥) سورة مريم: الآية ٨٤.
(٦) سورة الحج: الآية ٧٥.
(٧) سورة هود: الآية ٨١.
(٨) سورة الأحزاب: الآية ٩.
(٩) سورة الأعراف: الآية ١٦٧.
(١٠) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

فصل

وجوده تعالى ليس بحاجة إلى دليل

الدليل الذي هو الآية والبرهان يجب طرده كما تقدم، فإنه لو كان تارة يتحقق مع وجود المدلول عليه، وتارة يتحقق مع عدمه، فإذا تحقق لم يعلم هل وجد المدلول أم لا، فإنه كما يوجد مع وجوده، يوجد مع عدمه، ولهذا كان الدليل إما مساوياً للمدلول عليه، وإما أخص منه لا يكون أعم من المدلول، ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص، كطلوع الشمس والقمر والكواكب لا يدل على صدق أحد ولا كذبه، لا مدعي النبوة ولا غيره، فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق.

لكن يدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب وقدرته ومشيئته وحكمته، فإن وجود ذاته وصفاته ثابت، سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن، فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه، ولا يلزم من عدمه عدم خالقه، فلهذا كانت المخلوقات كلها آيات للرب، فما من مخلوق إلا وهو آية له، هو دليل وبرهان، وعلامة على ذاته وصفاته ووحدانيته، وإذا عدم كان غيره من المخلوقات يدل على ما دل عليه، ويجتمع على المعلوم الواحد من الأدلة ما لا يحصيه ألا الله، وقد يكون الشيء مستلزماً لدليل معين، فإذا عدم عرف انتفاؤه، وهذا مما يكون لازماً ملزوماً، فتكون الملازمة من الطرفين فيكون كل منهما دليلاً، وإذا قدر انتفاؤه كان دليلاً على انتفاء الآخر كالأدلة على الأحكام الشرعية، فما من حكم إلا جعل الله عليه دليلاً، وإذا قدر انتفاء جميع الأدلة الشرعية على حكم علم أنه ليس حكماً شرعياً، وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، فإنه إذا نقل دل التواتر على وجوده، وإذا لم ينقل مع توفر الهمم والدواعي على نقله لو كان موجوداً علم أنه لم يوجد كالأمور الظاهرة التي يشترك فيها الناس، مثل موت ملك، وتبدل ملك وتبدل ملك بملك، وبناء مدينة ظاهرة، وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد، فمثل هذه الأمور لا بد أن ينقلها الناس إذا وقعت، فإذا لم تنقل نقلاً عاماً بل نقلها واحد علم أنه قد كذب، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

وقد بسط في غير هذا الموضع الفرق بين الآية التي هي علامة تدل على نفس المعلوم،

وبين القياس الشمولي الذي لا يدل إلا على قدر كلي مشترك لا يدل على شيء معين إذ كان لا بد فيه من قضية كلية وإن ذلك القياس لا يفيد العلم بأعيان الأمور الموجودة، ولا يفيد معرفة شيء لا الخالق ولا نبي من أنبيائه، ولا نحو ذلك، بل إذا قيل: كل محدث فلا بد من محدث، دل على محدث مطلق لا يدل على عينه، بخلاف آيات الله، فإنها تدل على عينه، وبينا أن القرآن ذكر الإستدلال بآيات الله، وقد يستدل بالقياس الشمولي والتمثيلي، لكن دلالة الآيات أكمل وأتم، وتبين غلط من عظم دلالة القياس الشمولي المنطقي، وأنهم من أبعد الناس عن العلم والبيان، وذكرنا أيضاً غلط من فضل الشمولي عن التمثيلي، وأنها من جنس واحد، والتمثيلي أنفع، وإنما الآيات تكون أحسن.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي ماذكره أبو بكر بن الأنباري وغيره في آيات القرآن مثل قوله: ﴿قدْ كانتْ آياتي تتلى عليكمْ فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين﴾[1] ثلاثة أقوال: قال في معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها أنها العلامة، فمعنى آية علامة لإنقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها، قال الشاعر:

ألَا أبْلغ لَدَيْكَ بَني تَميم   بآيَةِ مَا يُحبونَ الطَعَامَا

وقال النابغة:

تَوَهَمْتُ آياتٍ لهَا فعرفْتهَا   لستَةِ أعوامٍ وذا العام سابع

قال: وهذا اختيار أبي عبيد، قلت: أما أن الآية هي العلامة في اللغة، فهذا صحيح وما استشهد به من الشعر يشهد لذلك، وأما تسمية الآية من القرآن آية لأنها علامة صحيح، لكن قول القائل أنها علامة لإنقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها ليس بطائل، فإن هذا المعنى الحد والفصل، فالآية مفصولة عما قبلها وعما بعدها، وليس معنى كونها آية هو هذا، وكيف وآخر الآيات آية مثل آخر سورة الناس، وكذلك آخر آية من السورة، وليس بعدها هي وأول الآيات آية، وليس قبلها شيء مثل أول آية من القرآن، ومن السورة، وإذا قرئت الآية وحدها كانت آية، وليس معها غيرها.

وقد قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح: ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَهُمْ عِبَادَكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكيمُ﴾[2] فَهيَ آيةٌ في نَفْسِهَا لا لِكَوْنِهَا مُنْقَطِعَةٌ مِمَّا قَبْلَهَا وما بعدها، وأيضاً فكونه علامة على هذا الإنقطاع قدر مشترك بين جميع الأشياء التي يميز بعضها عن بعض، ولا تسمى

(١) سورة المؤمنين: الآية ٦٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٢١.

آيات، والسورة متميزة عما قبلها وما بعدها، وهي آيات كثيرة، وأيضاً فالكلام الذي قبلها منقطع وما قبلها آية، فليست دلالة الثانية على الإنقطاع بأولى من دلالة الأولى عليه، وأيضاً فكيف يكون كونها آية علامة للتمييز بينها وبين غيرها، والله سماها آياته فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقِ﴾[1]. والصواب أنها آية من آيات الله، أي علامة من علاماته، ودلالة من أدلة الله، وبيان من بيانه، فإن كل آية قد بين فيها من أمره وخبره ما هي دليل عليه وعلامة عليه، فهي آية من آياته، وهي أيضاً دالة على كلام الله المباين لكلام المخلوقين، فهي دلالة على الله سبحانه، وعلى ما أرسل بها رسوله، ولما كانت كل آية مفصولة بمقاطع الآي التي يختم بها كل آية صارت كل جملة مفصولة بمقاطع الآي آية.

ولهذا كان النبي ﷺ يقف على رؤوس الآي كما نعتت قراءته: الحمد لله رب العالمين، وتقف، والرحمن الرحيم، وتقف، مالك يوم الدين، وتقف، ويسمى أصحاب الوقف، وقف السنة، لأن كل آية لها فصل ومقطع تتميز عن الأخرى.

قال: والوجه الثاني أنها سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن طائفة منه، قال أبو عمر الشيباني: يقال خرج القوم بآيتهم: أي بجماعتهم، وأنشدوا:

خَرجْنَا مِن النقبين لاَ حَي مَثْلَنَا ... بآيَاتِنَا ترجَى اللقاح المطافلا

قلت: هذا فيه نظر، فإن قولهم خرج القوم بآياتهم، قد يراد به بالعلامة التي تجمعهم مثل الراية واللواء، فإن العادة أن كل قوم لهم أمير تكون له آية يعرفون بها، فإذا أخرج الأمير آيتهم اجتمعوا إليه، ولهذا سمي ذلك علماً، والعلم هي العلامة والآية، ويسمى راية لأنه يرى، فخروجهم بآيتهم أي بالعلم والآية التي تجمعهم فيستدل به على خروجهم جميعهم، فإن الأمير المطاع إذا خرج لم يتخلف أحد بخلاف ما إذا خرج بعض امرائه، وإلا فلفظ الآية هي العلامة، وهذا معلوم بالإضطرار من اللغة والإشتراك في اللفظ لا يثبت بأمر محتمل.

قال: والثالث أنها سميت آية لأنها عجب، وذلك أن قارئها يستدل إذا قرأها على مباينتها لكلام المخلوقين، وهذا كما يقول: فلان آية من الآيات أي عجب من العجائب، ذكره ابن الأنباري.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٢.

قلت: هذا القول هو داخل في معنى كونها آية من آيات الله، فإن آيات الله كلها عجيبة، فإنها خارجة عن قدرة البشر، وعما قد يشبه بها من مقدور البشر، والقرآن كله عجب، تعجبت به الجن كما حكى عنهم تعالى أنهم قالوا: ﴿إنّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً، يَهدي إلى الرُشْدَ فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أحَداً﴾[1]. فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام، وهو كما في الحديث لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق[2] عن كثرة الرد، وكل آية لله خرجت عن المعتاد فهو عجب كما قال تعالى: ﴿أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهفَ وَالرقِيم كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[3]. فالآيات العلامات والدلالة ومنها مألوف معتاد، ومنها خارج عن المألوف المعاد، وآيات القرآن من هذا الباب، فالقرآن عجب لا لأن مسمى الآية هو مسمى العجب، بل مسمى الآية أعم، ولهذا قال: ﴿كانوا من آياتنا عجباً﴾، ولكن لفظ الآية قد يخص في العرف بما يحدثه الله، وأنها غير المعتاد دائماً، كما قال النبي ﷺ: «أنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيتَانِ مِنْ آياتِ الله، وأنهما لا تخسَفَانِ لموتِ أَحَد وَلاَ لحيَاتِهِ، وَلَكِنهُمَا آيتَانِ مِنْ آيات الله يُخَوِّفُ بهِمَا عِبَادَهُ».

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أنْ نُرْسِلُ بالآيات إلا أنْ كَذَّبَ بهَا الأولونَ، وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بهَا وَمَا نرسلُ بالآيَاتِ إلاَّ تَخْوِيفاً﴾[4].

وفي الحديث الصحيح: لما دخلت اسماء على عائشة وهي في الصلاة فسألتها فقالت: سبحان الله، فقالت: آية؟ فأشارت أي نعم، وتسمى صلاة الكسوف صلاة الآيات، وهي مشروعة في أحد القولين في مذهب أحمد في جميع الآيات التي يحصل بها التخويف، كانتثار الكواكب والظلمة الشديدة، وتصلى للزلزلة، نص عليه كما جاء الأثر بذلك، فهذه الآيات أخص من مطلق الآيات، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوا عَنهَا مُعْرِضين﴾[5]. وقال ﷺ: «ثَلاَثُ آياتٍ يَتَعَلَّمهُنَّ خَيرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلَفَاتٍ سمانٍ».

***

(١) سورة الجن: الآية ١.

(٢) أي لا يبلى.

(٣) سورة الكهف: الآية ٩.

(٤) سورة الاسراء: الآية ٥٩.

(٥) سورة الانعام: الآية ٤.

فصل
الآية ومدلولاتها

والدليل الذي هو الآية والعلامة ينقسم إلى ما يدل بنفسه، وإلى ما يدل بدلالة الدال به، فيكون الدليل في الحقيقة هو الدال به الذي قصد أن يدل به، وقد جعل ذلك علامة وآية ودليلاً، والذي يدل بنفسه يعلم أنه يدل بنفسه، وإن لم يعلم أن أحداً جعله دليلاً، وإن كان في نفس الأمر كل مخلوق قد جعله الله آية ودلالة، وهو سبحانه عليم مريد، فلا يمكن أن يقال: لم يرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له، ولا أنها ليست دليلاً يجعلها أدلة كما قد يطلقه طائفة من النظار، ولكن يستدل بها مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة كما قد يطلقه إذا كان فيها مقاصد كثيرة غير الدلالة، والذي جعلها دليلاً وهو الله، جعل ذاتها يستدل بها مع قطع النظر عن كونها هي دليلاً، فما من مخلوق إلا ويمكن الإستدلال به على الخالق، والمحدث نفسه يعلم بصريح العقل أن له محدثاً.

وهذا الأدلة التي تدل بنفسها قد تسمى: الأدلة العقلية، ويسمى النوع الآخر: الأدلة الوضعية، لكونها إنما دلت بوضع واضع، والتحقيق: أن كلاهما عقلي إذا نظر فيه العقل علم مدلوله، لكن هذه تدل بنفسها، وتلك تدل بقصد الدال بها، فيعلم بها قصده، وقصده هو الدال بها كالكلام، فإنه يدل بقصد المتكلم به وإرادته وهو يدل على مراده، وهو يدلنا بالكلام على ما أراد، ثم يستدل بإرادته على لوازمها، فإن اللازم أبداً مدلول عليه بملزومه.

والآيات التي تدل بنفسها مجردة نوعان: منها ما هو ملزوم مدلول عليه بذاته لا يمكن وجود ذاته دون وجود لازمه المدلول عليه، مثل دلالة المخلوقات على الخالق، ومنها ما هو مستلزم له مدة طويلة أو قصيرة فتدل عليه تلك المدة مثل نجوم السموات، فإنه يستدل بها على الجهات والأمكنة وعلى غيرها من النجوم وعلى الزمان ماضيه وغابره ما دام العالم على هذه الصورة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

(١) سورة النحل: الآية ١٦.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٧.

ثم قال: ﴿وَهُوَ الذي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌ ومستودعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(١). ثم قال: ﴿وَهُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نباتَ كُلِّ شَيءٍ فأخرَجنا مِنْهُ خُضْراً﴾. إلى قوله:

﴿إنَّ في ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢). وقوله: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تميدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣). وعلامات هي علامات ألقاها في الأرض، وهذا قول الأكثرين. قالت طائفة: هي معالم الطرق يستدل بها بالنهار، ويستدل بالنجم بالليل، وقالت طائفة: هي الجبال، وهي أيضاً مما يستدل به، ولهذا سماها الله أعلاماً في قوله: ﴿وَمِن آيَاتِهِ الجَوَارِي في البَحْرِ كَالأَعْلَامِ فَبأيِ آلآءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٤) أي كالجبال، والأعلام جمع علم، والعلم ما يعلم به كالعلامة، ومنه أعلام الطرق المنصوبة، ومنه يقال لدلائل النبوة: أعلام النبوة.

ويقال للراية المرفوعة أنها علم، وأنها جعلت علامة لصاحبها وأتباعه، والعالم بالفتح مثل الخاتم ما يعلم به، كما أن الخاتم ما يختم به، وهو بمعنى العالم ويسمى كل صنف من المخلوقات عالماً لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى بخلاف العالم بالكسر، فإنه الذي يعلم كالخاتم بالكسر فإنه الذي يختم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَبِيينَ﴾(٥) لأنه ختم كما يسمى الماحي والحاشر والعاقب.

وقد قريء: وخاتم، أي ختموا به. فالجبال أعلام، وهي علامات لمن في البر والبحر يستدل بها على ما يقاربها من الأمكنة، فإنه يلزم من وجودها وجوده، وهي لا تزال دالة ما دامت موجودة، ومدلولها موجوداً، وهي أثبت من غيرها، فقد يكون عندها قرية وسكان، فيكون علماً عليهم، ثم قد تخرب القرية ويذهب السكان فتزول الدلالة لزوال الملزوم، وهذا كله مما يبين أن الدليل قد يكون معيناً بل الآيات كلها معينة، وأن يكون مطابقاً ملازماً لمدلوله ليس أحدهما أعم من الآخر، كالثريا مع الدبران، وكالجدي مع بنات نعش ونحو ذلك، فتبين غلط من ذكر أنه يحصر الأدلة فيقال: إما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العام أو بأحد الخاصين على الآخر، والأول هو القياس الشمولي، والثاني هو الإستقراء، والثالث هو التمثيل، وقد بينا ما في هذا الكلام من الغلط في حصره، وفي حكم أقسامه، فإن هؤلاء المقسمون للأمور العامة كثيراً ما يغلطون في هذا وهذا إذ كان المقسم يجب أن يستوفي جميع الأقسام،

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٩.
(٣) سورة النحل: الآية ١٥.
(٤) سورة الشورى: الآية ٣٢.
(٥) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

ولا يدخل فيها ما ليس منهـا كالحـاد، وهم يغلطون فيها كثيـراً لعدم إحـاطتهم بأقسـام المقسوم، كما يقسمون أقسام الموجودات أو أقسام مـدارك العلم أو أقسام العلوم أو غيـر ذلك، وليس معهم دليل على الحصر إلا عدم العلم، وحصر الأقسام في المقسوم هو من الإستقراء، ثم إذا حكمـوا على تلك الأقسام بأحكام فقد يغلطون أيضاً، كما قد ذكر هـذا في غير هـذا الموضـع مثـل غلط من حصر الأدلة في هذه الأنواع من أهل المنطق ومن تبعهم.

وقد بسط هذا في مواضـع، وذلك مثل قولهم: الدليل أما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العـام، أو بأحـد الخاصين على الآخـر، فإن الـدليل أولاً لا يكـون قط أعم من المدلول عليه، إما مساوياً له، وإما أخص منه، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليـه، والملزوم حيث تحقق اللازم، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، فحيث تحقق الدليل تحقق المدلول عليـه، فإذا كان مساوياً له أو أخص كان حيث تحقق المدلول، كما أنه حيث تحقق ما هو ناطق النـطق الذي يختص الإنسـان تحقق الإنسان، وتحقق أيضـاً ما هـو أعم من الإنسان وهـو ثبوت حيـوان وجسم حساس نام متحرك بالإرادة، بمعنى أنه تحقق مطلق هذا الجنس، وإلا فلم يوجـد شيء أعم من الإنسان بمجرد وجوده، لكن وجد من صفاته ما يشبه بـه غيره ويصـح إطـلاقه عليـه وعلى غيره، وهـو مسمى الجسم والحيوان ونحـو ذلـك، وكـذلـك إذا وجـد آيـة أو خبـر يـدل على الإيجـاب أو التحريم لزم ثبوت الإيجاب أو التحريم، وقد ثبت الإيجاب والتحريم بآية أخرى أو خبر آخـر، فلهذا قيل يجب طرده ولا يجب عكسه وإذ كان الدليل لا يكون أعم من المدلول عليـه: فقولهم: أما أن يستدل بالعام على الخـاص إنما أرادوا بـه القياس الشمـولي الذي هـو مقدمتـان: صغرى وكبرى، كقولنا: النبيذ المتنازع فيه مسكر، وكل مسكـر حرام أو كـل مسكر خمـر، كما ثبت في صحيـح مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ مُسْكِـرٍ خَمْرٌ وَكُـلُّ مُسِكِرٍ حَـرَامٌ» بين أن لمسكر موصوف بأنه خمر، وبأنه حـرام، ولم يقصد القيـاس الشمولي، وهـو أن يستدل على أن المسكر حرام فالرسول أجل من هذا شرعاً وعقلاً ﷺ فإنه بكلامه يثبت الأحكام، وغيره إذا قـال: كل مسكر خمر أو حرام احتاج أن يستدل عليه، وأما هو فيستدل بنفس كـلامه، والنـظم الشمولي المنطقي لا يوجد في كلام فصيـح، بل هو طويل لا يحتاج إليه كما قد بسط في مـواضـع، وبين أن الدليل قد يكون مقـدمة واحـدة وقد يكـون مقدمتين، وقـد يكون ثـلاث مقدمـات وأربع أكثـر بحسب ما يحتاج إليه المستدل الطالب لدلالة نفسه أو الـطالب ليدل غيـره، فإنـه قد لايحتـاج إلا إلى مقدمة واحدة مثل من عـرف أن الخمر حـرام، لكن لم يعرف أن كـل مسكر هـو خمر، فـإذا عـرف بالنص أن كـل مسكر خمـر عرف أن كـل مسكر حـرام، وكان علمـه موقـوفاً على مقـدمـة واحدة، بخلاف من لم يكن عرف بعد أن الخمر حرام فيحتاج إلى مقدمة ثانية، ثم إن كان عرف

أن محمداً رسول الله بنصوصه المتواترة، كفاه ذلك، وإن كان لم يقر بنبوته إحتاج إلى مقدمة ثالثة وهو الإيمان بأنه رسول الله لا يقول على الله إلا الحق، ويذكر له من دلائل النبوة واعلامها ما يعرف به ذلك، فيهتدي إن كان طالب علم، وتقوم عليه الحجة إن لم يكن، كذلك فقول هؤلاء في مثل هذا أنا استدللنا بالعام على الخاص ليس عظيم، فإن المدلول عليه وهو تحريم النبيذ المتنازع فيه مثلاً وإن كان أخص من تحريم المسكر والخمر، فالدليل ليس هو القضية العامة، بل الدليل أن النبيذ المتنازع فيه مسكر، وهو إحدى المقدمتين، وهذه قضية خاصة أخص من مسمى المسكر، فإن المسكر يتناول المتفق على تحريمه والمتنازع فيه وهذا هو الحد الأوسط، وهو المتكرر في المقدمتين الذي هو محمول في الصغرى موضوع في الكبرى.

فالإستدلال وقع بإسكاره على أنه خمر ومحرم، ومسكر النبيذ المتنازع فيه أخص من مسمى المسكر والخمر.

والمقدمة الثانية الكبرى وهي قولنا: وكل مسكر خمر، ليست الدليل بل لا بد من الصغرى ومعها وهي خاصة، فالمدلول عليه إن كان تحريم النبيذ المتنازع فيه، فهذا إنما يدل على تحريمه أنه مسكر، وليس إسكاره أعم منه، بل يلزم من ثبوت إسكاره ثبوته، فإن ثبوت الموصوف بدون الصفة ممتنع، فإسكاره دل على تحريمه، وليس تحريمه أعم من إسكاره، بل جنس الإسكار والحرام أعم من هذا المسكر، فهذا المحرم، لكن هذا العام ليس هو الدليل بدون الخاص، بل قوله: كل مسكر حرام يدل على تحريم كل مسكر مطلقاً من غير تعيين فيكون الإسكار مستلزماً للتحريم، والمسكر أخص من الحرام، وهذا استدلال بالخاص على العام، فوجود المسكر أخص من وجود الحرام حيث كان مسكر كان الحرام موجوداً، وليس إذا كان الحرام موجوداً يجب وجود المسكر، لأن المحرمات كثيرة كالدم والميتة ولحم الخنزير، فالحد الأوسط وهو المسكر دل على ثبوت الأعم وهو التحريم من الأخص في الأخص وهو النبيذ المتنازع فيه، فالمدلول عليه التحريم وهو أعم من المسكر، فهو استدلال بالخاص على العام، لكن المعنى العام الكلي لا يوجد في الخارج عاماً كلياً بل معيناً، فهو استدلال على نوع من أنواعه وهو التحريم الثابت في النبيذ المتنازع فيه، وهذا أخص من مطلق التحريم، كما أن مسكره أخص من مطلق المسكر، ومن هنا ظنوا أنهم استدلوا بالعام على الخاص حيث استدلوا بتحريم كل مسكر على تحريم هذا المسكر، وليس الأمر كذلك بل الذي دل على تحريم هذا المسكر ليس هو مجرد القضية العامة الكلية، بل لا بد معها من قضية أخص منها جزئية مثل قولنا: هذا النبيذ مسكر، وبهذا الخاص يعلم ثبوت ذلك لا بمجرد العام.

والدليل هنا ليس هو أعم من المدلول عليه، ولا يمكن ذلك قط، وأما قولهم أن الإستدلال

بالخاص على العام هو الإستقراء، فمجرد الخاص إن لم يستلزم العام لا يدل عليه، والمستقريء إن لم يحصر الإفراد لا يعلم أن ذلك المعنى شامل لها، فما استدل بخاص على عام بل بعام مثله مطابق له، وقولهم في قياس التمثيل أنه استدلال بخاص على خاص ليس كذلك، فإن مجرد ثبوت الحكم في صورة لا يستلزم ثبوته في أخرى إن لم يكن بينهما قدر مشترك، ولا يثبت بذلك حتى يقوم دليل على أن ذلك المشترك مستلزم للحكم، والمشترك هو الذي يسمى في قياس التمثيل الجامع والوصف والعلة والمناط ونحو ذلك، فإن لم يقم دليل على أن الحكم متعلق به لازم له لم يصح الإستدلال، وهذا المشترك في قياس التمثيل هو الحد الأوسط في قياس الشمول بعينه.

فالمعنى في القياسين واحد، ولكن التأليف والنظم متنوع إذا أراد أن يثبت تحريم النبيذ بقياس[1] الشمول. قال: هذا هو حرام لأنه شراب مسكر، فيكون حراماً قياساً على المسكر من العنب، فالدليل هو المسكر وهو المشترك وهو الحد الأسط، ثم لا يكفي ذلك حتى يبين أن العلة في الأصل هي المشترك فيقول: وعصير العنب حرام لكونه مسكراً، وهذا الوصف موجود في الفرع الذي هو صورة النزاع فيجب اشتراكهما في التحريم، وقوله إنه حرام لكونه مسكراً، هي المقدمة الكبرى في قياس الشمول وهي قولنا: كل مسكر حرام فثبت أن علة التحريم هي السكر إما بالنص وهو قوله: «كل مسكر حرام»، وإما بدلالة القرآن وهو أنه يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وإما بالمناسبة وإما بالدوران، وإما بالسبر والتقسيم كما قد عرف في موضعه، وهو نظير ما يستدل به على ثبوت القضية الكبرى.

ثم الدليل قد يكون قطعياً وقد يكون ظنياً لخصوص المادة لا تعلق لذلك بصورة القياس، فمن جعل قياس الشمول هو القطعي دون قياس التمثيل فقد غلط، كما أن من جعل مسمى القياس هو التمثيل دون الشمول فلم يفهم معناه، والذي عليه جمهور العلماء أن كلّاً منهما قياس قد يكون قطعياً، وقد يكون ظنياً، وطائفة يقولون: إسم القياس لا يُستعمل إلا في الشمول كما يقوله ابن حزم، ومن يقوله من المنطقيين، وطائفة يقولون: لا يستعمل حقيقة إلا في التمثيل، ومن هؤلاء من يقول: ليس في العقليات قياس، وهذا مبسوط في مواضع.

والمقصود هنا: التنبيه على جنس الأدلة، وأيضاً فالدليل قد يكون مطابقاً للمدلول عليه ملازماً له، ليس أعم منه ولا أخص منه، كالكواكب التي في السماء المتلازمة التي يستدل بكل منها على الآخر، وكالناطقية والإنسانية التي يستدل بثبوت كل منهما على ثبوت الآخر، وهذا

---

(١) لعله بقياس التمثيل بدل الشمول.

خــارج عن تقسيمهم، فـإن هــذا ليس استـدلالاً بعــام على خـاص، ولا بخــاص على عــام، ولا بخاص على نظيره بطريق التمثيل، بل هو استدلال بأحد المتـلازمين على الآخر قـد يكونـان عامين وخاصين، فالكواكب خاصة. والعام كالإستدلال بالحيوانية على الحس والحـركة، إلا أنـه استدلال بعام على عام ملازم له، وكذلـك الإستدلال بكـونه جسمـاً على وجود جنس العـرض، والإستدلال بوجود جنس العرض على وجود جنس الجسم هو استدلال بأحد العامين المتـلازمين على الآخر.

والمقصـود هنا: أن هـذه المعينات كـالنجوم والجبـال والطرق وأعـلام الطرق كلهـا آيـات وأعلام وعلامات على ما هو لازم لها في العادة، وكذلك قد يستـدل على منزل الشخص بمـا هو ملازم من دور الجيران والباب وغير ذلك، وشجرة هنـاك وغير ذلـك من العلامـات التي يذكـرها الناس يستدلون بها، ويدلون غيرهم بها، وسميت الجبـال أعلامـاً لأنها مـرتفعة عـالية، والعـالي يظهر ويعلم ويعرف قبل الشيء المنخفض، ولهذا يوصف العالي بالظهور كقوله: فمـا استطاعـوا أن يـظهروه، ويقـال: ظهر الخـطيب على المنبر، ومنـه قول النبي ﷺ في الحـديث الصحيـح: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ» فأدخل معنى العلو في إسمه الظاهر، لأن الظاهـر يعلو والعالي يـظهر، وكـذلك العـالي يعرف قبـل غيره، ومنـه قيل: عـرف الديـك أصله فعـل بمعنى مفعـول كما يقال: كره بمعنى مكروه، ومنـه الأعراف وهي أمكنـة عاليـة بين الجنة والنـار، وقد قيـل في قوله: وعلامات، وبالنجم، إن العلامـات في النجوم، منهـا ما يكـون علامـة لا يهتدي بـه ومنها ما يهتدي به، وقول الأكثرين أصحُ فإن العلامات كلهـا يهتدى بهـا، ولأنه قـد قال: ﴿وَأَلْقَى في الأَرْضِ رواسي أَنْ تميدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ﴾(١).

وهـذا كله ممـا ألقـاه في الأرض، وهـو منصـوب بـألقى، أو بفعـل من جنسـه، كمـا قـال بعضهم: أي وجعـل في الأرض أنهـاراً، لأن الإلقـاء من جنس الفعـل. وبسط مــا في هــذا من اعراب ومعان له مقام آخر.

والمقصود هنا: ذكر العلامات، والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الـرواسي والسبل، فـأن كونها رواسي وسبلاً يسلكها الناس غير كونها عـلامات، والعـطف قد يكـون لتغايـر الصفات مـع اتحـاد الذات كقـوله: ﴿الـذي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّـذي قَدَّرَ فَهَدى﴾(٢). وأمثالـه، فكيف إذا كانت العلامات تتناول هذا وغيره، فإن الجبال أعلام وهي علامات، وكذلك الطرق يستدل بها السالك

---

(١) سورة النحل: الآية ١٥.

(٢) سورة الأعلى: الآيتان ٢، ٣.

فيها، ولهذا يسمى الطريق إماماً لأن السالك يأتم به، وكذلك يسمون ما يستدل به المستدل طريقاً ومسلكاً، ويقال لأصحاب هذا القول عدة طرق ومسالك حتى أطلقوا على ما يصنف من الإحتجاج على مسائل النزاع طريقة لأنه فيه أدلة المصنف على موارد النزاع، ومن هذا الباب الإستدلال على المرض بعلامات له، والإستدلال بالأصوات، فإن كانت كلاماً كانت الدلالة قصدية إرادية قصد المتكلم أن يدل بها، وهي دلالة وضعية عقلية، وإن كانت غير كلام كانت الدلالة عقلية طبعية، كما يستدل بالأصوات التي هي بكاء وانتحاب وضحك وقهقهة ونحنحة وتنخم، ونحو ذلك على أحوال المصوت.

ومن الدلائل الشعائر، مثل شعائر الإسلام الظاهرة التي تدل على أن الدار دار الإسلام، كالأذان والجمع والأعياد.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح هذا لفظ البخاري. ولفظ مسلم كان يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر فقال رسول الله ﷺ «على الفطرة قم» قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: «خرجت من النار»، وعن عصام المزني قال: كان النبي ﷺ إذا بعث بسرية يقول: «إذا رأيتم مسجداً، أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

ومن هذا النوع دلائل الجهات، ومنه دلائل القبلة يستدل عليها بالنجوم والشمس والقمر والرياح والطرق وغير ذلك من الدلائل، كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة.

***

فصل
السمة والعلامة

والنوع الثاني: ما يدل بقصد الدال به، كالكلام وكالعقد باليد، والإشارة بها أو بالعين أو الحاجب أو غير ذلك من الأعضاء، وقد يسمى ذلك رمزاً ووحياً، وكذلك الخط خط الكتابة، بخلاف الإستدلال بآثار خطى الإنسان، فإن هذا من النوع الأول، وكذلك القيافة، وهي من النوع الأول، وهو الإستدلال بالشبه على النسب، وكذلك القائف قد يعرف بالأثر من هو الواطيء وأين ذهب، ومن هذا النوع الأميال التي جعلت علامات على حدود الحرم، والأميال التي تجعل في الطرقات، فإنه قصد بها الدلالة على الطريق، أي قصد الناس بها ذلك.

وهذا النوع قسمان: منه ما يكون بالإتفاق والمواطأة بين إثنين فصاعداً، كما يتفق الرجل مع وكيله على علامة لمن يرسله إليه مثل وضع خنصره في خنصره، ومثل وضع يده على ترقوته، كما روى أن النبي ﷺ جعل ذلك علامة مع بعض الناس، وكما يجعل الملوك وغيرهم لهم علامات عند بعض الناس، من جاء بها عرفوا أنه مرسل من جهته، ومن هذا الباب شعائر الناس في الحرب كل طائفة يعرف أصحابها بشعارها، ولهذا قال الفقهاء، ويجعل لكل طائفة شعاراً يتداعون به كما كان للمهاجرين شعار وللأنصار شعار.

ومن هذا الباب الأعلام والرايات للمقدمين، فان الراية ترى فيعلم صاحبها، وكذلك العلم يعلم فيعلم صاحبه، وقد تميز راية عن راية لما يختص به صاحبها، ويسمى ذلك رنكاً، وقد يكون ذلك إسم الشخص وقد يكون غير ذلك، لكن قد اتفق مع غيره على أن هذا علامة وآية له، فمتى رؤي استدل به على أنه هو المضاف إليه ذلك العلم، ويجعل هذا على الدور والثياب والدواب، ومنه الوسم الذي يعلم به إبل الصدقة وابل الجزية، فإن الوسم علامة مقصودة للواسم، وأما السيما فهي علامة بنفسها لم يقصدها، مثل سيما المؤمنين وسيما المنافقين، قال تعالى في المؤمنين: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(١). وقال في المنافقين: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾(٢). وقال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾(٣). قيل له زنمة من الشر

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٩.

(٢) سورة محمد: الآية ٣.

(٣) سورة القلم: الآية ١٣.

يعرف بها، ومنه سيما المؤمنين يوم القيامة التي بها يعرفهم نبيهم، وهو أنهم غر محجلون من آثار الوضوء، فهذه علامة وآية، لكنها من النوع الأول لم يقصد المسلمون أن يتوضؤا ليعرفوا بالوضوء، لكن من اللوازم لهم الوضوء للصلاة، وقد جعل الله أثر ذلك نوراً في وجوههم وأيديهم، وليس هذا لغيرهم، فإن هذا الوضوء لم يكن لغيرهم، والحديث الذي يروي هذا وضوئي ووضوء النبيين من قبلي، ضعيف، بخلاف الصلاة في المواقيت الخمس، فإن الأنبيآء كانوا يصلون في هذه المواقيت كما قال: هذا وقتك ووقت الأنبيآء قبلك، والوسم والسيما من الوسم متفقان في الاشتقاق الأوسط، فإن أصل سيما سوماً، فلما سكنت الواو انكسر ما قبلها قلبت ياء مثل: ميقات وميعاد ونحو ذلك، والاسم أيضاً من هذا الباب وهو علم على المسمى ودليل عليه وآية عليه، وهذا المعنى ظاهر فيه، فلذلك قال الكوفيون: أنه مشتق من الوسم، والسمة وهي العلامة، وقال البصريون: بل هو مشتق من السمو، فإنه يقال في تصغيره: سَمى لا وسيم، وفي جمعه: أسماء لا أوسام، وفي تصريفه: سميت لا وسمت، وكلا القولين حق، لكن قول البصريين اتم، فإنه مشتق منه على قولهم في الاشتقاق الأصغر وهو اتفاق اللفظين في الحروف وتأليفها، وعلى قول الكوفيين: هو مشتق منه من الاشتقاق الأوسط، وهو اتفاق اللفظين في الحروف لا في ترتيبها كما قلنا في الوسم، والسيما والسمو هو العلو، والسامي هو العالي، والعلو مستلزم للظهور كما تقدم، فالعالي ظاهر والظاهر عال، فكان الاسم بعلوه يظهر فيدل على المسمى لأنه يظهر باللسان والخط، ويظهر للسمع المسمى فيعرف بالقلب.

وقد تقدم أنهم يسمون الجبال أعلاماً لما فيها من الظهور، ودلالة الاسم على مسماه دلالة قصدية، فإن المسمى يسمى بالاسم ليعرف به المسمى، وليدل عليه تارة يقصد به الدلالة على مجرد نفسه كأسماء الأعلام للأشخاص، وتارة يقصد به الدلالة على ما في اللفظ من المعنى كالأسماء المشتقة مثل: العالم والحي والقادر، ومن هذا الباب تسمية المعبودين آلهة، سموها بما لا تستحقه كما يسمى الجاهل عالماً، والعاجز قادراً، والكذاب نبياً، فلهذا قال تعالى: ﴿إنْ هي إلاّ أسمَاءٌ سَمَّيْتُموها أنتم وأبآؤكُم مآ أنزلَ اللهُ بها مِن سُلْطان﴾[1]. والنوع الثاني من هذه الدلالة القصدية: أن يقصد الدال الدلالة من غير مواطأة من المستدلين على أنه دليل، لكن هم يعلمون أن قصد الدلالة لعلمهم بأحواله مثل ما يرسل الرجل شيئاً من ملابسه المختص به مع شخص فيعلمون أنه أرسلها علامة على أنه أرسله.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن في ذلك لآية للمؤمنين، قال: العلامة تكون بين

(١) سورة النجم: الآية ٢٣.

الرجل وأهله، رواه ابن المنذر، حدثنا موسى بن هرون، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا وكيع عن سفيان، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ورواه ابن أبي حاتم، ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، ثنا أبو أسامة حدثني سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن في ذلك لآية قال: علامة، ألم تر إلى الرجل إذا أراد أن يرسل إلى أهله في حاجة أرسل بخاتمه أو بثوبه فعرفوا أنه حق، فتارة يرسل خاتمه معه فيعلمون أنه أرسله ليعلموا أنه أرسله إذا كانوا قد علموا أن الخاتم معه، وأنه ليس في إرساله مع ذلك الشخص الذي لا يعرفونه مقصود له إلا أن يكون علامة، على أنه أرسله اليهم فيصدقونه فيما أخبر عنه، وتارة يرسل معه عمامته أو نعليه، وقد علموا أنه لا يخلع عمامته ويبعثها مع ذلك الشخص إلا لتكون علامة على صدقه، كما فعل النبي ﷺ في غزاة الفتح لما كانت راية الخزرج مع سعيد بن عبادة، وكان فيه حدة، وقال: لا قريش بعد اليوم، اليوم يوم الملحمة، اليوم يستحل الحرمة، قيل للنبي ﷺ أنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة، فقال: «قولوا لهُ يُعطى الرّايةَ لابنهِ قَيْس» فقال: إنه لا يقبل منه. فقال: «هذهِ عَمامَتي قولوا لهُ قَدْ أَمَر رسولُ اللهِ ﷺ بذلك»، فلما رأى عمامته مع من جاء بها علم أنه ليس له في إعطائه عمامته مقصود إلا أن تكون علامة، ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك، كذلك لما أعطى أبا هريرة نعليه ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له، فإنهم إذا رأوا معه نعليه علموا أنه لم يعطه النعلين إلا علامة، وكذلك قد يكون بين الشخص وبين غيره سر لم يطلع عليه المرسل، فيقول له: اعطني علامة، فيقول: قل له بعلامة ما تكلمت أنت وهو في كذا وكذا، أو ما فعلت أنت وهو كذا وكذا، فيعلم المرسل اليه أن المرسل هو أعلم هذا الرسول بهذا الأمر، إذا كان غيره لم يعلمه، ويعلم أنه ليس له في إعلامه به مقصود إلا أن يكون علامة له على تصديقه، ثم أكثر هذه الآيات التي هي علامات للناس يرسلونها مع من يرسلونه ليعرف صدقه، هي قطعية عند المستدل بها المرسل اليه من الأهل والأصدقاء والوكلاء والنواب وغيرهم، يأتيهم الرجل بعلامة وهي مستدلة على حبهم فيعلمون قطعاً أن هذا جاء من عنده، ويعلمون قطعاً أنه لم يرسله بتلك العلامة إلا ليعلموا صدقه. لا يخطر لسعد بن عبادة حين رأى عمامة النبي ﷺ معهم أنهم أخذوها بغير قصده بأن تكون سقطت منه ونحو ذلك، بل قد علم أنها كانت على رأسه وهو راكب في الجيش، وقد أرسلها مع هذا، وكذلك خاتم الشخص الذي يعلمون أنه لا ينزع خاتمه من يده ويعطيها لغيره ليعبث بها عنه، وهو لا يختم بها شيئاً إلا لذلك، وقد يقع في مثل ذلك احتمالات فيستعمل المستدلون التقسيم، فإن الاستدلال مداره على أنه أرسله بالعلامة، وأنه إنما أرسله بها ليبين صدقه، فقد يعرض في المقدمة الأولى أنه أخذها بغير اختياره، أو أن الخاتم سقط منه،

أو إن كـان مسافـراً أنه قتـل أو مات، فقـد يقـع مثل ذلـك، وقد يؤخـذ خاتم الـرجل بغيـر أمره ويختم به كتابه.

كما حكي أن مروان فعل مثل ذلك بعثمان، والمقدمة الثانية: أنه قد يرسله بالخـاتم ليختم به شيئاً أو ليصلحه ونحو ذلك، فإذا عـرض مثل هـذا الاحتمال وقـوي توقفـوا، وإن عرفـوا انتفا ذلك مثل أن يكون قد ذهب من عندهم قريباً وليس له ما يختم به ونحو ذلك، قـطعوا بـأنه أرسل علامة، ثم بعـد هذا قـد يعلمون أنـه أرسله، لكن قد يكـذب عليه، ولكن العهـدة في هذا على المرسل، فإن ارسال العـلامة هـو إعلام منـه لهم بأني أرسلتـه اليكم، فهذا الفعـل هو مثـل هذ القول يجري مجرى أعلامهم وإخبارهم بأنه ارسله، وتصديقـه في قولـه: هو أرسلني. والأخبـار تارة يكون بالقول وتارة يكون بـالعمل، كمـا يعلم الرجـل غيره بـالإشارة بيـده ورأسه وعينـه وغير ذلك، وإن لم يتقدم بينهما مواضـعة لكن يعلم قصده ضرورة، مثل أن يسأله عن شيء هل كان؟ فيرفع رأسه أو يخفضه أو يشير بيده، أو يكون قائماً ويشير إليه اجلس، أو قاعداً مطلوباً فيشير اليه أن اهرب فقد جاء عدوك، أو نحو ذلك من الإشـارات التي هي أعمال في الأعضـاء، وهي تدل دلالة ضرورية تعلم من قصد الدال كم يدل القول، وقد تكون أقوى من دلالة القول، لكن دلالـة القول أعم وأوسع، فإنه يدل على الأمور الغـائبة، وعلى الأمـور المعضلة، وهذه الأدلـة العيانيـة هي أقوى من وجه، ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الأقوال.

خاصة الدليل أن يكون مستلزماً للمدلول، فكل ما استلزم شيئاً كان دليلاً عليه، ولا يكـون دليلاً إلا إذا كان مستلزماً، ثم دلالة الدليل تعلم كمـا يعلم لزوم الـلازم للملزوم، وهذا لا بـد أن يعلم بـالضرورة، أو بـدليل ينتهي إلى الضـرورة، وعلى هذا فـآيـات الأنبيـآء هي أدلـة صـدقهم وبراهين صدقهم، وهي ما يستلزم صدقهم، ويمتنـع وجوده بدون صـدقهم، فلا يمكن أن يكـون ما يدل على النبوة موجوداً بدون النبوة، ثم كونه مستلزماً للنبوة ودليلاً عليها، يعلم بالضـرورة، أو بما ينتهي إلى الضرورة، فآيات الأنبيآء صلوات الله عليهم وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غيـر آيـاتهم كحد بعضهم، كـالمعتزلـة وغيرهم بـأنها خـرق العادة، ولم يعـرف مسمى هذه العبـارة، بل ظن أن خوارق السحرة والكهان والصالحين خرق للعادة، فكذبها وحد بعضهـم بـأنها الخـارق للعادة إذا لم يعارضـه أحد، وجعـل هذا فصـلاً احترز بـه عن تلك الأمور، فقـال: المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل مع عدم المعارضة، وجوز أن يأتي غير الأنبيآء بمثـل ما أتـوا به سواء مع المعارضة، وجعل ما يأتي به الساحر والكـاهن معجزات مـع عدم المعـارضة، وحقيقـة المعجز هذا ما لم يعارض، ولا حاجة إلى كونه خارقاً للعادة، بل الأمـور المعتادة إذا لم تعـارض كانت آية، وهذا باطل قطعاً، ثم مسيلمة والأسود العنسي وغيرهما لم يعارضوا.

ثم يقال: ما يعني بعدم المعارضة في ذلك المكان والزمان، فالسحرة والكهان لا يعارضون، والعنسي ومسيلمة لم يعارضا في مكانهم ووقت أغوائهم، وإن قال: لا يعارض البتة فمن أين يعلم هذا العدم، فإن قيل: فما آيات الأنبيآء التي تعلم أنها مختصة بالأنبيآء، وأنها مستلزمة لصدقهم، ولا تكون إلا مع صدقهم، وهي لا بد أن تكون خارقة للعادة، خارجة عن قدرة الإنس والجن، ولا يمكن أحداً أن يعارضها، لكن كونها خارقة للعادة، ولا تمكن معارضتها هو من لوازمها ليس هو حداً مطابقاً لها، والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر وجعل العصا حية وخروج الناقة.

فمجرد العلم بهذه الآيات يوجب علماً ضرورياً بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذي استدل بها، وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة، وأنه لا يمكن معارضتها، فهذا من جملة صفاتها لا أن هذا وحده كاف فيها، وهذا إذا قال من قال: إن فلاناً أرسلني إليكم فإنه يأتي بما يعلم أنه علامة، والعلامة والدليل والآية وحدها أنها تدل على المطلوب، وآيات الأنبيآء تدل على صدقهم، وهذا لا يكون إلا مع كونها مستلزمة لصدقهم، فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم، ويمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها، ولا يمتنع أن يأتي نبي آخر بمثلها، ولا أن يأتي من يصدقهم بمثلها، فإن تصديقه لهم يتضمن صدقهم فلم يأت إلا مع صدقهم، وقد تكون الآيات تدل على جنس الصادق وهو صدق صاحبها فيلزم صدقه إذا قال: أنا نبي، ولكن يمتنع أن يكون لكاذب، فهذا ونحوه مما ينكشف به حقيقة هذا الباب وهو من أهم الأمور، وإذا فسر خرق العادة بأنها خرق لعادات غير الأنبيآء، أي لا يكون لغير جنسهم وجنس من صدقهم، وفسر عدم المعارضة بأنه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبي أو متبع لنبي، كان المعنى واحداً واتحدت التفاسير الثلاثة.

***

فصل
رسل الله عز وجل وكتبه

والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانية المشهودة، والدلالات المسموعة وهي كلامه، لكن عامتهم تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه، فأرسل إليه بكلامه رسلاً وأنزل إليهم كتباً، والمخلوق إذا قصد أعلام من يتعذر أن يسمع منه أرسل إليه رسلاً، وكتب إليه كتباً كما يفعل الناس ولاة الأمور وغيرهم، يرسلون إلى من بعد عنهم رسولاً، ويكتبون إليه كتباً، ثم أنه سبحانه جعل مع الرسل آيات هي علامات وبراهين، هي أفعال يفعلها مع الرسل يخصهم بها لا يوجد لغيرهم، فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك أعلام منه العباد وأخبار لهم أن هؤلاء رسلي، كما يعلمهم بكلامه المسموع منه ومن رسوله، ولهذا قد يعلم برسالة رسول [أو][1] بأخبار رسول أخبر عنه، وقد يخبر عن إرساله بكلامه لمن سمع كلامه منه كما أخبر موسى وغيره بالوحي الذي يوحيه إليهم، فآيات الأنبيآء هي علامة وبراهين من الله تتضمن أعلام الله لعباده وإخباره، فالدليل وهو الآية، والعلامة لا تدل إلا إذا كان مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له، إما مساو له، وإما أخص منه، لا يكون أعم منه غير مستلزم له، فلا يتصور أن يوجد الدليل بدون المدلول عليه، فالآيات التي أعلم الله بها رسالة رسله وصدقهم لا بد أن تكون مختصة بهم مستلزمة لصدقهم، فإن الإعلام والأخبار بأن هذا رسول وتصديقه في قوله: إن الله أرسلني، لا يتصور لغير رسول، والآيات التي جعلها الله علامات هي أعلام بالفعل الذي قد يكون أقوى من القول، فلا يتصور أن تكون آيات الرسل إلا دالة على صدقهم، ومدلولها أنهم صادقون لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة، وكون الرب أراد بها إعلام عباده بصدقهم، وصدقهم بها في أخبارهم أنه أرسلها، وكونها آية وعلامة على صدقهم أمر يعلم كما تعلم دلالة سائر الأدلة، كما يعلم من الرجل أصدقاؤه ووكلاؤه أنه أرسل هذا بهذه العلامات، فتارة يعلم ذلك بالضرورة بعد تصور الأمر، وتارة يحتاج إلى نظر، هل هذه العلامة منه أو من غيره، وهل هو أرسله بها أو غيره، وهل قصد بها الأعلام والتصديق أم لا، وهل يعلم من حال الذاكر أنه أرسله أنه صادق، فقد يرسل

---

(١) زيدت على النص لسياق العبارة.

من يعلمون هم صدقة، وأنه لا يكـذب، فيعلمون صـدقه بمجـرد قولـه: هو أرسلني من غيـر آية ولا علامة. ولهذا إذا قال من صدقه: أنه رأى رؤيا صـدقه، وجـزم بصدقـه من قد خبـر صدقـه، والرؤيا جزء من ستة وأربعين جـزءاً من النبوة، وكـذلك لـو أخبر بغيـر ذلك كمـا أخبر عمـران بن حصين أن الملائكة تسلم عليه، فلم يشك الذين أخبرهم في صدقه من غير آية، فمن كـان يعلم صـدق موسى والمسيـح ومحمـد وغيرهم، وأنهم لا يكـذبون في أخف الأمـور، فكيف بالكـذب على الله إذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحي والرسالة، وما غاب من الملائكة، فإنه قد يجزم بصدقه من غير آية لا سيما إن كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه، ولهذا لم يكن من شرط الإيمان بالأنبيآء وجود الآيات، بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك، كما قد بين في موضـع آخر.

وتـارة يحتاجـون إلى العلامـة، وتارة يعلمـون كذبـه بأن يـذكـر عن صـاحبهم مـا يعلمـون هم خـلافه، ويصفـه بمـا علمـوا نقيضـه، وقـد يـظهـر لهم من قصـده أنـه كـذاب ملبس طـالب أغراض له، إما مال يعطونه، أو ولايـة يولـونه، أو امـرأة يزوجـونه بهـا، أو غير ذلـك من أغراض النفوس، فيسألونه عن مقصوده، فإذا عرفوا مقصوده فقد يعلمون كذبه أو صدقه، ومثل هـذا كثير في عادات الناس، فكثير ما يجيء الرجل بما يزعم أنه علامة، وتكون مشتركة فيقال له: ما تريد؟ فيذكر مراده فيعلمون كذبه، فدلائل الصدق والكذب لا تنحصر كدلائل الحب والبغض هي كثيرة جداً، وهذا يعرفه من جرب عادات الناس.

***

فصـل
[البـرهـان]

فالآيات التي تكون آيات للأنبيآء، هي دليل وبرهان، والله تعالى سماها برهاناً في قوله لموسى: ﴿فَذانِكَ بُرْهانانِ مِن رَبِّكَ﴾[1] وهي العصا واليد، وسماها برهاناً وآيات في مواضع كثيرة من القرآن، فحدهاحد الدليل والبرهان، وهي أن تكون مستلزمة لصدق النبي، فلا يتصور أن توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله، فليس له إلا حالان إما أن يكون الله أرسله فيكون صادقاً، أو لا يكون أرسله فلا يكون صادقاً، فآيات الصدق لا توجد إلا مع أحد النقيضين وهو الصدق، لا توجد قط مع الآخر، وهو انتفاء الصدق، كسائر الأدلة التي هي البراهين والآيات والعلامة فإنها لا توجد إلا مع تحقيق المدلول عليه، لا توجد مع عدمه قط، إذ كانت مستلزمة له يلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه، فلا يوجد الدليل مع عدم المدلول عليه، فلا توجد آياتهم مع عدم صدقهم، فيجب أن يتصور هذا الموضع، فإنه حق معلوم بعد تصوره لكل العقلاء بالضرورة، فلا يمكن أحداً كذب النبي أن يأتي بمثلها، فإنه لو أتى بمثلها مع تكذيب النبي لكانت قد وجدت مع قوله: إني صادق، ومع قول هذا المكذب أنه كاذب فلم يختص بصدقه ولم تستلزمه، فلا يلزم إذا قال إني صادق أن يكون صادقاً، وهذا قد أتى بمثل ما أتى به، وقال إنه كاذب، ولا يكون إعلاماً من الله لعباده وإخباراً لهم بأني أرسلته ولا تصديقاً له كما لو قال رجل: إن فلاناً أرسلني، وجاء بعلامة ذكر أنه خصه بها مثل أن يقول: العلامة أنه عطاني خاتمه، فيقول المكذب: وأنا أيضاً أعطاني خاتمه الأخرى لأصلحها له، أو لأختم بها كذا وأنت إنما أعطاك خاتمه لتصلحها، أو تختم بها، فإذا أتى المكذب له بمثل ما أتى به امتنع كونها آية، ولكن لو كان قد جاء بالخاتم غيره لأمر آخر أرسله له لم يمتنع ذلك، بل قد جرت عادته معهم بأنه من أرسله يرسل معه خاتمه، فقد صار إرسال الخاتم عادة له يدل على صدق من أرسله، فهو يميز رسله بالخاتم لا يخص بها واحداً منهم، وهي عادة منه لرسله ليست لغيرهم، لا عادة ولا غير عادة، فهذا شأن الآيات والعلامات التي يقصد بها أن يدل بها.

***

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٢.

فصـل
الأدلة الدالة على المدلول

والله تعالى سماها آيات وبراهين، وهو اسم مطابق لمسماه مطرد لا ينتقض، فلا تكـون قط إلا آيات لهم وبراهين، واما تسميتها بخرق العادة، فللناس في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن ذلك حد لها مطرد منعكس، فكل خرق هو معجزة للنبي فهو خرق عادة.

والثاني: أن خرق العادة، شرط فيها وليس بحد لها، فيجب أن تكون خارقة لعـادة، ولكن ليس كل خارق للعـادة يكون آيـة لنبـي كأشـراط الساعـة، بل أن يقـع على وجه مخصـوص مثل دعوى النبوة، والاستدلال بها والتحدي بمثلها مع عجز الناس عن معارضته.

والقـول الثالث: أن كـونها خـارقة للعـادة ليس بحد ولا شـرط. قال القـاضي أبو بكـر في مناظرته في الكرامات: ويقال لهم أيضاً: إن من الناس من لا يشترط في الآية المعجـزة أن تكون خارقة للعادة، ويقول: إنما تكون آيـة إذا كانت من فعـل الله مع التحـدي بمثلها، ودعـوى النبوة فدلالتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب، فإذا ظهرت على هذا الوجـه كانت آية لمن فعلت على يده، قال المجيبون بهذا: ولهذا لم تكن أشراط الساعة آيـة لأحد وإن خرقت العادة إذا لم يكن معها دعوى نبوة، ولأن موت زيـد عند قـول الرسـول ﷺ آيتي أن يميت الله زيداً، عند دعائي موته، فإذا مـات عند عـودته صـار ذلك آيـة له، وإن كـان فعل المـوت في الانسـان وغيره من الحيـوان معتاداً قـال: إن قالـوا: لو كـان كذلـك لكان من قـال آيتي أن تطلع الشمس وتغرب، ويأتي الليل والنهار والضياء والظلام، وفعل ذلك مع دعواه الرسالة كان آيـة له، وإن لم يكن المفعول من ذلك خارقاً للعادة، فلما لم يكن كذلك، وإن كان واقعاً من فعل الله مع دعوى النبوة، لكونه غير خارق للعادة، بطل ما قلتموه؟ يقـال لهم: قد أجبنـا عن هذا حين قلنـا، ويكون الواقع من فعل الله مع دعوى النبـوة، مما لا يشتـرك فيه الصـادق والكاذب، ويستـوي مع ظهوره دعوى المحق والمبطل، وطلوع الشمس وغروبها.

ولو قال النبي: آيتي أن يظلنا السحاب الساعة، وتزلزل الأرض، وتحدث الأمطار بدعوى، فحدث ذلك لكان آية له، وإن كان مثل ذلك قد يحدث في العصر ويشاهـد، فإذا قـال المتنبي: إنني معارضه وآيتي في كوني نبياً ظهور مثل ذلك، منع منه ولم يحدث.

قلت: هـذا الذي ذكـروه هو أيضـاً خرق للعـادة، فإن ظهـور مثل ذلـك على هذا الـوجـه مما لم تجربـه العادة، وهـو نفسه القـاضي أبو بكـر في هذا الكتـاب كتاب البيـان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنيرنجيات، قد قال: قيل هـذا باب القـول في معنى العادة وانخراقها، والعادة التي إذا انخرقت دلت على صدق الرسل والاعتياد للأمر وتفصيل ذلك وتنزيله.

اعلموا رحمكم الله: أن الكل من سـائر الأمم قـد شرطـوا في صفة المعجـزات [أن تكون خـارقة][1] للعـادة، وإذا كان ذلـك وجب معرفـة هذه العـادة ومعرفـة انخراقهـا، فقـد حكي هنـا الإجماع، وهناك صرح بالاختـلاف وقوى ذلـك القول، وسبب ذلـك اضطرابهم في معنى العـادة وانخراقها، فإن كل قوم يفهمون غير ما يفهمه الآخرون، والله تعالى إنما سماها آيات.

وهذا القول الذي ذكره وقـواه وهو لا يشتـرط فيها أن تكـون خارقـة للعادة هـو حقيقة قـول القاضي وأمثاله من المتكلمين الأشعرية ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأمثاله، فإن المعجـزات عنـدهم لا تختص بجنس من الأجناس المقـدورات، بل خـاصتها أن النبي يحتـج بهـا ويتحـدى بمثلهـا فلا يمكن معـارضته، فـاشترطـوا لها وصفين: أن تكـون مقترنـة بدعـوى النبـوة، وجعلوا المدلول جزءاً من الدليل، وأنها لا تعارض.

وبالأول فرقوا بينها وبين الكرامات، وبه بالثاني فرقوا بينها وبين السحر والكهانة، وصرحوا بأن جميـع خوارق السحرة والكهان يجوز أن تكون معجزة لنبي، لكن إذا كانت معجزة لم تمكن معارضتها، فلو ادعى ساحر أو كاهن النبوة لكان الله يعجزه عن تلك الخـوارق، قد علم أن غيـره من السحرة والكهان يفعل مثلها، وليس بنبي، وما يأتي به الأنبيآء من المعجزات جوزوا أن يـأتي بمثله الساحر والكاهن إلا ما منـع منه السمـع للاجمـاع، على أن الساحـر لا يقلب العصا حيـة، وهذا الفرق ليس لما يختص به أحد النوعين ولا ضابط له. وصرحوا بـأنه لا يستثنى من الخـوارق إلا ما انعقد عليه الاجماع وصرحوا بأن العجائب الطبعية مثل جذب حجـر المغناطيس الجـديد، يجوز أن يكون معجزة، لكن بشرط أن لا يعارض.

وكذلك الـطلاسم، وكذلـك الأمور المعتـادة يجوز أن تكـون معجزة بشـرط أن يمنع غيـره منها، فتكون المعجزة منع المعتاد، فالخاصة عندهم فيها أنهـا لا تعارض، وأنهـا تقترن بـدعوى النبـوة، وقد يشتـرطون أن تكـون خارقـة للعادة لكن يكتفـون بمنع المعـارض، فهو وحـده خرق

(١) وردت في الأصل: يكون خارقاً، ولعل الصواب ما أثبتناه.

للعادة، فلا يشترطون هذا وهذا، وقد اشترط القاضي أبو بكر أن يكون مما يختص الرب بالقدرة عليه ولا حقيقة له، فإن جميع الحوادث كذلك عندهم، وكل ما خرج عن محل قدرة العبد، فالرب عندهم مختص بفعله كخوارق السحرة والكهان، وحقيقة الأمر أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات والسحر والكهانة، لكن هذه إذا لم تقترن بدعوى النبوة لم تكن آية، وإذا اقترنت بها كانت آية بشرط أن لا تعارض، ثم أنه لما أثبت النبوة قال أنه يجوز على النبي فعل كل شيء من الكبائر، إلا أن يمنع من ذلك سمع، كما قال: كل ما كان معجزة للأنبيآء يجوز أن يأتي به الساحر إلا أن يمنع منه سمع إذ كان في نفس الأمر لا فرق بين فعل وفعل، بل يجوز من الرب كل شيء، فيجوز أن يبعث كل أحد، ولا يقيم على نبوته دليلاً، هذا حقيقة قولهم انه يجوز أن يبعث كل أحد وأنه إذا بعثه لا يقيم دليلاً على نبوته، بل يلزم العباد بتصديقه بلا دليل يدلهم على صدقه، فإن غاية هذا تكليف ما لا يطاق، وهم يجوزونه.

وهذا الذي قالوه باطل من وجوه متعددة، قد بسطت في غير هذا الموضع منها:

أنهم جعلوا المدلول عليه وهو إخبار النبي بنبوته وشهودها وثبوتها جزءاً من الدليل، قالوا: لأنها لو كانت معجزة لجنسها لم تقع إلا معجزة، والخوارق التي تكون أمام الساعة ليست معجزة لأحد، فعلم أن الدليل هو مجموع دعوى النبوة، والخارق والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن تلك من آيات الله تعالى. فالخوارق التي لا يقدر عليها العباد كلها آيات الله تعالى، وهي دالة على ما يظهر دلالتها عليها تارة تكون تخويفاً، كما قال النبي ﷺ: «إن الشمسَ والقمَرَ آيتانِ مِنْ آياتِ اللهِ وأنّهما لا تَنْكَسِفانِ لِموْتِ أحَدٍ ولا لِحياتهِ، ولكنّهُما آيتانِ مِن آياتِ اللهِ يُخوِّفُ اللهُ بهِما عِبادهِ».

والتخويف يتضمن امر بطاعته والنهي عن معصيته، وأشراط الساعة آيات على قربها، وعلى جزاء الأعمال، وهو يتضمن الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية.

والثاني: أن يقال هي آيات على صدق الأنبيآء فإنهم أخبروا بها، وهي آية على ما أخبروا به، وعلى صدقهم، وأيضاً فإن عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها ويقول: ائتوا بمثلها، والقرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه افتراه، .ولم يتحدهم به ابتداء، وسائر المعجزات لم يتحد بها، وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن، لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبيآء، فهذا لازم لها، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره، وأيضاً فمن آيات الأنبيآء ما كان قبل ولادتهم، وقبل أنبائهم وما يكون بعد موتهم. فإن الآية دليل على صدق الخبر بأنه رسول الله، وهذا الدليل لا يختصر لا بمكان ولا بزمان، ولا يكون هذا الدليل إلا من جنس لا يقدر عليه

الإنس كلهم ولا الجن، فلا بد أن يكون جنسه معجزاً أعجز الانس والجن.

وأما قولهم خاصة: المعجز عدم المعارضة، فهذا باطل، وإن كان عدم المعارضة لازماً له، فإن هذا العدم لا يعلم إذا يمكن أن يعارضه من ليس هناك إذا كان مما يعلم أنه معتاد مثل خوارق السحرة والكهان، فإنه وإن لم يكن أن يعارض في هذا الموضع، ففي السحرة والكهان من يفعل مثلها مع أنه ليس بنبي، ودليل النبوة يمتنع ثبوته بدون النبوة، وإذا قالوا: الدليل هو مجموع الدعوى والدليل: تبين خطأهم، وأن القوم لم يعرفوا دلائل النبوة، ولا أقاموا دليلاً على نبوة الأنبيآء، كما لم يقيموا دليلاً على وجود الرب، فليس في كتبهم ما يدل على الرب تعالى، ولا على رسوله، مع أن هذا هو المقصود من أصول الدين، وأيضاً فمسيلمة والعنسي لم يكن عندهما من يعارضهما، وأيضاً فالمعارض إن اعتبروه في المدعوين، وهذا مقتضى في خرق العادة، وأن العادات تختلف، فلكل قوم عادة؟ قالوا: فالمعتبر خرق عادة؛ أرسل إليهم.

وعلى هذا: فإذا أرسل إلى بني إسرائيل ففعل ما لم يقدروا عليه كان آية: وإن كان ذلك مما يقدر عليه العرب، ويقدر عليه السحرة والكهان، وصرحوا بأن السحر الذي قال الله فيه: ﴿ومَا يُعْلِمانِ مِن أحَدٍ حتّى يَقُولا إنّما نحْنُ فِتنَةٌ فَلا تَكْفُر﴾(١). يجوز أن يكون من معجزات الأنبيآء إذا لم يعارض، وقد قال الرازي: إن السمعيات لا يحتج بها لأن دلالتها مشروطة بعدم المعارض العقلي، وذلك غير معلوم، وكذلك يقال في معجزات هؤلاء أن خاصتها عدم المعارضة، فإن اعتبروا أن أحداً من الخلق لا يعارض فهذا لا يعلم، وإن اكتفوا بأن لا يعارض في ذلك المكان والزمان فكثير من الصناعات والعجائب والعلوم من هذا الباب، وهم لا ينكروا هذا بل يقولون: المعجز هو هذا مع دعوى النبوة، وقد تبين أن الشيء في نفسه إذا لم يكن دليلاً لم يصر دليلاً باستدلال المستدل به. بل هو في نفسه دليل وإن لم يستدل به إذا كان الدليل هو المستلزم للمدلول، فدليل صدق النبي هو يدل على أنه نبي، وأن الخبر بنبوته صدق، وإن كان هو لا يستدل بذلك ولا يتحدى بمثلها، وقد لا يخبره بنبوة نفسه، ويكون له دلائل تدل على نبوته، كما كانت قبل أن يولد وفي الأمكنة البعيدة، فتبين أن قول هؤلاء، هو أنه لا يعلم ما يستدل به على نبوة الأنبيآء، وهذا إذا انضم إلى أصلهم، وهو أن الرب يجوز عليه فعل كل شيء، صارا شاهدين بأنه على أصلهم لا دليل على النبوة، إذ كان عندهم لا فرق بين فعل من الرب وفعل، وعندهم لا فرق بين جنس وجنس في اختصاصه بالأنبيآء به، فليس في أجناس المعقولات ما يكون آية تختص بالأنبياء فيستلزم نبوتهم، بل ما كان لهم قد يكون عند غيرهم

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

حتى للسحرة والكهان، وهم أعداؤهم، وفرقوا بعدم المعارضة، وهذا فرق غير معلوم وهو مجرى دعوى.

قالوا: لو ادعى الساحر والكاهن النبوة، لكان الله ينسيه الكهانة والسحر، ولكان له من يعارضه، لأن السحر والكهانة هي معجزة عندهم، وفي هذه الأقوال من الفساد عقلاً وشرعاً ومن المناقضة لدين الاسلام وللحق ما يطول وصفه، ولا ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق أقل فساداً من هذا، ولهذا يشنع عليهم ابن حزم وغيره بالشناعات العظيمة.

ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر، فلا يجدون فرقاً إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر، والتحقيق أن آيات الأنبياء مستلزمة للنبوة ولصدق الخبر بالنبوة، فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول بأنه رسول لا يوجد مع التكذيب بذلك، ولا مع عدم ذلك البتة، وليست من جنس ما يقدر عليه لا الإنس ولا الجن، فإن ما يقدر عليه الانس والجن يفعلونه فلا يكون مختصاً بالأنبيآء.

ومعنى كونها خارقة للعادة: أنها لا توجد إلا للنبوة لا مرة ولا أقل ولا أكثر، فالعادة هنا تثبت بمرة، والقاضي أبو بكر يقول: إن ما فعل مرات يسيرة لا يكون معتاداً، وفي كلامه في هذا الباب من الاضطراب ما يطول وصفه، وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي والرازي والآمدي وغيرهم.

وما يأتي به السحرة والكهان يمتنع أن يكون آية لنبي بل هو آية على الكفر، فكيف يكون آية للنبوة، وهو مقدور للشياطين، وآيات الأنبيآء لا يقدر عليها جن ولا إنس، وآيات الأنبيآء آيات لجنسها، فحيث كانت آية لله تدل على مثل ما أخبرت به الأنبياء، وإن شئت قلت: هي آيات الله يدل بها على مثل ما أخبرت به الأنبيآء، وإن شئت قلت: هي آيات الله يدل بها على صدق الأنبياء تارة، وعلى غير ذلك تارة وما يكون للسحرة والكهان لا يكون من آيات الأنبيآء، بل من آيات الأنبيآء مختصة بهم.

وأما كرامات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء، فإنها إنما تكون لمن تشهد لهم بالرسالة، فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة، وأيضاً فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين ومعجزات الأنبياء فوق ذلك، فانشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حية، وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للأولياء، وكذلك خلق الطير من الطين، ولكن آياتهم صغار وكبار كما قال الله تعالى: ﴿فأراهُ الآيةَ الكُبرى﴾[1] فلِلّه تعالى آية كبيرة وصغيرة، وقال

(١) سورة النازعات: الآية ٢٠.

عن نبيه محمد: ﴿لَقَدْ رأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكُبرى﴾[1] فالآيات الكبرى مختصة بهم، وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين مثل تكثير الطعام، فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين، لكن لم يوجد كما وجد النبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير، فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم، لكن لا يماثلون في قدره، فهم مختصون إما بجنس الآيات فلا يكون لمثلهم كالإتيان بالقرآن وانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وانفلاق البحر، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير، وأما بقدرها كنار الخليل، فإن أبا مسلم الخولاني وغيره صارت النار عليهم برداً وسلاماً، لكن لم تكن مثل نار ابراهيم في عظمتها كما وصفوها، فهو مشارك للخليل في جنس الآية، كما هو مشارك في جنس الإيمان محبة الله وتوحيده، ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله، وكذلك الطيران في الهواء فإن الجن لا تزال تحمل ناساً وتطير بهم من مكان إلى مكان كالعفريت الذي قال لسليمان: ﴿أنا آتيك بهِ قَبل أن تَقُوم مِن مقامِك﴾[2] لكن قول الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أنا آتيك بهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إليْكَ طَرْفُك﴾[3] لا يقدر عليه العفريت، ومسرى النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليريه الله من آياته الكبرى، أمر اختص به بخلاف من يحمل من مكان إلى مكان، لا ليريه الله من آياته الكبرى أمر اختص به، ولا يعرج إلى السماء، فهؤلاء كثيرون، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن هؤلاء حقيقة قولهم أنه ليس للنبوة آية تختص بها، كما أن حقيقة قولهم: إن الله لا يقدر أن يأتي بآية تختص بها، وإنه لو كان قادراً على ذلك لم يلزم أن يفعله بل ولم يفعله، فهذان أمران متعلقان بالرب إذ هو عندهم لا يقدر أن يفعل شيئاً لشيء.

والآية إنما تكون آية إذا فعلها لتدل ولو قدر أنه قادر، فهم يجوزون عليه فعل كل شيء، فيمكن أنه لم يجعل على صدق النبي دليلاً، وأما الذي ذكرناه عنهم هنا فإنه يقتضي أنه لا دليل عندهم على نبوة النبي، بل كل ما قدر دليلاً فإنه يمكن وقوعه مع عدم النبوة، فلا يكون دليلاً، فهم هناك حقيقة قولهم: إنا لا نعلم على النبوة دليلاً، وهنا حقيقة قولهم أنه لا دليل على النبوة، ولهذا كان كلامهم في هذا الباب منتهاه التعطيل، ولهذا عدل الغزالي وغيره عن طريقهم في الاستدلال بالمعجزات لكون المعجزات على أصلهم لا تدل على نبوة نبي، وليس عندهم في نفس الأمر معجزات، وإنما يقولون المعجزات علم الصدق، لأنها في نفس الأمر كذلك،

(١) سورة النجم: الآية ١٨.
(٢) سورة النمل: الآية ٣٩.
(٣) سورة النمل: الآيتان ٣٩، ٤٠

وهم صادقون في هذا، لكن على أصلهم ليست دليلاً على الصدق، فآيات الأنبيآء تدل على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة تارة، وبالنظر أخرى، وهم قد يقولون إنه يحصل العلم الضروري بأن الله صدقه بها، وهي الطريقة التي سلكها أبو المعالي والرازي وغيرهما، وهي طريقة صحيحة في نفسها، لكن تناقض بعض أصولهم، فالقدح ليس في آيات الأنبيآء، لكن في الأقوال الفاسدة التي تناقض ما هو معلوم بالضرورة عقلاً، وما هو أصل الإيمان شرعاً، ومن عرف تناقضهم في الاستدلال يعرف أن الآفة في فساد قولهم لا في جهة صحة الدلالة فقد يظهر بلسانه ما ليس في قلبه، كالمنافقين الذين يقولون: ﴿نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[1].

ولقد صدق الإمام أحمد في قوله: علماء الكلام زنادقة، وطريقة القرآن فيها الهدى والنور والشفاء، سماها آيات وبراهين، فآيات الأنبيآء مستلزمة لصدقهم وصدق من صدقهم، وشهد لهم بالنبوة، والآيات التي يبعث الله بها أنبيآء قد يكون مثلها لأنبيآء أخر مثل: إحياء الموتى، فقد كان لغير واحد من الأنبيآء، وقد يكون إحياء الموتى على يد اتباع الأنبيآء، كما قد وقع لطائفة من هذه الأمة ومن اتباع عيسى، فإن هؤلاء يقولون نحن إنما أحيا الله الموتى على أيدينا لاتباع محمد أو المسيح، فبإيماننا بهم وتصديقنا لهم أحيا الله الموتى على أيدينا، فكان إحياء الموتى مستلزماً لتصديقه عيسى ومحمداً لم يكن قط مع تكذيبهما، فصار آية لنبوتهم وهو أيضاً آية لنبوتهم وهو أيضاً آية لنبوة موسى وغيره من أنبيآء بني إسرائيل الذين أحيى الله الموتى على أيديهم، وليس مدلول الآيات هو مجرد دعواه أن الله أرسلني وأخباره عن نفسه بذلك، لأن ذلك معلوم بالحس لمن سمعه، وبالتواتر لمن لم يسمعه بل صدقه في هذا الخبر، وهو ثبوت نبوته، فالآية مستلزمة لصدقه وثبوت نبوته، ومن أخبر غيره عن إرسال الله له وأتى هذا الخبر بآية كانت أيضاً آية على صدق هذا المخبر وثبوت نبوة النبي فإن من أبر عن نبوة نبي من الأنبيآء وأتى بآية على صدقه في خبره كانت تلك آية ودليلاً على نبوة النبي، وإن إخبار المخبر بنبوته صدق، بل كون غيره هو المخبر الآتي بالعلامة أبلغ، ولهذا كانت من أعظم آيات النبي أخبار غيره من الأنبيآء بنبوته.

فإن قال آخر: إنه كذب وأتى بمثل تلك الآية بطلت الدلالة المعينة، ولا يلزم من بطلان دليل معين، بطلان سائر الأدلة، فإن الدليل يجب طرده، ولا يجب عكسه، ولو جاء من قال: إن فلاناً أرسلني ومعه شخص فصدقه وقال: إنه أمرني أن أخبركم بأن رسوله بعلامة كيت وكيت لكان ذلك أبلغ، وكل من علم صدق النبي فقد صدقه أنه[2]... أن يعلم الناس أن يشهد له

---

(1) سورة المنافقون: الآية ١.

(2) بياض في الأصل مقدار سطرين.

بالنبوة، ويحكم بينه وبين منازعيه بتصديقه وتكذيبهم، وذلك بآياته وعلاماته يبين بها أنه مصدق للرسول، وقد يصدقه بكلامه الذي قد بين أنه كلامه فكونه في نفسه آية وعلامة، إذا كان لا يمكن الجن والانس أن يأتوا بمثله، فهو من أعظم الآيات، وبغير ذلك فالآيات كلها شهادة بالنبوة وأخبار بها وتصديق للمخبر، فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله وأوحى اليه كما أوحى إلى غيره من الأنبيآء، وتستلزم أيضاً صدق الأخبار بأنه نبي، فهو إذا قال: إني نبي كان صادقاً، وكذلك كل من أخبر بنبوته فإنه يكون صادقاً، وثبوت الشيء وصدق من أخبر به متلازمان، فكل حق ثابت إذا أخبر به مخبر فهو صادق، وكل خبر صادق فقد تحقق مخبره كالخبر الصادق هو ومخبره متلازمان، يلزم من صدق الخبر تحقق مخبره.

ومن تحقق الشيء صدق المخبر به، بخلاف الكذب فإنه ومخبره ليسا متلازمين، بل الخبر الكاذب يوجد مع انتفاء مخبره، والمخبر به يتحقق على صفة خلاف ما في الخبر الكاذب، فلهذا كانت الآيات والعلامات والدلائل ونحو هذا كما تدل على المدلول، وأنه حق ثابت فهي أيضاً تدل على صدق من أخبر به كائناً من كان، فمن قال: إني ابن فلان وقامت بينة بنسبه فهي تثبت صدقه، وصدق كل من قال هو ابن فلان، وكذلك البينة التي تشهد برؤية الهلال هي تشهد بصدق كل من أخبر بطلوعه، وكذلك كل دليل دل على مدلول فهو دليل صدق كل من أخبر بذلك المدلول عليه.

وكذلك إذا قال الصادق: إن الله أرسلني، فهذا خبر منه عن إرسال الله، فالآية الدالة على صدقه تدل على صدق كل من قال إن الله أرسله، فالآيات الدالة على صدق محمد إذا قال ما أمره الله به في قوله: ﴿قُلْ يا أيُّها النّاسُ إني رَسولُ الله إليكُم جميعاً﴾[1]. هي دالة على صدق كل من قال: أشهد أن محمداً رسول الله، فجميع آياته وآيات الأنبيآء الذين أخبروا بنبوته كموسى والمسيح عليهما السلام وأنبياء بني إسرائيل وغيرهم، كلها آيات ومعجزات تبين صدق كل واحد من المؤمنين به الذين يقول أحدهم أشهد أن محمداً رسول الله، سواء قالها مجردة، أو قالها في صلاته، أو عقب طهارته، أو متى ما قالها، ليست آيات النبوة دالة على أنه وحده هو الصادق في قوله: إني رسول الله إليكم جميعاً، بل الآيات تصدقه، وتصدق كل من شهد له بالرسالة، وهكذا سائر الأدلة الدالة على مدلول، فإنها تدل على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه من جميع الخلق، وقد عرف أن الدليل لا بد أن يكون مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له، فآيات الأنبيآء وسائر أنواع الآيات، والأدلة لا تكون مع نقيض المدلول عليه، أي مع عدمه، فإنها

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

إذا كانت مع وجوده وعدمه لم تكن دالة على وجوده ولا على عدمه، ولم يكن الاستدلال به على وجوده، ولا على عدمه، ولم يكن الاستدلال به على وجوده أولى به من الاستدلال على عدمه، كالأمور المعتادة التي توجد مع الصادق والكاذب، كطلوع الشمس وغروبها، فإن هذه لا تدل على صدق أحد ولا كذبه، وكذلك خوارق السحرة والكهان هي معتادة مع صدق أحدهم ومع كذبه فلا تدل على الصدق إذا كان كذبهم أكثر من صدقهم كالذين يخبرون بكلمة صدق وعشرة كذب. قال تعالى: ﴿هَل أُنبِئُكُم على من تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِ أَفَاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وأَكثرهُم كاذبون﴾[1]. ولا على الكذب والإستدلال بها على صدقه كالإستدلال بها على كذبه، وهي على الكذب أدل.

فكيف إذا كان مع الصدق مائة كذبة كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الكهان كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيءٍ»، قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً فقال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ الكلِمَةُ مِنَ الحَقِ يَحْفَظُهَا الجِني فَيقرهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلُطُونَ فيها أكثَر مِن مائةِ كذبةٍ»[2].

فيلزم من هذا أن آيات الأنبيآء لا يكون مثلها لمن يكذبهم، وهو الذي يخبر بكذبهم، والناس فيهم رجلان: إما مصدق، وإما مكذب، فالمكذب لهم يمتنع أن يأتي بمثل آياتهم، ومتى كذب مكذب لمدعي النبوة، وأتى بمثل آيته سواء دل على أن تلك ليست من آيات الأنبيآء، ولا تدل على صدق النبي، لكن لا يلزم أن يدل على كذبه، فإن الدليل المعين إذا بطل لا يستلزم انتفاء المداول عليه، فقد تكون له آيات أخر تدل على نبوته، وصدق الصادق وكذب الكاذب يعرف بوجوه كثيرة جداً.

وكذلك النبوة لها آثار مستلزمة لها بدون إخبار النبي بأنه نبي، وكذب المتنبي الذي يزين له الشيطان أن يقول أنه نبي له آثار تستلزم انتفاء النبوة وأنه كاذب إما عمداً، وإما أن الشيطان قد لبس عليه، فإن الخبر عند كثير من الناس ينقسم إلى صدق وكذب، فالمطابق هو الصدق، والمخالف هو الكذب، وأثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب، وهو ما لم يتعمده الإنسان.

قال: فهذا ليس بصدق لأنه غير مطابق وليس بكذب لأن صاحبه لم يتعمد الكذب، بل

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.

(٢) بياض في الأصل مقدار كلمتين.

أخطأ، وليس كل من أخطأ يقال إنه كاذب، كالناسي في الصلاة إذا قال: صليت أربعاً ولم يصل إلا ثلاثاً، كما قال النبي ﷺ لما قال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نَسَيْت؟ فَقَالَ: «لَم أنْسَ ولَم تَقْصُرُ» فقال: بلى قد نَسيتَ. فقال: «أكمَا يَقُولُ ذُو اليدين؟» قَالُوا: نعم.

والذي يدل عليه القرآن أن كل من تكلم بلا علم فأخطأ فهو كاذب، كالذين حرَّموا وحَلّلوُا وأوجبوا، وإن كان الشيطان قد زين لهم ذلك وأوهمهم أنه حق، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِ أفَاكٍ أثيم﴾[1]. وهي تتنزل على من يظن أنه يصدقها قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لـه قَرِينٌ. وإنَّهُمْ لَيَصدُّونَهُمْ عَن السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أنَّهُمْ مُهْتَدونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَما قُضِيَ الأمْرُ إنَّ الله وَعَدَكُم وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأخْلَفْتُكُمْ﴾[3]. وكذلك الذي يدل عليه الشرع إن كل من أخبر بخبر ليس له أن يخبر به، وهو غير مطابق فإنه يسمى كاذباً، وإن كان لم يتعمد الكذب كقول النبي ﷺ لما قيل له: إن أبا السنابل قال: ما أنتِ بناكحة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر، فقال: «كَذَبَ أبُو السَّنَابِلِ».

ولما قيل له: إن عامر بن الأكوع حبط عمله لأنه قتل نفسه، فقال: «كـذب من قالها إنَّ لَهُ لأجرينِ إنَهُ جَاهَدَ مُجَاهِدٌ».

ولما قال سعد بن عبادة في يوم الفتح: اليوم يَوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه. وحكاه أبو سفيان لرسول الله ﷺ قال: «كَذَبَ سَعْدُ ولكِنْ هَذِا يَوْمٌ يُعَظِّمُ الله فيهِ الكَعْبَة وَيَوْمٌ تُكْسَى فيهِ الكَعْبَةُ». وكذلك قال عبادة بن الصامت لما قيل له: إن أبا محمد يقول: الوتر واجب، فقال: كذب أبو محمد.

وكذلك إبن عباس لما قيل له إن نوفاً يقول: إن موسى عليه السلام نبي إسرائيل ليس هو موسى الخضر، فقال: كذب نوف، وأيضاً من أخبر الناس خبراً طلب أن يصدقوه فيه، وقد نهوا عن تصديقه إلا ببينة فإنه أيضاً كاذب، كما قال تعالى في القرآن: ﴿لَوْلاَ جَآؤا عَلَيْهِ بِأرْبَعَة شُهَدَآءَ فَإذ لَمْ يَأْتُوا بالشُهَدَآء فَأولَئِكَ عِنْدَ الله هُمُ الكاذِبُون﴾[4].

وقال في القاذفين: ﴿فَاجلدُوهم ثمانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لهُمْ شَهَادَةً أبداً وَأولئكَ هُمُ

(1) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.
(2) سورة الزخرف: الآية ٣٦.
(3) سورة ابراهيم: الآية ٢٢.
(4) سورة النور: الآية ١٣.

الفَاسِقونَ. إلَّا الذينَ تَابُوا من بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وكذلك أن القاذف وإن كان قد رأى الفاحشة بعينه، لكنه إذا أخبر بها الناس فهو يطلب منهم أن يصدقوه بمجرد خبره، وليس لهم ذلك بل ليس لهم أن يصدقوه حتى يأتي بأربعة شهداء، وهو لا يخبر الناس ليكذبوه، بل يخبرهم ليعتقدوا ثبوت ما أخبرهم به، ويعتقدوا أن المقذوف قد فعل الفاحشة، وهم ليس لهم أن يقولوا ذلك إلا بأربعة شهداء، فإذا لم يأتي بأربعة شهداء فهو عند الله كاذب، لأنه أخبر الناس بأن هذا فعل الفاحشة، وقال خبراً طلب به تصديقهم، وإن يظهر أن هذا فعلها، فحقيقة خبره أن هذا فعل فاحشة ظاهرة يرتب عليها هذا، بل إن كان فعل شيئاً فقد فعله سراً لم يعلم به الناس، وقد علم أن الذنب إذا كتم لم يضر إلا صاحبه، ولكن إذا أعلن فلم ينكر ضر الناس، وهذا لم يعلنه، وأكثر المسلمين إذا فعل أحدهم فاحشة باطنة تاب منها ومن إعلانها، يتشبه الناس بعضهم ببعض في ذلك.

فلهذا نهى الله عن فعلها وعن التكلم بها صدقاً وغير صدق، فإنها إذا فعلت وكتمت خف أمرها، وإذا أظهرت كان فيها مفاسد كثيرة، قال النبي ﷺ: «مَنْ ابتُلِيَ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ بِشَيءٍ فلْيَسْتَتِرْ بستر اللهِ فَإنَّ من يبدلنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ». وقال: «كُلُّ أمتي مُعَافى إلا المجَاهِرِينَ وإنَّ مِنَ المجَاهَرة أنْ يَبِيتَ الرَّجُلُ على الذَّنْبِ قد سَتَرَهُ الله فَيُصْبِحَ يقول: يا فلان فَعَلْتُ البَارِحةَ كذا، وكذا». فقد نهى الله تعالى صاحبها أن يظهرها ويعلنها فكيف القاذف، بخلاف ما إذا أقر بها عند ولي أمر ليقيم عليه الحد أو يشهد بها نصاب تام لإقامة الحد، فذاك فيه منفعة وصلاح، وقد يخبر بها بعض الناس سراً لمن يعلمه كيف يتوب ويستفتيه ويستشيره فيما يفعل، فعلى ذلك المفتي والمشير أن يكتم عليه ذلك ولا يشيع الفاحشة، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الناس في من قال: إني رسول، قسمان:

إما مصدق، وإما غير مصدق، فمن ليس بمصدق لا يمكنه أن يأتي بمثل آيات الأنبيآء، سواء قال: إنه كاذب، أو توقف في التصديق والتكذيب، وكذلك المؤمنون أتباع الأنبيآء إذا أتوا بآية كانت دليلاً على نبوة النبي الذي اتبعوه، فلا يمكن من لا يصدق النبي أن يعارضهم، ومتى عارضهم لم يكن من آيات الأنبيآء، ولهذا كان أبو مسلم لما قال له الأسود العنسي: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع؟ قال: أتشهد أن محمداً رسول؟ قال: نعم، فألقاه في النار، فصارت عليه برداً وسلاماً.

فكرامات الصالحين هي مستلزمة لصدقهم في قولهم إن محمداً رسول، ولثبوت نبوته، فهي من جملة آيات الأنبيآء وآياتهم، وما خصهم الله به لا يكون لغير الأنبيآء، وإذا قال القائل:

---

(1) سورة النور: الآية ٤ و ٥.

معجـزات الأنبيآء وآيـاتهم، وما خصهم الله بـه، فهذا كـلام مجمل، فـإنـه لا ريب أن الله خص الأنبيآء بخصائص لا توجد لغيرهـم، ولا ريب أن من آياتهم ما لا يقدر أن يأتي به غير الانبياء، بل النبـي الـواحد لـه آيات لم يـأت بها غيـره من الأنبيآء كـالعصا واليد لموسى عليـه السلام وفـرق البحر، فإن هذا لم يكن لغير موسى، وكانشقـاق القمر والقـرآن وتفجير المـاء من بين الاصابـع، وغير ذلك من الآيات التي لم تكن لغير محمد عليه السلام من الأنبيآء، وكالناقة التي لصالح عليه السلام، فإن تلك الآية لم يكن مثلها لغيره، وهو خروج ناقـة من الأرض بخلاف إحيـاء الموتى، فإنه اشترك فيه كثيـراً من الأنبيآء بـل ومن الصالحين، وملك سليمـان عليه السـلام لم يكن لغيره كمـا قال: ﴿رَبِّ اغْفِـر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَـدٍ مِن بَعدِي﴾[1]. فـطاعـة الجن والـطير وتسخير الريح تحمله من مكان إلى مكان له، ولمن معه، لم يكن مثل هذه الآية لغير سليمان.

وفي الصحيحين عن النبـي ﷺ أنه قال: «مَا مِن نَبـيٍ مِنَ الأَنْبِيَآءِ إلاَّ وَقَـد أوتيَ مِنَ الآيَاتِ مَا أمنَ عَلىَ مِثْلِهِ البَشَرُ، وَإنَّمَا كَانَ الَّذي اوتِيتُهُ وَحْياً أوحَاهُ اللهُ إليَّ فَارجُو أن أكُـونَ أكثرهُم تَـابِعاً يَومَ القِيَامَةِ». وهو من حين أتى بالقرآن، وهو بمكة يقـرأ على الناس: ﴿قُـل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2].

فقد ظهر أن من آيات الأنبيآء ما يختص به النبـي، ومنها ما يأتي به عدد من الأنبياء، ومنهـا ما يشترك فيه الأنبيآء كلهم ويختصون به، وهو الإخبار عن الله بغيبـه الذي لا يعلمـه إلا الله قال: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيبِهِ أَحَداً إلاَّ مَن ارتضَى مِنْ رَسُولٍ فَإنَـهُ يَسْلُكُ مِنْ بَينِ يَدَيْـهِ ومِنْ خَلْفِهِ رصداً لِيَعْلَم أنَ قَدْ أَبْلَغُوا رسالاتِ ربِّهِمْ وأَحَاط بِمَـا لَدَيْهِمْ وأَحْصى كُـلَّ شَيءٍ عَدداً﴾[3].
لكن ما يظهر على المؤمنين بهم من الآيات بسبب الإيمان بهم فيه قولان: قال طائفة: ليس ذلك من آياتهم، وهذا قول من يقول من شرط المعجزة أن تقارن دعوى النبوة لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنهـا، كما قـاله هؤلاء الـذين يجعلون خاصـة المعجزة التحـدي بـالمثـل، وعـدم المعـارضـة، ولا يكون إلا مع الدعوى كما تقدم، وهو قول قد عرف فساده من وجوه.

والقـول الثاني وهـو القول الصحيـح: إن آيات الأوليـاء هي من جملة آيات الانبيـآء فإنهـا مستلزمة لنبوتهم، ولصـدق الخبر بنبـوتهم، فإنـه لولا ذلـك لما كـان هؤلاء أولياء، ولم تكن لهم كرامات، لكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الأوليـاء، وبين خوارق السحـرة والكهان، ومـا يكون للكفـار والفساق وأهـل الضلال والغي بـإعانـة الشياطين لهم، كمـا يفـرق بين ذلـك وبين آيـات الأنبيآء، والفروق بين ذلك كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع.

***

(١) سورة ص: الآية ٣٥. (٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨. (٣) سورة الجن: الآية ٢٨.

فصل
الدليل والمدلول

فقد تبين أن من آيات الأنبيآء ما يظهر مثله على أتباعهم، ويكون ما يظهر على أتباعهم من آياتهم، فإن ذلك مختص بمن يشهد بنبوتهم، فهو مستلزم له، لا تكون تلك الآيات إلا لمن أخبر بنبوتهم، وإذا لم يخبر بنبوتهم لم تكن له تلك الآيات، وهذا حد الدليل، وهو أن يكون مستلزماً للمدلول عليه، فإذا وجد الدليل وجد المدلول عليه، وإذا عدم المدلول عليه عدم الدليل، ولهذا من السلف من يأتي بالآيات دلالة على صحة الإسلام وصدق الرسول، كما ذكر أن خالد بن الوليد شرب السم لما طلب منه آية ولم يضره.

***

فصل
خرق العادة

في معنى خرق العادة، وأن الاعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الأنبيآء مطلقاً، بحيث تختص بالأنبيآء، فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم، وأما إخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة لأخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة بحيث يموت الإنسان من السحر، أو يمرض ويمنع من النكاح، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين، فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس، ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس، كما يختص قوم بخفة اليد والشعوذة، وقوم بالسباحة الغريبة، حتى يضطجع أحدهم على الماء، وكما يختص قوم بالقيافة[1] حتى يباينوا بها غيرهم، وكما يختص قوم بالعيافة[2] ونحو ذلك مما هو موجود.

ولهذا كان مكذبو الرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر، وهذا مستقر في نفوسهم أن الساحر ليس برسول ولا نبي، كما في قصة موسى لما قالوا: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرونَ﴾[3]. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[4]. وهذا لحيرتهم وضلالتهم تارة ينسبون إلى الجنون وعدم العقل، وتارة إلى الحذق والخبرة التي ينال بها السحر، فإن السحر لا يقدر عليه ولا يحسنه كل أحد، لكن العجائب والخوارق المقدورة للناس منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن، كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات، وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه، وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل.

فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد، بل أهل الإقليم، لكنها مع

---

(١) القيافة: تتبع الآثار والأشياء والإستدلال.

(٢) العيافة: زجر الطير عن أماكنها للفأل الحسن أو السيء.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٠.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

مقدوره مكتسبة معتادة بدون النبوة، قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم، أو في مكان آخر، فليست هي خارقة لعادة غير الأنبيآء مطلقاً، بل توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون أنهم أنبيآء، ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبيآء.

ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس فإنهم لما رأوا آيات الأنبيآء خارقة للعادة لم يعتد الناس مثلها، أخذوا مسمى خرق العادة، ولم يميزوا بين ما يختص به الأنبيآء، ومن أخبر بنبوتهم، وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم، واضطربوا في مسمى هذا الإسم، كما اضطربوا في مسمى المعجزات، ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا من آيات وبراهين، فإن ذلك إسم يدل على مقصودها، ويختص بها لا يقع على غيرها لم يسمها معجزة، ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها فهي لا تكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها، وهو من لوازمها، لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أهم منه، وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة، هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً.

كما أن بعض الناس يجعل أسمها أنها عجائب. وآيات الأنبيآء إذا وصفت بذلك، فينبغي أن يقيد بما يختص بها فيقال العجائب التي أتت بها الأنبيآء، وخوارق العادات، والمعجزات التي ظهرت على أيديهم، أو التي لا يقدر عليها البشر، أو لا يقدر عليها الإنس والجن، أو لا يقدر عليها إلا الله بمعنى أنه لا يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب، كما يقدرون على السحر والكهانة، فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم، وإلا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعوذة ونحوها، والتعجب في الله يكون من أمر خرج عن نظائره وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره، فهو أيضاً خارق للعادة، وهذا شرط في آيات الأنبيآء، أن لا يكون لها نظير لغير الأنبيآء ومن يصدقهم، فإذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الأنبيآء، ومن شهد لهم بالنبوة لم تكن تلك من آياتهم، بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم ومن لا يخبر بنبوتهم، كما يشترك هؤلاء في الطب والصناعات.

وأما السحر والكهانة فهو من إعانة الشياطين لبني آدم، فإن الكاهن يخبره الجن، وكذلك إنما يقتل ويمرض ويصعد في الهواء ونحو ذلك، بإعانة الشياطين له، فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس بإعانة الشياطين لهم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ وقال أولياؤهم من الإنس رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾[1] فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض، فاستخدم

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٨.

هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة، كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ليعينه على غرضه، والسحر والكهانة من هذا الباب.

وكذلك ما يوجد لعباد الكفار من المشركين والملحدين من المظهرين للإسلام والمبتدعين منهم كلها بإعانة الجن والشياطين، لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه، فإذا كان القوم كفاراً لا ينكرون السحر والكهانة كما كانت العرب، وكالهند والترك والمشركين، ظهروا بهذا الوصف، لأن هذا معظم عند تلك الأمة، وإن كان هذا مذموماً عند أولئك كما قد ظهر ذم هؤلاء عند أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة، ولا يكون مخلصاً لله في عبادته متبعاً للأنبيآء بل يكون فيه شرك ونفاق وبدعة، فتظهر له هذه الأمور التي ظهرت للكهان والسحرة حتى يظن أولئك أن هذه من كرامات الصالحين، وأن ما هو عليه هذا الشخص من العبادة هو طريق أولياء الله، وإن كان مخالفاً لطريق الأنبيآء حتى يعتقد من يعتقد أن لله طريقاً يسلكها إليه أولياؤه غير الإيمان بالأنبيآء وتصديقهم.

وقد يعتقد بعض هؤلاء أن في هؤلاء من هو أفضل من الأنبياء، وحقيقة الأمر أن هؤلاء عارضوا الأنبيآء، كما كانت تعارضهم السحرة والكهان، كما عارضت السحرة لموسى، وكما كان كثير من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهان، دون النبي ﷺ ويجعلونه نظير النبي، وكان في العرب عدة من هؤلاء، وكان بالمدينة منهم أبو برزة الأسلمي قبل أن يسلم كان كاهناً.

وقد قيل: إن الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ مَنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوآ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوآ أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾(١).

وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين، ولما كان الذين يعارضون آيات الأنبيآء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم، بل يكون بينهما شبه كشبه الشعر بالقرآن، ولهذا قالوا في النبي: إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون، قال تعالى: ﴿أنظرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعونَ سَبِيلاً﴾(٢). فجعلوا له مثلاً لا يماثله بل بينهما شبه مع وجود الفارق المبين، وهذا هو القياس الفاسد، فلما كان الشعر كلاماً له فواصل ومقاطع، والقرآن آيات له فواصل ومقاطع، قالوا: شاعر، ولكن شتان، وكذلك الكاهن يخبر ببعض المغيبات، ولكن يكذب كثيراً، وهو يخبر بذلك عن الشياطين، وعليه من آثارهم ما يدل على أنه أفاك أثيم كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾(٣). ثم

(١) سورة النساء: الآية ٥٩. (٢) سورة الفرقان: الآية ٩. (٣) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.

قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمونَ وَأَنَّهم يَقُولُونَ مَا لَا يَفعلُون﴾[1].

فذكر سبحانه الفرقَ بين النبي وبين الكاهن والشاعر، وكذلك الساحر لما كان يتصرف في العقول والنفوس بما يغيرها، وكان من سمع القرآن وكلام الرسول خضع له عقله ولبه وانقادت له نفسه وقلبه، صاروا يقولون: ساحر، وشتان. وكذلك مجنون لما كان المجنون يخالف عادات الكفار وغيرهم، لكن بما فيه فساد لا صلاح. والانبيآء جاؤوا بما يخالف عادات الكفار. لكن بما فيه صلاح لا فساد قالوا: مجنون، قال تعالى: ﴿كَذٰلِك مَآ أَتَى الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون أَتَوَاصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾[2]. فتارة يصفونه بغاية الحذق والخبرة والمعرفة، فيقولون ساحر. وتارة بغاية الجهل والغباوة والحمق فيقولون مجنون، وقد ضلوا في هذا، وهذا كما قال تعالى: ﴿أنظرْ كيفَ ضَربُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلوا فَلَا يَسْتَطِيعون سَبِيلا﴾[3].

فهم بمنزلة السائر في الطريق وقد ضل عنها يأخذ يميناً وشمالاً ولا يهتدي إلى السبيل التي تسلك، والسبيل التي يجب سلوكها قول الصدق والعمل بالعدل. والكهانة والسحر يناقض النبوة، فإن هؤلاء تعينهم الشياطين تخبرهم وتعاونهم بتصرفات خارقة، ومقصودهم الكفر والفسوق والعصيان، والأنبيآء تعينهم الملائكة، هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب ويعاونونهم بتصرفات خارقة. كما كانت الملائكة تعين النبي ﷺ في مغازيه مثل يوم بدر أمده الله بألف من الملائكة، ويوم حنين قال: ﴿وَيَوْمَ حُنينٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرين، ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمنينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَروهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَآءُ الكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىَ مَنْ يَشَآءُ وَالله غَفُور رَحِيمٌ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إلَّا تَنصُروهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إذْ أَخْرَجه الّذينَ كَفَرُوا ثَانيَ اثْنَينِ إذْ هُمَا في الغارِ إذ يَقُولُ لِصَاحِبِه لَا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنَا فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[5]. وقال تعالى: ﴿إذْ يُوحي رَبكَ إلى الملآئِكَةِ أَنيّ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الّذِينَ آمَنُوا سَأُلقي في قُلوبِ الّذِينَ كَفَروا الرعْبَ﴾[6].

وقد بين سبحانه أن الذي جاء بالقرآن ملك كريم ليس بشيطان، فقال: ﴿إنّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ

---

(1) سورة الشعراء: الآية ٢٢٤.
(2) سورة الذاريات: الآية ٥٢.
(3) سورة الفرقان: الآية ٩.
(4) سورة التوبة: الآيتان ٢٦، ٢٧.
(5) سورة التوبة: الآية ٤٠.
(6) سورة الأنفال: الآية ١٢.

كَرِيم ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذي العَرْش مَكِين مُطَاع ثَمَّ أمين، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنون، وَلَقَدْ رَآهُ بالأُفُقِ المُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَىَ الغَيْبِ بضنين، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٌ رَجيم فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[1].

ولما كانت الأنبيآء مؤيدة بالملائكة، والسحرة والكهان تقترن بهم الشياطين. والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن كابن سينا وأمثاله، ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس قالوا: والفرق بين النبي والساحر أن النبي يأمر بالخير، والساحر يأمر بالشر، وجعلوا ما يحصل للمرور من هذا الجنس إذ لم يعرفوا صرع الجن للإنسان، وأن الجني يتكلم على لسان الإنسان، كما قد عرف ذلك الخاصة والعامة، وعرفه علماء الأمة وأئمتها، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والجهمية المجبرة الذين قالوا: إن الله قد يفعل كل ممكن مقدور لا ينزهونه عن فعل شيء، ويقولون إنه يفعل بلا سبب ولا حكمة، وهو الخالق لجميع الحوادث لم يفرقوا بين ما تأتي به الملائكة، ولا ما تأتي به الشياطين، بل الجميع يضيفونه إلى الله على حد واحد، ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم، حتى يأتي الرسول، فقبل ثبوت الرسالة لا يميزون بين شيء من الخير والشر، والحسن والقبيح، فلهذا لم يفرقوا بين آيات الأنبيآء وخوارق السحرة والكهان، بل قالوا: ما يأتي به السحرة والكهان يجوز أن يكون من آيات الأنبيآء يجوز أن يظهر على أيدي السحرة والكهان.

لكن إن دل على انتفاء ذلك نص أو إجماع نفوه مع أنه جائز عندهم أن يفعله الله، لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله، فهؤلاء لما رأوا ما جاءت به الأنبيآء، وعلموا أن آياتهم تدل على صدقهم، وعلموا ذلك إما بضرورة، وإما بنظر واحتاجوا إلى بيان دلائل النبوة على أصلهم، كان غاية ما قالوا أنه كل شيء يمكن أن يكون آية للنبي بشرط أن يقترن بدعواه وبشرط أن يتحدى بالإتيان بالمثل فلا يعارض، ومعنى التحدي بالمثل أن يقول لمن دعاهم: ائتوا بمثله، وزعموا انه إذا كان هناك سحرة وكهان، وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم من السحر والكهانة، فإن الله لا بد أن يمنعهم عن مثل ما كانوا يفعلونه، وأن من ادعى منهم النبوة فإنه يمنعه من تلك الخوارق، أو يقيض له من يعارضه بمثلها، فهذا غاية تحقيقهم، وفيه من الفساد ما يطول وصفه، وطاعة الجن والشياطين لسليمان صلوات الله عليه لم تكن من جنس معاونتهم للسحرة، والكهان والكفار وأهل الضلال والغي، ولم تكن الآية والمعجزة والكرامة التي أكرمه الله بها هي ما كانوا يعتادونه مع الإنس، فإن ذلك إنما كان يكون في أمور معتادة مثل اخبارهم أحياناً ببعض الغائبات، ومثل إمراضهم وقتلهم لبعض الإنس، كما أن الإنس قد يمرض ويقتل

---

(١) سورة التكوير: الآيتان ١٩، ٢٦.

غيره، ثم هم إنما يعاونون الإنس على الإثم والعدوان إذا كانت الأنس من أهل الإثم والعدوان يفعلون ما تهواه الشياطين، فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾(1).

وأما التسخير الذي سخروه لسليمان فلم يكن لغيره من الأنبياء، فضلاً عن من ليس بنبي، وقد سأل ربه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فقال: ﴿رَبِّ اغْفِر لِي وَهَب لِي مُلكاً لا يَنبغِي لأَحَدٍ مِن بَعدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾. قال تعالى: ﴿فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رَخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أو أمسِكْ بغيرِ حِسَابٍ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ، وَمِنَ الشَيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِين﴾(3).

وقال تعالى: ﴿ولِسُلَيْمَان الريح غُدُوهَا شَهْرٌ ورواحُهَا شَهْرٌ وأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القَطْرِ ومِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْن يَدَيْهِ بإِذْنِ رَبِّهِ ومن يَزِغ منهم عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَعيرِ، يَعْمَلُون لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيب وتماثيل وجِفَانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسيَاتٍ اعملوا آل داود شُكراً وقَليلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَكُورُ، فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيهِ الموت مَا دلَّهُمْ على مَوْتِهِ إلَّا دابةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ منسأتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الجِنُّ أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا في العَذَابِ المُهينِ﴾(4).

وكذلك ما ذكره من قول العفريت له: ﴿أنا آتيك بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُوم مِنْ مَقَامِكَ﴾(5). فهذه الطاعة من التسخير بغير اختيارهم في مثل هذه الأعمال الظاهرة العظيمة، ليس مما فعلته بأحد من الأنس، وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً، مما يهوونه من العزائم والأقسام والطلاسم الشكرية، كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا فنزهه الله من ذلك بقوله: ﴿واتَّبَعُوا مـا تتلو الشَياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِن الشَيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِحْرَ﴾(6). وأما طاعة الجن لنبينا وغيره من الرسل كموسى، فهذا نوع آخر، فإن هذا طاعتهم فيما أمرهم الله به من عبادته وطاعته، كطاعة الإنس لنبينا حيث أرسل إلى الطائفتين فدعاهم إلى عبادة الله وحده

---

(1) سورة ص: الآيتان ٣٥، ٣٩.
(2) سورة ص: الآيات ٣٦ ــ ٣٩.
(3) سورة الأنبياء: الآية ٨١.
(4) سورة سبأ: الآيتان ١٢، ١٥.
(5) سورة النمل: الآية ٣٩.
(6) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

وطاعته ونهاهم عن معصيته التي بها يستحقون العذاب في الآخرة، وكذلك الرسل دعوهم إلى ذلك، وسليمان منهم، لكن هذا إنما ينتفع به منهم من آمن طوعاً، ومن لم يؤمن فإنه يكون بحسب شريعة ذلك الرسول، هل يترك حتى يكون الله هو الذي ينتقم منه أو يجاهد.

وسليمان كان على شريعة التوراة واستخدامه لمن لم يؤمن منهم هو مثل استخدام الأسير الكافر، فحال نبينا مع الجن والأنس أكمل من حال سليمان وغيره، فإن طاعتهم لسليمان كانت طاعة ملكية فيما يشاء، وأما طاعتهم لمحمد فطاعة نبوة ورسالة فيما يأمرهم به من عبادة الله، وطاعة الله واجتناب معصية الله، فإن سليمان ﷺ كان نبياً ملكاً ومحمد كان عبداً رسولاً مثل إبراهيم عليهم السلام، وموسى وسليمان مثل داود ويوسف عليهم السلام وغيرهما مع أن داود وسليمان ويوسف عليهم السلام هم رسل أيضاً دعوا إلى توحيد الله وعبادته، كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر لكن بغير معاداة لمن لم يؤمن، ولا إظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه كما كان نبينا أول ما أنزل عليه الوحي، وكانت قريش إذ ذاك تقره ولا ينكر عليه إلى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم وعيب ما كانت عليه آباؤهم وسفه أحلامهم، فهنالك عادوه وآذوه، وكان ذلك جهاداً باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنا لبعثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً فلَا تطع الكافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(1) وكذلك موسى مع فرعون أمره أن يؤمن بالله، وأن يرسل معه بني إسرائيل وإن كره ذلك وجاهد فرعون بإلزامه بذلك بالآيات التي كان الله يعاقبهم بها إلى أن أهلكه الله على يديه.

***

(1) سورة الفرقان: الآية ٥١ و٥٢.

فـصـل

شرط خرق العادة بين النبي وغيره

فالذين سموا هذه الآيـات خوارق للعـادات، وعجائب ومعجـزات، إذا جعلوا ذلك شـرطاً فيها وصفة لازمة بحيث لا تكون الآيـات إلا كذلـك، فهذا صحيـح، وإن كانت هـذه الأمور قـد تجعل أمراً عاماً، فتكون متناولة لآيات الأنبيـآء وغيرهـا، كالحيـوان الذي ينقسم إلى إنســان وغير إنسان، وأما إذا جعلوا ذلك حداً لها وضابـطاً، فلا بـد أن يقيدوا كـلامهم مثل أن يقـولوا خـوارق للعادات التي تختص الأنبيآء، أو يقولوا خوارق عادات الناس كلهم غير الأنبيآء، فإن آياتهم لا بد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم، وكـل طائفـة من الطوائف، لا تختص آيـاتهم بخرق عـادة بلد معين، ولا من أرسلوا إليـه، بل تخـرق عادة جميـع الخلق إلا الأنبيآء، فـإنهـا إذا كـانت معتـادة للأنبيآء مثل الخبر الصادق بغيب الله تعالى الذي لا يعرف إلا من جهتهم، فما كان معتاداً للأنبيآء دون غيـرهم فهو من أعـظم آياتهم وبـراهينهم، وأن كان معتـاداً لهم فإن الـدليـل هـو مـا يستلزم المدلول عليه، فإذا لم يكن ذلك معتاداً إلا لنبي كـان مستلزماً للنبـوة، وكان من أتى بـه لا يكون إلا نبياً وهو المطلوب.

بل لو كان مستلزماً للصـدق ولا يأتي بـه إلا الصادق لكـان المخبر عن نبـوة نبي، إما نبـوة نفسه أو نبوة غيرها، إذا كـان كاذبـاً لم يحصل لـه مثل ذلـك الدليـل الذي هـو مستلزم للصدق، ولا يحصل أيضاً لمن كذب بنبوة نبي صادق، إذا هو أيضاً كاذب، وإنمـا يحصل لمن أخبـر بنبوة نبي صادق، وحينئذ فيكون ذلك الدليل مستلزماً للخبر الصادق بنبوة النبي، وهذا هو المـطلوب، فإن مدلول الآيات سواء سميت معجزات أو غيرها هو الخبر الصادق بنبوة النبي، ومدلولهـا إخبار الله وشهادته بأنه نبي، وأن الله أرسله فقـول الله: محمد رسـول الله، وقولـه: إني رسول إليكم، وقول كل مؤمن إنه رسول الله، كل ذلك خبر عن رسالتـه، وهذا هـو مدلـول الآيات نفس النبـوة التي هي مخبر هذا الخبر ويكون الدليل مثل خبر من الأخبار، وهذا من جنس الأول.

فمـا دل على نفس النبوة دل على صـدق المخبر بهـا، وما دل على صـدق المخبر بهـا دل عليها، وأما نفس أخبار الرب بالنبوة وإعلامه بها وشهادته بها قولاً وعملاً فهـو إخبار منـه بها وهـو الصادق في خبره، .فإخباره هو دليل عليها، فإنه لا يقول إلا الحق ولا يخبـر إلا بالصـدق، وأيضاً فهو الذي أنشأ الرسالة، وإرسـاله بكلامه قد يكون إنشـاء للرسالـة، وقد يكـون إخباراً عن إرسـاله

كالذي يرسل رسولاً من البشر قد يرسله والناس يسمعون فيقول له: إذهب إلى فلان فقل له: كذا وكذا، وقد يرسله بينه وبينه، ثم يقول للناس إني قد أرسلته، ويرسله بعلامات وآيات يعرف بها المرسل إليه صدقه، وكذلك إذا وصفت بأنها معجزات فلا بد أن يعجز كل من ليس بنبي ولم يشهد للنبي بالنبوة، فيعجز جميع المكذبين للرسول والشاكين في نبوته من الجن والأنس.

وكذلك إذا قيل هي عجائب، والعجب ما خرج عن نظيره فلم يكن له نظير، فلا بد أن يكون من العجائب التي لا نظير لها أصلاً عند غير الأنبيآء، لا من الجن ولا من الإنس، فإذا كان ليس لها نظير في شيء آخر، فهذا يؤدي أنها من خصائص الأنبيآء ومن آياتهم، فهذا الموضع من فهمه فهماً جيداً تبين له الفرقان في هذا النوع، فإن كثيراً من الناس يصفها بأنها خوارق ومعجزات وعجائب ونحو ذلك، ولا يحقق الفرق بين من يجب أن يخرق عادته [ومعجزته][1]، ومن لا يجب أن يكون في حقه كذلك.

فالواجب أن يخرق عادة كل من لم يقر بنبوة الأنبيآء، فلا يكون لمكذب بنبوتهم ولا لشاك، وقولنا بخرق عادتهم هو من باب العادة التي تثبت بمرة، ليس من شرط فسادها أن تقع غير مرة، مع انتفاء الشهادة بالنبوة لم تكن مختصة بشهادة النبوة ولا بالنبوة، فلا يجب أن تكون آية، وقولنا: ولا يجب أن تخرق عادات الأنبيآء ولم نقل: ولا يجوز أن تخرق عادات الانبيآء ولم نقل: ولا يجوز أن تخرق عادات الأنبيآء، بل قد تكون خارقة أيضاً لعادات الأنبيآء، وقد خص بها نبي واحد مثل أكثر آيات الأنبيآء، فإن كل نبي خص بآيات لكن لا يجب في آيات الأنبيآء أن تكون مختصة بنبي بل ولا يجب أن يختص ظهورها على يد النبي، بل متى اختصت به وهي من خصائصه كانت آية له سواء وجدت قبل ولادته أو بعد موته، أو على يد أحد من الشاهدين له بالنبوة، فكل هذه من آيات الأنبياء.

والذين قالوا: من شرط الآيات أن تقارن دعوى النبوة، غلطوا غلطاً عظيماً، وسبب غلطهم أنهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات، ولم يضبطوا خراق العادة بضابط يميز بينها وبين غيرها، بل جعلوا ما للسحرة والكهان هو أيضاً من آيات الأنبيآء إذا اقترن بدعوى النبوة ولم يعارضه معارض، وجعلوا عدم المعارض هو الفارق بين النبي وغيره، وجعلوا دعواه النبوة جزءاً من الآية فقالوا: هذا الخارق إن وجد مع دعوى النبوة كان معجزة وإن وجد بدون دعوى النبوة لم يكن معجزة، فاحتاجوا لذلك أن يجعلوه مقارناً للدعوى.

قالوا: والدليل على ذلك أن مثل آيات الأنبياء يأتي في آخر الزمان إذا جاءت أشراط

---

(١) وردت في الأصل: ومعجزه.

الساعة، ومع ذلك ليس هو من آياتهم، وكذلك قالوا في كرامات الإوليـاء، وليس الأمر كـذلك، بل أشراط الساعة هي من آيات الأنبيآء من وجوه منها: أنهم أخبروا بها قبل وقوعها، فإذا جـاءت كمـا أخبروا كـان ذلك من آيـاتهم، ومنها أنهم أخبـروا بالسـاعة، فهـذه الأشرطـة مصدقـة لخبـر بالساعة، وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبيآء، وكل من كـذب الأنبيآء كـذب الساعـة قال تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾(2) فكل من آمن بالآخرة فقد آمن بالقرآن، فإذا جاءت أشراط الساعة كانت دليلاً على صدق خبـرهم أن الساعـة حق، وأن القرآن حق، وكـان هذا من الآيات الدالة على صدق مـا جاء بـه الرسـول من القرآن وهـو المطلوب، فـلا يوجـد خرق عـادة لجميع الناس إلا وهو من آيات الأنبيآء.

وكذلك الذي يقتله الدجال ثم يحييه فيقـوم فيقول: أنت الأعـور الكذاب الـذي أخبرنـا به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك بهذا القتل إلا بصيرة، فيريد الدجال أن يقتله، فـلا يقدر على ذلك، فهذا الرجل بعد أن قتل وقـام يقول للدجـال أنت الأعور الكـذاب الذي أخبـرنا بـه رسول الله ﷺ والله مـا اردت فيك بهـذا القتل إلا بصيـرة، ثم يريـد الدجـال أن يقتله فلا يقـدر عليه، فعجزه عن قتله ثانياً مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله وشهادتـه للرسول محمـد بالـرسالـة هو من خوارق العادات التي لا توجد إلا لمن شهد للأنبيآء بالـرسالـة، وهذا الـرجل هـو من خيار أهـل الأرض المسلمين.

فهذا الخارق الذي جرى فيـه هو من خصـائص من شهد لمحمـد بالنبـوة، فهو من أعـلام النبـوة ودلائلها، وكـونه قتـل أولاً أبلغ في الدلالـة، فإن ذلـك لم يزغـه ولم يؤثر فيـه، وعلم أنـه لا يسلط عليه مرة ثانية ، فكان هذا اليقين والإيمان مع عجزه عنه هو خوارق الآيات، ومعلوم أن قتله ممكن في العادة، فعجزه عن قتله ثانياً هـو الخارق للعـادة، ودل ذلك على أن إحيـاء الله له لم يكن معجـزة للدجال، ولا ليبين بهـا صدقـه، لكن أحياه ليكـذب الدجـال، وليبين أن محمداً رسول الله، وأن الدجال كذاب وأنه هو الأعور الكذاب الـذي أنذر بـه النبي ﷺ حيث قال: «مـا

(1) سورة الأنعام: الآية ١١٢ و١١٣.

(2) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

مِنْ نبي إلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الدَّجالَ، وسَأَقُولُ لَكُمْ فيـهِ قولاً لَمْ يَقُلْهُ نَبيٌ، إنّـهُ أعْوَرُ وإنَّ الله لَيْسَ بأعْوَرَ، مَكْتوبٌ بَينَ عينيهِ كَافِرٌ، يقرأه كُلُ مُؤْمنٍ قَارِىءٍ وَغَير قارِىء».

وفي بعض الأحاديث الصحيحة: «وَاعْلَمُوا أنَّ أحَداً منكُمْ لَن يَرى رَبَّهُ حَتى يَمُوتَ». فذكر لهم آيات ظاهرة يشترك فيها الناس تبين لهم كذبه فيما يدعيه من الربوبية، إذ كان كثير من الناس يجوزون ظهور الإله في البشر النصارى وغير النصارى، وما يأتي به الدجال إنما يحار فيـه ويراه معارضاً لآيات الأنبيآء من لم يحكم الفرقان، فقوم يكذبون أن يأتي بعجيب ويقولون: مـا معه إلا التمويه كما قالوا في السحر والكهنة، مثل كثير من المعتزلة والظاهرية كابن حزم، وقوم يقولـون: لما ادعى الإلهية كانت الدعوى معلومة البطلان، فلم يظهر الخارق كمـا يقول ذلـك القاضي أبـو بكر وطائفة.

ويدعون أن النصارى اعتقدت في المسيح الإلهية لكونه أتى بالخوارق مع إقراره بالعبودية، فكيف بمن يدعي الإلهية؟ ولكن هـذا الخارق الـذي يظهـره الله في هذا الـرجل الصـالح الـذي طلب منه الدجـال أن يؤمن به فلم يفعـل بل كـذبه وقـال: أنت الأعور الـدجال الـذي أخبرنـا به النبي ﷺ فقتله، ثم أحياه الله فقال له: أنت الأعور الدجال فكذبه [قيل أنه][1] قتـل بعدمـا أحياه الله، وأراد الدجال قتله ثانية فلم يمكن، فعجـزه عن قتله ثانيـاً من أعظم الخـوارق مع تكـذيبه، وأما إحياؤه مع تكذيبه له أولاً وعجـزه ثانيـاً عن قتله فليس بخارق، فهـذا إحياء معين معـه دلائل معدودة تبين أنه من الآيات الدالة على صدق الـرسول لا على صـدق الدجـال، وتبين بذلـك أن الآيات جميعها تدل على صدق الأنبيآء، فإن آيات الله مرة أو مـرتين أو ثلاثـاً لا يشترط في ذلـك تكرار بل شرطها أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الأنبيآء، ومن يشهد بالنبوة ولـم يوجد لغيـرها كان هذا دليـلاً على أنها مختصـة بالأنبيـآء، ومن أطلق خرق العـادة ولم يفسره ويبينـه فلم يعرف خاصتها بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة خرق عادة، أو ظن أن خرق العادة أن لا يعارضها معارض من المرسل إليهم، وكثير من المتنبئين الكذابين أتوا بخـوارق من جنس خوراق السحـرة والكهـان، ولـم يكن من اولئك القـوم من أتى بمثلها، لكن قـد علم أن في العالم مثلهـا في غيـر ذلـك المكان أو في غيـر ذلك الـزمان، وإنمـا الخارق كمـا قال في القـرآن: ﴿قُل لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْس وَالجِن عَلَى أنْ يَـأْتُـوا بِمِثْـلِ هَـذَا القُـرْآن لا يَـأْتُـونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَـانَ بعضهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾[2].

ولهذا قال في آيات التحدي: ﴿أم يَقُولونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا

---

(١) وردت في الأصل، قبل أن.

(٢) سورة الأسراء: الآية ٨٨.

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ منْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صِادقيـنَ﴾. وقـال في تلك الآية: ﴿فَـإِنْ لَمْ يَسْتَجيبوا لَكُمْ فَاعْلَموآ أَنَمَآ أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَنْ لَآ إِلهَ إلا هُوَ﴾[1]. فلم يكتف بعجز المدعـوين، بل أمـرهم أن يدعوا إلى معاونتهم كل من استطاعوا أن يدعوه من دون الله، وهـذا تعجيز لجميـع الخلق الإنس والجن والملائكة، وقال في البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ ممَا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسورةٍ منْ مثْلِهِ وادعُوا شُهَدَآءكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. أي ادعوا كل من يشهد لكم فيـوافقكم على أن هذا ليس من عند الله، ادعوا كل من لم يقر بأن هـذا منزل من الله ، فهـذا تعجيز لكـل من لم يؤمن بـه، ومن آمن به وبقي في ريب قـل قد علم أنـه من عنـد الله، وهـذا التحـدي في البقـرة وهي مدنيـة بعد يـونس وهـود، ولهـذا قـال: ﴿وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ﴾. وهنـاك قـال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ﴾. فهذا تحدي لكل مرتاب، وذاك تحدي لكل مثل مكذب، ولهـذا قيل في ذاك: ﴿مَنْ استَطعتم﴾ فإنـه أبلغ، وقيل في هـذا (شهدآءكم) وقـد قال بعض المفسـرين شهـداءكم: آلهتكم. وقال بعضهم: من يشهد أن الذي جئتم به مثل القرآن، والصـواب أن شهداءهم الـذين يشهدون لهم كما ذكره ابن اسحق بإسناده المعروف عن ابن عباس قال: شهـداءكم من استطعتم من أعـوانكم على مـا أنتم عليـه، وقـال السـدي عن أبي مـالـك: شهـداءكم من دون الله أي: شركاءكم، فإن هؤلاء هم الذين يتصور منهم المعارضـة إذا كانـوا في ريب منه، أمـا من أيقن أنه من عند الله فإنه يمتنع أن يقصد معارضته لعلمه بأن الخلق عاجزون عن ذلك، والله تعـالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات فادعوا من يشهد لكم، وهؤلاء يشهدون من دون الله لا يشهدون بما شهد الله به، فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله كما قال: ﴿لَكِنْ الله يَشْهَدُ بِمَا أَنْـزَلَ إِلَيْكَ أَنْـزَلَهُ بِعِلْمِـهِ وَالمَـلآئِكَـةُ يشهـدون﴾[3]. وقـال: ﴿قُـلْ كَفى بـالله شَهيـداً بيني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ علمُ الكِتَابِ﴾[4].

كما قال: ﴿شَهِدَ الله أَنَهُ لَآ إله إلا هُوَ وَالمَلآئِكَةُ وَأُولُو العِلمِ﴾[5]. وقد قلنا: يجوز أن تكون آياتهم خارقة لعادة جميع الخلق إلا للنبي، لكن لا يجب هذا فيها.

فان قيل: قد ذكرتم أن آيـات الأنبيآء هي الخـوارق التي تخرق جميـع الثقلين، فلا تكـون لغير الأنبيآء، ولغير من شهد لهم بالنبوة، وهذا كلام صحيح فصلتم به بين آيات الأنبيآء وغيـرهم بفصل مطرد منعكس، بخلاف من قال: هي خـرق العادة، ولـم يميـز بينها وبين غيـرها، وتكلم في خرق العادة بكلام متناقض تارة يمنع وجـود السحر والكهـانة، وتـارة يجعل هـذا الجنس من الآيات، ولكن الفرق عدم المعارضة، لكن لم يذكروا الفرق في نفس الأمر ونفس كونهـا معجزة

(١) سورة هود: الآيتان ١٣، ١٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٥.
(٤) سورة الرعد: الآية ٤٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨.

وخارقاً وآية، لماذا كان وما هو الوصف الذي امتازت به حتى صارت آية ودليلاً دون غيرها فذكرتم الدليل، لكن لم تذكروا الحقيقة التي بها صار الدليل دليلاً، قيل: لا بد أن تكون مما يعجز عنها الأنس والجن، فإن هذين الثقلين بعث إليهم الرسل، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرُ الجنّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذا قَالُوا شَهِدنَا عَلَى أَنْفُسِنَاوَغَرَّتْهُمْ الحَيَاةُ الدُنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهم خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُم آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[2]. والإنس والجن منهم من آمن بالرسل ومنهم من كذبهم فلا بد أن يكون مما لا يقدر عليها جنس الإنس والجن، ثم الكرامات يخص بها المؤمنين من الطائفتين، وأما آيات الأنبيآء التي بها تثبت نبويهم، وبها وجب على الناس الإيمان بهم، فهي أمر يخص الأنبياء لا يكون للأولياء ولا لغيرهم، بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الأنس والجن غير الأنبياء، فما كان الأنس أو الجن يقدرون عليه فلا يكون وحده آية للنبي، أما ما تقدر عليه الملائكة فذاك قد يكون من آياتهم لأنهم لم يرسلوا إلى الملائكة، والملائكة لا تفعل شيئاً إلا بإذن الله، فما تفعله الملائكة معهم فهو بإذن الله وهو ما خص به الأنبياء بخلاف الإنس والجن، وخاصتها التي تمتاز بها عن غيره أن يكون آية ودليلاً على نبوتهم، فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم، وما لا يستلزم نبوتهم فليس بآية، وليست مختصة بجنس من الموجودات، بل تكون في جنس العلم والاخبار بغيب الرب الذي اختص به، وتكون في جنس القدرة والتصرف والتأثير في العالم، وهي مقدورة للرب، فله سبحانه أن يجعلها في أي جنس كان من المقدورات، ولهذا تنوعت آيات الإنبيآء بل النبي الواحد تتنوع آياته، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر، لا ولهذ من جنس تكثير الطعام والشراب كنبع الماء من بين الأصابع.

وهذا كما أن آيات للرب الدالة على قدرته ومشيئته وحكمته وأمره ونهيه لا تخص بنوع فكذلك آيات أنبيآئه، فهذا مما ينبغي أن يعرف، ولكن خاصتها أنها لا تكون إلا مستلزمة لصدق النبي وصدق الخبر بأنه نبي فلا تكون لمن يكذبه قط، ولا يقدر أحد من مكذبي الرسل أن يأتي بمثل آيات الأنبيآء، وأما مصدوقهم فهم معترفون بأن ما يأتون به هو من آيات الأنبيآء، مع أنه لا تصل آيات الاتباع إلى مثل آيات المتبوع مطلقاً، وإن كانوا قد يشركونه في القرآن وفلق البحر وانشقاق القمر، فلا بد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله إذ لو أتى بمثل ما أتى لكان مثله لا دونه.

***

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧١.

فصل
سنة الأولين

وكثير من هؤلاء مضطربون في مسمى العادة التي تخرق، والتحقيق أن العادة أمر إضافي، فقد يعتاد قوم ما لم يعتده غيرهم، فهذه إذا خرقت فليست لصدق النبي لا توجد بدون صدقه، والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها: ﴿سُنَّةَ الله الَّتي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾(١). وقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأولين. فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً﴾(٢). وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به، ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبيآء ويختصون بها، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك، فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الإختصاص بالنبوة، وتلك سنته وعادته في أمثاله يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبيآء مثلاً، ولم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الأنبيآء لغيرهم حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها، بل عادته وسنته المطردة إن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والأخبار بها، لا مع التكذيب بها أو الشك فيها، كما أن سنته وعادته أن محبته ورضاه وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأن سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين، وسنته وعادته أن ينصر رسله، والذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كفرُوا لَوَلُّوا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلياً وَلاَ نَصِيراً، سُنَّةِ الله التي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾(٣). وكل ما يظن أنه خرق من العادات فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات، فعادته وسنته لا تتبدل إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل، هذا قول الجمهور.

(١) سورة الفتح: الآية ٢٣.

(٢) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٣) سورة الفتح: الآيتان ٢٢ و٢٣.

وأما من لا يثبت سبباً ولا حكمة ولا عدلاً، فإنهم يقولون أنه يخرق عادات لا لسبب ولا لحكمة، ويجوزون أن يقلب الجبل ياقوتاً والبحر لبناً والحجارة آدميين ونحو ذلك مع بقاء العالم على حاله، ثم يقولون مع هذا، ولكن نعلم بالضرورة أنه لم يفعل ذلك، ويقولون العقل هو علوم ضرورية كالعلوم بجاري العادات، وهذا تناقض بَيِّنْ، فإنهم إذا جوزوا هذا، ولم يعلموا فرقاً بين ما يقع منه وما لا يقع، كان الجزم بوقوع هذا دون هذا جهلاً، وغاية ما عندهم أن قالوا يخلق في قلوبنا علم ضروري بأن هذا لم يقع ويخلق في قلوبنا علم ضروري بأن الله خرق العادة لتصديق هذا النبي فيقال: إذا كان قد جعل الله في قلوبكم علماً ضرورياً كما جعله في قلوب أمثالكم، فأنتم صادقون فيما تخبرون به عن أنفسكم من العلم الضروري ، لكن خطأكم اعتقادكم أن العادات قد ينقضه الله بلا سبب ولا لحكمة، فهذا ليس معلوماً لكم بالضرورة وخطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه، ثم يعلم بضرورة أو نظر ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، فإن هذا تفريق بين المتماثلين، وهذا قدح في البديهيات، فإن أصل العلوم العقلية النظرية اعتبار الشيء بمثله، وإن حكمه حكم مثله، فإذا جوزتم أن يكون الشيئان متماثلين من كل وجه وأن العقل يجزم بثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، كان هذا قدحاً في أصل كل علم وعقل، وإذا قلتم أن العادات جميعها سواء وأن الله يفعل ما يفعل بلا سبب ولا حكمة بل محض المشيئة مع القدرة رجحت هذا على هذا، وقلتم لا فرق بين قلب الجبال يواقيت والبحار لبناً وبين غير ذلك من العادات، وجوزتم أن يجعل الله الحجارة آدميين علماء من غير سبب تغير به المخلوقات، كان هذا قدحاً في العقل، فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه ولا عرفتم خاصة العقل وهو التسوية بين المتماثلين، فإنه سبحانه قط لم يخرق عادة إلا لسبب يناسب ذلك مثل فلق البحر لموسى وغير ذلك من الآيات التي بعث بها، فإن ذلك خلقه ليكون آية وعلامة، وكان ذلك بسبب نبوة موسى وانجائه قومه وبسبب تكذيب فرعون، ومن جوز أن ذلك البحر أو غيره ينفلق كما انفلق لموسى من غير أن يكون هناك سبب إلهي يناسب ذلك فهو مصاب في عقله، ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول، ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها، وكانت آيات الأنبيآء والعلم بأنها آيات ان حققوها على وجهها فسدت أصولهم، وإن طردوا أصولهم كذبوا العقل والسمع، ولم يمكنهم لا تصديق الأنبيآء ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى التي يفعلها بأسباب وحكم، كما قد بسط هذا في موضع آخر.

***

فصل
عصمة الأنبياء

ودليل الشيء مشروط بتصور المدلول عليه، فلا يعرف آيات الأنبيآء ألا من عرف ما اختص به الأنبيآء، وامتازوا به عما سواهم، والنبوة مشتقة من الإنباء، والنبي فعيل، وفعيل قد يكون بمعنى فاعل، أي منبي، وبمعنى مفعول أي منبأ، وهما هنا متلازمان فالنبي الذي ينبىء بما أنبأه الله به، والنبي الذي نبأه الله وهو منبأ بما أنبأه الله به، وما أنبأه الله به لا يكون كذباً، وما أنبأ به النبي عن الله لا يكون يطابق كذباً لا خطأ ولا عمداً، فلا بد أن يكون صادقاً فيما يخبر به عن الله يطابق خبره مخبره، لا تكون فيه مخالفاً لا عمداً ولا خطأ، وهذا معنى قول من قال: هم معصومون فيما يبلغونه عن الله، لكن لفظ الصادق وأن النبي الصادق مصدوق نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين. ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١) أي من أذاهم، فمعنى هذا اللفظ في القرآن هو الذي يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمداً، والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع، ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده، وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق، وقد يضطرب في معناه، وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس، فالإعتصام بحبل الله يكون بالإعتصام بالقرآن والإسلام كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾(٢). ومتى ذكرت ألفاظ القرآن والحديث، وبين معناها بياناً شافياً فإنها لا تنظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة، وفيها زيادات عظيمة لا يوجد في كلام الناس، وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل كما قال: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلْنَا الذِّكرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيهِ وَلَا مِنْ خَلفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٤). وقال تعالى:

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

(٤) سورة فصلت: الآيتان ٤١، ٤٢.

﴿الر كتاب أحكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خبير﴾[1]. وقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيم﴾[2]. وفيه من دلائل الربوبية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من العباد، ففيه أصول الدين المفيدة لليقين، وهو أصول دين الله ورسوله، لا أصول دين محدث ورأي مبتدع، وقد يكون معصوماً على لغة القرآن بمعنى أن الله عصمه من الشياطين، شياطين الإنس والجن، وأن يغيروا ما بعث به، أو يمنعوه عن تبليغه، فلا يكتم ولا يكذب كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَداً، إلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسول فَإنَّهُ يَسْلكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً، لِيَعْلَمَ أنْ قَدْ أبْلَغُوا رِسالاَتِ رَبِّهِمْ وأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[3]. فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه، وهذا في معنى عصمته من الناس، فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان، ولفظ الإنباء يتضمن معنى الإعلام والإخبار، لكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار، فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة كما قال: ﴿وَأُنبئُكُمْ بمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ في بُيُوتِكِمْ﴾[4].

وقال: ﴿فَلَمّا نَبَّأهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أنْبَأكَ هَذا قَالَ نَبَّأني العَلِيمُ الخَبِيرُ﴾[5]. وقال: ﴿قُل هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أنْتم عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[6]. وقال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإ العَظِيمِ الَّذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[7]. وقال: ﴿وَإنْ يَأتِ الأحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أنَّهُمْ بَادُونَ في الأعْرابِ يَسْألُونَ عَنْ أنْبَائِكمْ وَلَوْ كَانُوا فيكمْ مَا قاتلوا إلاَّ قليلا﴾[8]. وقال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأهُ بَعْدَ حين﴾[9]. وقال: ﴿لِكُلِّ نَبأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾[8]. وقال: ﴿أنبِئُوني بِأسْمَاءِ هَؤلاَءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾[9]. إلى قوله: ﴿قَالَ يَا آدم أنْبِئْهُمْ بأسمآئهم فلمآ أنبأهم بأسمآئهم قَالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إني أعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والأرْضِ وَأعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا كُنْتُم تَكْتُمُون﴾[10].

وقوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إلَيْكُمْ إذَا رَجَعْتُمْ إلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأنَا اللهُ مِنْ أخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[11]. فهذا في

---

(1) سورة هود: الآية ١.
(2) سورة لقمان: الآية ٢.
(3) سورة الجن: الآية ٢٨.
(4) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
(5) سورة التحريم: الآية ٢.
(6) سورة ص: الآية ٦٧.
(7) سورة النبأ: الآية ١.
(8) سورة الأحزاب: الآية ٢٠.
(9) سورة ص: الآية ٨٨.
(8) سورة الأنعام: الآية ٦٧.
(9) سورة البقرة: الآية ٣١.
(10) سورة البقرة: الآية ٣٣.
(11) سورة التوبة: الآية ٩٤.

خطاب المنافقين، ولم يقل: والمؤمنون، لأنهم لم يكونوا يطلعون المؤمنين على ما في بطونهم، وهذا بخلاف قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لها﴾(١). فإنها أمور مشهودة يعرفها الناس لكن العجب كون الأرض تخبر بذلك، فالعجب في المخبر لا في الخبر كشهادة الأعضاء وقال: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئوني بعلمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾(٢). وجمع النّبي أنبيآء مثل: ولي وأولياء ووصي وأوصياء، وقوي وأقوياء، ويشبهه حبيب وأحباء كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ اليَهُودُ والنَصَارَى نَحْنُ أَبْنَآءُ الله وَأَحِبَّآؤُهُ﴾(٣) ففعيل إذا كان معتلاً أو مضاعفاً جمع على أفعلاء، بخلاف حكيم وحكماء وعليم وعلماء، وهو من النبأ وأصله الهمزة، وقد قريء به وهي قراءة نافع يقرأ: النبيء، لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك في الذرية، وفي البرية، وقد قيل: هو من النبوة. وهو العلو فمعنى النبي المعلى الرفيع المنزلة.

والتحقيق أن هذا المعنى داخل في الأول، فمن أنبأه الله وجعله منبئاً عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر علياً، وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة إذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي، بل يوصف بأنه الأعلى كما قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَون﴾(٤). وقراءة الهمزة قاطعة بأنه مهموز، وما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنَا نبي الله وَلَسْتُ بِنبيء الله» فما رأيت له إسناداً لا مسنداً ولا مرسلاً، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث ولا السير المعروفة، ومثل هذا لا يعتمد عليه، واللفظان مشتركان في الإشتقاق الأكبر فكلاهما فيه النون والباء وفي هذا الهمزة، وفي هذا الحرف المعتل لكن الهمزة أشرف فإنها أقوى.

قال سيبوية: هي نبوة من الحلق، تشبه التهوع، فالمعنى الذي يدل عليه، ويمكن أن تلين فتصير حرفاً معتلاً فيعبر عنه باللفظين بخلاف المعتل، فإنه لا يجعل همزة، فلو كان أصله نبي مثل علي ووصي وولي لم يجز أن يقال بالهمز كما لا يقال عليء ووصيء ووليء بالهمزة، وإذا كان أصله الهمز جاز تليين الهمزة، وإن لم يكثر استعماله كما في لفظ خبيء وخبئه، وأيضاً فإن تصريفه أنبأ ونبأ ينبيء بالهمزة، ولم يستعمل فيه نبا ينبو، وإنما يقال هذا ينبو عنه، والماء ينبو عن القدم إذا كان يجفو عنها، ويقال: النبوة وفي فلان نبوة عنا أي مجانبة فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة، والله أعلم.

***

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٤، ٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

فصل
طريق الحكمة

قد تقدم أن للناس في وجه دلالة المعجزات وهي آيات الأنبيآء على نبوتهم طرقاً متعددة، منهم من قال: دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة، ومنهم من قال: تعلم بالنظر والإستدلال، وكلا القولين صحيح فإن كثيراً من العلوم في هذا الباب كدلالة الأخبار المتواترة، فإنه قد يحصل بالخبر علم ضروري، وقد يحصل العلم بالإستدلال، وطائفة منهم الكعبي وأبو الحسين البصري، وأبو الخطاب أنه نظري، والتحقيق أن كلا القولين حق، فإنه يحصل بها علم ضروري، والأدلة النظرية توافق ذلك، وكذلك كثير من الأدلة والعلامات والآيات، من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بيناً لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له، ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب، فقد يجيء المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين، وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بل إذا أخبره وهو خبير بحاله، أو بحال ذلك المخبر به أو بهما، علم بالضرورة إما صدقه وإما كذبه، وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهرون وغيره: أن الله أرسلني، علموا صدقه قبل أن يظهر لهم الآيات، ولما قال لهرون: إن الله قد أمرك أن تؤازرني، صدقه هرون في هذا لما يعلم من حاله قديماً، ولما رأى من تغير حاله الدليل على صدقه.

وكذلك النبي ﷺ لما ذكر حاله لخديجة وغيرها، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان عالماً بالكتاب الأول فذكر له النبي ﷺ ما يأتيه علم أنه صادق وقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخْرِجِي هُم؟» قال: نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

وكذلك النجاشي لما سمع القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة

واحدة. وكذلك أبو بكر وزيد بن حارثة وغيرهما علموا صدقه علماً ضرورياً لما أخبرهم بما جاء به، وقرأ عليهم ما أنزل عليه، وبقي القرآن الذي قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علماً ضرورياً بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة، فكيف بمن عرف صدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا من هو من أصدق الناس أو من أكذبهم وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني، فإذا كان العلم بصدقه بلا آية قد يكون علماً ضرورياً، فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه، وجميع الأدلة لا بد أن تعرف دلالتها بالضرورة؟ فإن الأدلة النظرية لا بد أن تنتهي إلى مقدمات ضرورية، وأكثر الخلق إذا علموا ما جاء به موسى والمسيح ومحمد علموا صدقهم بالضرورة، ولهذا لا يوجد أحد قدح في نبوتهم إلا أحد رجلين، إما رجل لم يعرف أحوالهم، وإما رجل معاند متبع لهواه. وعامة من كذبهم في حياتهم كان معانداً، فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم أو مأكلتهم، والاتباع طاعة لكبرائهم، كما أخبر الله بمثل ذلك في غير موضع من القرآن لم يكن التكذيب لقيام حجة تدل على الكذب، فإنه يمتنع قيام دليل يدل على الكذب، فالمكذب مفتر متكلم بلا علم ولا دليل قطعاً، وكذلك كل من كذب بشيء من الحق، أو صدق بشيء من الباطل يمتنع أن يكون عليه دليل صحيح، فإن الدليل الصحيح يستلزم مدلوله، فإذا كان المدلول منتفياً إمتنع أن يكون عليه دليل صحيح، وكثير من الناس قد يكون شاكاً لعدم طلبه العلم وإعراضه عنه، فالمكذب متكلم بلا علم قطعاً، والشاك معرض عن طلب العلم مقصر مفرط، ولو طلب العلم تبين له الحق إذا كنا متمكناً من معرفة أدلة الحق، وأما من لم يصل إليه الدليل ولا يتمكن من الوصول إليه فهذا عاجز.

وأما الذين سلكوا طريق الحكمة فلهم أيضاً مسالك مثل أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى إذا بعث رسولاً أمر الناس بتصديقه وطاعته، فلا بد أن ينصب لهم دليلاً يدلهم على صدقه، فإن إرسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسل إليهم أنه رسول قبح وسفه في صرائح العقول، وهو نقص في جميع الفطر، وهو سبحانه منزه عن النقائض والعيوب، ولهذا ينكر على المشركين أنهم يصفونه بما هو عندهم عيب ونقص لا يرضونه لأنفسهم، مثل كون مملوك أحدهم شريكه يساويه، فإن هذا من النقائص والعيوب التي ينزهون أنفسهم عنها ويعيبون ذلك على من فعله من الناس، فإذا كان هذا عيباً ونقصاً لا يرضاه الخلق لأنفسهم لمنافاته الحكمة والعدل فإن الحكمة والعدل تقتضي وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، ويصلح به، فلا تكون العين كالرجل، ولا الإمام الذي يؤتم به في الدين والدنيا في آخر المراتب، والسفلة من أتباعه في أعلى المراتب. فكذلك المالك لا يكون مملوكاً مساوياً له، فإن ذلك يناقض كون أحدهما مالكاً

والآخر مملوكاً، ولهذا وجدت الشريعة بأن المرأة لا تتزوج عبدها لتناقض الأحكام، فإن الزوج سيد المرأة وحاكم عليها، والمالك سيد المملوك وحاكم عليه، فإذا جعل مملوكها زوجها الذي هو سيدها تناقضت الأحكام، فهذا وأمثاله مما يبين أن هذه القضية مستقرة في نظر العقلاء، ولهذا قال تعالى: ﴿ضَرب لَكُمْ مَثَلاً منْ أنفسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أيْمَانكمْ مِنْ شُركَاء فيمَا رزقْنَاكُمْ فَأنْتُمْ فيهِ سَواء تَخَافُونَهُم كَخيْفَتِكُمْ أنْفُسَكُمْ﴾[1]. أي كما يخاف بعضكم بعضاً، ﴿كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقَوْمٍ يَعْقلُون بَل اتَّبَعَ الَّذين ظَلَمُوا أهْوآءهُمْ بغَيرِ علمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أضلَّ اللهُ ومَا لَهُمْ مِن نَاصِرِين﴾[2]. وكذلك كل أحد يعلم بفطرته أن الذكر أفضل من الأنثى.

وكانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم، حتى كان منهم من يئد البنات ويدفن البنت وهي حية، حتى قال تعالى: ﴿وإذا المَوْءودةُ سُئِلَتْ بأيِّ ذنْبٍ قُتِلَتْ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وإذا بُشر أحَدُهُمْ بالأنْثى ظَلَّ وجْهَهُ مُسْوداً وهُو كَظيمٌ يَتوارى من القَوْمِ منْ سُوء ما بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ عَلى هَونٍ أمْ يَدسُّهُ في التُّراب﴾[4]، وكانوا لا يورثون الإناث، وقد قالت أم مريم: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾، وكان من الكفار من جعل له الأناث أولاداً وشركاء، قال تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَنَاة الثَالِثة الأُخرى ألَكُمْ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنثى تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضيزَى إنْ هي إلاَّ أسْمَآءٌ سمَّيْتُمُوهَا أنتُم وَآبَاؤُكم﴾[5]. وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ لَيُسمُّون الملآئكةَ تسْمِيةَ الأُنثى ما لهُمْ بِهِ منْ عِلْمٍ إنْ يَتبعُون إلاَّ الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يُغْني مِن الحقِّ شيئاً﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ويجعَلُونَ للهِ البناتَ سُبْحانهُ وَلهُمْ ما يشْتهُونَ وَإذا بُشرَ أحدهُمْ بالأُنثى ظلَّ وَجْههُ مُسْوَداً وَهُوَ كظيمٌ يتوَارَى مِنَ القومِ من سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ على هونٍ أمْ يدسُّهُ في التُّرَاب الاَ سآءَ ما يحْكُمُونَ﴾[7]. يعني ساء الحكم حكمهم، أي بئس الحكم حكمهم، كما يقال: بئسما فعل، وبئسما حكم، حيث حكموا بأن لله البنات، ولهم ما يشتهون.

فهذا حكم جائر كما أن تلك القسمة قسمة جائرة عوجاء، فهذا حكمهم بينهم وبين ربهم، وهذا قسمهم يجعلون لأنفسهم أفضل النوعين ولربهم أدنى النوعين، وهو مثل السوء، ولله المثل الأعلى، فالواجب أن يكون أفضل الأنواع وأكملها لله، وما فيها نقص وعيب، فالمخلوق أحق بها من الخالق، إذ كان كل كمال في المخلوق فهو من خالقه، فيمتنع أن يكون الأنقص خلق

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٨.
(٢) سورة الروم: الآيتان ٢٨، ٢٩.
(٣) سورة التكوير: الآية ٨.
(٤) سورة النحل: الآية ٥٨.
(٥) سورة النجم: الآية ٢٣.
(٦) سورة النجم: الآية ٢٧.
(٧) سورة النحل: الآيتان ٥٨ و ٥٩.

الأكمل، والفلاسفة يقولون بعبارتهم: كل كمال في المعلول فهو من العلة، وأيضاً فالموجود الواجب أكمل من الممكن، والقديم أكمل من الحديث، والغني أكمل من الفقير، فيمتنع اتصاف الأكمل بالنقائص وإتصاف الأنقص بالكمالات، ولهذا يوصف سبحانه بأنه الأكرم والأكبر والأعلى، وأنه أرحم الراحمين، وخير الحاكمين، وخير الغافرين، وأحسن الخالقين، فلا يوصف قط إلا بما يوجب اختصاصه بالكمالات والممادح والمحاسن التي لا يساويه فيها غيره فضلاً عن أن يكون لغيره النوع الفاضل، وله النوع المفضول.

ولهذا عاب الله المشركين بأن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا: هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فبئس الحكم حكمهم في هذا، كما أنه بئس الحكم حكمهم في جعل الذكور لهم والإناث له، وساء بمعنى: بئس، كقوله: ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي بئس مثلاً مثلهم، ولهذا قالوا في قوله: ساء ما يحكمون، بئسما يقضون. وقال تعالى: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملآئكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾[1] وقال تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين، وجعلوا الملآئكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾[2].

فهذه الطريقة وهو أن ما يستحقه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه فالخالق أولى به، وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عن كل عيب وذم، وهو سبحانه القدوس السلام الحميد المجيد [فهذه الطريقة][3] من أبلغ الطرق البرهانية وهي مستعملة في القرآن في غير موضع، فلذلك يقال: الواحد من الناس قادر على إرسال رسول، وعلى أن يرسل نشابة وعلامة يعرفه المرسل إليهم وأمرهم بتصديقه وطاعته ولم يعرفهم أنه رسوله، كان هذا من أقبح الأمور، فكيف يجوز مثل هذا على الله ولو بعثه بعلامة لا تدلهم على صدقه كان ذلك عيباً مذموماً، فكل ما ترك من لوازم الرسالة، إما أن يكون لعدم القدرة، وإما أن يكون للجهل والسفه وعدم الحكمة، والرب أحق بالتنزيه عن هذا وهذا من المخلوق، فإذا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

(٢) سورة الزخرف: الآية ١٥ ـ ١٩.

(٣) زيدت على النص لسياق العبارة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

أرسل رسولاً فلا بد أن يعرفهم أنه رسوله ويبين أنه رسوله ويبين ذلك، وما جعله آية وعلامة ودليلاً على صدقه امتنع أن يوجد بدون الصدق، فامتنع أن يكون للكاذب المتنبي، فإن ذلك يقدح في الدلالة، فهذا ونحوه مما يعرف به دلالة الآيات من جهة حكمة الرب، فكيف إذا انضم إلى ذلك أن هذه سنته وعادته وأن هذا مقتضى عدله، وكل ذلك عند التصور التام يوجب علماً ضرورياً يصدق الرسول الصادق، وأنه لا يجوز أن يسوى بين الصادق والكاذب، فيكون ما يظهره النبي من الآيات يظهر مثله على يد الكاذب، إذ لو فعل هذا لتعذر على الخلق التمييز بين الصادق والكاذب، وحينئذ فلا يجوز أن يؤمروا بتصديق الصادق، ولا يذموا على ترك تصديقه وطاعته، إذا الأمر بذلك بدون دليله تكليف ما لا يطاق، وهذا لا يجوز في عدله وحكمته، ولو قدر أنه جائز عقلاً فإنه غير واقع.

***

فصل
إدعاء الرسالة والنبوّة

وقد دل القرآن على أنه سبحانه لا يؤيد الكذاب عليه، بل لا بد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ، لأخَذْنا منهُ باليمينِ، ثمَّ لَقَطَعْنا منهُ الوَتينَ، فَما منكُم مِن أحدٍ عنهُ حاجزينَ﴾(1) ذكر هذا بعد قوله: ﴿فلآ أقسِمُ بما تُبصِرونَ، وما لا تُبصِرونَ، إنّه لقولُ رسولٍ كريم، وما هُو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمِنون، ولا بقولِ كاهِنٍ قليلاً ما تَذَكّرونَ، تنزيلٌ مِن ربِّ العالمِينَ﴾(2). ثم قال: ﴿وَلَو تَقَوّلَ علَينا بعضَ الأقاويلِ، لأخذْنا منهُ باليمينِ، ثمَّ لَقَطَعْنا منهُ الوتينَ، فَما منكُم مِن أحدٍ عنهُ حاجزين﴾ هذا بتقدير أن يتقول بعضُ الأقاويل، فكيف بمن يتقولّ الرسالة كلها.

وقوله ﴿لأخذْنا منهُ باليمين، ثمَّ لَقَطَعْنا منهُ الوتينَ﴾ الوتين عرق في الباطن يقال: هو نياط القلب، وإذا قطع مات الإنسان عاجلاً، وذلك يتضمن هلاكه لو تقول على الله، وقوله: ﴿لأخَذْنا منهُ باليَمينِ﴾ قيل: لأخذنا بيمينه كما يفعل بمن يهان عند القتل، فيقال: خذ بيده فيجر بيده ثم يقتل، فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل وإهانة وتعجيل هلاك للمتقول، وقيل: لأخذنا منه باليمين، أي بالقوة والقدرة، فإن الميامن أقوى ممن يأخذ بشماله كما قال: ﴿فأخذناهُم أخْذ عَزيزٍ مُقْتَدِر﴾(3) وكما قال: ﴿إنَّ بَطْشَ ربِّكَ لشديد﴾(4) لكنه قال: ﴿أخَذْنا مِنْه﴾ ولم يقل لأخذناه، فهذا يقوي القول الأول، وقال تعالى: ﴿أم يَقولونَ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً فإن يَشأ اللهُ يختِم على قلبك﴾(5) ثم قال: ﴿ويَمحُ اللهُ الباطِلَ ويحقُّ الحقَّ بكلماتِه﴾(6) فقوله: ﴿ويمْحُ اللهُ الباطِلَ﴾ عطف جملة على جملة، قالوا: وليس من جواب الشرط، لأنه قال ويحق الحق بالضم، وهو معطوف على قوله ﴿ويمحُ اللهُ الباطلِ﴾ فمحوه للباطل وإحقاقه الحق خبر منه لا بد أن يفعله، فقد بين أنه لا بد أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته، فإنه إذا أنزل كلماته دل بها

(1) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ ــ ٤٧.
(2) سورة الحاقة: الآيات ٣٨ ــ ٤٣.
(3) سورة القمر: الآية ٤٢.
(4) سورة البروج: الآية ١٢.
(5) سورة الشورى: الآية ٢٤.
(6) سورة الشورى: الآية ٢٤.

على أنه نبي صادق إذا كانت آية له، وبين بها الحق من الباطل، وهو أيضاً يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته، فإنه إذا أنزل كلماته دل بها على أنه نبي صادق إذا كانت آية له، وبين بها الحق من الباطل، وهو أيضاً يحق الحق ويُبطل الباطل بكلماته التي تكون بها الأشياء، فيحق الحق بما يظهره من الآيات، وما ينصر به أهل الحق كما تقدمت كلمته بذلك، كما قال: ﴿ولَقَدْ سَبَقَتْ كلِمَتُنا لِعبادِنا المُرْسَلينَ إنَّهم لهُم المَنْصورونَ وإنَّ جُنْدَنا لهُم الغالِبونَ﴾[1]. وقال: ﴿وتمَّتْ كلِماتُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً﴾[2] وقال: ﴿وصدَّقَتْ بكلِماتِ ربِّها وكتُبِهِ وكانتْ مِن القانِتينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿أتى أمرُ الله فلا تَسْتَعْجِلوهُ﴾[4] وأمره يتضمن ما يأمر به وهو الكائن بكلماته، وقال تعالى: ﴿إنَّما أمْرُه إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لهُ كُن فيكونُ﴾[5]. وكلماته صدق وعدل، والعدل وضع الأشياء مواضعها، فمن عدله أن يجعل الصادق عليه المبلغ لرسالته حيث يصلح من كرامته ونصره، وان سجعل الكاذب عليه حيث يليق به من إهانته وذله، قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ اتخذُوا العِجْلَ سَيَنالهُم غضَبٌ مِن ربِّهمْ وذِلَّةٌ في الحياةِ الدُّنيا وكذلكَ نَجْزي المُفْتَرِينَ﴾[6] قال أبو قلابة: هي لكل مفتر إلى يوم القيامة، ومن أعظم الافتراء عليه دعوى النبوة والرسالة كذباً كما قال تعالى: ﴿ومَنْ أظلَمُ ممَّنْ افْترَى عَلى الله كذباً، أو قالَ أوحي إليَّ ولَمْ يُوحَ أليه شيءٌ ومن قال سأنزِلَ مِثلَ مآ أنزَلَ الله﴾[7]. وذكر في هذا الكلام جميع أصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين، كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله: ﴿ومَا قَدَروا الله حقَّ قَدْرِهِ إذ قالوا مآ أنزَلَ الله على بَشَرٍ مِن شيءٍ قُلْ مَن أنزَلَ الكتابَ الَّذي جاءَ بهِ موسى نُوراً وهُدىً للنَّاسِ تجْعَلونهُ قَراطيسَ تُبْدُونها وتُخْفُونَ كثيراً وعُلِّمْتم ما لَم تعلموآ أنتم ولآ أبآؤكُم قُلْ الله ثم ذَرهُم في خَوْضِهِم يَلعَبونَ، وهذا كِتابٌ أنزلناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذي بينَ يديهِ ولِتُنْذِر أمَّ القُرى ومَن حَوْلها والَّذينَ يُؤمِنونَ بالآخِرةِ يُؤمِنونَ بِهِ وهُم على صَلاتهِم يُحافِظونَ﴾[8].

ثم قال: ﴿ومَنْ أظلَمُ مِمَّن افترَى على الله كذِباً، أو قالَ أوحي إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ﴾[9] الآية. فإن الكاذب إما أن يقول: إن غيري أنزل على، وإما أن يقول: أنا أصنف مثل هذا القرآن، وإذا قال غيري: أنزل علي، فإما أن يعينه فيقول: إن الله أنزله علي، وأما أن يقول أوحى، ولا يعين من أوحاه، فذكر الأصناف الثلاثة فقال: ﴿ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ افترَى على اللهِ كذِباً

(1) سورة الصافات: الآية ١٧١، ١٧٣.
(2) سورة الأنعام: الآية ١١٥.
(3) سورة التحريم: الآية ١٢.
(4) سورة النحل: الآية ١.
(5) سورة يس: الآية ٨٢.
(6) سورة الأعراف: الآية ١٥٢.
(7) سورة الأنعام: الآية ٩٣.
(8) سورة الأنعام: الآية ٩١، ٩٢
(9) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

أو قال أوحي إليّ ولَمْ يُوحَ إليه شيءٌ﴾ فهذان نوعان من جنس، ثم قال: ومن، ولم يقل أو قال، إذا كان هذا معارضاً لا يدعي أنه رسول، ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع وقال: ﴿قُلْ لَئِنْ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ولَو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيرا﴾[1]. والرسول أخبر بهذا خبراً تاماً في أول الأمر، وهذا لا يمكن إلا مع قطعه أنه على الحق، وإلى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله. وقوله: ومن قال سأنزل، ولم يقل أقدر أن أنزل، فإن قوله سأنزل هو وعد بالفعل، وبه يحصل المقصود، بخلاف قوله أقدر، فإنه لا يحصل به غرض المعارض، وإنما يحصل إذا فعل، فمن وعد بإنزال مثل ما أنزل كان من أظلم الناس وأكذبهم إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن. وقوله مثل ما أنزل الله يقتضي أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز لا يقدر عليه إلا الله، كالتوراة والإنجيل والزبور، وهذا حق، فإن في ذلك من أنباء الغيب ما لا يعلمه إلا الله، وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك ما لا يقدر على أن يرسل بتلك الرسالة إلا الله، فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ما أنزل الله على نبيه، فيكون به مثل الرسول ولا أن يرسل به غيره.

***

(١) سورة الأسراء: الآية ٨٨.

فصل
القدرة والحكمة في مخلوقاته عز وجل

والاستدلال بالحكمة أن يعرف أولاً حكمته، ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوي بين الصادق بما يظهر به صدقه، وبأن ينصره ويعزه ويجعل له العاقبة ويجعل له لسان صدق في العالمين، والكاذب عليه يبين كذبه ويخذله ويذله، ويجعل عاقبته عاقبة سوء، ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين، كما قد وقع، فهذا هو الواقع، لكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه فهو واجب الوقوع في حكمته لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك، فهذا استدلال ببيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع، ويمتنع أن يقع منه ضده، وذلك ببيان أنه حكيم، وأن حكمته توجب أن يبين صدق الأنبيآء وينصرهم، ويبين كذب الكاذبين ويذلهم، وكذلك يفعل باتباع النبيين وبأعدائهم كما أخبر بذلك في كتابه، ويبين أن هذا حق عليه يجب أن يفعله، ويمتنع أن يفعل ضده كما قال تعالى: ﴿ولَقَدْ أرسلنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِم فجآؤوهُم بالبيّناتِ فانْتَقَمْنا من الّذينَ أجْرَموا وكان حقاً علَينا نَصْرُ المؤمنين﴾(١) وكما قال: ﴿كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي إنَّ اللهَ لَقَويّ عزيز﴾(٢) وقوله: «لأغلبن» قسم أقسم الله عليه، فهو جواب قسم تقديره: والله لأغلبن أنا ورسلي، وهذا يتضمن إخباره بوقوع ذلك، وأنه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه وأوجبه على نفسه، فإن صيغة القسم يتضمن التزام ما حلف عليه، إما حضاً عليه وأمراً به، وإما منعاً ونهياً عنه، ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك ولا كفارة فيه، وكذلك كان في أول الإسلام، ولهذا كان أبو بكر لا يحنث في يمين حتى أنزل الله كفارة اليمين، كما ذكرت ذلك عائشة، ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به ولا يحنث، فإن ذلك صار واجباً باليمين كوجوب المنذور الواجب بالنذر يحتذي به حذو الواجب بالشرع، والضرب بالضغث يجوز في الحدود إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق كما جاء في الحديث، ولو كان في شرعهم كفارة لأغنت عن الضرب مطلقاً، لكن الإنسان قد يلتزم ما لا يعلم عاقبته ثم يندم عليه، والرب تعالى

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٠.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.

عالم بعواقب الأمور، فلا يحلف على أمر ليفعلنه إلا وهو يعلم عاقبته، واليمين موجبة، ولهذا قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن﴾ وكتب: مثل كتب في قوله: ﴿كَتَبَ ربكُم عَلى نفسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(١) فهي كتابة تتضمن خبراً وإيجاباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَما مِن دابّةٍ في الأرضِ إلاّ عَلى الله رِزْقُها﴾(٢)، وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يا عِبادي إني حَرَّمْتُ الظُّلم على نفسْي وجعَلْتُهُ بينَكُم محرّماً فَلا تَظالَموا». وقد بسط هذا الأصل في مواضع مثل الكلام في مسألة القادر المختار، ومسألة العدل والظلم وغير ذلك، فإن كثيراً من المتكلمين يقول: إن القادر المختار لا يفعل إلا بوصف الجواز فيفعل الفعل في حال تردده بين أن يفعل وأن لا يفعل.

ومنهم من يقول يفعله مع رجحان أن يفعل، رجحاناً لا ينتهي إلى حد الوجوب، وهو قول محمد بن الهيضم الكرامي، ومحمود الخوارزمي المعتزلي، وبهذا استطال عليهم الفلاسفة فقالوا: الرب موجب لأن الممكن لا يقع حتى يحصل المؤثر التام الموجب له، والتحقيق أن الرب يخلق بمشيئته وقدرته وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته ليس موجباً بمجرد الذات ولا موجباً بمعنى أن موجبه يقارنه، فإن هذا ممتنع، فهذان معنيان باطلان، وهو قادر يفعل بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فما شاءه وجب كونه، وما لم يشأ امتنع كونه.

ولهذا قال كثير من النظار: إن الإرادة موجبة للمراد، وعلى هذا فقولنا يجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون، إنما هو جواز الشيء بمعنى الشك في أيهما هو الواقع، والا ففي نفس الأمر أحدهما هو الواقع ليس في نفس الأمر ظنياً متردداً بين الوقوع وعدم الوقوع، والإمكان الذهني قد يراد به عدم العلم بالامتناع، وقد يراد به الشك في الواقع، وكلا النوعين عدم علم، والإمكان الخارجي يراد به أن وجوده في الخارج ممكن لا ممتنع كولادة النساء ونبات الأرض، وأما الجزم بالوقوع وعدمه فيحتاج إلى دليل، وفي نفس الأمر مأثم إلا ما يقع أو لا يقع، والواقع لا بد من وقوعه، ووقوعه واجب لازم، وما لا يقع فوقوعه ممتنع، لكن واجب بغيره، وممتنع لغيره، وهو واجب من جهات: من جهة علم الرب من وجهين، ومن جهة إرادته من وجهين، ومن جهة كلامه من وجهين، ومن جهة كتابته من وجهين، ومن جهة رحمته، ومن جهة عدله، أما علمه فما علم أنه سيكون فلا بد أن يكون، وما علم أنه لا يكون فلا يكون، وهذا مما يعترف به جميع الطوائف إلا من ينكر العلم السابق كغلاة القدرية الذين تبرأ منهم الصحابة، ومن جهة أنه يعلم ما في ذلك الفعل من الحكمة فيدعوه علمه إلى فعله، أو ما فيه من الفساد فيدعوه إلى

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٢) سورة هود: الآية ٦.

تركه، وهذا يعرفه من يقر بأن العلم داع، ومن يقر بالحكمة، ومن جهة إرادته فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن جهة حكمته وهي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لأجلها، فإذا كان مريداً للغاية المطلوبة لزم أن يريد ما يوجب حصولها، ومن جهة كلامه من وجهين: من جهة أنه أخبر به، وخبره مطابق لعلمه، ومن جهة أنه أوجبه على نفسه وأقسم ليفعلنه، وهذا من جهة أيجابه على نفسه والتزامه أن يفعله.

ومن جهة كتابته إياه في اللوح، وهو يكتب ما علم أن سيكون، وقد يكتب إيجابه والتزامه كما قال: ﴿كتَبَ الله لأغلِبنَ أنا ورسُلي﴾ وقال: ﴿كتَبَ ربكُم على نفسهِ الرَّحمةَ﴾ فهذه عشرة أوجه[1] تقتضي الجزم بوقوع ما سيكون، وأن ذلك واجب حتى لا بد منه، فما في نفس الأمر جواز يستوي فيه الطرفان: الوجود، والعدم، وإنما هذا في ذهن الإنسان لعدم علمه بما هو الواقع، ثم من علم بعض تلك الأسباب علم الواقع، فتارة يعلم لأنه أخبر بعلمه، وهو ما أخبرت به الأنبيآء بوقوعه، كالقيامة والجزاء، وتارة يعلم من جهة المشيئة، لأنه جرت به سنته الشاملة التي لا تتبدل، والحكمة والعدل والرحمة والعادة تعلم بالعقل، كما قد عرف من حكمة الرب وعدله وسنته، ويستدل بذلك على العلم والخبر والكتاب، كما أن العلم والخبر والكتاب، تعلم بأخبار الأنبيآء، ويستدل بذلك على العدل والحكمة والرحمة.

والجهمية المجبرة لا تجزم بثبوت ولا انتفاء إلا من جهة الخبر أو العادة، إذا كانوا لا يثبتون الحكمة والعدل والرحمة في الحقيقة، كما قد بسط في غير موضع.

وحكي عن الجهم أنه كان يخرج فينظر الجذمي[1] ثم يقول: أرحم الراحمين يفعل هذا، يقول إنه يفعل لمحض المشيئة، ولو كان يفعل بالرحمة لما فعل هذا وهذا من جهله لم يعرف ما في الابتلاء من الحكمة، والرحمة والمصلحة، والمجبرة المثبتة للقدر متبعون لجهم، والقدرية النفاة مناقضون لهم كما قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع، وما زال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب على ما يفعله كقول خديجة للنبي ﷺ لما قال لها: «لَقَدْ خشِيت على نفْسي» فقالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتصدق الحديث وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق».

فاستدلت بما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال على أن الله لا يخزيه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل هَلْ أنبئُكُم على مَن تَنَزَّل الشّياطين تَنَزَّل على كلِّ أفاكٍ أثيمٍ﴾[2] فإن الشيطان إنما

(١) الجذمى جمع أجذم مثل زمنى وقتلى وجرحى.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢١.

ينزل على ما يناسبه ويطلبه وهو يريد الكذب والاثم، فينزل على من يكون كذلك، وبسط هذا له موضـع آخر.

والكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي يوجب فعـل ما تقتضيـه الحكمة، ويمتنـع فعـل ما تنفيـه فتقول: هـو سبحانـه وتعـالى حكيم يضـع كـل شيء في مـوضعـه المنـاسب لـه، فـلا يجوز عليـه أن يسوى بين جنس الصـادق والكاذب، والعـادل والظالم، والعـالم والجاهـل، والمصلح والمفسـد، بل يفـرق بين هذ الأنـواع بما ينـاسب الصادق العـادل العـالم المصلح من الكرامة، وما يناسب الكاذب الظالم الجـاهل المفسـد من الهوان، كمـا قال تعـالى: ﴿أَمْ نَجْعَلِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصـالحاتِ كـالمفْسِدينَ في الأرضِ أمْ نجعَـلَ المُتَقِينَ كالفُجّـارِ﴾[1] وقال: ﴿أفَنَجعَلِ المُسلِمينَ كالمُجرِمينَ﴾[2] وهذا استفهام إنكار على من ظن ذلك، وهو يتضمن تقرير المخاطبين واعترافهم بأن هذا لا يجوز عليه، وأن ذلك بين معروف يجب اعتـرافهم به واقـرارهم به كما يقال لمن ادعى أمراً ممتنعاً مثل نعم كثيرة في موضع صغير، فيقال له: أههنـا كانت هـذه النعم؟ أي هذا ممتنع فاعترف بالحق، وإذا ادعى على من هو معروف بالصدق والأمانـة أنه نقب داره، وأخـذ مالـه قيل لـه: أهذا فعـل هذا ومنـه قولـه: ﴿يا عيسى ابنَ مـريمَ أأنتَ قُلتَ للنّاسِ اتخِذوني وأمّيَ إلَهينِ مِن دونِ اللهِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ويومَ يحشُرهم جميعاً ثمَّ يقول للمـلآئكةِ أهٰؤلآءِ أيّاكُم كانوا يَعْبُدونَ﴾[4] ونظائره كثيرة.

وكـذلك قـوله: ﴿أمْ حَسِبَ الّـذينَ اجْترَحـوا السَّيِّئـاتِ أن نجعَلَهُم كـالّـذين آمنـوا وعَمِلوا السَّيئاتِ سوآءً محياهُم ومماتهُم سآءَ ما يحكُمـون﴾[5]. فإن هـذا استفهام إنكـار على من حسب أنه يسوي بين هؤلاء وهؤلاء، فبين أن هذا الحساب باطل، وأن التسوية ممتنعة في حقه لا يجـوز أن يظن به، بل من ظن ذلك فقد ظن بربه ظن السوء، وذلـك ظن أهل الجـاهلية الـذين يظنـون بالله ظن السوء، فمن جوز ذلك على الله، فقد ظن بربه ظن السوء، وقوله تعـالى فيما جـرى يوم أحـد: ﴿وطآئِفـةٌ قَدْ أهمتْهُم أنفُسُهُم يَـظُنّونَ بـالله غيرَ الحقِّ ظَنَّ الجـاهليةِ﴾[6] فسـره ابن عباس وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى، وأنه لا ينصر رسوله، فكما أن القدر يجب الإيمان به، ويعلم أن كل ما كان قد سبق به علم الرب، فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسله والذين آمنوا، وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر، فـلا يجوز أن لا ينصـر رسله والذين آمنـوا، ومثله قولـه

---

(١) سورة ص: الآية ٢٨، ٢٩.
(٢) سورة القلم: الآية ٣٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ١١٩.
(٤) سورة سبأ: الآية ٤٠.
(٥) سورة الجاثية: الآية ٢١.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

تعالى فيما أنزله عام الحديبية لما ظن ظانون أن الرسول وأتباعه لا ينصرون فقال تعالى: ﴿ويُعَذِّبَ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشْرِكينَ والمُشْرِكاتِ الظانِّينَ بالله ظَنَّ السوْءِ عليْهِم دآئِرة السوْءِ وغَضِبَ الله عليهِم ولعَنَهُم وأعَدَّ لهُم جهَنَّم وسآءَتْ مصيرا﴾(١) وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك ومن ينفي الحكمة يقول: يجوز عليه فعل كل شيء، وليس عنده ظن سوء بالله، وإن قيل لما أخبر أنه ينصره كان ضد ذلك ظن سوء، لأن خبره لا يقع بخلاف مخبره؟ قيل عن هذا جوابان: أحدهما: أن هؤلاء يلزمهم تجويز إخلاف الوعد عليه، لأن هذا من باب الأفعال المقدورة، وهم يجوزون كل مقدور، وإذا قيل إخلاف الوعد قبيح فهم ليس عندهم شيء قبيح، ينزهون الرب عنه.

الثاني: أنه إذا علم أنه يفعله ولو بالعلم الضروري، فإنما ذلك لأنه واقع، ولو قدر أن رجلاً ظن أن الله لا يفعل ما سيفعله مما ليس فيه ذم، مثل أنه يظن أنه يموت بعد شهر لم يقل أن هذا ظن سوء، وإنما يكون ظن سوء إذا كان المظنون عيباً قبيحاً لا يجوز أن يضاف إلى المظنون به، ومنه قوله تعالى: ﴿إذ جآءوكُم مِن فَوْقِكم ومِن أسفَلَ مِنكم وإذا زاغَت الأبصار وبَلَغَت القُلوب الحَناجِر وتَظُنّونَ بالله الظُّنون﴾(٢). فهذا ذم لمن ظن بالله الظنون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أفَنَجْعَلِ المسلِمينَ كالمُجرِمينَ مالَكُم كيفَ تحكُمون﴾(٣). وهذا يقتضي أن هذا ممتنع عليه، ومن حكم بجوازه فقد حكم حكماً باطلاً جائراً ممتنعاً، كالذين جوزوا أن تكون له بنات وهم يكرهون أن تكون لهم بنات، فيجوز على الله ما هو قبيح عندهم، قال تعالى: ﴿ويجعَلونَ لِله البناتِ سُبْحانَه ولهُمْ ما يَشْتَهونَ، وإذا بُشِّرَ أحدَهُم بالأنثى ظَلَّ وجْهَه مُسْوَداً وهُوَ كَظيم يَتَوارَى مِن القومِ مِن سوْءِ ما بُشِّرَ بهِ أيمسِكُهُ عَلى هَونٍ أم يَدُسه في الترابِ ألا سآءَ ما يحْكُمونَ﴾(٤). ومما يبين حكمته أن تقول [أن](٥) أفعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه، وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء، فإنهم يسلمون أن الإحكام والإتقان يدل على علم الفاعل، وهذا أمر ضروري عندهم وعند غيرهم، وهو من أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها، والاحكام والاتقان إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب لتحصل به الحكمة المقصودة منه، مثل الذي يخيط قميصاً فيجعل الطوق على قدر العنق والكمين على قدر اليدين، وكذلك الذي يبني الدار يجعل الحيطان متماثلة ليعتدل السقف، والذي يصنع الابريق يوسع ما يدخل منه الماء ويضيق ما يخرج منه، وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة قد

---

(١) سورة الفتح: الآية ٦.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٠.
(٣) سورة القلم: الآية ٣٥.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٥٧.
(٥) زيدت على النص لسياق العبارة.

بهرت العقلاء، واعترف بها جميع الطوائف والفلاسفة من أعظم الناس إثباتاً لها، وهم يثبتون العناية والحكمة الغائية وإن كان فيهم من قصر في أمر الإرادة والعلم.

وكذلك المتكلمون كلهم متفقون على إثبات الحكمة في مخلوقاته وإن كانوا في الإرادة وفعله لغاية متنازعين، وذلك مثلما في خلق الإنسان، وأدنى ذلك أن العين والفم والأذن فيها مياه ورطوبة، فماء العين ملح وماء الفم عذب، وماء الأذن مر. فإن العين شحمة والملوحة تحفظها أن تذوب، وهذه أيضاً حكمة تمليح ماء البحر، فإن له سبباً وحكمة، فسببه سبوخة أرضه وملوحتها، فهي توجب ملوحة مائه، وحكمتها أنها تمنع نتن الماء بما يموت فيه من الحيتان العظيمة، فإنه لولا ملوحة مائه لأنتن، ولو أنتن لفسد الهواء لملاقاته له، فهلك الناس بفساده، وإذا وقع أحياناً قتل خلق كثير فإنه يفسد الهواء حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير، وماء الأذن مر ليمنع دخول الهوام إلى الأذن، وماء الفم عذب ليطيب به ما يأكله، فلو جعل الله ماء الفم مراً لفسد الطعام على أكلته، ولو جعل ماء الأذن عذباً لدخل الذباب في الدماغ، ونظائر هذا كثيرة، فلا يجوز أن يفعل بخلاف ذلك مثل أن يجعل العينين في القدمين، ويجعل الوجه خشناً غليظاً كالقدمين، فإنه كان يفسد مصلحة النظر والمشي، بل من الحكمة أنه جعل العينين في أعلى البدن في مقدمة ليرى بها ما أمامه، فيدري أين يمشي، وجعل الرجل خشنة تصبر على ما تلاقيه من التراب وغيره، والعين لطيفة يفسدها أدنى شيء فجعل لها أجفاناً تغطيها وأهداباً. فتقول هذا ومثله من المخلوقات الرب، دل على أنه قد أحكم ما خلقه وأتقنه ووضع كل شيء بالموضع المناسب له، وهذا يوجب العلم الضروري أنه عالم فيميز بين هذا وبين هذا، حتى خص هذا بهذا وهذا بهذا، وهو أيضاً يوجب العلم الضروري بأنه أراد تخصيص هذا بهذا وهذا بهذا، فدل على علمه وإرادته، وهذا مما يسلمونه فتقول: ودل أيضاً على أنه جعل هذا لهذا، فجعل ماء العين والبحر ملحاً للحكمة المذكورة، وجعل العين في أعلى البدن، وجعل لها أجفاناً للحكمة المذكورة. وكذلك إذا أنزل المطر وقت الحاجة إليه علم أنه أنزلها ليحي به الأرض.

وكذلك إذا دعاه الناس مضطرين فأنزل المطر علم أنه أنزله ليحي الأرض لإجابة دعائهم فلا يتصور أن يعلم أنه أراد هذا لهذا، ولا يتصور الأحكام والإتقان إلا إذا فعل هذا للحكمة المطلوبة، فكان ما علم من احكامه وإتقانه دليلاً على علمه، وعلى حكمته أيضاً وأنه يفعل لحكمة، والذين استدلوا بالأحكام على علمه ولم يثبتوا الحكمة وأنه يفعل هذا لهذا متناقضون عند عامة العقلاء وحذاقهم معترفون بتناقضهم، فإنه لا معنى لحكمه انتفى الاحكام، وإذا انتفى الاحكام انتفى دليل العلم، وإذا كان الاحكام معلوماً بالضرورة، ودلالته على العلم معلومه بالضرورة علم أن حكمته ثابتة بالضرورة وهو المطلوب، وأيضاً فإذا ثبت أنه عالم فنفس العلم

يوجب أنه لا يفعل قبيحاً، ولا يجوز أن يفعل القبيح إلا من هو جاهل، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وبين أن العلم يعلم ما الذي يصلح أن يفعل، وأن فعل هذا أولى من فعل هذا، وإذا كان مريداً للفعل وقد علم أن الفعل على هذا الوجه هو الأصلح إمتنع أن يريد الوجه الآخر، والإنسان لا يريد القبيح إلا لنقص علمه، أما أن يفعل بلا علم بل لمجرد الشهوة أو يظن خطأ فيظن أن هذا الفعل يصلح وهو لا يصلح، فإنما يقع القبيح في فعله لفعله مع الجهل البسيط أو المركب، والرب منزه عن هذا وهذا، فيمتنع أن يفعل القبيح، وأيضاً فإنه قد ثبت أنه مريد وأن الإرادة تخصص المراد عن غيره، وهذا إنما يكون إذا كان التخصيص لرجحان المراد، إما لكونه أحب إلى المريد وأفضل عنده، فأما إذا ساوى غيره من كل وجه امتنع ترجيح الإرادة له فكان له إثبات الإرادة مستلزماً إثبات الحكمة، وإلا لم تكن الإرادة، فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمه، ومن جهة نفس أفعاله المتقنة المحكمة التي تدل على علمه بالإتفاق، وهذه أصول عظيمة من تصورها تصوراً جيداً انكشف له حقائق هذا الموضع الشريف، وإذا ثبت أنه حكيم، وأن حكمته لازمة لعلمه ولازمة لإراته وهما لازمان لذاته كانت حكمته من لوازم ذاته، فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة وبحكمة، ويمتنع أن يفعل على خلاف الحكمة، ومعلوم بصريح العقل أن خير العلم من الجهل، والصدق خير من الكذب، والعدل خير من الظلم، والإصلاح خير من الافساد، ولهذا وجب اتصافه تعالى بالرحمة والعلم والصدق والعدل والإصلاح دون نقيض ذلك، وهذا ثابت في خلقه وأمره، فكما أنه في خلقه عادل حكيم رحيم، فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين فإنه لا يكون إلا عدلاً وحكمة ورحمة، ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة، ومن اتبعهم من أهل الكلام، والرأي أنه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه، وإن ما أمر به لا يجب أن يفعل على حكمة، وينكرون تعليل الاحكام، أو يقولون إن علل الشرع إمارات محضة، فهذا كله باطل كما قد بسط في موضع.

بل ما يأمر به مصلحة لا مفسدة، وَحَسَنٌ لا قبيح وخير لا فساد، وحكمة وعدل ورحمة، والحمد لله رب العالمين، فإذا قدر رجلان ادعيا على الرب الرسالة، أو توليا على الناس، أو كانا من عرض الناس أحدهما عالم صادق عادل مصلح، والآخر جاهل ظالم كاذب مفسد، ثم قدر أن ذلك العالم العادل عوقب في الدنيا والآخرة، فأذل في الدنيا وقهر وأهلك وجعل في الآخرة في جهنم، وذلك الظالم الكاذب الجاهل أكرم في الدنيا والآخرة وجعل في الدرجات العلى، كان معلوماً بالإضطرار أن هذا نقيض الحكمة والعدل، وهو أعظم سفهاً وظلماً من تعذيب ماء البحر وماء العين، فإن هذا غايته موت شخص أو النوع، وهذا أقل فساداً من إهلاك خيار الخلق وتعذيبهم وإكرام شرار الخلق وإهانتهم، وإذا كان هذا أعظم مناقضة للحكمة والعدل من غيره،

وتبين بالبراهين اليقينية أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل، علم بالإضطرار أن الرب سبحانه لا يسوي بين هؤلاء وهؤلاء، فضلاً عن أن يفضل الأشرار على الأخيار وهو سبحانه أنكر التسوية فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]. وقد جعل من جوز أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ويعذبهم في الآخرة في جهنم، وإن الفراعنة يكرمهم في الدنيا والآخرة، والمنازع عنده لا فرق بين هذا وهذا بالنسبة إلى الرب وإلى إرادته وحكمته وعلمه، بل إنما علم وقوع أحدهما بمجرد الخبر لا لامتناع أحدهما ووجوب الآخر، والخبر إنما هو خبر الأنبيآء، وذلك موقوف على العلم بصدقهم، وهو يستلزم صدقهم، وعلى أصله يمتنع العلم بصدقهم، فإنه يجوز أن يسوي الله بين الصادق والكاذب على أصله، إذ كان يجوز عليه عنده كل مقدور، وعنده لا يجوز أن يفعل فعلاً لحكمة، فلا يجوز على أصله أن يخلق الله آية ليدل بها على صدقهم.

وإذا قال تجويز ذلك يقتضي أنه لا يقدر على خلق ما به يبين صدق الصادق، فلذلك منعت من ذلك لأنه يفضي إلى تعجيزه، قيل له: إنما يفضي إلى عجزه إذا كان خلق دليل الصدق ممكناً، وعلى أصلك لا يمكن إقامة الدليل على إمكانه، فإن الدليل يستلزم المدلول، ويمتنع ثبوته مع عدمه، وأي شيء قدرته على أصلك على يد الكاذب وأنت لا تنزهه من فعل ممكن.

وإذا قلت: أنزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه كان هذا تناقضاً، فإن فعل الممكن لا يستلزم العجز، بل امتناع الممكن يستلزم العجز، وبيان ذلك أن يقال: ما خلقه على يد الصادق قادر على أن يخلقه على يد الكاذب أم لا؟ فإن قلت: ليس بقادر فقد أثبت عجزه، وإن قلت هو قادر على ذلك، فالمقدور عندك لا ينزه عن شيء منه، وإن قلت: هذا المقدور أنزهه عنه لئلا يلزم عجزه، كان حقيقة قولك أثبت عجزه لأنفي عجزه فجعلته عاجزاً لئلا تجعله عاجزاً فجمعت بين النقيضين بين إثبات العجز ونفيه، وإنما لزمه هذا لأنه لا ينزه الرب عن فعل مقدور فاستوت المقدورات كلها في الجواز عليه عنده، ولم يحكم بثبوت مقدور إلا بالعادة أو الخبر، والعادة يجوز انتقاضها عنده، والخبر موقوف على العلم بصدق المخبر ولا طريق له إلى ذلك،

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢١.

(٢) سورة القلم: الآية ٣٥.

فتبين أن كل من لم ينزه الرب عن السوء والسفه ويصفه بالحكمة والعدل لم يمكنه أن يعلم نبوة نبي، ولا المعاد ولا صدق الرب في شيء من الاخبار.

فهذه طريقة من يجعل دلالة المعجزة على صدق الإنبيآء لئلا يلزم العجز، وأما الطريق الثانية وهي أجود وهي التي اختارها أبو المعالي وأمثاله، فهو أن دلالة المعجز على التصديق معلوم بالإضطرار، وهذه طريقة صحيحة لمن اعتقد أن يفعل لحكمة، وأما إذا قيل أنه لا يفعل لحكمة انتفى العلم الإضطراري، والأمثلة التي يذكرونها كالملك الذي جعل آية لرسوله أمراً خارجاً عن عادته إنما دلت للعلم بأن الملك يفعل شيئاً لشيء، فإذا نفوا هذا بطلت الدلالة، وكذلك دليل القدرة هو دليل صحيح لكن مع إثبات الحكمة، فإنه سبحانه وتعالى قادر على أن يميز بين الصدق والكذب إذ كان قادراً على أن يهدي عباده إلى ما هو أدق من هذا، فهداهم إلى أسهل، لكن هذا يستلزم إثبات حكمته ورحمته، فمن لم يثبت له حكمة ورحمة إمتنع عليه العلم بشيء من أفعاله الغائبة، وأيضاً فآيات الإنبيآء تصديق بالفعل فهي تدل إذا علم أن من صدقه الرب فهو صادق، وذلك يتضمن تنزيهه عن الكذب، وعلى أصلهم لا يعلم ذلك، فإن ما يخلقه من الحروف والأصوات عندهم هو مخلوق من مخلوقات، فيجوز أن يتكلم كلاماً يدل على شيء، وقد أراد به شيئاً آخر فإن هذا من باب المفعولات عندهم، والكلام النفسي لا سبيل لأحد إلى العلم به، فعلى أصلهم يجوز الكذب في الكلام المخلوق العربي وهو الذي يستدل به الناس، فلا يبقى طريق إلى العلم بأنه صادق فيما يخلقه من الكلام، ولهذا تجد حذاقهم في السمعيات إنما يفرون إلى علم، بالإضطرار من قصد الرسول لا إلى الإستدلال بالقرآن، فالقاضي أبو بكر عمدته أن يقول هذا مما وقفنا عليه الرسول وعلمنا قصده بالإضطرار كما يقول مثل ذلك في تخليد أهل النار وفيما علمه من الأحكام، إذ كانوا لا يعتمدون على القول المسموع لا خبراً ولا أمراً، فهم لا طريق عندهم إلى التمييز بين ما يقع وما لا يقع مثل التمييز بين كونه يثيب المحسن ويعاقب المسيء أو لا يفعله، ففي الجملة جميع أفعاله من إرسال الأنبيآء ومجازاة العباد وقيام القيامة لا طريق لهم إلى العلم بذلك إلا من جهة الخبر، وطريق الخبر على أصلهم مسدود وهم يعلمون صدق الرسول وصدق خبره معلوم في أنفسهم، لكن يناقض أصولهم، لكن مع هذا هم واقفة فيما أخبرت به الرسل من الوعيد فضعف علمهم بما أخبرت به الرسل فصاروا في نقص عظيم في علمهم وإيمانهم بما أخبرت به الرسل وما أمرت به، وفي أصل ثبوت الرسالة هذه السمعيات، وأما العقليات فمدارها على حدوث الجسم، وقد عرف فساد أصلهم فيها فهذه أصولهم العقلية والسمعية، وهم لا يعلمون أيضاً ما يفعله الرب من غير الخبر إلا من جهة العادة، والعادة يجوز عندهم بلا سبب ولا لحكمة.

ويجوزون أن تصبح الجبال يواقيت والبحار زيبقاً فإذا احتجوا بالعادات فقيل لهم عندكم يجوز نقضها بلا سبب ولا حكمة أجابوا بأن الشيء قد يعلم جوازه، ويعلم بالضرورة انه لا يقع، وهذا أيضاً جمع بين النقيضين، وهم يقولون العقل هو العلم بجواز الجائزات وامتناع الممتنعات ووجوب الواجبات كالعلم بأن الجبل لم ينقلب ياقوتاً، ثم يجعلون هذا من الجائز على أصلهم ليس في الافعال لا واجب ولا ممتنع، بل كل مقدور فإنه جائز الوجود، وجائز العدم لا يعلم أحد الطرفين إلا بخبر أو عادة، لا بسبب يقتضيه ولا حكمة تستلزمه، كما أن المرجح له عندهم مجرد الإرادة لا بسبب ولا حكمة، وإذا علم جواز الشيء وعدمه، ولم يعلم ما يوجب أحدهما إمتنع أن يعلم بالضرورة ثبوت أحدهما، والناس إنما يعلمون أن الجبال لم تنقلب يواقيت لعلمهم بأن هذا ممتنع وأن الله إذا أراد قلبها يواقيت أحدث أسباباً تقتضي ذلك.

فأما انقلاب العادة بلا سبب، فهذا ممتنع عند العقلاء، وجميع ما خرق الله به العادة كان لأسباب تقتضيه ولحكم فعل لأجلها لم يكن ترجيحاً بلا مرجح كما يقوله هؤلاء، فهذا هو ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولو لم يتعلق هذا الإيمان بالرسول، وبما أخبر به الرسول واحتجنا إلى أن نميز بين الصحيح والفاسد في الأدلة والأصول، لما ورد على ما قاله هؤلاء من هذه السؤالات لم تكن بنا حاجة إلى كشف الأسرار، لكن لما تكلموا في إثبات النبوة صاروا يوردون عليها اسئلة في غاية القوة والظهور، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة كما ذكرنا كلامهم، فصار طالب العلم والإيمان والهدى من عندهم لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الإسلام ونظاره، والقائمون ببراهينه وأدلته إذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبيآء، بل وجده يقدح في الأنبيآء ويورث الشك فيها أو الطعن، وأنها حجة تقدح في الأنبيآء وتورث الشك فيها، أو الطعن فيها وأنها حجة لمكذب الأنبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الأنبيآء، فانسد طريق الإيمان والعلم، وانفتح طريق النفاق والجهل، لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه والذي لم يفهم ما قالوه، لا يكون إلا فاضلاً قد قطع درجة الفقهاء، ودرجة من قلد المتكلمين، فيصير هؤلاء إما منافقين وإما في قلوبهم مرض، ويظن الظان أنه ليس في الأمر على نبوة الأنبيآء براهين قطعية، ولا يعلم أن هذا إنما هو لجهل هؤلاء وأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها الإستدلال وقدحهم في الإلهية، وأنهم لم ينزهوا الرب عن فعل شيء من الشر ولا أثبتوا له حكمة ولا عدلاً فكان ما جهلوه من آيات الأنبيآء إذا كان العلم بآيات الله، وما قصه لخلقه من الدلائل والبراهين مستلزماً لثبوت علمه وحكمته ورحمته وعدله، فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، وهم في الأصل إنما قصدوا الرد على القدرية الذين قالوا: إن الله لم يشأ كل شيء، ولم يخلق أفعال العباد، وهو مقصود صحيح، لكن ظنوا أن هذا لا يتم إلا بجحد حكمته وعدله

ورحمته، فغلطوا في ذلك، كما أن المعتزلة أيضاً غلطوا من جهات كثيرة وظنوا أنه لا تثبت حكمته وعدله ورحمته إن لم يجحد خلقه لكل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويجحد خلقه لكل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويجحد اتصافه بالكلام والإرادة وغير ذلك من أقوال المعتزلة التي هي من أقوال هؤلاء، فإن هؤلاء في الصفات خير من المعتزلة وفي الأفعال من بعض الوجوه.

ولهذا لما ظهر للغزالي ونحوه ضعف طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخه وهو لا يعرف غيره، أعرض عنها وذكر أنه إنما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة، وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول، وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته، وهذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ نحواً منها، ولكن النبوة التي علمها أبو حامد هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة وهي من جنس المنامات، ولهذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة ونحو ذلك.

وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس، فلهذا لا يوجد للنبوة عندهم ما تستحقه من التصديق والإحترام، ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري، وهي الأنباء وهي خاصة النبوة، والرازي كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة ونبوة أصحابه هؤلاء كما ترى، وليس في واحد من الطريقين إثبات النبوة التي خص بها أنبيآءه، فلهذا ضعفت معرفة هؤلاء بالأنبيآء. وضعف أخذا العلم من طريقهم لا سيما وقد عارضوا كثيراً مما جاء عنهم بالعقليات. ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والذوقيات التي من سلكها ضل ضلالاً بعيداً.

وإنما ينجو من سلك منها شيئاً إذا لطف الله فعرفه السلوك خلف طريق الأنبيآء، فمن لم يهتد بما جاءت به الأنبيآء فهو أبعد الناس عن الهدى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآيَاتِهِ يُؤْمِنُون، ويْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فبشره بعذاب أليم﴾[1]، ﴿وإذا قيل لَهُم ارْكَعُوا لا يَرْكَعون، ويْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكذبين، فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يؤمنون﴾[2] وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته حيث قال: ولقد تأملت الطرق الكلامية

(١) سورة المرسلات: الآيات ٤٨، ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الجاثية: الآيات ٧، ٨.

والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، إقرأ في الإثبات: ﴿إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ﴿الرّحْمٰنُ عَلى العَرشِ اسْتَوى﴾. واقرأ في النفي: ﴿لَيْس كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾ ﴿ولا يُحِيطُون بِهِ عِلْمَاً﴾. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وأكثر الإنتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها، وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ما جاء به الرسول، فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول، ولكن يعرف كل طائفة منه ما يعرفه، فليسوا كفاراً جاحدين له، وليسوا عارفين به.

فَلَقَدْ عَرفْتُ ومَا عَرفْتُ حَقِيقةً ولَقَدْ جَهِلْتُ وما جهلت فضولاً[1]

وبسط هذه الأمور له موضع آخر، ولكن نبهنا هنا على طريق الحكمة.

***

(١) وردت في الأصل: حمولاً، ولعل الصواب ما أثبتناه.

فصل
الحكمة في إختيار الأنبياء

وإذا عرفت حكمة الرب وعدله تبين أنه إنما يرسل من اصطفاه لرسالته واختاره لها كما قال: ﴿الله يصْطَفي من المَلاَئِكَةِ رُسُلاً ومن النّاس﴾(١) وكما قال لموسى: ﴿وَأنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحى﴾(٢). وأنه إذا أبلغ الرسالة وقام بالواجب وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم، كما مضت به سنته في الرسل قال: ﴿كَذَلِكَ مَا أتى الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ قَالُوا سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ أتَوَاصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إلا مَا قَدْ قِيلَ للرُسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إنَ ربَكَ لَذُو مغْفِرَةٍ وذُو عِقَابٍ أليم﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ألَمْ يَأتِكُمْ نَبَأُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعلمُهُم إلاّ الله جَآءَتهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ فَرَدُّوآ أيْدِيَهُمْ فِيٓ أفْوَاهِهِمْ وَقَالُوآ إنّا كَفَرْنَا بمَآ أرْسَلْتُمْ بِهِ وإنّا لَفي شَكٍ ممّا تَدْعُونَنَآ إلَيْهِ مُريب، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أفي الله شَكٌ فَاطِرِ السَمَوَاتِ وَالأرْضِ يَدْعُوكُمْ ليغفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِرَكُمْ إلىٓ أجل مسمًى قالوآ إن أنتُمْ إلاّ بَشَرٌ مثْلُنَا تُرِيدُونَ أن تَصُدونَا عَمّا كَانَ يَعبدُ آبَآؤنَا فأتُونَا بَسُلْطَانٍ مُبين، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنّ يَمِنُّ عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أنْ نَأتيكُمْ بِآيَةٍ إلاّ بِإذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَلِ المُؤْمِنُونَ، وَمَا لَنَآ أنْ لاَ نَتَوكَلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ولَنَصبرن عَلَى مَآ آذَيْتَمُونَا وَعَلى الله فَلْيَتَوَكَلِ المُتَوَكِلوُن، وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لنُخرِجَنَكُم مِنْ أرْضِنَا أوْ لتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا فأوحىٓ إليهِمْ رَبهُمْ لنُهلكَنَّ الظَالِمِينَ، وَلَنُسكننكُم الأرضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لمَنْ خَافَ مَقَامي وَخَافَ وَعيد، واستَفْتَحُوا وَخَابَ كُل جَبّارٍ عَنيدٍ، مِنْ وَرَآئِهِ جَهَنّمَ وَيُسْقى مِنْ مَآءٍ صَدِيدٍ، يَتَجَرّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسيغهُ وَيَأتِيهِ المَوْتُ منْ كُلِ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بميتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾(٥).

إلى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل، والرسل صادقون مصدقون على الله يخبرون بالحق ويأمرون بالعدل ويدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٥.
(٢) سورة طه: الآية ١٣.
(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٢.
(٤) سورة السجدة: الآية ٤٣.
(٥) سورة ابراهيم: الآية ٩ إلى الآية ١٧.

وأهل الكذب المدعون للنبوة ضد هؤلاء كاذبون يأمرون بما نهى الله عنه وينهـون عما أمـر الله به، فإنهم لا بد أن يأمروا بتصديقهم واعتقاد نبوتهم وطاعتهم، وذلك مما نهى الله عنه ولا بد عن متـابعة من يكـذبهم ويعاديهم، وذلـك مما أمـر الله به فـإنه يمتنـع شرار الخلق لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته، ولا في سلطان النصر والتأييد، بل في حكمته أن يـظهر الآيـات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم، ويبقي لهم سلطان الصـدق. ويفعل ذلـك بمن اتبعهم وأن يظهر الآيات المبينة لكـذب أولئك ويـذلهم ويخزيهم، ويفعـل ذلك بمن اتبعهم كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء. وقد دل القرآن على الإستدلال بهذا في غير موضـع.

والأدلة والبراهين كما تقدم نوعان: نوع يدل بمجـرده بحيث يمتنع وجـوده غير دال كـدلالة حدوث الحادث على محدث، فهذا يـدل بمجرده، وإن قـدر أن أحداً لم يقصـد الدلالـة به لكن الرب بكل شيء عليم، وهو مريد لخلق ما خلقه ولصفاته، لكن لا يشترط في الإستدلال بهذا أن يعلم أن دالاً قصد أن يدل به.

والنوع الثاني: مـا هو دليـل بقصد الـدال وجعله، فهذا لـولا القصد وجعله دليـلاً لم يكن دليلاً فهو إنما قصد بـه الدلالـة، فهذا مقصـود مجرد الـدلالة وذلـك بمجرده هـو الدليـل، وهذا كالكلام الذي يدل بقصد المتكلم وغير ذلك مثل الإشارة بالرأس والعين والحاجب واليـد، ومثل الكتابة ومثل العقد ومثل الأعلام التي نصبت على الطرق وجعلت علامة على حدود الأرض وغير ذلك، ومن ذلك العلامات التي يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله إلى أهله، سواء كان قد تواطـأ معهم عليها مثل أن يقول علامته أن يضع يده على ترقـوته، أو يضـع خنصره في خنصـره، ونحو ذلك، أو كانت علامة قصد بها الإعلام من غير تقدم مواطأ مثل إعطائه عمامته ونعليـه كما أعـطى النبي ﷺ عمامته علامة على ولاية قيس بن سعد، وعزل أبيه سعد عن الإمارة يوم الفتح.

وكما أعطى أبا هريرة نعليه علامة على ما أرسله به، وكمـا يعطي الـرجل لـرسولـه خاتمـه ونحو ذلك، فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل، وقد كان يمكن أن لا تجعـل دليلاً، فـإذا كانت آيـات الأنبيآء من هـذا الجنس فهي إنما تـدل مع قصـد الرب جعلهـا دليلاً، وجعله بـأن يجعـل المدلول لازماً لها، فكل من ظهرت على يده كان نبياً صادقاً، فإن الدليل لا يكـون دليلاً إلا مـع كونه مستلزماً للمدلول فيمتنع أن يكون دليلاً إذا وجد معه عدم المدلول، أو وجد ضد المدلـول، فآيات الأنبيآء الدالة على صدقهم يمتنع وجودها بدون صـدق النبي، ووجودهـا مع مـدعي النبوة كاذباً أعظم استحالة، فإنها إذا كانت ممتنعة مع عدم نبوة صـادقة، وإن لم تكن هنـاك نبوة كـاذبة فمع الكاذبة أشد امتناعاً، فهي مستلزمة للنبوة لا تكون مع عدم النبوة البتـة، والكاذب قـد عدمت في حقه النبوة ووجد في حقه ضدها، وهو الكذب في دعواها يمتنع كونه نبياً صـادقاً، فيمتنـع أن

يخلق الرب ما يدل على صدق الأنبيآء بدون صدقهم لامتناع وجود الملزوم دون لازمه، ومع كذبهم لامتناع وجود الشيء مع ضده.

والكذب ضد الصدق فيمتنع أن يكون قوله أنا نبي صدقاً وكذباً، فإذا استلزمت الصدق إمتنع وجود الكذب، وخلق دليل الصدق مع عدم الصدق ممتنع غير مقدور، لكن الممكن المقدور أن ما جعله دليلاً على الصدق يخلقه بدون الصدق فيكون قد خلقه، وليس بدليل حينئذ، ويمكن أن يخلق على يد كاذب ما يدل أنه دليل على صدقه وليس بدليل، مثل خوارق السحرة والكهان. كما كان يجري لمسيلمة والعنسي وغيرهما، لكن هذه ليست دليلاً على النبوة لوجودها معتادة لغير الأنبيآء، وليست خارقة لعادة غير الأنبياء، بل هي معتادة للسحرة والكهان، فالتفريط ممن ظنها دليلاً لا سيما ولا بد أن تكون دليلاً على كذب صاحبها، فإن الشياطين لا تقترن إلا بكاذب كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[1].

ولا يجوز أن يظهر الرب ما جعله دليلاً للنبوة مع عدم النبوة، كما أنه لا يجوز أن يتكلم بالكلام الذي جعله لبيان معان بدون إرادة تلك المعاني، بل ذلك ممتنع من وجوه: من وجه حكمته، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته، ومن جهة علمه وإعلامه، وغير ذلك كما قد بسط في مواضع.

ومن جهة قدرته أيضاً فإنه قادر على هدي عباده وتعريفهم، وذلك إنما يكون بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه، فإذا ما سوى بين الصادق والكاذب، فإنه يمتنع التعريف والممتنع ليس بمقدور، فقدرته تقتضي خلق الفرق، وقد يقال هو قادر لكن لا يفعل مقدوره فيقال: فعله له ممكن، ولا يمكن إلا على هذا الوجه، فيكون قادراً على هذا الوجه، فإن قيل هو قادر ولكن لا يفعله، قيل: إن أريد أنه يمتنع فهذا باطل، وإن أريد أنه يمكن فعله ولكن لا يفعله لم يكن على هذا النفي دليل بل وجوده يدل على أنه فعله.

وأيضاً فافعال الرب إما واجبة وإما ممتنعة، وإذا لم يكن ممتنعاً تعين أنه واجب وأنه قد فعله، وهذا قد فعله وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن هذا كله يستلزم أن الرب منزه عن أن يفعل بعض الأمور الممكنة المقدورة لكون ذلك يستلزم أمراً يناقض حكمته، ولكون فعل الشيء لا يكون إلا مع لوازمه وانتفاء أضداده، فيمتنع فعله بدون لوازمه أو مع ضده، كما يمتنع جعل الدليل دليلاً مع وجوده

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢١.

بلا مدلول، أو مع وجود ضد المدلول معه، والذين قالوا: يجوز منه فعل كل شيء ولا ينزه عن شيء، يتعذر على أصلهم وجود دليل جعلي قصدي، لا الكلام ولا الفعال، فيمتنع على أصلهم كون كلام الرب يدل على مراده، أو كون آياته التي قصد بها الدلالة على صدق الأنبيآء أو غيرهم تدل، لأنه يقدر أن يفعل ذلك وغير ذلك كما يقدر أن يظهر على يد الكاذب ما أظهره على يد الصادق، وهم يقولون: المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل وعدم المعارضة، وهذا يقدر على إظهاره على يد الصادق. فمن سوى بين جميع الأمور وجعل إرادته لها سواء لم يفرق بين هذا وهذا، فقالوا: نحن نستدل على أنه لم يظهرها على يد الكاذب بأنه لو فعل ذلك لبطلت قدرته على تصديق الصادقين بالآيات، فإنه إنمايستدل على صدقهم بالآيات فلو ظهر على يد الكاذب لم يبق قادراً، هذه عمدة أكثرهم، وعليها اعتمد القاضي أبو بكر في كتاب المعجزات.

فيقال لهم: هذا لا يبطل قدرته على على ذلك، ولكن هذا يوجب أنه لم يفعل المقدور فيلزم من ذلك أنه سوى بين الصادق والكاذب، ولم يبين صدقه، وهذا مقدور ممكن، وكل مقدور ممكن فهو عندكم جائز عليه، فلم يكن اللازم رفع قدرته، بل اللازم أنه لم يفعل مقدوره، وهذا جائز عندكم، ومما يوضح هذا أن يقال هو قادر على إظهار ذلك على يد الكاذب أم لا، فإن قلتم ليس بقادر، أبطلتم قدرته، وإن قلتم هو قادر، فثبت أنه قادر على إظهار ذلك على يد الصادق والكاذب، فبقي مشتركاً لا يخص أحدهما، فلا يكون حينئذ دليلاً، فمجرد القدرة لم يوجب إختصاص الصادق به، وإن قلتم لا يقدر على إظهاره على يد الكاذب، فقد رفعتم القدرة، فأنتم بين أمرين إن أثبتم القدرة العامة فلا اختصاص لها، وإن نفيتم القدرة على أحدهما بطل استدلالكم بشمول القدرة، وأيضاً فالقدرة إنما تكون على ممكن، وعلى أصلكم لا يمكن تصديق الصادق، فهم استدلوا بمقدمتين وكلاهما باطلة.

قالوا: لو لم يكن دليلاً رفع القدرة وهذا باطل بل يلزم أن لم يفعل المقدور، وهذا جائز عندهم، فلا يجب عندهم شيء من الأفعال. ثم قالوا: وهو قادر على ذلك، وعلى أصلهم ليس هو بقادر على ذلك. فإنهم قالوا: يمكنه تصديق الأنبيآء بالفعل، كما يمكنه التصديق بالقول فيقال لهم: كلاهما يدل بالقصد والجعل، وهذا إنما يكون ممن يقصد أن يفعل الشيء ليدل، وعندكم هو لا يفعل شيئاً لشيء، فيلزم على أصلكم أن لا يفعل شيئاً لأجل أنه يدل به عباده لا فعلاً ولا كلاماً إذ كان هذا عندكم ممتنعاً وهو فعل شيء لمقصود آخر غير فعله.

وإذا كان هذا ممتنعاً عندكم لم يكن مقدوراً ، فلا يقدر على أصلكم أن ينصب لعباده دليلاً ليدلهم به على شيء، بل هذا عندهم فعل لغرض وهو ممتنع عليه، وإن قلتم هو وإن لم يقصد أن يفعل شيئاً لحكمة، لكن قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل بأحدهما على الآخر، قيل:

هذا إنما يكون بعد أن يثبت التلازم، وإن أحدهما مستلزم للآخر، وهذا معلوم فيما يدل بمجرده فإنه يمتنع وجوده بدون لازمة، أما ما يدل بالجعل والقصد، فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولاً له، واللزوم إنما يكون بالقصد وهو عندكم يمتنع أن يفعل شيئاً لأجل شيء، فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم وهي أخص بالدلالة من غيرها.

ولهذا لا يكادون يستدلون بكلام الله بل يعتمدون في السمعيات أما على ما علم بالضرورة أو الإجماع، وحقيقة الأمر أن الأدلة الجعلية القصدية لا بد فيها من إرادة الرب ومشيئته أن تكون أدلة فلا بد أن يريد أن يجعل هذا الفعل ليدل وهم لا يجوزون أن يريد شيئاً لشيء، بل كل مخلوق هو عندهم مراد من نفسه لم يرد لغيره، فامتنع أن يكون يريد الرب جعل شيء دليلاً على أصلهم، فتبين أنه على أصلهم، غير قادر على نصب ما يقصد به دلالة العباد وهدايتهم وإعلامهم لا قول ولا فعل. فبطلت المقدمة الكبرى وبتقدير أن يكون قادراً على ذلك فهو إذا أظهر على يد الكاذب ما يظهر على يد الصادق كان لم يفعل هذا المقدور، ولم يجعل ذلك دليلاً على الصدق لا يلزم أن لا يكون قادراً، فهم اعتمدوا على هذه الحجة وقالوا: هذا هذا، وهذا هذا، فقد تبين أن من لم يثبت حكمة الرب يلزمه نفي إرادته ومشيئته كما تقدم، ويلزمه أيضاً نفي قدرته على أن يفعل شيئاً لشيء فلا يمكنه أن ينصب دليلاً ليدل به عباده على صدق صادق ولا كذب كاذب، وهم يقولون: من فعل شيئاً لحكمة، دليل على حاجته ونقصه لأنه فعل لغرض، والغرض هو الشهوة وذلك يتضمن الحاجة، وهذا بعينه يقال في الإرادة.

إن من أراد فإنما يريد لغرض وشهوة، فقولهم بنفي الحكمة يتضمن نفي الإرادة ونفي القدرة، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع، وبين أن من نفى الحكمة يلزمه نفي الإرادة، ومن نفى الإرادة يلزمه نفي فعل الرب، ونفي الأحداث، ومن نفى ذلك يلزمه امتناع حدوث حادث في الوجود، وإن إثبات الحكمة لازم لكل طائفة على أي قول قالوه، كما قد بسط في غيرهذا الموضع، إذ المقصود التنبيه على أن إثبات آيات الأبيآء والإستدلال بكلام الله وآياته التي أراد أن يدل بها عباده بدون إثبات حكمته ممتنع، ولهذا اضطرب كلام من نفى حكمته في آيات الأنبيآء وفي كلام الرب سبحانه، وهي الآيات التي بعثت بها الأنبيآء القولية والفعلية، واضطربوا في الإستدلال على ما جاءت به الأنبيآء، كما قد نبه عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

***

فصل
الاستدلال بسننه عزّ وجلّ

وأما الإستدلال بسنته وعادته، فهو أيضاً طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق، وهم متفقون عليه من يقول بالحكمة، ومن يقول بمجرد المشيئة، فإنه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب والشهور والأعوام، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات، وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب والأغذية والأدوية ولغات الأمم كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه، والعلم بالطب وغير ذلك، كذلك سنته تعالى في الأنبيآء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذبهم أو كذب عليهم، فأولئك ينصرهم ويعزهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة، كما فعل بقوم نوح وبعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه، وكما فعل بمن كذب محمداً من قومه قريش ومن سائر العرب وسائر الأمم غير العرب، وكما فعل بمن نصر أنبيآءه وأتباعهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ الْمَنْصُورُونَ وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الغالبون﴾[1] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائم وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظَلَموآ أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلهتهُم التي يَدعونَ مِنْ دُونِ الله مِنْ شَيءٍ لَمَّا جَآءَ أَمرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيرَ تَتْبِيب﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِبُوكَ فَقَدْ كَذَبت قَبْلَهُمْ قَوْم نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إبراهيمَ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصحَابِ مَدينَ وَكُذِبَ مُوسَى فَأَمليْتُ للكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذتُهُمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِير﴾[4].

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانوآ أَشدَّ مِنْهُمْ قُوةً وأثاروا الأَرْضَ وَعَمَروهآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوآ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَآءوا السُّوٓءَ أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئونَ﴾[5].

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٧٢.
(٢) سورة المؤمن: الآية ٥١.
(٣) سورة هود: الآية ١٠٢.
(٤) سورة الحج: الآية ٤٢.
(٥) سورة الروم: الآية ٩.

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ منهم قُوَّةً وآثاراً في الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ الله بِذنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِم رسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ فَكَفَروا فأخَذَهُم الله إنّه قَوِيٌّ شَدِيد العِقَابِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْم نُوحٍ والأحْزَاب مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيأخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ فَأخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿أفَلَمْ يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوآ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَلَمّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بمَا عِندهُمْ مِنَ العلمِ وَحَاق بهِمْ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئون، فَلَمّا رَأَوا بَأْسَنَا قَالُوآ آمَنّا باللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكين، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهم لمّا رَأوا بَأْسَنَا، سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الّذِينَ كَفَرُوا لَوَلوا الأدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً، سُنّةُ اللهِ الّتي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وأقسموا باللهِ جُهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ليكونن أهدى من أحدى الأمم، فَلَمّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إلاَّ نُفُوراً، استكباراً في الأَرْضِ وَمَكْرَ السَيِء وَلاَ يُحِيقُ المَكرُ السَيءُ إلاَّ بأهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرونَ إلا سُنّةَ الأولينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسنة اللهِ تَحويلاً﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وإنْ كَانُوا لَيَسْتَفِزُونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإذاً لاَ يَلْبَثُون خِلاَفَكَ إلاَّ قَليلاً﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَإنْ كَادُوا لَيفْتُنونَكَ عَن الذيّ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ لِتَفتري عَلَيْنَا غيرهُ وَإذاً لاتخذُوكَ خليلاً وَلَوْلاَ أن ثَبّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إليهِمْ شَيئاً قَليلاً إذاً لأذقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تجد لكَ عَلَيْنا نصيراً﴾[7]. وقد قيل آية الحاقة وآية الشورى تبين أنه لو افترى عليه لعاقبه، فهذه سنته في الكاذبين، وحقيقة الإستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الإعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آية في فِئتينِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ في سَبيلِ الله وَأُخْرَى كَافِرة يَرونَهُمْ مِثْلَيهِمْ رَأْيَ العَيْنِ وَالله يُؤَيِدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشآءُ إن في ذَلِكَ لَعِبرة لأولي الأبصار﴾[8].

(1) سورة المؤمن: الآية ٢٢.
(2) سورة المؤمن: الآية ٥.
(3) سورة المؤمن: الآيات ٨٢ ــ ٨٥.
(4) سورة الفتح: الآية ٢٢.
(5) سورة فاطر: الآيتان ٤٢، ٤٣.
(6) سورة الاسراء: الآية ٧٦.
(7) سورة الاسراء: الآية ٧٣.
(8) سورة آل عمران: الآية ١٣.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الذي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَروا منْ أهلِ الكتابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأولِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنّوآ أنهم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ منَ الله فَأَتَاهُمْ منْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِم الرعْبَ يخربُونَ بُيُوتَهم بأَيْدِيهم وأيدي المُؤمنينَ فَاعْتَبِرُوا يَآ أولى الأبْصار﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ في قِصَصِهِمْ عِبرةٌ لأولي الألْبَابِ﴾[2]. وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الأصابع: هن سواء، واعتبروها بدية الأسنان، فإذا عرفت قصص الأنبيآء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيداً، ومن كذبهم كان شقياً، وهذ سنة الله وعادته، ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: ﴿أكفارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أولئِكُمْ أم لَكُمْ بَرَاءَةٌ في الزُّبُرِ﴾[3]. يقول: فإذا لم يكونوا خيراً منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم، هذا بطريق الإعتبار والقياس ثم قال: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرآءَةٌ في الزُّبُرِ﴾. أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم؟ فنفى الدليلين العقلي والسمعي، ثم ذكر قولهم نحن جمع منتصر، وإنا نغلب من يغالبنا فقال تعالى: ﴿سَيُهزَمُ الجَمْعُ وَيولوُنَ الدُّبرُ﴾[4]. وهذا مما أنبأه من الغيب في حال ضعف الإسلام واستبعاد عامة الناس ذلك، ثم كان كما أخبر، وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أن تَدخُلُوا الجَنّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذينَ خَلوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسّتْهُمُ البَأْسَآءُ وَالضَّرّآءُ وَزُلزلوا حتى يَقُولَ الرَّسُولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله ألآ إنَّ نَصْرَ الله قريب﴾[5] وقال لمحمد: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قيلَ للرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[6]. وقال: ﴿كَذلِكَ مَآ أتى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون أَتَوَاصَوا به بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الّذينَ لاَ يَعْلمونَ لَوْلاَ يُكَلِمُنَا الله أو تأتينا آية كَذلِكَ قَالَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مثلَ قَوْلِهِمْ﴾[8].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَتَركبنَّ سُنَنَ من كَانَ قَبْلكم حذو القذة حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍ لدخلتُمُوهُ» قَالُوا يَا رَسُولَ الله اليَهُودُ والنصارى؟ قال: «نعم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأخذَن أمتي مَا أخَذَ الأمَمَ قَبْلَهَا شِبراً بشبرٍ وَذِرَاعاً بِذِراعٍ»، قالوا يا رسول الله فارس والروم، قال: «ومن الناس إلا هؤلاء».

(1) سورة الحشر: الآية ٢.
(2) سورة يوسف: الآية ١١١.
(3) سورة القمر: الآية ٤٣.
(4) سورة القمر: الآية ٤٥.
(5) سورة البقرة: الآية ٢١٤.
(6) سورة السجدة: الآية ٤٣.
(7) سورة الذاريات: الآية ٥٢.
(8) سورة البقرة: الآية ١١٩.

وفي السنن لما قال له بعض أصحابه: «إجعل لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ كَمَا لهم ذاتَ أنواط قال: «الله أكبرُ، قُلتُمْ كما قالَ قَوْمُ مُوسَى اجعَل لَنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلهةٌ» ثُمَّ قال: «إنه السُّنَن لَتركَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سنن فَسيروا في الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِبينَ﴾(١). ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته في مكذبي الرسل كقول شعيب: ﴿يَا قَوْمُ لاَ يَجْرِمَنَّكُم شِقاقِيَ أن يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نوحٍ أو قوم هُود أو قوم صالح وَمَا قَوْمُ لُوطٍ منكم ببعيد﴾(٢).

وقال مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمُ إنِيّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوم الأحْزَابِ مثلَ دَأْبِ قوم نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والَّذِينَ منْ بَعْدِهِمْ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلما للعِبَادِ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾٤. والدأب العادة في ثلاثة مواضع قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذين كَفروا لَنْ تُغني عَنْهُمْ أموالهُمْ وَلاَ أوْلادُهُمْ مِنَ الله شيئاً وأولئكَ هُمْ وقودُ النارِ، كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبوا بآياتِنَا فَأَخَذَهُمْ الله بذُنُبِهِمْ وَالله شديدُ العِقَابِ﴾(٥). قال ابن قتيبة وغيره: الدأب: العادة، ومعناه: كعادة آل فرعون، يريد كفر اليهود كل فريق بنبيهم، وقال الزجاج: هو الإجتهاد، معناه أي دأب هؤلاء، وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى.

وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة: كسنة آل فرعون، وقال النضر بن شميل: كعادة آل فرعون، يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق، كعادة آل فرعون، وقال طائفة: نظم الآية إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة، مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم.

وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس: كدأب آل فرعون، قال: كصنيع آل فرعون. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة نحو ذلك، قال: وروي عن الربيع بن أنس: كشبه آل فرعون، وعن السدي قال: ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود.

قلت: فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل، فإن لفظ الدأب يدل عليه، قال الجوهري: دأب فلان في عمله أي جد وتعب دأباً ودؤوباً فهو دئب وأدأبته، أنا والدائبان الليل والنهار، قال: والدأب يعني بالتسكين العادة والشأن، وقد يحرك قال الفراء: أصله من دأبت إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن، قلت: الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذي هو الاجتهاد،

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.
(٢) سورة هود: الآية ٨٩.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٨.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١١.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠ و ١١.

والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك إذا زاد اللفظ زاد المعنى، والذي في القرآن مسكن ما علمنا أحداً قرأه بالتحريك، وهذا معروف في اللغة يقال: فلان دأبه كذا وكذا أي هذا عادته وعمله اللازم له، وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد، ومنه قوله تعالى: ﴿وسَخّرَ لكُم الشّمسَ والقمَرَ دآئِبَين﴾[1]. والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربتان، ومنه اللازب واللازم. قال إبن عطية: دائبين أي متماديين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: «إنَ هـذا الجَمَلَ شَكىَ إليَّ أنّكَ تُجيعُهُ وتدئبُه»، أي تديمه في العمل له والخدمة. قال: وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب، وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثيرة.

قال: وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه إلى ابن عباس أنه قال: معناه دائبين في طاعة الله، قال: وهذا قول إن كان يراد به أن الطاعة انقيادهما للتسخير، فذلك موجود في طاعة قوله: وسخر، وإن كان يراد أنها طاعة مقدورة، كطاعة العبادة من البشر، فهذا بعيد، قلت: ليس هذا ببعيد بل عليه دلت الأدلة الكثيرة كما هو مذكور في مواضع، وقالت طائفة منهم البغوي: وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود إلى مصالح عباد الله لا يفتران.

قال ابن عباس: دؤوبهما في طاعة الله ولفظ أبي الفرج دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتريان قال: ومعنى الدؤوب مرور الشيء على عادة جارية فيه، قلت: وإذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه، فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحيق بهم ما حاق بأولئك، هذا هو المقصود، ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله: ﴿إنَّ الذينَ كَفَروا لَن تُغْني عنهُم أمْوالهُم ولآ أولادُهُم مِنَ الله شيئاً وأولئكَ هُم وَقودُ النّارِ، كدأبِ آل فرعونَ والّذينَ مِن قبلِهِم كذّبوا بآياتِنا فأخذَهُم الله بذُنوبِهِم والله شديدُ العِقاب﴾[2] أي فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله إذا جاءهم كدأب آل فرعون.

وكذلك قوله: ﴿ولَوْ تَرىَ إذْ يتوَفى الّذينَ كَفَروا الملآئكةَ يَضرِبونَ وُجوهَهُم وأدبارَهُم وذُوقوا عذابَ الحريقِ ذلكَ بما قَدّمَتْ أيديكُم وإنَّ الله ليسَ بظَلاّم للعبيد﴾[3]. إلى قوله: ﴿كدَأبِ آلِ فِرعَوْنَ والّذينَ مِن قبلهِم كذّبوا بآياتِ ربهِم فأهْلكناهُم بذُنوبهِم وأغرَقْنا آلَ فِرعونَ وكلٌّ كانوا ظالمينَ﴾[4]. فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب، وأما الطائفة الأخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم.

قال مكي بن أبي طالب: الكاف في كدأب في مواضع نصب نعت لمحذوف تقديره:

---

(١) سورة ابراهيم: الآية ٢٣.
(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٠، ١١.
(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٥٤.

غيرناهم كما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون، ومثلها الآية الأولى للعادة في العذاب تقديره فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون، وقد جمع بعضهم بين المعنيين، فقال أبو الفرج: كدأب آل فرعون. أي كعادتهم، والمعنى: كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك، قلت: الدأب العادة، وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى، فإذا أضيف إلى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون، وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم، يقال: هذه عادة هؤلاء لما فعلوه، ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنته فيهم، والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعاً، وقد تقدم عن الفراء والجوهري أن الدأب العادة والشأن، وهذا كقوله: ﴿قَد خَلَتْ مِن قبلِكُم سُنَنٌ فسيروا في الأرضِ فانظُروا كيف كانَ عاقِبَةُ المكذبين﴾(1). روى ابن أبي حاتم بالاسناد المعروف عن مجاهد: قد خلت من قبلكم سنن من الكفار، والمؤمنين في الخير والشر، وعن أبي اسحاق. أي قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فرءوا مثلات قد مضت مني فيهم، فقد فسرت السنن بأعمالهمب وبجزائهم، قال البغوي: معنى الآية قد مضت، وسلفت مني فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالى واستدراجي إياهم، حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وادالة أنبيآئي، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، أي آخر المكذبين منهم قال: وهذا في حزب واحد يقول: فأنا أمهلهم واستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت منه نصرة النبي وأوليائه، وهلاك أعدائه قلت: ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أفلَمْ يَسيروا في الأرض فتكونَ لهُم قُلوبٌ يعقلُون بهآ أو آذانٌ يَسمَعونَ بها فإنّها لا تَعمى الأبصارُ ولَكِنَ تَعمَى القُلوبُ التي في الصُدورِ﴾(2). وقوله: ﴿أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فينْظُروا كيفَ كانَ عاقِبَةُ الّذينَ مِن قبلِهِم كانوآ أشَدَّ منهُم قُوَّةً وأثاروا الأرضَ وعَمَروها أكثرَ مِمّا عَمَروها وجآءتهُم رُسُلهم بالبيّنات فما كانَ الله لِيَظْلِمَهُم وَلكِن أنفُسَهُم يَظْلِمون﴾(3). وقوله في الآية الأخرى ﴿كانوآ أكثرَ مِنهُم وأشدَّ قوّةً وآثاراً في الأرضِ فَمآ أغْنى عنهُم ما كانوا يكسِبون فلَمّا جآءتهُم رُسُلُهُم بالبينات فرِحوا بما عندهُم مِن العلمِ وحاقَ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئون، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسنا قَالُوا آمَنا بالله وَحْده وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشرِكينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانهمْ لَمّا رَأَوْا بَأسَنا سُنةِ اللّهِ الّذي قَدَ خَلَتْ في عِبَادِهِ وخَسِرَ هُنَالِك الْكَافِرُونَ﴾(4). فهذا كله يبين أن سنة الله وعاداته مطردة لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل وإهانة مكذبيهم.

***

(1) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.
(2) سورة الحج: الآية ٤٦.
(3) سورة الروم: الآية ٩.
(4) سورة المؤمن: من الآية ٨١ إلى الآية ٨٥.

فصل
آيات الأنبيآء مستلزمة لثبوت النبوة

آيات الأنبيآء كما قد عرف هي مستلزمة لثبوت النبوة، وصدق المخبر والشاهد بها، فيلزم من وجودها وجود النبوة وصدق المخبر بها، ويمتنع أن تكون مع التكذيب بها وكذب المخبر بها، فلا يجوز وجودها لمن كذب الأنبيآء، ولا لمن أقر بنبوة كذاب، سواء كان هو نفسه المدعي للنبوة أو ادعى نبوة غيره، وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله: ﴿وَمَن أظلَمُ مِمَّنْ افترَى على الله كذباً أو قالَ أوحىَ إليّ ولم يُوحَ اليهِ شيءٌ وَمن قال سأنزِلُ مِثلَ مآأنـزَلَ الله﴾[1]. وهؤلاءِ كلُّهُم من أظلم الكاذبين كما قال: ﴿فمَنْ أظلَمُ ممّن كذَّبَ على الله وكذَّبَ بالصِّدْقِ إذ جآءهُ أليسَ في جهنَّمَ مَثوىً للكافِرين﴾[2].

ثم قال: ﴿والّذي جآءَ بالصَدقِ وصَدَّقَ بـهِ أولـئِكَ هُمُ المُتّقـون﴾[3]. فالمخبر بالنبوة مع ثبوتها هو الذي جاء بالصدق وصدق به، والمخبر بها مع انتفائها هو الذي كذب على الله، والمكذب بها مع ثبوتها هو الذي كذب بالحق لكا جاءه، فدلائل النبوة هي مستلزمة لصدق من أثبت نبوة هي نبوة حق أن تكون لمن نفى هذه، أو أثبت نبوة ليست بنبوة، وكذلك كل دليل دل على إثبات الصانع دل على صدق المؤمنين به المخبرين بما دل عليه الدليل، وعلى كذب من نفى ذلك، أو على صدق من جعل صفات الرب ثابتة لغيره، وما دل على أن هذه الدار ملك لزيد يدل على صدق المخبر بذلك وكذب النافي له، ويمتنع أن يدل مع انتفاء الملك، وما دل على علم شخص وعدله، فإنه مستلزم لذلك ولصدق المخبر به، وكذلك النافي له يمتنع أن يدل على صدق النافي أو يدل مع انتفاء العلم والعدل، فإن ما استلزم ثبوت شيء وصدقه استلزم كذب نقيضه، وكان عدم اللازم مستلزماً لعدم الملزوم، فما كان مستلزماً لثبوت النبوة، وصدق المخبر بها كان مستلزماً لكذب من نفاها، فامتنع أن يكون موجوداً مع من نفاها، وامتنع أن يكون موجوداً مع انتفائها، فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين، فدليل كل مدلول عليه

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٢.

(٣) سورة الزمر: الآية ٣٣.

يمتنـع ثبوته مع عدم المدلول عليـه، فإنـه مستلزم لثبوتـه، فلو وجد مـع عدمـه للزم الجمـع بين النقيضين، فما كان دليلاً على نبوة شخص فهو دليل على جنس النبوة، فإن نبوة الشخص لا تثبت إلا مـع ثبـوت جنس النبوة، فيمتنـع وجـود ذلك الـدليل مـع عـدم النبوة، وثبـوت أحد النقيضين مستلزم لنفي الآخر، فثبوت صدق المخبر بثبوتها مستلزم لكذب المخبر بانتفائها، فهذا أمر عقلي مقطوع به معلوم بالبديهة بعد تصـوره في جميـع الأدلة أدلـة النبوة وغيـرها، فـلا يجوز أن يكـون ما دل على النبوة، وعلى صدق المخبر بهـا، وكذب المكـذب بها دليـلاً على انتفائهـا كالمتنبـي الذي يدعي النبوة ولا نبوة معه، فلا يتصور أن يكون معه ولا مـع المصدق بنبوته شيء من دلائل النبوة، وأما كون دليل من دلائل النبوة مـع المصدق بها كـائناً من كـان، فهذا حق، بـل هذا هـو الواجب، فمن صدق بها بلا دليل كان متكلماً بلا علم، فكـل من صدق بـالنبوة بعلم فمعـه دليل من أدلتها، وأخبار أهل التواتر بما جاءت به اونبيآء من الآيات، هو من أدلة ثبوتها. فكـل من آمن بالرسول عن بصيرة، فـلا بد أن يكـون في قلبه علم بـأنه نبـي حق، إمـا علم ضروري، أو علم نظري بدليـل من الأدلة، والعلوم النـظرية مـع أدلتهـا تبقى ضروريـة، وقد تكـون في نفس الأمر علوم ضـرورية ولا يمكنـه التعبير عمـا يدل عليهـا، كالـذي يجده الإنسـان في نفسه ويعلمـه من العلوم البديهية والضرورية وغيـر ذلك، فـإن كثيراً من النـاس لا يمكنهم بيان الأدلـة لغيرهم على وجـود ذلك عنـدهم، وإذا عرف هـذا فقولنـا: دلائل النبـوة مختصـة بـالأنبيـآء لا تكـون لغيـرهم له معنيان: أحدهما أنه لا يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم ولا من يدعي نبوة كاذبة، وهذا ظـاهر بَيّن، فـإن الدليـل على الشيء لا يكون دليـلاً على وجوده وعلى عـدمه، فـلا يكون مـا يدل على النبوة أو غيرها، وعلى صدق المخبر بذلك دليلاً على كذب المخبر بـذلك، ولا دليـلاً على النبوة مـع انتفاء النبوة.

والمعنى الثاني أنها لا توجد إلا مع النبي، فهذا إن أريد به أنها لا توجـد إلا والنبوة ثـابتة، فهو صحيح، وإن كـانت مع ذلـك على نبي فلا يمتنـع أن يكون الشيء الـواحد دليـلاً على أمور كثيرة، لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلولـه، فما دل على النبـوة قد يـدل على أمور أخـرى من أمور الرب تبارك وتعالى لكن لا يمكن أن يدل مع انتفاء النبوة أي مع كون النبـوة المدلـول عليها باطلة لا حقيقة لها، ولكن قد يدل مع مـوت النبي ومع غيبتـه، فإن مـوته وغيبتـه لا ينفي نبوتـه، وليس من شـرط دليل النبي أن يكـون موجـوداً في محل المـدلول عليـه، ولا في مكـانـه ولا في زمانه، وقول من اشترط في آيات الأنبيآء أن تكون مقترنة بالدعوى في غايـة الفساد والتناقض كمـا قـد بسط لا سيما والآيـات قد تكـون مخلوقة نـائية عن النبي وعن مكـانه، وكـذلك سـائر الأدلـة لا سيما ما يجري مجرى الخبر، فالأخبار الدالة على وجود المخبـر به لا يجب أن تكـون مقارنـة

للمخبر به لا في محله ولا زمانه ولا مكانه، وآيات الأنبيآء هي شهادة من الله وإخبار منه بنبوتهم، فلا يجب أن تكون في محل النبوة ولا زمانها ولا مكانها، لكن يجوز ذلك، فلا يمتنع أن يكون الدليل في محل الملول عليه أو في زمانه أو في مكانه، لكن يجوز ذلك فيه، فالانسان قد تقوم به أمور تدل على بعض الأمور التي فيه، وقد تعلم أموره بخبر غيره وببعض آثاره المنفصلة عنه، فإذا أريد بأن آيات الأنبيآء مختصة بهم وأنها لا تكون لغيرهم أنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها، فهذا صحيح لأنه يستلزم الجمع بين النقيضين، وأما إذا أريد أنها لا توجد إلا في ذات النبي أو مقترنة بخبره عن نبوته أو في المكان الذي كان فيه أو في الزمان، فهذا كله غلط وخطأ ممن ظنه، وجهل بين بحقائق الأدلة، وإن كان من الأدلة وآيات النبوة ما يكون في ذات النبي، ويكون مقترناً بقوله: إني رسول الله ويكون في المكان الذي هو فيه وفي زمانه، فهذا يمكن وهو الواقع. فإن النبي ﷺ بل وغيره من الأنبيآء كان في نفس أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وأخلاقهم وسيرهم أمور كثيرة تدل على نبوتهم.

وكذلك لما قال إني رسول الله أتى مع ذلك بآيات دلت على صدقه، وكذلك في مكانه وزمانه ظهر من انشقاق القمر وغيره ما دل على نبوته، لكن آيات الأنبيآء أعم من ذلك، كما أن دليل كل شيء أعم من أن يختص بمعنى المدلول وزمانه ومكانه، وبهذا يظهر خطأ كثير من الناس في عدم معرفتهم بجنس آيات الأنبيآء لعدم تحقيقهم جنس الأدلة والبراهين، وإن خاصة الدليل أنه يلزم من تحققه تحقق المدلول عليه فقط، سواء كان مقارناً للمدلول عليه، أو كان حالاً في محله أو مجاوزاً لمحله أو لم يكن كذلك النبوة، قد قال طائفة من الناس أنها صفة في النبي، وقال طائفة ليست صفة ثبوتية في النبي، بل هو مجرد تعلق الخطاب الإلهي به، يقول الرب: إني أرسلتك، فهي عندهم صفة إضافية كما يقولونه في الأحكام الشرعية أنها صفات إضافية للأفعال لا صفات حقيقية، والصحيح أن النبوة تجمع هذا وهذا، فهي تتضمن صفة ثبوتية في النبي، وصفة إضافية هي مجرد تعلق الخطاب الإلهي به يقول الرب أني أرسلتك فهي عندهم صفة إضافية كما يقولونه في الأحكام الشرعية إنها صفات إضافية للأفعال لا صفات حقيقية، لكن على الأقوال الثلاثة[1]: ليس من شرط أدلتها أن تكون حالة في ذات النبي، ولكن يجوز أن تكون لها أدلة قائمة بذات النبي، كما كان في محمد ﷺ عدة أدلة من دلائل النبوة، كما هو مبسوط في دلائل نبوته، إذ المقصود هنا الكلام على جنس آيات الأنبيآء لا على شيء معين ولا دليل معين، ولا نبي معين، فإذا عرف أن دلائل النبوة يمتنع ثبوتها لشخص لا نبوة قيه

(١) لم يذكر إلا قولين فقط فلعل الثالث سقط من الناسخ.

إذا ادعاها، أو ادعيت له كذباً، ويمتنع ثبوتها مع المكذب بالنبوة الصادقة، وأنها لا توجد إلا والنبوة ثابتة، وأنها دليل على صدق المخبر بالنبوة من جميع الخلق، فكل من آمن أن محمداً رسول الله، فقد أخبر عن نبوته كما أخبر هو عن نبوة نفسه بما أمر الله به حيث قال: ﴿قُلْ يا أيُّها النّاسُ إني رسولُ الله اليكُم جميعاً﴾[1]. فهذا الخبر وهو الشهادة بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً سواء وجد منه أو من غيره هو مدلول عليه لجميع دلائل النبوة، فإذا وجد هذا الخبر في غير أن النبي، ووجد ما يدل على صدق هذا الخبر كان ذلك من دلائل النبوة كما وجود هذا في خلق كثير من المؤمنين، ومن دلائل النبوة وجد العلم الضروري بخبر أهل التواتر الذين أخبروا بالآيات، فهذا العلم الضروري هو بمنزلة المشاهدة للآيات، وكذلك ما يوجد لأهل الإيمان مما يستلزم صدق خبرهم بأن محمداً رسول كما يوجد لأمته من الآيات الكثيرة عند تحقيق أمره ونصره وطاعته، والجهاد عن دينه، والذب عنه، وبيان ما أرسل به كما وجد أمثال ذلك للصحابة والتابعين وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة.

***

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

فصل
تأييد الله تعالى رسله بالآيات المعجزات

فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة، فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي، ويمتنع أن يكون شيء من ذلك دليلاً على النبوة، فإن ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده، وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها، كل ذلك مناقض للنبوة، فإن النبي لا يكون مؤمناً، وهؤلاء كفار، فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأولى، وهو آية ودليل وبرهان على عدم النبوة، فيمتنع أن يكون دليلاً على وجودها، وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبي لا يخرج عن مقدور الإنس والجن، وأعني بالمقدور ما يمكنهم التوصل اليه بطريق من الطرق، فإن من الناس من يقول: إن المقدور لا بد أن يكون في محل القدرة، وليس هذا هو لغة العرب ولا غيرهم من الأمم، ولا لغة القرآن والحديث ولا غيرهما، وإنما يدعون ذلك من جهة العقل، وقولهم في ذلك باطل من جهة العقل، لكن المقصود هنا التكلم باللغة المعروفة لغة العرب وغيرهم التي كان نبينا ﷺ وغيره يخاطب بها الناس كقوله في الحديث الصحيح لأبي مسعود لما ضرب غلامه: «اعلَمْ أبا مسعودٍ، اعلم أبا مَسعودٍ، الله أقدَرُ عليكَ مِنكَ عَلى هذا». فجعل نفس المملوك مقدوراً عليه لسيدة كما يقول الناس: القوة على الضعيف ضعف في القوة، ويقولون: فلان قادر على فلان، وفلان عاجز عن فلان، ويقولون: فلان ناسج هذا الثوب وبنى هذه الدار، ومنه قوله تعالى: ﴿ويَصْنَعُ الفُلْكَ﴾(١). فجعل الفلك مصنوعة لنوح، ومنه قوله تعالى: ﴿والله خلَقَكُم وما تَعْمَلون﴾(٢). أي والأصنام التي تعملونها وتنحتونها فجعل ما في الأصنام من التأليف معمولاً لهم، كما جعل تأليف السفينة مصنوعاً لهم، وهذا كثير.

والمقصود هنا أن ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم، هو مما يصنعه الإنس والجن، لا يخرج ذلك عنهم، والإنس والجن قد أرسلت اليهم الرسل، فآيات الأنبيآء خارجة عن قدرة الإنس والجن، لا يقدر عليها لا الإنس ولا الجن ولله الحمد والمنة.

---

(١) سورة هود: الآية ٣٨.

(٢) سورة الصافات: الآية ٩٦.

ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الإنس، لكن يختلف في المواضع فإن الإنسي يقدر على أن يضرب غيره، حتى يمرض أو يموت، بل يقدر أن يكلمه بكلام يمرض به أو يموت، فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت هو من مقدور الجن وهو من جنس مقدور الإنس، ومنعه من الجماع هو من جنس المرض المانع له من ذلك، والحب والبغض لبعض الناس كما يفعله الساحر هو من استعانته بالشياطين، وهو من جنس مقدور الإنس، بل شياطين الإنس قد يؤثرون من البغض والحب أعظم مما تؤثره شياطين الجن، والجن تقدر على الطيران في الهواء، وهو من الأعمال، والطيور تطير، فهو من جنس مقدور الإنس، لكن يختلف المحل بأن هؤلاء سيرهم في الهواء والإنس سيرهم على الأرض، وكذلك المشي على الماء وطي الأرض، وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب هو من هذا الجنس هو مما تفعله الجن، وهو مما تفعله الجن ببعض الناس، وقد أخبر الله عن العفريت أنه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن وسليمان بالشام: ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾(١). ولهذا يوجد كثير من الكفار والفساق والجهال تطير بهم الجن في الهواء، وتمشي بهم على الماء، وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة، وليس شيء من ذلك من آيات الأنبياء، ولله الحمد والمنة إذ كان مقدور الإنس والجن، والأخبار ببعض الأمور الغائبة التي يأتي بها الكهان هو أيضاً من مقدور الجن، فإنهم تارة يرون الغائب فيخبرون به، وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به، وتارة يسترقون وهم يكذبون في ذلك، كما أخبر النبي ﷺ عنهم، وما تخبر به الأنبياء من الغيب لا يقدر عليه إنس ولا جن، ولا كذب فيه، وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب، فإخبار الجن لا بد أن تكذب، فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيب كان من جنس الكهان، وكذبوه في بعض ما يخبرون به، وإن كانوا صادقين في البعض.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن الكهان؟ فقيل له: إن منا قوماً يأتون الكهان قال: «**فلا يأتوهم**». وثبت عنه في الصحيح أنه قال: «**من أتى عرّافاً فسألهُ عن شيء لم تُقْبَلُ لـهُ صلاةٌ أربعينَ يوماً**». وفي السنن عنه أنه قال: «**مَنِ اقتبس شُعبةً مِنَ النجومِ فقدِاقتبَسَ شُعبةً مِن السِّحرِ زادَ ما زادَ**». والنبي ﷺ لما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لم يكن المقصود مجرد وصوله إلى الأقصى، بل المقصود ما ذكره الله بقول: ﴿لنريه من آياتنا﴾(٢). كما قال في سورة النجم: ﴿ولقد رآهُ نَزْلَةً أُخرَى عِندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى عِندها جَنَّةُ المأوى إذ يَغْشَى السِدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ البَصَرُ وَما طَغَى لَقَد رأى مِن آياتِ ربِّهِ الكُبرى﴾(٣).

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٩. (٢) سورة الاسراء: الآية ١. (٣) سورة النجم: الآية ١٣.

وما رآه مختص بالأنبيآء لا يكون ذلك لمن خالفهم، ولا يريه الله تعالى ما رآه محمداً حين أسرى به، وكذلك صلاته بالأنبيآء في المسجد الأقصى وركوبه على البراق، هذا كله من خصائص الأنبيآء، والذين تحملهم الجن وتطير بهم من مكان إلى مكان أكثرهم لا يدري كيف حمل، بل يحمل الرجل إلى عرفات ويرجع وما يدري كيف حملته الشياطين، ولا يدعونه يفعل ما أمر الله به، بل قد يقف بعرفات من غير إحرام ولا إتمام مناسك الحج، وقد يذهبون به إلى مكة، ويطوف بالبيت من غير إحرام إذا حاذى الميقات، وذلك واجب في أحد قولي العلماء ومستحب في الآخر، فيفوته المشروع أو يوقعونه في الذنب، ويغرونه بأن هذا من كرامات الصالحين، وليس هو مما يكرم الله به وليه، بل هو مما أضلته به الشياطين، وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة، أو يكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة وليس هو قربة وطاعة، وصاحبه لا يزداد بذلك منزلة عند الله، فإن التقرّب إلى الله إنما يكون بواجب أو مستحب، وهذا ليس بواجب ولا مستحب، بل يضلون صاحبه ويصدونه عن تكميل ما يحبه الله منه من عبادته وطاعته وطاعة رسوله ويوهمونه أن هذا من أفضل الكرامات حتى يبقى طالباً له عاملاً عليه، وهم بسبب إعانتهم له على ذلك قد استعملوه في بعض ما يريدون مما ينقص قدره عند الله أو وقوعه في ذنوب، وإن لم يعرف أنها ذنوب فيكون ضالاً ناقصاً، وإن غفر له ذلك لعدم علمه، فإنه نقص درجته وخفض منزلته بذلك الذي أوهموه أنه رفع درجته وأعلا منزلته، وهذا من جنس ما تفعله السحرة فإن الساحر قد يصعد في الهواء والناس ينظرونه. وقد يركب شيئاً من الجمادات إما قصبة وإما خابية وإما مكنسة وإما غير ذلك، فيصعد به في الهواء، وذلك أن الشياطين تحمله، وتفعل الشياطين هذا ونحوه بكثير من العباد والضلال من عباد المشركين، وأهل الكتاب والضلال من المسلمين، فيحملهم من مكان إلى مكان، وقد يرى أحدهم بما يركبه إما فرس وإما غيره، وهو شيطان تصور له في صورة مركوب، وقد يرى أنه يمشي في الهواء من غير مركوب، والشيطان قد حمله، والحكايات في هذا كثيرة معروفة عند من يعرف هذا الباب، ونحن نعرف من هذا أموراً يطول وصفها، وكذلك المشي على الماء قد يجعل له الجن ما يمشي عليه، وهو يظن أنه يمشي على الماء وقد يخيلون له أنه التقى طرفا النهر ليعبر، والنهر لم يتغير في نفسه، ولكن خيلوا اليه ذلك، وليس في هذا ولله الحمد شيء من جنس معجزات الأنبيآء، وقد يمشي على الماء قوم بتأييد الله لهم وإعانته إياهم بالملائكة، كما يحكى عن المسيح، وكما جرى للعلاء بن الحضرمي ولأبي مسلم الخولاني في عبور الجيش وذلك إعانة على الجهاد في سبيل الله، كما يؤيد الله المؤمنين بالملائكة ليس هو من فعل الشياطين، والفرق بينهما من جهة السبب ومن جهة الغاية، أما السبب فإن الصالحين يسمون الله ويذكرونه ويفعلون ما يحبه الله من توحيده وطاعته، فييسر لهم بذلك ما ييسره، ومقصودهم به نصر الدين والإحسان

إلى المحتاجين، وما تفعله الشياطين يحصل بسبب الشرك والكذب والفجور. والمقصود به الإعانة على مثل ذلك.

والجن فيهم مسلم وكافر، فالمسلمون منهم يعاونون الإنس المسلمين كما يعاون المسلمون بعضهم بعضاً، والكفار مع الكفار، والجن الذين يطيعون الإنس وتستخدمهم الإنس ثلاثة أصناف أعلاها: أن يأمرهم بما أمر الله به ورسله، فيأمرونهم بعبادة الله وحده وطاعة رسله، فإن الله أوجب على الجن طاعة الرسل، كما أوجب ذلك على الإنس وقال تعالى: ﴿ويومَ يحشُرُهم جميعاً يا معشَرَ الجِنِّ قد استكثرتُم مِن الإنسِ وقالَ أولياؤُهُم مِن الإنسِ رَبَّنا استمتعَ بعضنا ببعضٍ وبلغنآ أجلَنآ الذيّ أجلت لَنا قالَ النّارُ مَثْواكُم خالِدينَ فيها إلاّ ما شآءَ اللهُ إنَّ ربّكَ حَكيمٌ عليمٌ، وكذلكَ نُولي بعضَ الظالمينَ بعضاً بما كانوا يَكسِبونَ يا معشَرَ الجِنِّ والإنسِ ألَمْ يأتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ علَيْكُمْ آياتي وينذِرُونكُم لِقآءَ يَومِكُمْ هذا قالوا شَهِدْنا علَى أنْفسِنَا وغرّتْهُم الحياةُ الدُّنيا وشَهِدوا علَى أنفُسِهِم أنّهُم كانوا كافِرينَ ذلكَ أن لم يكُنْ ربكَ مُهْلِكَ القُرى بظُلْمٍ وأهلُها غافِلُونَ ولكلٍ درجاتٍ ممّا عمِلوا وما ربكَ بغافِلٍ عمّا يعمَلونَ﴾[1]. فالرسل تكون من الإنس إلى الثقلين والنذر من الجن باتفاق العلماء.

واختلفوا هل يكون في الجن رسل والأكثرون على أنه لا رسل فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمآ أرسلنَا مِن قبلِكَ إلاّ رِجالاً نُوحي إليهم مِن أهلِ القُرى﴾[2]. وعن الحسن البصري قال: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء، ذكره عنه طائفة منهم البغوي، وابن الجوزي، وقال قتادة: ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور، رواه ابن أبي حاتم وذكره طائفة.

ونبينا محمد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين، وقد آمن به من آمن من جن نصيبين فسمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين، ثم أتوا فبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة بين الأبطح وبين جبل حراء، وسألوه الطعام لهم ولدوابهم فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم» قال النبي ﷺ «فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد أخوانكم من الجن»، والأحاديث بذلك كثيرة ومشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه وغيرها، وقد روى الترمذي وغيره أنه قرأ عليهم سورة الرحمٰن، وهي خطاب للثقلين، وقد اتفق العلماء على أن كفارهم يدخلون النار كما أخبر الله بذلك في قوله: ﴿قالَ ادْخُلوا فيٓ أمَمٍ قدْ

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ١٢٨ ــ ١٣٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٩.

خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِن الجِنِّ والإنسِ في النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنهم أجمعينَ﴾[2]. وقال: ﴿لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنَّةِ والنَّاسِ أجمعين﴾[3]. وإما مؤمنوهم فأكثر العلماء على أنهم يدخلون الجنة، وقال طائفة: بل يصيرون طائفة كالدواب، والأول أصح، وهو قول الأوزاعي وابن أبي ليلى وأبي يوسف ومحمد، ونقل ذلك عن مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول أصحابهم.

واحتج عليه الأوزاعي وغيره بقوله: ﴿ولكلٍ درجات مما عملوا﴾، بعد ذكره أهل الجنة وأهل النار، من الجن والإنس، كما قال في سورة الأنعام، وفي الأحقاف، ولكل درجات مما عملوا، بعد ذكر أهل الجنة والنار. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسم: درجات أهل النار تذهب سفولاً، ودرجات أهل الجنة تذهب صعوداً، فنبينا ﷺ هو مع الجن كما هو مع الإنس، والإنس معه إما مؤمن به وإما مسلم له وإما مسالم له وإما خائف منه، كذلك الجن منهم المؤمن به ومنهم المسلم له مع نفاق، ومنهم المعاهد المسالم لمؤمني الجن، ومنهم الحربي الخائف من المؤمنين، وكان هذا أفضل مما أوتيه سليمان، فإن الله سخر الجن لسليمان تطيعه طاعة الملوك، فإن سليمان كان نبياً ملكاً مثل داود ويوسف، وأما محمد فهو عبد رسول مثل ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

وهؤلاء أفضل من أولئك فأولياء الله المتبعون لمحمد، إنما يستخدمون الجن كما يستخدمون الإنس في عبادة الله وطاعته، كما كان محمد ﷺ يستعمل الإنس والجن لا في غرض له غير ذلك، ومن الناس من يستخدم من يستخدمه من الإنس في أمور مباحة، كذلك فيهم من يستخدم الجن في أمور مباحة، لكن هؤلاء لا يخدمهم الإنس والجن إلا بعوض، مثل أن يخدموهم كمايخدمونهم، أو يعينونهم على بعض مقاصدهم، وإلا فليس أحد من الإنس والجن إذا خدموا الرجل الصالح في بعض أغراضه المباحة، فإما أن يكونوا مخلصين يطلبون اجر من الله، وإلا طلبوه منه، إما دعاؤه لهم وإما نفعه لهم بجاهه أو غير ذلك.

والقسم الثالث: أن يستخدم الجن في أمور محظورة أو بأسباب محظورة، مثل قتل نفس وامراضها بغير حق، ومثل منع شخص من الوطء ومثل تبغيض شخص إلى شخص، ومثل جلب من يهواه الشخص إليه، فهذا من السحر، وقد يقع مثله لكثير من الناس ولا يعرف السحر، بل يكون موافقاً للشياطين على بعض أغراضهم مثل شرك أو بدعة وضلالة أو ظلم أو فاحشة،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٧.

(٢) سورة ص: الآية ٨٥.

(٣) سورة هود: الآية ١١٩.

فيخدمونه ليفعل ما يهوونه، وهذا كثير في عباد المشركين وأهل الكتاب، وأهل الضلال من المسلمين، وكثير من المسلمين لا يعرف أن ذلك من الشياطين، بل يظنه من كراما الصالحين، ومنهم من يعرف أنه من الشياطين، ويرى أنه بذلك حصل له ملك وطاعة ونيل ما يشتهيه من الرياسة والشهوات وقتل عدوه، فيدخل في ذلك كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم، وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه من غير معاوضة، كما أن الطير كانت تطيعه والريح، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَينَ القطرِ ومن الجنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإذن رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغ منهم عن أمرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَعيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَّانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلوآ آلَ داودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَاديَ الشَكُور﴾[1]. والجن والأنس فيهم المؤمن المطيع والمسلم الجاهل أو المنافق أو العاصي، وفيهم الكافر، وكل ضرب يميل إلى بني جنسه، والذي أعطاه الله تعالى لسليمان خارج عن قدرة الجن والأنس، فإنه لا يستطيع أحداً أن يسخر الجن مطلقاً لطاعته، ولا يستخدم أحد منهم إلا بمعاوضة، إما عمل مذموم تحبه الجن، وإما قول تخضع له الشياطين كالأقسام والعزائم، فإن كل جنى فوقه من هو أعلى منه، فقد يستخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم، كما يخدم بعض الأنس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته لكتاب معه منه، وهم كارهون طاعته، وقد يأخذون منه ذلك الكتاب ولا يطيعونه، وقد يقتلونه أو يمرضونه، فكثير من الناس قتلته الجن كما يصرعونهم، والصرع لأجل الزنا، وتارة يقولون أنه أذاهم إما بصب نجاسة عليهم وإما بغير ذلك، فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام، وتارة يفعلون ذلك عبثاً كما يبعث شياطين الأنس بالناس والجن أعظم شيطنة وأقل عقلاً وأكثر جهلاً، والجني قد يحب الإنسي كما يحب الإنسي الإنسي، وكما يحب الرجل المرأة، والمرأة الرجل، يغار عليه ويخدمه بأشياء، وإذا صار مع غيره فقد يعاقبه بالقتل وغيره، كل هذا واقع، ثم الذي يخدمونه تارة يسرقون له شيئاً من أموال الناس مما لم يذكر إسم الله عليه، ويأتونه إما بطعام، وإما شراب، وإما لباس، وإما نقد، وإما غير ذلك، وتارة يأتونه في المفاوز بماء عذب وطعام وغير ذلك، وليس شيء من ذلك من معجزات الأنبيآء، ولا كرامات الصالحين، فإن ذلك إنما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة، وهو لو كان مباحاً لم يجز أن يفعل بهذا السبب، فكيف إذا كان في نفسه ظلماً محرماً لكونه من الظلم والفواحش ونحو ذلك، وقد يخبرون بأمور غائبة مما رأوه وسمعوه ويدخلون في جوف الإنسان قال النبي ﷺ: «إنَّ الشَيْطَانَ يَجري مِنَ الإنْسَانِ مَجْرى الدَّم».

---

(١) سورة سبأ: الآيتان ١٢، ١٣.

لكن إنما سلطانهم كما قال الله: ﴿إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ، إنَّما سُلْطَانه علَى الذينَ يَتَولونَهُ والَّذِين هُمْ بِهِ مُشْرِكُون﴾[1]. ولما قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَا أغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلصِين﴾[2].

قال الله تعالى: ﴿إنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ثم قال: ﴿إلا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوينَ وإنَّ جَهَنَّم لموْعدهُمْ أجمعينَ لَها سَبْعَةُ أبوابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جزْءٌ مقْسُومٌ﴾[3].

فأهل الخلاص والإيمان لا سلطان له عليهم، ولهذا يهربون من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، ويهربون من قراءة آية الكرسي، وآخر سورة البقرة، وغير ذلك من قوارع القرآن، ومن الجن من يخبر بأمور مستقبلة للكهان، وغير الكهان مما يسرقونه من السمع، والكهانة كانت ظاهرة كثيراً بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلت، ثم إنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد، وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ كهان يتحاكمون إليهم، وكان أبو بردة بن نيار كاهناً ثم أسلم بعد ذلك، وهو من أسلم، والأصنام كانت تتراءى للسدنة أحياناً، وتكلمهم أحياناً.

قال أبي بن كعب: مع كل صنم جنية، وقال ابن عباس: في كل صنم شيطان تتراءى للسدنة فتكلمهم، والشياطين كما قال الله تقترن بما يجانسها بأهل الكذب والفجور قال تعالى: ﴿هلْ أنبئُكُمْ علىَ منْ تنزَّلِ الشياطِينُ تنزَّلُ علىَ كُلِّ أفَاكٍ أثيمٍ، يُلقُونَ السَّمْعَ وأكْثرهُمْ كاذِبُونَ﴾[4]. فكيف يجوز أن يقال إن مثل هذا يكون معجزة لنبي، أو كرامة لولي، وهذا يناقض الإيمان ويضاده، والأنبيآء والأولياء أعداء هؤلاء قال تعالى: ﴿إنَّ الشيْطانَ عدُوٌّ فاتخذُوه عدُواً إنّما يدْعو حزْبهُ ليكوُنوا منْ أصْحابِ السعيرِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ألمْ أعْهدْ إليْكُمْ يا بَني آدَمَ أنْ لاَ تعبدُوا الشَّيْطَانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ وَأنْ اعْبُدُوني هَذا صِراطٌ مستقيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً أفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[6]. وهذا يظهر الفرق بين أخبار الأنبيآء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلا منه كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلىَ غيبِهِ أحَداً، إلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإنَّهُ يَسْلِكُ مِنْ بَينِ يديْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً، لِيَعْلَمَ أنْ أبلغوا رسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأحْصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً﴾[7]. فقوله

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٩.
(٢) سورة الحجر: الآية ٣٩.
(٣) سورة الحجر: الآية ٤٤.
(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.
(٥) سورة فاطر: الآية ٦.
(٦) سورة الزخرف: الآية ٦٢.
(٧) سورة الجن: الآية ٢٦.

على غيبه هو غيبه الذي اختص به، وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه، فهذا أيضاً تخير منه الأنبيآء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به، كما في أخبار المسيح بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(١). فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدخرونه، لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر إسم الله كالذي لا يذكر إسم الله إذا دخل فيدخلون معه، وإن لم يذكر إسم الله إذا أكل فإنهم يأكلون معه، وكذلك إذا أدخر شيئاً، ولم يذكر إسم الله عليه عرفوا به، وقد يسرقون بعضه كم جرى هذا لكثير من الناس، وأما من يذكر إسم الله على طعامه، وعلى ما يختاره فلا سلطان لهم عليه لا يعرفون ذلك، ولا يستطيعون أخذه.

والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون مما ذكر إسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به، ولهذا من يكون إخباره عن شياطين تخبره لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد، وأهل القلوب المنورة بنور الله، بل يهرب منهم، ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم وتعترف الجن والأنس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن، ويقولون أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة، وإنما تظهر عند الكفار والفجار، وهذا لأن أولئك أولياء الشياطين، ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين، ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانية، كدخول النار مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاماً. فإن الخليل لما ألقي في النار صارت عليه برداً وسلاماً، وكذلك أبو مسلم الخولاني لما قال له الأسود العنسي المتنبي: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع؟ قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فأمر بنار فأوقدت له وألقي فيها، فجاءوا إليه فوجدوه يصلي فيها، وقد صارت عليه برداً وسلاماً. فقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ وأخذه عمر فأجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة مجمد من فعل به كما فعل بإبراهيم.

وأما أخوان الشياطين فإذا دخلت فيهم الشياطين، فقد يدخلون النار ولا تحرقهم، كما يضرب أحدهم ألف سوط ولا يحس بذلك، فإن الشياطين تلتقي ذلك، وهذا أمر كثير معروف قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه، وقد ضربنا نحن من الشياطين في الأنس ما شاء الله حتى خرجوا من الأنس ولم يعاودوه، وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن، وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف، وفيهم من لا يخرج إلا بالعقوبة كالإنس، فهؤلاء الشياطين إذا كانوا مع جنسهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

الذين لا يهابونهم فعلوا هذه الأمور، وأما إذا كانوا عند أهل إيمان وتوحيد وفي بيوت الله التي يذكر فيها اسمه لم يجترئوا على ذلك، بل يخافون الرجل الصالح أعظم مما تخافه فجار الأنس، ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاء والتصدية في المساجد المعمورة بذكر الله، ولا بين أهل الإيمان والشريعة المتبعين للرسول، إنما يمكنهم ذلك في الأماكن التي تأتيها الشياطين كالمساجد المهجورة، والمشاهد والمقابر والحمامات والمواخير، فالمواضع التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيها كالمقبرة وأعطان الإبل والحمام وغيرها، فتكون حال هؤلاء فيها أقوى لأنها مواضع الشياطين كالماخورة، والمزبلة والحمام ونحو ذلك، بخلاف الأمكنة التي ظهر فيها الإيمان والقرآن والتوحيد التي أثنى الله على أهلها وقال فيهم: ﴿الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمُشكَاةٍ فيها مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ الزُجَاجَة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِيٌ يوقد منْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شرْقِيةٍ وَلَا غَرْبيةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىَ نُورٍ يَهدي الله لِنورِهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ للنَاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليم ، في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بالغُدُو وَالآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآء الزكَاةِ يخافون يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيُجْزِيهمُ اللهُ أحسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يرزُقُ مَنْ يَشَآءُ بغَيرِ حسَابٍ﴾(١).

فهذه أمكنة النور والصالحين، والملائكة لا تتسلط عليها الشياطين بكل ما تريد، بل كيدهم فيها ضعيف، كما أن كيدهم في شهر رمضان ضعيف، إذا كاونا فيه يسلسلون، لكن لم يبطل فعلهم بالكلية، بل ضعف، فشرهم فيه على أهل الصوم قليل، بخلاف أهل الشراب وأهل الظلمات، فإن الشياطين هنالك محالهم، وهم يحبون الظلمة ويكرهون النور، ولهذا ينتشرون بالليل، كما جاء في الحديث الصحيح، ولهذا أمر الله بالتعوذ من شر غاسق إذا وقب.

وخوارق الجن كالاخبار ببعض الأمور الغائبة، وكالتصرفات الموافقة لأغراض بعض الإنس كثيرة معروفة في جميع الأمم، فقد كانت في العرب كثيرة، وكذلك في الهند وفي الترك والفرس والبربر وسائر الأمم، فهي أمور معتادة للجن والأنس وآيات الأنبيآء كما تقدم، خارجة عن مقدور الإنس والجن، فإنهم مبعوثون إلى الأنس والجن، فيمتنع أن تكون آياتهم أموراً معروفة فيمن بعثوا إليه، إذا يقال هذ موجودة كثيراً للأنس، فلا يختص بها الأنبيآء، بل هذه الخوارق هي آية وعلامة على فجور صاحبها وكذبه، فهي ضد آيات الأنبيآء التي تستلزم صدق صاحبها وعدله، ولهذا يكون كثير من الذين تخدمهم الشياطين من أهل الشياطين، وهذا معروف لكثير ممن تخدمه الشياطين، بل من طوائف المخدومين من يكونون كلهم من هذا الباب، وهم يصعدون

(١) سورة النور: الآية ٣٥ ـ ٣٨.

بهم في الهواء ويدخلون المدن والحصون بالليل والأبواب مغلقة، ويدخلون على كثير من رؤساء الناس، ويظنون أن هؤلاء صالحون قد طاروا في الهواء ولا يعرف أن الجن طارت بهم، وهذه الأحوال الشيطانية تبطل أو تضعف إذا ذكر الله وتوحيده، وقرئت قوارع القرآن لا سيما آية الكرسي، فإنها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية، وأما آيات الأنبيآء والأولياء فتقوى بذكر الله وتوحيده، والجن المؤمنون قد يعينون المؤمنين بشيء من الخوارق، كما يعين الإنس المؤمنون للمؤمنين بما يمكنهم من الإعانة، وما لا يكون إلا مع الإقرار بنبوة الأنبيآء، فهو من آياتهم، فوجدوه يؤيد آياتهم لا يناقضها مع أن آيات الأنبيآء التي يدعون أعلى من هذا، وأعلى من كرامات الأولياء، فإن تلك هي الآيات الكبرى.

والذين ذكر عنهم إنكار كرامات الأوليآء من المعتزلة وغيرهم كأبي إسحق الاسفرايني، وأبي محمد بن أبي زيد، وكما ذكر ذلك أبو محمد ابن حزم لا ينكرون الدعوات المجابة ولا ينكرون الرؤيا الصادقة، فإن هذا متفق عليه بين المسلمين، وهو أن الله تعالى قد يخص بعض عباده بإجابة دعائه أكثر من بعض، ويخص بعضهم بما يريه من البشرات، وقد كان سعد بن أبي وقاص معروفاً بإجابة الدعاء، فإن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ». وحكاياته في ذلك مشهورة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي لله أنه قال: «لَمْ يَبْقَ بَعدي مِنَ النُّبوةِ إلاَّ الرُّؤيا الصَالحَة يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَالِحُ أوْ ترى له».

وثبت عنه في الصحيح أنه قال: «إنَّ منْ عِبَاد اللهِ مَنْ لَوْ أقْسَمَ عَلىَ اللهِ لأبَرَّهُ». ذكر ذلك لما أقسم أنس بن النضر أنه لا تكسر ثنية الربيع، فاستجاب الله ذلك، وأيضاً فإن منهم البراء بن مالك أخو أنس بن مالك، وكانوا إذا اشتد الحرب يقولون: يا براء أقسم على ربك فيقسم على به فينصرون.

والقَسَمُ قيل هو من جنس الدعاء، لكن هو طلب مؤكد بالقسم، فالسائل يخضع ويقول أعطني، والمقسم يقول: [أقسمت][1] عليك لتعطيني وهو خاضع سائل، لكن من الناس من يدعى له من الكرامات ما لا يجوز أن يكون للأنبيآء، كقول بعضهم: إن لله عباداً لو شاءوا من الله أن لا يقيم القيامة لما أقامها.

وقول بعضهم أنه يعطي كن أي شيء أراده قال له: كن فيكون. وقول بعضهم: لا يعزب عن قدرته ممكن، كما لا يعزب عن قدرة ربه محال، فإنه لما كثر في الغلاة من يقول بالحلول والإتحاد وإلهية بعض البشر، كما قال النصارى في المسيح، فصاروا يجعلون ما هو من

(١) زيدت على النص لسياق العبارة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

خصائص الربوبية لبعض البشر، وهذا كفر. وأيضاً فإن كثيراً من الناس لا يكون من أهل الصلاح، وتكون له خوارق شيطانية، كما لعباد المشركين وأهل الكتاب فتتجلى لهم على أنها كرامات، فمن الناس من يكذب بها، ومنهم من يجعل أهلها من أولياء الله، وذلك لأن الطائفتين ظنت أن مثل هذه الخوارق لا يكون إلا لأولياء الله، ولم يميزوا بين الخوارق الشيطانية التي هي جنس ما للسحرة والكهان ولعباد المشركين وأهل الكتاب وللمتنبئين الكذابين، وبين الكرامات الرحمانية التي يكرم الله بها عباده الصالحين.

فلما لم يميزوا بين هذا وهذا، وكان كثير من الكفار والفجار وأهل الضلال والبدع لهم خوارق شيطانية، صار هؤلاء منهم حزبين: حزباً قد شاهدوا ذلك وأخبرهم به من يعرفون صدقه فقالوا: هؤلاء أولياء الله، وحزباً رأوا أن أولئك خارجون عن الشريعة وعن طاعة الله ورسوله فقالوا: ليس هؤلاء من الأولياء الذين لهم كرامات، فكذبوا بوجود ما رآه اولئك قد عاينوا ذلك أو تواتر عندهم، فصار تكذيب من ينكر السحر والكهانة والجن وصرعهم للإنس، إذا كذب ذلك عند من رأى ذلك أو أثبت عنده، ومن كذب بما تيقن غيره وجوده نقصت حرمته عند هذا المتيقن، وكان عنده إما جاهلاً وإما معانداً، فربما رد عليه كثيراً من الحق بسبب ذلك، ولهذا صار كثير من المنتسبين إلى زهد أو فقر أو تصوف أو وله أو غير ذلك لا يقبلون قولهم ولا يعبأون بخلافهم، لأنهم كذبوا بحق قد تيقنه هؤلاء، وأنكروا وجوده، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وقد يدخلون إنكار ذلك الشرع كما أدخلت المعتزلة ونحوهم إنكار كرامات الاولياء.

وإنكار السحر والكهانة في الشرع بناء على ذلك يقدح في آيات الأنبيآء، فجمعوا بين التكذيب بهذه الأمور الموجودة، وبين عدم العلم بآيات الأنبيآء، والفرق بينها وبين غيرها حيث ظنوا أن هذه الخوارق الشيطانية من جنس آيات الأنبيآء وأنها نظير لها، فلو وقعت لم يكن للأنبيآء ما يتميزون به، والذين ردوا على هؤلاء من الأشعرية ونحوهم يشاركونهم في هذا في التسوية بين الجنسين، وأنه لا فرق، لكن هؤلاء لما تيقنوا وجودها جعلوا الفرق ما ليس بفرق وهو اقترانها بالدعوى والتحدي بمثلها وعدم المعارضة، وهم يقولون إنا نعلم بالضرورة أن الرب إنما خلقها لتصديق النبي، وهذا كلام صحيح لكنه يستلزم بطلان ما أصلوه من أنه لا يخلق شيئاً لشيء، وأيضاً فاختصاصها بوجود العلم الضروري عندها دون غيرها لا بد أن يكون لأمر أوجب التخصيص وهم يقولون: بل قد تستوي الأمور، ويوجد العلم الضروري ببعضها دون بعض، كما قالوا مثل ذلك في العادات أنه يجوز انخرقها كلها بلا سبب على أعظم الوجوه، كجعل الجبال يواقيت، لكن يعلم بالضرورة أن هذا لا يقع، فكذلك قالوا في المعجزات يجوز أن

يخلقها على يد كاذب[1]. . . إنما خلقها على يد الصادق بما ادعى من العلم الضروري صحيح. وأما قولهم أن العلوم به يماثل غيره، فغلط عظيم، بل هم لم يعرفوا الفرق بمنزلة العامي الذي أوردت عليه شبهات السوفسطائية، فهو يعلم بالضرورة وأنها باطلة، ولكن لا يعرف الفرق بينها وبين الحق، ولكن العامي يقول فيها فساد لا أعرفه لا يقول دلائل الحق كدلائل الباطل، وهؤلاء ادعوا الاستواء في نفس الأمر فغلطوا غلطاً عظيماً، ولو قالوا بينهما فرق لكنه لم يتلخص لنا، لكان قولهم حقاً، وكانوا قد ذكروا عدم العلم لا العلم بالعدم، كما يقول ذلك كثر من الناس، يقول: ما أعرف الفرق بينهما، وذلك أن العلم الضروري يحصل ببعض الاخبار دون بعض، وقد قيل: إنا نعلم أنه متواتر بحصول علمنا الضروري به، والتحقيق أنه إذا حصل له علم ضروري كان قد خصل الخبر الذي يوجبه لهم، وقد لا يحصل لغيرهم.

والعلم يحصل بعدد المخبرين وبصفاتهم وبأمور أخرى تنضم إلى الخبر، ومن جعل الإعتبار بمجرد العدد فقد غلط، والأكثرون يقولون: العلم الحاصل به ضروري، وقيل: إنه نظري وهو اختبار الكعبي وأبي الحسين وأبي الخطاب.

والتحقيق أنه قد يكون ضرورياً وقد يكون نظرياً، وقد يجتمع فيه الأمران يكون ضرورياً، ثم إذا نظر فيه أنه يوجب العلم، وكذلك العلم الحاصل عقب الآيات قد يكون ضرورياً، وقد يكون نظرياً، وكل نظري فإن منتهاه أنه ضروري، ولهذا قال أبو المعالي المرتضى: عندنا أن جميع العلوم ضرورية أي بعد حصول أسبابها، ولا بد من فرق في نفس بين ما يوجب العلم وما لا يوجبه، وأصل خطأ الطائفتين أنهم لم يعرفوا آيات الأنبيآء، وما خصهم الله به، ولم يقدروا قدرالنبوة ولم يقدروا آيات الأنبيآء قدرها، بل جعلوا هذه الخوارق الشيطانية من جنسها، فإما أن يكذبوا بوجودها وإما أن يسووا بينهما ويدعوا فرقاً لا حقيقة له، ولهذا يوجد الكثير ممن يكذب بهذه الخوارق الشيطانية أن تكون لبعض الأشخاص لما يراه من نقص دينه وعلمه، فإذا عاينها بعد ذلك أو ثبت عنده خضع لذلك الشخص الذي كان عنده، إما كافراً وإما ضالاً وإما مبتدعاً جاهلاً، وذلك لأنه أنكر وجودها معتقداً أنها لا توجد إلا للصالحين، فلما تيقن وجودها جعلها دليلاً على الصلاح وهو غلط في الأصل، بل هذه من الشياطين من جنس ما للسحرة والكهان، ومن جنس ما للكفار من المشركين وأهل الكتاب، فإن لمشركي الهند والترك وغيرهم ولعباد النصارى من هذه الخوارق الشيطانية أموراً كثيرة يطول وصفها أكثر وأعظم من أكثر مما يوجد منها لأهل الضلال والبدع من المسلمين، وما يوجد منها للمنافقين فإن الشياطين لا تتمكن من إغواء المسلمين، وإن كان فيهم جهل وظلم، كما تتمكن من إغواء المشركين وأهل الكتاب.

(١) بياض في الأصل مقدار نصف سطر.

ولهذا ثنى في القرآن قصة موسى مع السحرة وذكر ما يقوله الكفار لأنبيآئهم: فإنه جاء نبي صادق قط إلا قيل فيه إنه ساحر أو مجنون كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(١). وذلك أن الرسول يأتي بما يخالف عاداتهم، ويفعل ما يرونه غير نافع ويترك ما يرونه نافعاً، وهذا فعل مجنون، فإن المجنون فاسد العلم والقصد، ومن كان مبلغه من العلم إرادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك، وطلب ما لا يعلمه مجنوناً ثم النبي مع هذا يأتي بأمور خارجة عن قدرة الناس من إعلام بالغيوب وأمور خارقة لعادتهم، فيقولون هو ساحر، وهذا موجود في المنافقين الملحدين المتظاهرين بالإسلام من الفلاسفة ونحوهم يقولون أن ما أخبرت به الأنبيآء من الغيوب والجنة والنار هو من جنس قول المجانين، وعندهم خوارقهم من جنس خوارق السحرة، والممرورين المجانين كما ذكر إبن سينا وغيره، لكن الفرق بينهما أن النبي حسن القصد، بخلاف الساحر، وأنه يعلم ما يقول بخلاف المجنون، لكن معجزات الأنبياء عندهم قوى نفسانية، ليس مع هذا ولا هذا شيء خارج عن قوة النفس، والقاضيان أبو بكر وأبو يعلى ومن وافقهما متوقفون في وجود المخدوم الذي تخدمه الجن، قالوا: لا يقطع بوجوده.

وكذلك الكاهن ذكروا فيه القولين: قول من يقول أنه المتخرص، وقول من يقول إنه مخدوم، وهم متوقفون فيه لا يقطعون بوجود مخدوم كاهن، كما يقطعون وجود الساحر، لإنه في زمانهم وجد الساحر، والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة بخلاف الكاهن، فإن القرآن ذكر اسمه، ولو تدبروا لعلموا أن الكاهن هو المذكور في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾(٢). وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له: إنَّ مِنّا قوماً يَأتُونَ الكُهّانَ قَالَ «فَلاَ يَأْتُوهُمْ». وسئل عن الكهان وما يخبرون فأخبر أنّ الجن تسترق السمع وتخبرهم به، فالكتاب والسنة أثبتا وجود الكاهن، وأحمد قد نص على أنه يقتل كالساحر، لكن الكاهن إنما عنده أخبار. والساحر عنده تصرف بقتل وامراض وغير ذلك، وهذا تطلبه النفوس أكثر، وابن الصياد كان كاهناً، ولهذا قال له النبي ﷺ: «قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئاً» فَقَالَ: الدُّخُ فقال: «إخسَأ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ إنّما أنْتَ مِنْ إخْوَانَ الكُهّانِ».

ولما قضى في الجنين بغرة قال حمل بن مالك: أيودى من لا شرب ولا أكل ولا نطق، ولا استهل قتل ذلك يطل فقال: «إنما أنت من أخوان الكهان»، من أجل سجعه الذي سجع

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢١ ـ ٢٢٣.

فكانوا يسجعون أساجيع، وقد رأيت من هؤلاء شيوخاً يسجعون أساجيع كأساجيع الكهان، ويكون كثير منها صدقاً، ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر في قوله: ﴿وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[1]. وذلك في الشعراء ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِين نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبي مبين﴾[2]. إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرَهُمْ كاذِبون﴾[3].

والرسول في آية الحاقة محمد، وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثمَّ أمين وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ، وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَينَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ للعَالَمِينَ﴾[3]. فلما أخبر به أنه قول رسول، هو ملك من الملائكة نفى أن يكون قول شيطان، ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر، نفى أن يكون قول شاعر أو كاهن. فهذا تنزيه القرآن للقرآن نفسه ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين أي متهم، وأن يكون بمجنون، فالمجنون فساد في العلم، والتهمة فساد في القصد، كما قالوا: ساحر أو مجنون وقال في الطور: ﴿فَمَآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُون، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِي مَعَكُمْ مِنَ المُتَرَبِصِين﴾[4].

وقد أخبر عن الأنبيآء قبله أنه أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، ولم يقولوا كاهن لأن الكاهن عند العرب هو الذي يتكلم بكلام مسجوع. وله قرين من الجن، وهذا الإسم ليس بذم عند أهل الكتاب، بل يسمون أكثر العلماء بهذا الإسم، ويسمون هارون عليه السلام وأولاده الذين عندهم التوراة بهذا الإسم، والقدر المشترك العلم بالأمور الغائبة الحكم بها، فعلماء أهل الكتاب يخبرون بالغيب ويحكمون به عن وحي الشياطين، وتمتاز بأنها تسجع الكلام بخلاف إسم الساحر، فإنه إسم معروف في جميع الأمم.

وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم الذي تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة، ولكون الساحر يأتي بالخوارق شبهوا النبي وقالوا: ساحر، فدل ذلك على قدر مشترك، لكن الفرقان بينهما أعظم كالفرق بين الملائكة والشياطين، وأهل الجنة، وخيار الناس وشرارهم، وهذا أعظم

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٤١.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٩٣.

(٣) سورة التكوير: من الآية ١٩ إلى الآية ٢٧.

(٤) سورة الطور: من الآية ٢٩ إلى الآية ٣١.

الفروق بين الحق والباطل. والكفار قالوا عن الأنبيآء أنهم مجانين وسحرة، وكما يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بينهم وبين المجانين، وأنهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون، فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة، وأنهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر، فالساحر يفسد الإدراك حتى يُسمع الإنسان الشيء ويراه ويتصور خلاف ما هو عليه، والأنبيآء يصححون سمع الإنسان وبصره وعقله والذين خالفوهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون، فالسحرة يريدون الناس عمياً وصماً وبكماً، والأنبيآء يرفعون عماهم وصممهم وبكمهم كما في الصحيح عن عطاء بن يسار أنه سأل عبد الله بن عمر، وروى عبد الله بن سلام أنه قيل له أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيُهَا النبيُ إنّآ أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[1] وحرزاً للأميين أنت عبدي سميتك المتوكل، لست بفظ و غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا تجزى بالسيئة الحسنة، وتعفوا وتغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعيناً عمياً وآذناً صماً وقلوباً غلفاً، بأن يقولوا لا إله إلا الله، وهذا مذكور عند أهل الكتاب في نبوة أشعيا، ولفظ التوراة: قد يراد به جميع الكتب التي نزلت قبل الإنجيل فيقال: التوراة والإنجيل، ويراد بالتوراة الكتاب الذي جاء به موسى وما بعده من نبوة الأنبيآء المتبعين لكتاب موسى، قد يسمى هذا كله توراة، فإن التوراة تفسر الشريعة، فكل من دان بشريعة التوراة قيل لنبوته أنها من التوراة، وكثير مما يعزوه كعب الاحبار ونحوه إلى التوارة هو من باب لا يختص ذلك بالكتاب المنزل على موسى، كلفظ الشريعة عند المسلمين يتناول القرآن والأحاديث النبوية، وما استخرج من ذلك كما قد بسط هذا في موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الأنبيآء يفتحون الأعين العمى والآذن الصم والقلوب الغلف، والسحرة يفسدون السمع والبصر والعقل حتى يخيل للإنسان الأشباء بخلاف ما هي عليه، فيتغير حسه وعقله قال في قصة موسى: ﴿سَحَرُوآ أعْيُنَ النّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءوُا بِسِحْرٍ عَظيمٍ﴾[2]. وهذا يقتضي أن أعين الناس قد حصل فيها تغير، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابَاً مِنَ السّمَآءِ فِظَلّوا فيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوآ إنّمَا سَكِرَتْ أبصَارنَا بَل نَحْنُ قَوْمٌ مسحورون﴾[3] فقد علموا أن السحر يغير الإساس، كما يوجب المرض والقتل، وهذا كله من جنس مقدور الإنس، فإن الإنسان يقدر أن يفعل في غيره ما يفسد إدراكه، وما يمرضه ويقتله، فهذا مع كونه ظلماً وشراً هو من جنس مقدور البشر، والجني إذا أراد أن يرى قرينه أموراً غائبة سئل عنها مثلها له، فإذا سئل

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١١٦.

(٣) سورة الحجر: الآيتان ١٤ و ١٥.

عن المسروق أراه ذلك المال، وإذاسئل عن شخص أراه صورته، ونحو ذلك.

وقد يظن الرائي نظيره، وقد يتمثل الجني في صورة الإنسي حتى يظن أنه الأنسي وهذا كثير، كما تصور لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، وكان من أشراف بني كنانة قال تعالى: ﴿وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطَانُ أعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالبَ لَكُمْ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإني جَار لَكُمْ﴾[1]. الآية، فلما عاين الملائكة ولى هارباً، ولما رجعوا ذكروا ذلك لسراقة فقال: والله ما علمت بحربكم حتى بلغتني هزيمتكم، ومع هذا واقع كثيراً حتى أنه يتصورلمن يعظم شخصاً في صورته فإذا استغاث به أتاه فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت، وقد يقول له أنه بعض الأنبيآء، أو بعض الصحابة الأموات ويكون هو الشيطان. وكثيراً من الناس أهل العبادة والزهد من يأتيه في اليقظة من يقول: انه رسول الله، ويظن ذلك حقاً، ومن يرى إذا زار بعض قبور الأنبيآء أو الصالحين أن صاحب القبر قد خرج إليه فيظن أنه صاحب القبر ذلك النبي أو الرجل الصالح، وإنما هو شيطان أتى في صورته ان كان يعرفها وإلا أتى في صورة إنسان وقال: إنه ذلك الميت، وكذلك يأتي كثيراً من الناس في مواضع ويقول أنه الخضر، فاعتقد أنه الخضر وإنما كان جنياً من الجن، ولهذا لم يجترىء الشيطان على أن يقول لأحد من الصحابة أنه الخضر، ولا قال أحد من الصحابة إني رأيت الخضر، وإنما وقع هذا بعد الصحابة، وكلما تأخر الأمر كثر حتى أنه يأتي اليهود والنصارى ويقول: إنه الخضر، ولليهود كنيسة معروفة بكنيسة الخضر، وكثير من كنائس النصارى يقصدها هذا الخضر والخضر الذي يأتي هذا الشخص غير الخضر الذي يأتي هذا.

ولهذا يقول من يقول منهم لكل ولي خضر، وإنما هو جني معه، والذين يدعون كواكب، تتنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب، وهو شيطان نزل عليه لما أشرك يغويه، كما تدخل الشياطين في الأصنام، وتكلم أحياناً لبعض الناس وتتراءى للسدنة أحياناً ولغيرهم أيضاً، وقد يستغيث المشرك لشيخ غائب، فيحكي الجني صوته لذلك الشيخ، حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد مع بعد المسافة بينهما، ثم أن الشيخ يجيبه فيحكي الجني صوت الشيخ للمريد، حتى يظن أن شيخه سمع صوته وأجابه، وإلا فصوت الإنسان يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم ويومين وأكثر، وقد يحصل للمريد من يؤذيه فيدفعه الجني ويخيل للمريد أن الشيخ هو دفعه، وقد يضرب الرجل بحجر فيدفعه عنه الجني ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك، حتى يقول إني أتقيت عنك الضرب وهذا أثره في، وقد يكونون يأكلون طعاماً، فيصور نظيره للشيخ، ويجعل يده فيه ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك حتى يتوهم الشيخ وهم أن يد الشيخ امتدت من الشام إلى مصر وصارت في ذلك الإناء.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٩.

وعمر بن الخطاب لما نادى: يا سارية الجبل. قال: إن الله جنداً يبلغونهم صوتي، فعلم أن صوته إنما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض الملائكة، أو صالحي الجن، فيهتفون بمثل صوته، كالذي ينادي إبنه، وغير إبنه، وهو بعيد لا يسمع يا فلان، فيسمعه من يريد إبلاغه فينادي يا فلان، فيسمع ذلك الصوت، وهو المقصود بصوت أبيه. وإلا فصوت البشر ليس في قوته أن يبلغ مسافة أيام، وقد قلنا أن آيات الأنبيآء التي اختصوا بها خارجة عن قدرة الجن والإنس قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١). وأما إذا كانت مما تقدر عليه الملائكة، فهذا مما يؤيدها، فإن الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله ولا يؤيدونه بالخوارق، فإذا أيد به كما أيد الله به نبيه والمؤمنين يوم بدر، ويوم حنين كان هذا من اعلام صدقه، وأنه صادق على الله في دعوى النبوة فإنها لا تؤيد الكذب، لكن الشياطين تؤيد الكذاب، والملائكة تؤيد الصدق والتأييد بحسب الإيمان، فمن كان إيمانه أقوى من غيره، كان جنده من الملائكة أقوى، وإن كان إيمانه ضعيفاً كانت ملائكته بحسب ذلك كملك الإنسان وشيطانه، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ المَلَائِكَةِ وَقَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ» قَالُوا وَبِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «وَبِي لٰكِنَ الله أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ». وفي حديث آخر «فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

وهو في صحيح مسلم من وجهين: من حديث إبن مسعود. ومن حديث عائشة، وقال ابن مسعود: «إن للقلب لمة من الملك، ولمة من الشيطان، فلمة الملك إبعاد بالخير، وتصديق بالحق، ولمة الشيطان أيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، فإذا كانت حسنات الإنسان أقوى أيّد بالملائكة تأييداً يقهر به الشيطان، وإن سيئاته أقوى كان جند الشيطان معه أقوى، وقد يتقي الشيطان المؤمن بشيطان الكافر، فشيطان المؤمن مهزول ضعيف، وشيطان الكافر سمين قوي».

فكما أن الإنسان بفجوره يؤيده شيطانه على ملكه وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر لأن الآخر لم يؤيد ملكه، فلم يؤيد أو ضعف عنه لأنه ليس معه إيمان يعنيه كالرجل الصالح إذا كان إبنه فاجراً لم يمكنه الدفع عنه لفجوره، بسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا: الكلام على الفرق بين آيات الأنبيآء وغيرهم، وإن من قال: إن آيات الأنبيآء والسحر والكهانة والكرمات، وغير ذلك من جنس واحد فقد غلط أيضاً، والطائفتان لم يعرفوا قدر آيات الأنبيآء، بل جعلوها من هذا الجنس فهؤلاء نفوه، وهؤلاء أثبتوه وذكر فرقاً لا حقيقة له، وإذا قال القائل: آيات الأنبيآء لا يقدرعليها إلا الله، أو أن الله يخترعها ويبتدئها

(١) سورة الأسراء: الآية ٨٨.

بقدرته، أو أنها من فعل الفاعل المختار ونحو ذلك، قيل له: هذا كلام مجمل، فقد يقال عن كل ما يكون آية لا يقدر عليه إلا الله أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته، أو أنها من فعل الفاعل المختار، ونحو ذلك، قيل له: هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل ما يكون أنه لا يقدر عليه إلا الله، فإن الله خالق كل شيء غيره لا يستقل باحداث شيء، وعلى هذا فلا فرق بين المعجزات وغيرها، وقد يقال: لا يقدر عليها إلا الله، أي هي خارجة عن مقدورات العباد، فإن مقدوراته على قسمين: منها ما يفعله بواسطة قدرة العبد كافعال العباد وما يصنعونه، ومنها ما يفعله بدون ذلك كإنزال المطر، فإن أراد هذا القائل أنها خارجة عن مقدور الانس بمعنى أنه لا يقع منهم لا بإعانة الجن ولا بغير ذلك، فهذا كلام صحيح، وأن إرادته خارج عن مقدورهم فقط وإن كان مقدوراً للجن فهذا ليس بصحيح، فإن الرسل أرسلوا إلى الأنس والجن، [والسحرة والكهان](١)، وغير ذلك تقدر الجن على إيصالها إلى الأنس وهي مناقضة لآيات الأنبيآء كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَيَاطِينُ تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أثيم﴾(٢). وإن أراد أنها خارجة عن مقدور الملائكة والإنس والجن أو أن الله يفعلها بلا سبب فهذا أيضاً باطل، فمن أين له أن الله لا يخلقها بلا سبب ومن أين له أن لا يخلقها بواسطة الملائكة الذين هم رسله في عامة ما يخلقه، فمن أين له أن جبريل لم ينفخ في مريم حتى حملت بالمسيح، وقد أخبر الله بذلك وهو وأمه مما جعلهما آية للعالمين قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آية وَآوَيْنَاهُمَآ إلى رَبْوَةٍ ذَات قَرَارٍ وَمعين﴾(٣).

وخلق المسيح بلا أب من أعظم الآيات وكان بواسطة نفخ جبريل قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوْحَنَا فَتمثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً، قالتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمٰنِ منكَ إنْ كُنْتَ تَقيّاً، قَالَ أَنّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسني بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغيّاً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابنةَ عمرانَ التي أَحْصَنَت فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾(٥) وكذلك طمس أبصار قوم لوط كان بواسطة الملائكة، والذي عنده علم من الكتاب لما قال عفريت من الجن لسليمان: ﴿انَآ آتيكَ به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾(٦). أتته به الملائكة، كذلك ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره أن الملائكة أتته به أسرع مما كان يأتي به العفريت، وقد أخبر

(١) وردت في الأصل: والسحر والكهانة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢١.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

(٤) سورة مريم: الآية ١٧ــ ٢٠.

(٥) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٦) سورة النمل: الآيتان ٣٩، ٤٠.

الله تعالى أنه أيد محمد ﷺ بالملائكة وبالريح وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بصيرا﴾(1). وقال تعالى يوم حنين: ﴿فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لم تروها﴾(2).

وقال تعالى يوم الغار: ﴿فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُود لَمْ تَرَوْهَا﴾(3). وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبكَ إلى المَلآئكةِ أني مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كفروا الرّعْبَ﴾(4). وقد ثبت في الصحيح أن الإنسان يصوره ملك في الرحم بإذن الله ويقول الملك: أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا كان الخلق المعتاد يكون بتوسط الملائكة، وقال يقرر التوحيد بقوله تعالى: ﴿يَا أيهَا النَّاسُ اعبُدوا رَبّكُمْ﴾(5). الآيات، ثم النبوة بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيبٍ ممّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأتوا بسورةٍ﴾(6).

وكذلك الانعام يقرر التوحيد، ثم النبوة في وسطها ثم يختمها بأصول الشرائع والتوحيد أيضاً، وهو ملة إبراهيم، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود: أنه قد بين انفراده بالخلق والنفع والضر والإتيان بالآيات وغير ذلك، وإن ذلك لا يقدر عليه غيره قال تعالى: ﴿أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلَق﴾(7). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَآءَ الجن وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْم سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمّا يَصِفُونَ، بَدِيعُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم، ذَلِكُمْ الله رَبكُمْ لَا إِلَهَ إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيء فَاعبُدوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيل، لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَطِيفُ الخَبِيرُ، قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بحفيظ، وكذلك نصرف الآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لقوم يَعْلَمُونَ، اتّبِعْ مَا أوحيَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ لَآ إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ المُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَآءَ الله مَآ أشركوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بوَكِيل، وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونَ الله فَيَسبُّوا الله عَدواً بغيرِ عِلمٍ كَذَلِكَ زَيّنَا لِكُلِّ أمة عَملهُمْ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيةٌ ليؤمنن بها قُلْ إنّمَا الآياتُ عِنْدَ الله وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنّهَآ أذا جآءت لاَ يُؤْمِنُونَ، وَنُقَلِبُ أفئدتَهُمْ وَأبصارَهُمْ كما لم يؤْمِنُوا بِهِ أولَ مَرةٍ وَنَذَرهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون﴾(8).

(1) سورة الأحزاب: الآية ٩.
(2) سورة الفتح: الآية ٢٦.
(3) سورة التوبة: الآية ٤١.
(4) سورة الأنفال: الآية ١٢.
(5) سورة البقرة: الآية ٢١.
(6) سورة البقرة: الآية ٢٣.
(7) سورة النحل: الآية ١٧.
(8) سورة الأنعام: من الآية ١٠٠ إلى الآية ١١٠.

ففي هـذه الآيات تقرير التـوحيد حتى في إنـزال الآيات قـال: ﴿إنما الآيـاتُ عِنْدَ الله﴾. وكذلك قوله في العنكبـوت: ﴿وَقَالُـوا لَوْلاَ أنـزِلَ عَلَيْهِ آيـةٌ مِنْ رَبِّهِ قُـلْ إنَّمَآ أنَـا نَذِيـرٌمُبِينٌ أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنآ أنزلنا عَلَيْكَ الكِتَاب يُتْلَى عَلَيهم إنَّ في ذَلِكَ لَرَحمة وَذِكْـرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُـونَ، قُلْ كَفَى بـالله بيني وَبَيْنَكُمْ شَهيداً يَعْلَمُ مَـا في السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ، والَّـذِينَ آمَنُوا بـالبَاطِـلِ وَكَفَرُوا بـالله أولَـئِكَ هُمُ الخَاسِرون﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَـوْلآ أُنْزِلَ عَلَيْـه آية منْ رَبـهِ قُلْ إنَّ الله قَـادِرٌ عَلَى أن يُنَزِّلَ آيـةً وَلَكِن أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٢]. هذا بعد قوله: ﴿فـإنْ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِيِ نَفَقـاً في الأرْضِ أوْ سُلّمَاً في السَّمَآءِ فَتَأْتيهِمْ بِآيَة وَلَوْ شَآءَ الله لجَمَعَهُمْ عَلَى الهُـدَى فَلاَ تَكُـونَنَّ مِنَ الجَاهِلين﴾[٣]. وهـو أرسله بآيات بان بها الحَق، وقامت بها الحجة، وكانوا يطلبون آيات تعنتـاً فيظن من يـظن أنهم يهتدون بها، لكن لا يحصل بها المقصود، وقد تكون موجبة لعذاب الاستئصال فتكـون ضرراً بـلا نفـع، وبيّن سبحانه أنه قادر على إنزال الآيات، وأنها ليست ألا عنده، وغير أفعال العباد قد اتفق الناس على أنه لا يخلقه إلا الله، وإنما تنازعوا في أفعال العباد.

والصـواب أنها أفعـال لهم، وهي مخلوقة لله، لكن آيـات الأنبيآء لا تكـون مما يقـدر عليه العبد كما قـال: ﴿قُلْ إنّمَـا الآيَاتُ عِنْـدَ الله﴾[٤] والملائكـة إنما هي سبب من الاسبـاب كما في خلق المسيح من غير أب، فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيهـا، وهذا لا يـوجب الخلق بل هـو بمنزلة الإنزال في حق غير المسيح، وكذلك المسيح لما خلق من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين، وإنما حصـول الحياة فيـه فبإذن الله، فـإن الله يحيي ويميت، وهذا من خصـائصه ولهذا قال الخليل: ربي الذي يحيي ويميت، وفي القـرآن في غير مـواضـع: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّت وَيُخْرِجُ المَيْتَ مِنَ الحَيِ وَيُحيي الأرْضُ بَعْدَ موتهَا وكذلك تُخْرَجُونَ﴾[٥].

وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به، بل لهم فيه شركـة كطمس أبصـار اللوطية، وقلب مدينتهم، وكذلك النصر إنما يقدرون على القتال كالإنس والنصر هو من عند الله كما قال تعالى: ﴿ومَا جَعَلَهُ الله إلا بُشْـرى وَلِتَطْمَئِنَ بـهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْـرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ الله﴾[٦]. والقرآن إنما يقدرونَ على النزول بـه لا على احداثـه ابتداء فهم على الإتيـان بمثله من عند الله، وأمـا الجن والأنس فـلا يقـدرون على الإتيـان بمثله لأن الله لا يكلم بمثله الجن والإنس ابتـداء

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٥١، ٥٢.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.
(٥) سورة الروم: الآية ١٩.
(٦) سورة الأنفال: الآية ١٠.

ولهذا قال: ﴿لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾. وقال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلَهُ﴾. وقال: ﴿فليأتوا بحَدِيثٍ مثْله إنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾. لَمْ يكلفهم نفس الاحداث بل طالبهم بالإتيان بمثله إما إحداثاً وإما تبليغاً عن الله أو عن مخلوق، ليظهر عجزهم عن جميع الجهات، فقد يقال: فنفس أفعال العباد ليست من الآيات إذ كانت مقدورة ومفعولة للعبد، وإن كان ذلك باقدار الله تعالى ولا نفس القدرة على ذلك الفعل، فإن المقصود من القدرة هو الفعل بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد الملائكة والجن والأنس، وهي أيضاً لا تنال بالاكتساب فإن الأنس والجن قد يقدرون بأسباب مباينة لهم على أمور كما يقدرون على قتل من يقتلونه وامراضه ونحو ذلك، وإيات الأنبيآء لا يقدر أحد أن يتوصل إليها بسبب السحر والكهانة مما يمكن التوصل إليه بسبب كالذي يأتي بأقوال وأفعال تحدثه بها الجن.

فالنبوة لا تنال بكسب العبيد ولا آياتها تحصل بكسب العباد، وهذا من الفروق بين آيات الأنبيآء وبين السحر والكهانة، وبينهما فروق كثيرة أكثر من عشرة.

أحدهما: أن ما تخبر به الأنبيآء لا يكون إلا صادقاً وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور من المسلمين فإنه لا بد من الكذب.

الثاني: أن الأنبيآء لا تأمر إلا بالعدل، ولا تفعل إلا العدل وهؤلاء المخالفون لهم لا بد من الظلم فإن ما خالف العدل لا يكون إلا ظالماً فيدخلون في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبي الفَوَاحِشْ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطنَ والإِثْمَ والبغي بغيرِ الحقِّ وَأنْ تُشرِكُوا بالله مَا لم يُنَزِّلَ بِهِ سُلْطَاناً وَأنْ تقولُوا عَلى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(1).

الثالث: أن ما يأتي به من يخالفهم معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور، وآيات الأنبيآء هي معتادة إنها تدل على خبر الله وأمره على علمه فتدل على أنهم أنبيآء سواء كانوا بنبوة الأنبيآء، وكذلك اشراط الساعة هي أيضاً تدل على صدق الأنبياء إذ كانوا قد أخبروا بها فالذي جعله أولئك من كرامات الأولياء وأشراط الساعة ناقضاً لآيات الأنبياء إذ هو من جنسها، ولا يدل عليها، فأولئك كذبوا بالموجود، وهؤلاء سووا بين الآيات وغيرها، فلم تكن في الحقيقة عندهم آية وكانت الآيات عند أولئك منتقضة ، وأولئك نصروا جهلهم بالتكذيب بالحق، وهؤلاء نصروا جهلهم أيضاً بقول الباطل فقالوا: إن الآية هي المقرونة

---

(1) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

بالدعوى التي لا تعارض، وزعموا أنه لا يمكن معارضة السحر والكهانة إذا جعل آية، وأنه إذا لم يعارض كان آية وهو تكذيب بالحق أيضاً، فإنه قد ادعاه غير نبي ولم يعارض، فالطائفتان أدخلت في الآيات ما ليس منها، وأخرجت منها ما هو منها، فكرامات الأولياء وأشراط الساعة من آيات الأنبيآء وأخرجوها، والسحر والكهانة ليس من آياتهم وأدخلوها أو سووا بينها وبين الآيات بل ونوابها[1].

الرابع: إن آيات الأنبيآء والنبوة لو قدر أنها تنال بالاكتساب فهي إنما تنال بعبادة الله وطاعته فإنه لا يقول عاقل إن أحداً يصير نبياً بالكذب والظلم بل بالصدق والعدل، سواء قال: إن النبوة جزاء على العمل، أو قال إنه إذا زكى نفسه فاض عليه ما يفيض على الأنبيآء، فعلى القولين هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل، وحينئذ فيمتنع أن صاحبها يكذب على الله فإن ذلك يفسدها، بخلاف من خالف الأنبيآء من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل البدع والفجور من أهل الملل أهل الكتاب والمسلمين، فإن هؤلاء تحصل لهم الخوارق مع الكذب والاثم، بل خوراقهم مع ذلك أشد لأنهم يخالفون الأنبيآء، وما ناقض الصدق والعدل لم يكن إلا كذباً وظلماً.

فكل من خالف طريق الأنبيآء لا بد له من الكذب والظلم إما عمداً وإما جهلاً، وقوله تعالى: ﴿تنزل على كل افاك اثيم﴾ ليس من شرطه أن يتعمد الكذب بل من كان جاهلاً يتكلم بلا علم فيكذب، فإن الشياطين تنزل عليه أيضاً إذ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من غير اجتهاد يعذر به فهو كذاب، ولهذا يصف الله المشركين بالكذب وكثير منهم لا يتعمد ذلك، وكذلك قال النبي ﷺ لما أفتى أبو السنابل بأن المُتوفي عنها الحامِل لا تحِلُّ بوَضْعِ الحَمْلِ بَل تَعْتَدّ أبعد الأجلينَ فقال: كذب أبو السنابل، أي في قوله بأن المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين، وكذلك لما قال بعضهم: ابن الأكوع: حبط عمله، قال النبي ﷺ: «كذب من قالها إنه لجاهد مجاهد». ونظائره كثيرة، فالأنبيآء لا يقع في أخبارهم عن الله كذب لا عمداً ولا خطأ، وكل من خالفهم لا بد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة، فإن خبره إذا لم يكن مطابقاً لخيرهم كان مخالفاً له فيكون كذباً، فالذي تنزل عليه الشياطين إذا ظن واعتقد أنهم جاؤوا من عند الله وأخبر بذلك كان كاذباً، وكذلك إذا قال عما أوحوه اليه أن الله أوحاه اليه كان كاذباً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[2]. ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد وهو أول من ظهر في الإسلام بالكذب في

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله: بل قدموها.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢١.

هذا، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يكونُ في ثَقيف كَذّابٌ ومُبير» فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد، كـان يتشيع لعلي، ولهـذا يوجـد الكذب في الشيعـة أكثر ممـا يوجـود في جميع الطوائف، والمبير هو الحجاج بن يوسف وكان ظالماً معتدياً وكان يتشيع لعثمان، والمختار يتشيع لعلي، فذكر لابن عمر وابن عباس أمر المختار، وقيل لأحدهما: أنه يزعم أنـه يوحي اليـه فقال: صدق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ، وقيل للآخر: أنه يزعم أنه ينزل عليه فقـال: صدق: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم﴾.

الخامس: أن ما تأتي به السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهـل الملل لا يخرج عن كـونه مقـدوراً للانس والجن، وآيـات الأنبيـآء لا يقـدر على مثلهـا لا الأنس ولا الجن، كمـا قال تعالى: ﴿قُلْ لئنِ اجتمعَتْ الإنسْ والجِنْ على أن يَأتوا بمثْلِ هذا القرآن لا يأْتون بمِثلِهِ ولَـوْ كانَ بعضُهُم لِبَعْضٍ ظِهيرا﴾(١).

السادس: أن ما يأتي به السحرة والكهان وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هـو الواقـع لمن عرف هـذا الباب. وآيـات الأنبيآء لا يمكن أحـداً أن يعارضهـا لا بمثلها ولا بأقوى منها، وكذلك كرامـات الصالحين لا تعـارض لا بمثلها ولا بـأقوى منهـا، بل قـد يكون بعض آيات أكبر من بعض، وكذلك آيات الصالحين لكنها متصادقة متعاونة على مطلوب واحـد، وهو عبادة الله وتصديق رسله فهي آيات ودلائـل وبراهين متعـاضدة على مـطلوب واحد، والأدلـة بعضها أدل وأقوى من بعض.

ولهذا كان المشـايخ الـذين يتحاسـدون ويتعادون ويقهـر بعضهم بعضاً بخـوارقه إمـا بقتل وأمراض وإما بسلب حاله وعزله عن مـرتبته وإمـا غير ذلـك، خوارقهم شيـطانية ليست من آيـات الأنبيـآء والأولياء، وكثيـر من هؤلاء يكون في البـاطن كافـراً منافقـاً، وكثير منهم يمـوت على غير الإسلام، وكثير منهم يكون مسلماً مـع ظلم يعرف أنـه ظلم، ومنهم من يكون جـاهلاً يحسب أن ما هو عليه مما أمر الله به ورسوله، وهذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك من قهر بعضهم لبعض، فهذا خارج عن سنة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين.

السابع: أن آيات الأنبيآء هي الخارقة للعادات الإنس والجن، بخلاف خـوارق مخاليفهم، فإن كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبيآء،وآيات الأنبيآء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله، ويصـدقون من صـدق على الله، وهم الذين جـاءوا بالصـدق وصدقـوا، وتلك معتـادة لمن يفتري الكذب على الله، أو يكذب بالحق لما جاءه، فتلك آيـات على الكذب أصحـابها وآيـات

---

(١) سورة الاسراء: الآية ٨٨.

الأنبيآء آيات على صدق أصحابها، فإن الله سبحانه لا يخلي الصادق مما يدل على كذبه إذ من نعته ما أخبر به في قوله: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يَشأ الله يختمْ على قلبِكَ﴾[1] ثم قال خبراً مبتدياً﴿وَيمحو الله الباطِلَ ويُحِقُّ الحَقَّ بكلِماتِهِ﴾[2] فهو سبحانه لا بد أن يمحق الباطل ويحق الحق بكلماته، وقال تعالى: ﴿وما خَلَقْنَا السّمـآء والأرضَ وما بينَهُما لاعِبينَ لَوْ أرَدْنـآ أن نَتّخِذَ لَهواً لاتّخذْناهُ مِن لَدُنّا إنْ كُنّا فاعِلينَ، بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ على الباطلِ فيدمغُه فإذا هو زاهِقٌ ولكُم الوَيلُ ممّا تَصِفونَ﴾[3].

كما أخبر في موضع أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا سدى، وإنما خلقهم بالحق وللحق، فلا بد أن يجزي هؤلاء وهؤلاء بإظهار صدق هؤلاء وإظهار كذب هؤلاء كما قال: ﴿بلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ على الباطِلِ فيدْمَغُه فإذا هُوَ زاهِق﴾[4].

الثامن: أن هذه لا يقدر عليها مخلوق، فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجن، وللانس، وإن كانت الملائكة قد يكون لهم فيها سبب بخلاف تلك، فإنها إما مقدور للأنس أو للجن، أو مما يمكنهم التوصل اليها بسبب، وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبيآء كما تقدم، ولكن ليست من آياتهم الكبرى ولا يتوقف إثبات النبوة عليها وليست خارقة لعادة الصالحين، بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل في أهل الكتاب والمسلمين وآيات الأنبيآء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين.

التاسع: إن خوارق غير الأنبيآء الصالحين والسحرة والكهان وأهل الشرك والبدع تنال بأفعالهم كعبادتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك، وأما آيات الأنبيآء فلا تحصل بشيء من ذلك، بل الله يفعلها آية وعلامة لهم وقد يكرمهم بمثل كرامات الصالحين، وأعظم كم ذلك مما يقصد به إكرامهم لكن هذا النوع يقصد به الإكرام، والدلالة بخلاف الآيات المجردة كانشقاق القمر وقلب العصا حية وإخراج يده بيضاء والإتيان بالقرآن والأخبار بالغيب الذي يختص الله به، فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق والله بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته، كما ينزل من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات بخلاف ما حصل باختيار العبد إما لكونه يفعل ما يوجبه أو يدعوا الله به فيجيبه، فالخوارق التي ليست آيات تارة تكون بدعاء العبد، والله تعالى يجيب دعوة المضطر وإن كان كافراً، لكن للمؤمنين من

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأنبياء: من الآية ١٦ ـ ١٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

إجابة الدعاء ما ليس لغيرهم، وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه نفسه وأعوانه وبمن يطيعه من الجن والإنس في حصولها، وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك.

العاشر: أن النبي من قبله أنبيآء بعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبيآء من عبادة الله وحده والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل، فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبيآء، وأما السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبيآء، فكلهم يشركون مع تنوعهم ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبيآء، والأنبيآء كلهم منزهون عن الشرك وعن التكذيب بشيء من الحق الذي بعث الله به نبياً قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أرسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنآ أَجَعَلْنا مِن دُونِ الرَّحمٰنِ آلهةً يُعْبدونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَمآ أرسَلْنا من قبلك مِن رسولٍ إلاّ نُوحي إليه أنّه لآ إلَـهَ إلاّ أنا فاعبُدونِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ولَقَد بَعَثْنا في كُلِّ أمّةٍ رسولاً أنْ اعبُدوا الله واجتنبُوا الطاغوتَ فمنهم مَن هَدى الله ومنهُم من حَقّتْ عليهِ الضَّلالَةُ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرّسولُ بمآ أنزلَ إليهِ مِن ربِّهِ والمؤمنونَ كُلٌّ آمَنَ بالله وملآئكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِه لا نُفرقُ بينَ أحدٍ مِن رُسُلِه﴾(٤) وقال تعالى: ﴿قولوآ آمَنّا بالله ومآ أنزلَ إلينا ومآ أنـزلَ إلى ابراهيمَ واسماعيلَ واسْحَقَ ويَعْقُوبَ والأسْباطَ ومآ أوتي مُوسى وعيسى ومآ أوتي النَّبيونَ مِن ربّهِم لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهُم ونحنُ لهُ مُسْلِمونَ، فإن آمنوا بمثْلِ مآ آمنْتُمْ بهِ فقدْ اهتَدُوا وإنْ تَوَلوا فإنّما هم في شقاقٍ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ولَكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بالله واليومِ الآخرِ والملآئكةِ والكِتابِ والنَّبيينَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ يَكْفُرونَ بالله ورُسُلهِ ويُريدونَ أن يُفرّقوا بينَ الله ورُسُلِهِ ويقولونَ نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكْفُرُ ببَعضٍ ويُريدون أن يتَخِذوا بينِ ذلكَ سبيلاً أولئِكَ هُم الكافرونَ حَقاً﴾(٧) وقال تعالى: ﴿وإذْ أخذَ الله ميثاقَ النَّبيينَ لمآ أتيْتُكُم مِن كتابٍ وحِكْمَةٍ ثمَّ جآءَكُم رسولٌ مُصَدِقٌ لِما معَكُم لَتؤمِننّ بهِ ولِتَنْصِرنَّـهُ قالَ أأقْـرَرْتُم وأخذتُم على ذَلِكُم إصْري قالـوٓ أقْرَرْنـا قالَ فاشْهَدوا وأنـا معَكُم مِنَ الشّاهـدِينَ﴾(٨) وقال تعـالى: ﴿شَرَعَ لكُم مِنَ الـدِّينِ ما وصَّى بـه نوحـاً والّذي أوْحَيْنآ إليكَ وما وَصَّيْنـا بهِ إبـراهيمَ ومُوسى وعيسىٓ أنْ أقِيموا الدِّين ولا تتفَـرّقوا فيـه كَبُرَ على المُشْرِكينَ ما تَدْعوهُم إليهِ الله يجتبى مَن يَشآءُ ويَهدي إلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٩).

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٥.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.
(٣) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٧) سورة النساء: الآية ١٤٩.
(٨) سورة آل عمران: الآية ٨١.
(٩) سورة الشورى: الآية ١٣.

وقال تعالى: ﴿يـا أيُّها الـرُّسُل كُلوا مِن الـطَّيباتِ واعمَلوا صـالِحاً إني بمـا تعْمَلونَ عَليمٌ، وأنّ هذهِ أمّتكُم أمةً واحدةً وأنا ربُكُم فاتّقونَ﴾ ثم قال: ﴿فتقَطّعوا أمرَهُم بينهُم زُبـراً كُلُّ حِـزْبٍ بمـا لدَيهِم فَـرِحونَ﴾[1] وقـال تعالى لمـا ذكر الأنبيـآء: ﴿إنَّ هذهِ أمّتُكُم أمّـةً واحـدةً وأنـا ربكُم فـاعبدون، وتقـطعوا أمـرهم بينهم كل إلينـا راجعون، فمن يَعمَـل مِن الصالحـاتِ وهـوَ مؤمِنٌ فلا كُفْرانَ لِسَعيهِ وإنّا لـهُ كاتبُـونَ﴾[2] وقال تعـالى: ﴿وقالـوا لَن يَدخُـلَ الجنةَ إلاَّ مِن كـانَ هُوداً أو نَصارَى تِلكَ أمانيّهم قُلْ هاتوا بُرْهانَكُم إن كُنتمْ صادقينَ، بَلى مَن أسْلَمَ وجْهَـهُ لله وهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجره عندَ ربِّهِ ولا خَوفَ عليهِم ولا هُم يحزَنونَ﴾[3]. فالأنبيآء يصـدق متأخـرهم، متقدمهم، ويبشر متقدمهم بمتأخرهم، كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد، وكما صدق محمـد جميع النبيين قبله، ولهذا يقول: ﴿يا أيها الّذينَ أوتوا الكتـابَ آمِنوا بمـا نَزّلنـا مُصَدِّقـاً لما مَعَكُم من قبـلِ أن نطْمِسَ وُجوهاً فنرُدُها على أدْبارِهآ أو نلعنَهُم كما لعَنّآ أصحابَ السَّبْتِ﴾[4] وقـال: ﴿نَزَّلَ عليـكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بَينَ يديهِ وأنزلَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلُ هُدَى لِلنـاسِ وأنزَلَ الفُـرْقانَ إنَّ الّذينَ كفَروا بآياتِ الله لهم عذابٌ شديدٌ﴾[5] وقال: ﴿وأنزلنآ إليكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقـاً لِما بَينَ يـديهِ منَ الكتـابِ ومُهيمناً عليـهِ﴾[6]. والأنبيآء وأتبـاعهم كلهم مؤمنون مسلمـون يعبدون الله وحده بما أمر، ويصدقون بجميع مـا جاءت بـه الأنبيآء ومن خـالفهم لا يكون إلا مشـركاً ومكـذباً ببعض ما أنزل الله وبين الطائفتين فروق كثيرة غير خوارق العادات.

الحـادي عشر: أن النبي هـو وسائـر المؤمنين لا يخبرون إلا بحق ولا يـأمـرون إلا بعـدل، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعـاد لا يأمـرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبـديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقـول الذي تتلقـاه القلوب السليمة بـالقبول، فكمـا أنهم هم لا يختلفون فـلا ينـاقض بعضهم بعضـاً، بـل دينهم وملتهم واحـد، وإن تنـوعت الشرائع، فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التي فطرها الله عليها عباده، موافقـون للأدلـة العقلية لا يناقضونها قط، بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبيآء لا تخالفهم، وآيات الله السمعيـة والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة لا ينـاقض بعضها بعضـاً كما قـد بسط هذا في غير هذا الموضع، والذين يخالفون الأنبيآء من أهل الكفر وأهل البدع كالسحـرة والكهان وسائر أنواع الكفار وكالمبتدعين من أهل الملل أهل العلم وأهل العبادة، فهؤلاء مخالفون لـلأدلة

---

(1) سورة المؤمنون: الآية ٥٤.
(2) سورة الأنبياء: الآية ٩٣.
(3) سورة البقرة: الآية ١١١.
(4) سورة النساء: الآية ٤٧.
(5) سورة آل عمران: الآية ٣.
(6) سورة المائدة: الآية ٤٨.

السمعية والعقلية للسماعية والعيانية مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿كلمآ ألقِي فيها فِوْجٌ سألهُمْ خزنتُهآ ألمْ يأتِكُمْ نذِيرٌ﴾(١) الآية. فهؤلاء يخالفون الأنبيآء، إما بالتكذيب وإما بالتحريف من التأويل، وإما بالإعراض عنها وكتمانها، فإما أن لا يذكروها أو يذكروا ألفاظها ويقولون ليس لها معنى يعرفه مخلوق، كما أخبر الله عن أهل الكتاب أن منهم من يكذب في اللفظ، ومنهم من يحرف الكلم في المعنى، ومنهم جهال لا يفقهون ما يقرأون قال تعالى: ﴿أفتطْمعونَ أن يُؤمِنوا لكُم﴾(٢) إلى قوله: ﴿فويلٌ لهُم ممّا كتَبَتْ أيديهِم وويلٌ لهُم ممّا يكسِبونَ﴾(٣)، وكذلك هم مخالفون للأدلة العقلية فالأنبيآء كملوا الفطرة وبصروا الخلق كما تقدم في صفة محمد ﷺ أن الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، ومخالفوهم يفسدون الحس والعقل كما أفسدوا الأدلة السمعية، والحس والعقل بهما تعرف الأدلة، والطرق ثلاثة: الحس، والعقل، والخبر، فمخالفوا الأنبيآء أفسدوا هذا وهذا وهذا، أما افسادهم لما جاء عن الأنبيآء فظاهر، واما إفسادهم للحس والعقل فإنهم قسمان: قسم أصحاب خوارق حسية كالسحرة والكهان وضلال العباد، وقسم أصحاب كلام واستدلال بالقياس والمعقول، وكل منهما يفسد الحس والعقل.

أما أصحاب الحال الشيطاني فقد عرف أن السحر يغير الحس والعقل حتى يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو، وكذلك سائر الخوارق الشيطانية لا تأتي إلا مع نوع فساد في الحس أو العقل كالمؤلهين الذين لا تأتيهم إلا مع زوال عقولهم وآخرين لا تأتيهم إلا في الظلام، وآخرين تتمثل لهم الجن في صورة الإنس فيظنون أنهم إنس، أو يرونهم مقال الشيء فيظنون أن الذي رأوه هو الشيء نفسه أو يسمعونهم صوتاً يشبه صوت من يعرفونه فيظنون أنه صوت ذلك المعروف عندهم، وهذا كثير موجود في أهل العبادات البدعية التي فيها نوع من الشرك ومخالفة للشريعة، وأما أصحاب الكلام والمقال البهتاني فإنهم بنوا أصولهم العقلية وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحس والعقل فأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والأعراض مبني على مخالفة الحس والعقل، فإنهم يقولون إنا لا نشهد بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الأعيان القائمة بنفسها، بل كل ما نشهد حدوثه، بل كل ما حدث من قبل أن يخلق آدم إنما تحدث أعراض في الجواهر التي هي باقية لا تستحيل قط، بل تجتمع وتتفرق، والخلق عندهم الموجود في زماننا وقبل زماننا إنما هو جمع وتفريق لا ابتداع عين جوهر قائم بنفسه، ولا خلق لشيء قائم

---

(١) سورة الملك: الآية ٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٧٩.

بنفسه لا إنسان ولا غيره، وإنما يخلق أعراضاً ويقولون إن كل ما نشاهده من الأعيان فإنهـا مركبـة من جواهر منها لا يتميز يمينه عن شماله، وهذا مخالفة للحس والعقل كالأول، ويقـول كثير منهم أن الأعـراض لا تبقى زمانين، ويقـولـون إنـه لا ينفى ويعـدم في زمـاننـا شيء من الأعيـان، بـل كما لا يحدث شيء من الأعيان لا يفنى شيء من الأعيان، فهـذا أصل علمهم ودينهم ومعقـولهم الذي ينوا عليه حدوث العالم، وإثبات الصانع وهـو مخالف للحس والعقـل ويقول الـذين يثبتون الجوهر الفرد إن الفلك والرجاء وغيرهما يتفكك كلما استدار، ويقول كثير منهم أن كل شيء فإنه يمكن رؤيتـه وسمعه ولمسـه إلى غير ذلـك من الأمـور التي جعلوهـا أصـول علمهم ودينهم وهي مكـابرة للحس والعقـل، والمتفلسفة أضـل من هؤلاء، فـإنهم يجعلون مـا في الـذهن ثـابتـاً في الخارج، فيدعـون أن ما يتصـوره العقل من المعـاني الغائبـة الكلية مـوجودة في الجـواهر قـائمة بأنفسها إما مجردة عن الأعيان وإما مقترنة بها، وكذلـك العدد والمقـدار والخلاء والـدهر والمـادة يـدعون وجـود ذلك في الخـارج، وكذلـك ما يثبتـونـه من العقـول، والعلة الأولى الـذي يسميـه متأخروهم واجب الوجود، وعامة ما يثبتونه من العقليات إنما يوجد في الذهن، فالذي لا ريب في وجوده نفس الإنسان وما يقوم بها، ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات مـوجوداً في الخـارج، فكان إفسادهم للعقل أعظم، كما أن إفساد المتكلمين للحس أعظم مـع أن هؤلاء المتفلسفة عمـدتهم هي العلوم العقلية، والعقليات عنـدهم أصح من الحسيـات، وأولئك المتكلمـون أصول علمهم هي الحسيات، ثم يستدلون بها على العقليات وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا التنبيه على أن من خالف الأنبيآء فإنه كما أنه مكذب لمـا جاءوا بـه من النبوة والسمـع، فهـو مخالف للحس والعقـل، فقد فسـد عليه الأدلـة العقلية والنقليـة، والله سبحـانـه وتعالى أعلم.

تم والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

● ● ●

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٨٧ - ٨٣٧٧٤١ - ٤٦٠٧٤٣